بسم الله الرحمن الرحيم

الاختلاف وموقفنا منه

(١) لماذا نتحدث عن الاختلاف؟ ومن المَعْنِيُّ بهذا الحديث؟ والنصوص الواردة في الأمر بالاجتماع والنهي عن الاختلاف

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته، ومرحبًا بكم جميعًا أيها الإخوة والأخوات، وأسأل الله -تبارك وتعالى- أن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته.

في البداية أقول: لا جديد فيما يتعلق بموقفي من التصوير، ولكن كما كنت أذكر بعدد من المناسبات أن تعليم الناس، والخروج في هذه الفضائيات من فروض الكفايات، فيُرتكب أخف الضررين لدفع أعلاهما، وأما توسع الناس بهذا التصوير فهذا من المنكر، والذي ينبغي أن يراجع الإنسان فيه نفسه.

الإخوان أكثروا عليّ في هذا، وما زلت أستخير إلى ما بعد صلاة العصر من هذا اليوم.

حديثنا في هذه الليالي عن الاختلاف وموقفِنا منه، وسيجيب هذا الحديث -إن شاء الله- عن تساؤلات متعددة:

فأول ذلك: لماذا نطرح هذا الموضوع؟

والثاني: من المخاطَب بذلك؟

ثم نتحدث عما ورد من النصوص بالأمر بالاجتماع والنهي عن التفرق والاختلاف.

ثم بعد ذلك يَرِد الكلام على السؤال الآخر: هل حققت الأمة ذلك وامتثلت فجانبت الاختلاف واجتمعت على الحق؟.

ثم بعد ذلك يأتي الكلام على نتيجة ما يُذكر في الجواب عن هذا السؤال بعد أن نستعرض التاريخ، ونرى ما آلت إليه أحوال الأمة، فيكون الكلام بعد ذلك عن العلة والسبب، أو الأسباب التي أدت إلى التفرّق والاختلاف.

ثم بعد ذلك يأتي الكلام على سؤال آخر مع جوابه، وهو عن كيفية التعامل مع الاختلاف، كيف نتعامل معه؟

ثم بعد ذلك يأتي الكلام على سؤال آخر وجوابه، وهو الطريق إلى الاجتماع، ما الطريق؟ ما السبيل إلى ذلك؟

هذه مجامع هذه القضايا التي نتحدث عنها في هذه الليالي، وسأذكر في مضامين هذا الحديث - إن شاء الله - أشياء من كلام أهل العلم، وأشياء أخرى من التاريخ فيها من العبر والعظات ما الله به عليم.

نبدأ أولاً في السؤال الذي أشرت إليه آنفًا.

لماذا نتحدث عن الاختلاف؟

نتحدث عن الاختلاف لما وصلنا إليه، وصارت حالنا عليه مما يعرفه العدو والصديق من كثرة التفرق، والانقسام والتشرذم والاختلاف، والتنازع والتناحر على جميع المستويات.

تجد ذلك في المنتسبين إلى العلم على قدم وساق، وتجد ذلك في المنتسبين إلى الدعوة إلى الله –تبارك وتعالى–، وتجد ذلك في المشتغلين بالجهاد، وتجد ذلك في طوائف الأمة على اختلاف اهتماماتهم، وأعمالهم وأحوالهم، إلا من رحم الله –تبارك وتعالى.

هذا بالإضافة إلى أمر آخر، وهو هذا الإعلام بأنواعه، لاسيما الإعلام الجديد، الأمر الذي أدى إلى زيادة التنازع والشر، وكثرة الاختلاف والتفرق والتشرذم، وذلك من جهتين:

الأولى: أن ذلك صار بيد كل أحد، قديمًا أو قبل سنين كان لا يستطيع الأكثرون أن يعتلوا المنابر، ولا أن يخرج منهم الواحد في قناة فضائية؛ لأنه لا يجد ما يؤهله لهذا التصدّر، فيبقى منطويًا على نفسه، أو متحدثًا بين زملائه، وماذا عسى أن يبلُغ هذا الحديث؟!.

وأما اليوم فقد وُجد منبرُ من لا منبرَ له، فصارت هذه الآلات والوسائط والوسائل بيد الصغار، حيث يتمهّرون بها أكثر من الكبار.

وصار كل أحد لا يمنعه من الكلام الذي يلقيه، ويسجله بصورته وصوته، أو الكلام الذي يكتبه لا يمنعه سوى نفسِه، لا يحجبه ولا يحجزه عن ذلك أحد، كل أحد صار يكتب ما شاء، ويقول ما شاء، يتفوّه بما شاء، يريد أن يُبدي رأيًا في كل قضية تقع، وأن يُنظِّر، وإذا تكلّم كل أحد وبهذه الطريقة من غير شرط ولا قيد، لا بقيد علمٍ، ولا بقيد ورع، ولا بقيد عقلٍ، ولا بقيد حكمة يراعي فيها المصالح والمفاسد، ولا بقيد نيةٍ وقصدٍ صالح.

ولربما كان الدافع لدى بعضِنا أن يُثبتَ الواحد حضورًا، وأن يُسجل هذا الحضور بتعليق هشٍّ ركيك يُنبئ عن ضحالة في التفكير، وضحالة في العلم، وضحالة في الرأي، وضحالة في الثقافة، وضحالة في معرفة الواقع .

المهم أن نكتب، المهم أن نتحدث، المهم أن نُبدي رأيًا في كل واقعة تقع.

المشكلة الأخرى: أن ذلك صار يبلغ الآفاق، وبمجرد ما يكتب، ثم يُرسله بعد ذلك يقرؤه مَن بأقطارها، والمشكلة الأخرى أيضًا أن العدو والصديق العاقل، وغير العاقل كل هؤلاء يكتبون تحت أسماء حقيقية، أو أسماء مستعارة، أو يُخفي الاسم الذي يكتب تحته بالكلية فلا يُدرَى هل هذا من أهل الإسلام؟ هل هذا الذي يكتب من أهل السنة؟ هل هذا من أعداء المسلمين؟

لقد صرنا إلى حال لا نميّز معها بين المعتوه والمدسوس، لا نميز، لا ندري هذه الكتابة كتبها عدو مندس من أعداء الإسلام يريد الإفساد والإيقاع بين المسلمين، أو أن الذي كتبها رجلٌ من المسلمين، لكنه لم يسعفه عقله، ولا رأيه، ولا دينه وورعه وتقواه، فجاءت كتابته مدمرةً مفسدة.

وهذا أمر نشاهده جميعًا، فصار ذلك سببًا إلى مزيد من التفرق والانقسام والتشرذم، والاختلاف حتى صرنا إلى الحال التي نعرفها جميعًا، ولا تحتاج إلى مزيد من التوصيف.

ومن ثَمّ يأتي الكلام على السؤال الآخر وهو:

من المَعْنِيّ بهذا الحديث؟

في هذا الحديث لا أخاطب شخصًا بعينه، ولا أعني به طائفة بعينها، وإنما المقصود به أولاً، وقد أحضرتُ هذا ليالي وأيامًا في نفسي أن أول من يُقصد بهذا الحديث هو نفسي، أن أعظ به نفسي، وأن أذكّر بذلك نفسي،

وأستحضر الوقوف بين يدي الله –عز وجل– فيما أقول أن الله سيحاسب الإنسان على ما يقول، ويعرض عمله على قوله.

وكلنا سنحاسب بهذه الطريقة، الخطب، والكلام كثير، والكتابات كثيرة جدًّا، لكن هذه نصيحة أنصح بها نفسي، وأنصح بها من شاء الله أن ينتفع بها، وأن تَبلُغه، لعل ذلك يكون سببًا للمراجعة والمحاسبة، وأن نفكر مليًّا في حالنا، وأعمالنا وأقوالنا وكتاباتنا، وما صرنا إليه، أن نراجع مواقفنا، فكل واحد منا مَعنيٌّ بذلك، ومخاطَب به.

فلا يصح بحالٍ من الأحوال أن يتوجه الذهن إلى قومٍ آخرين، يُفرَّق عليهم أجزاء هذا الحديث، فيقال: هذه الجُمل يُقصد بها الطائفة الفلانية، وهذه الجمل يُقصد بها فلان، وهذه الجمل يُقصد بها فلان، ليس هذا هو المراد، وإنما هذا الحديث متوجه إلى كل واحد منا بعينه، وأول ذلك أنه متوجه إلى المتحدِّث به، فهي نصيحة مشفق، نصيحة محب، ليس هذا بكلام متحامل، ولا حانق، ولا شامت، وإنما هو كلام محب مشفق، يحب الخير لإخوانه المسلمين جميعًا، وينصح لهم بما ينصح به لنفسه، ولا يزكي نفسه بحال من الأحوال.

كلنا نخطئ، وتقع منا الزلّة والعثرة، ولكن العاقل المُسدّد هو الذي يراجع نفسه دائمًا، يراجع مواقفه حتى يلقى الله –عز وجل– على حالٍ مرضيّة.

هي نفس واحدة، كما قال بعض السلف، فإذا ذهبت فلا سبيل إلى الاستدراك، والرجوع بنفس أخرى.

ولا يصح بحال من الأحوال أن يجعل الإنسان نفسه بمنأى عن هذا كله، وأن يُنزّه نفسه، ويرى البلاء والخطأ والانحراف في غيره.

بهذه الطريقة لا يمكن أن يصل الإنسان إلى حق، ولا أن يصحح الخطأ والزلل، كلنا يقصر، وكلنا يخطئ، وكلنا يذنب، وكلنا يقع منه ما يقع في قلبه أو في لسانه، أو في جوارحه، ولكن نسأل الله –تبارك وتعالى– أن يحفظنا وإياكم بالسنة والاعتصام بها، وأن يميتنا على ذلك، وأن يعيذنا ويجنبنا مُضلات الفتن.

الشياطين تتخطف الناس منذ القدم، ولكن في هذا العصر صار التخطّف أعظم وأكبر، وصار الشر والفتنة أقرب إلى الواحد منّا من اليد للفم.

فتن الشهوات، ويكفي في ذلك هذه الأجهزة التي يصل بها إلى أنواع الشرور في الدنيا، في باب الشهوات، بعد أن كان ذلك يتعذّر على من طلبه، وأراده قبل سنين قريبة.

وكذلك فتن الشبهات، يستطيع الواحد وهو في بيته أن يقرأ في مذاهب الأرض، من الكفار بطوائفهم من المشركين، ومذاهب أهل الكتاب والملاحدة، ويقرأ في مذاهب أهل البدع والأهواء بأنواعهم، وأن يلج في كل مدوّنة وموقع يُلبِّس ويُشكّك، ويثير الشبهات.

فالشياطين كُثر، وأبواب جهنم مُشرَعة، وعلى كل باب شيطان يدعو إليه، فمن له ميل إلى العلم والثقافة يجد من الشياطين من يقول : إليَّ، إليَّ.

ومن يكون في طبعه نوع غلظةٍ وشدة يجد من الشياطين من يقول: إليَّ، إليَّ، ومن يكون في طبعه شيء من اللين يجد من الشياطين من يوافق ذلك، ويجذبه إلى بابٍ من أبواب جهنم، من يميل إلى الشهوات بأي نوعٍ منها فهناك أبواب وشياطين قد تخصصوا في هذه الأبواب.

المقصود أن هذا الاختلاف الذي تعاني منه الأمة منذ القِدم قد استفحل.

لا يخفى على أحدٍ منكم أن الاختلاف منه ما يكون من قبيل اختلاف التنوع، ومنه ما يكون من قبيل اختلاف التضاد.

وهذه جملة لا تحتاج إلى شرح، ولكن للأسف الشديد أصبحنا نختلف الاختلاف المذموم الذي يحصل معه التدابر والتقاطع والتهاجر والعداوة والبغضاء، في أمور هي من قبيل اختلاف التنوع والتي لا يجوز الافتراق عليها.

هذا فُتِح له أبواب من الخير والعمل الصالح، وهذا فُتِح له أبواب من الخير والعمل الصالح بعد الفرائض، فهو يُعنَى بها.

هذا يُعنى بالدعوة إلى الله، وهذا يُعنَى بالجهاد في سبيل الله، وهذا يُعنَى بالعلم، فهذا كله من قبيل اختلاف التنوع، الاختلاف في العمل المشروع، ولكن للأسف الشديد حتى هذا النوع صرنا فيه إلى حالٍ يحصل بسببها التنازع المذموم.

اختلاف التنوع مثل: صيغ العبادات المشروعة، أنواع القراءات الصحيحة الثابتة، فهذا لا إشكال فيه، كله حق، أنواع الأذكار المشروعة.

فإذا تحول هذا إلى نوع من الاختلاف المذموم، فماذا عسى أن تصير إليه الحال في اختلاف التضاد؟ اختلاف التضاد الذي يوجد فيه الراجح والمرجوح، الصواب والخطأ.

واختلاف التضاد هذا في أصله –كما هو معلوم– منه ما لا يوجب العداوة والبغضاء؛ لأن له من المسوغات والأسباب ما يبرره، وقد كتب فيه العلماء.

ومن أبرز هذه الكتب ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– في كتابه: "رفع الملام عن الأئمة الأعلام"، ذكر أسباب اختلاف العلماء، لماذا يختلفون.

والصحابة –رضي الله تعالى عنهم– اختلفوا، ولم يوجب ذلك بينهم العداوة والبغضاء، ولكن هذا الاختلاف إذا اختلط مع الأهواء فإنه يتحول إلى شيء آخر، يتحول إلى اختلاف مذموم يحصل بسببه التدابر الذي نهانا الله –عز وجل– عنه، التقاطع، تغيّر القلوب، تحصل معه العصبيات، والحمية الجاهلية، وهذا أمر مشاهد للأسف على نطاق واسع بين طوائف الأمة.

تحصل العداوات بسبب اختلافٍ في الاجتهادات، اجتهادات لا توجب التفرّق والاختلاف، ثم بعد ذلك تتحول إلى نزاعٍ لا يرضاه الله –عز وجل– ولا يرضاه رسوله –صلى الله عليه وآله وسلم.

أما الاختلاف غير السائغ في أصله، وهو اختلاف أهل الأهواء فهذا باب واسع، الذي يُبنى على أصول منحرفة، على قواعد غير صحيحة، تُحاكم إليها النصوص من الكتاب والسنة، الذي يُبنى على غير أصل، الذي لا يكون قائله منطلقًا من قاعدةٍ صحيحة في العلم والفهم والنظر والاستدلال.

هذا خلاف أهل البدع والأهواء، وهو الخلاف الذي لا يُعتدّ به، بهذا انحرفت الطوائف منذ وقتٍ طويل، هذا الذي أوجب الاختلاف الحقيقي بين طوائف الأمة.

لكننا في هذا العصر أصبحنا نختلف على الاجتهادات، أصبحت الطائفة الواحدة تتقسم على نفسها، وتتشرذم على أمور اجتهادية، سواء كان ذلك في مسائل العلم، أو في قضايا العمل والتطبيق، أو تحقيق المناط، أو كان

ذلك في أمور أخرى كالكلام في توثيق زيدٍ أو عمرو، أو تجريحه، نختلف في قضايا مثل هذه، كان ينبغي أن يكون الاجتهاد في مثل هذه القضايا سائغًا، وهذا له رأيه وهذا له رأيه، وهذا له نظره وهذا له نظره، ثم ماذا؟ تحولت الحال إلى شيء آخر.

نريد من الآخرين أن يوافقونا على كل شيء، وإذا وافقتَ هذا لم توافق هذا، وسيأتيكم في التاريخ عجائب وغرائب.

وللأسف، نحن كثيرًا ما نترك الاعتبار بالتاريخ والنظر فيما مضى وكان، فإن ذلك يتكرر في واقعنا حتى إنه لربما يشبهه تمامًا ولم يبقَ إلا الأسماء.

الأسماء فقط تتغير، وسأورد لكم في مضامين هذا الحديث من العجائب، والغرائب ما يعجب منه العاقل كيف يوجد بين البشر فضلاً عن أهل الإيمان؟!، ستجد في التاريخ أشياء، ستجد أقوامًا كأنهم خُلقوا للاختلاف، وستجد من الأفكار والآراء والانحرافات والضلالات ما لا يمكن أن يُتابَع عليه صاحبه، إلا أن ذلك يُذكِّر بأن لكل ناعقٍ تبعًا، وتجد مصداق ذلك فعلاً في هذا التاريخ الطويل.

ننتقل بعد ذلك إلى الكلام على:

النصوص الواردة في الأمر بالاجتماع والنهي عن الاختلاف:

وهي نصوص كثيرة، فالشارع تارة يذكرنا بنعمة الله -عز وجل- علينا بالاجتماع **{وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً}** [آل عمران: ١٠٣].

تذكير بهذه النعمة من أجل أن تُحفظ، من أجل أن نُحافظ عليها؛ لأنه إذا حصلت العداوة بين الناس والشر تفرّقت القلوب، وتلاشت القوى، واشتغل الناس ببعضهم، إلى غير ذلك من الآثار التي سنذكرها بعد ذلك.

وتارةً يأمرنا بالاجتماع، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((عليكم بالجماعة))** [١] يعني: الزموا الجماعة، وقال: **((فإن يد الله على الجماعة))** [٢].

بمعنى أن الناس إذا تفرّقوا وتشرذموا فإن يد الله لا تكون معهم، وفي الحديث الآخر: **((فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد))** [٣].

وفي الحديث: **((فإنه من فارق الجماعة قيد شبرٍ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه))** [٤] قيد شبر! ، فكيف بالذي يخالف ويفارق أميالاً وفراسخ؟!.

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب الفتن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في لزوم الجماعة (٤/٤٦٥)، رقم: (٢١٦٥)، والنسائي، كتاب الإمامة، التشديد في ترك الجماعة (٢/١٠٦)، رقم: (٨٤٧).

(٢) أخرجه النسائي، كتاب تحريم الدم، قتل من فارق الجماعة، وذكر الاختلاف على زياد بن عِلاقة عن عرفجة فيه (٧/٩٢)، رقم: (٤٠٢٠).

(٣) أخرجه الترمذي، أبواب الفتن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في لزوم الجماعة (٤/٤٦٥)، رقم: (٢١٦٥)، والنسائي في السنن الكبرى (٨/٢٨٤)، رقم: (٩١٧٥)، وأحمد (١/٢٦٨)، رقم: (١١٤).

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في قتل الخوارج (٤/٢٤١)، رقم: (٤٧٥٨)، والنسائي، كتاب قطع السارق، تعظيم السرقة (٨/٦٥)، رقم: (٤٨٧٢)، وأحمد (٣٥/٣٦٤)، رقم: (٢١٤٦٠).

وتارةً ينهانا عن التفرق صراحةً: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣]، {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال: ٤٦].

يعني: قوتكم وجماعتكم ونصركم.

{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [الشورى: ١٣] إلى أن قال الله -عز وجل- : {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} [الشورى: ١٣، ١٤].

هذا الذي شرّعه لنا من الدين على لسان نبينا -صلى الله عليه وسلم- وما أوحى به إلى الأنبياء من لدن نوح -صلى الله عليه وآله وسلم وعلى سائر الأنبياء.

وفي الحديث: ((إن الله يرضى لكم ثلاثًا)) وذكر منها ((أن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا)) [١].

والمقصود -أيها الأحبة- أن الاختلاف منافٍ لما بعث الله به رسوله -صلى الله عليه وسلم.

وقد جاء عن عمر-رضي الله تعالى عنه- الخليفة الراشد المُحدَّث أنه قال: ((لا تختلفوا فإنكم إن اختلفتم كان مَن بعدكم أشدَّ اختلافًا)) [٢] يخاطب أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم.

وانظر إلى هذا الموقف منه -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- لما سمع أُبيَّ بن كعب وابن مسعود يختلفان في صلاة الرجل في الثوب الواحد أو الثوبين، مسألة فقهية، الرجل يلبس الإزار فهل يُطالب بأن يلبس الرداء فيستر عاتقيه، أو منكبيه حال الصلاة؟ اختلف أُبي وابن مسعود وهما من علماء الصحابة -رضي الله عنهم- في مسألة سائغ الاختلاف فيها.

مسألة فرعية كما يُقال، فماذا كان موقفه -رضي الله تعالى عنه- صعد المنبر، وقال: رجلان من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- اختلفا، فعن أي فُتياكم يصدُر المسلمون، لا أسمع اثنين اختلفا بعد مقامي هذا إلا صنعت وصنعت[٣].

مسألة فقهية بين اثنين من علماء الصحابة الكبار أُبيّ وابن مسعود، ويقف عمر -رضي الله عنه- على المنبر ويتوعد ولا يستثني أحدًا لا عالمًا ولا متعلمًا، يتوعّد من يختلفون.

فكيف لو رأى عمر -رضي الله تعالى عنه- الحال التي نحن عليها؟ وكيف لو اطّلع على ما نكتب في هذه الوسائط والوسائل الجديدة؟ كل واحد يريد أن يُبدي رأيه، وأن يتكلم بما شاء.

عليٌّ -رضي الله تعالى عنه- في أيام خلافته قال لقضاته، وكانت له آراء في بعض المسائل، خالف فيها من قبله، مسائل فقهية يسوغ الخلاف فيها، وهو الخليفة، فماذا قال للقضاة هؤلاء؟، قال: ((اقضوا كما كنتم تقضون

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، والنهي عن منع وهات، وهو الامتناع من أداء حق لزمه، أو طلب ما لا يستحقه (٣/١٣٤٠)، رقم: (١٧١٥).

(٢) انظر: الشريعة للآجري (٤/١٧٨٤)، رقم: (١٢٤٣)، وشرح السنة للبغوي (٤/٥٢٤)، والإبانة الكبرى لابن بطة (٨/٤١١)، ومصنف ابن أبي شيبة (١/٨٥).

(٣) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٩٧).

فإني أكره الخلاف، وأرجو أن أموت كما مات أصحابي)) [1] لاحظ ما قال: أنا الخليفة، وأنا مسئول عن هذا ولا يمكن أن يُقضَى بين الناس إلا بما أتبناه وأدين الله –عز وجل– به.

مع أنه من علماء الصحابة، ومن قضاتهم وهو الخليفة، إمام مجتهد، وهو أيضًا من أهل القضاء ومع ذلك يقول مثل هذا الكلام: "اقضوا كما كنتم تقضون فإني أكره الخلاف".

ما قال: أنا أدين الله –عز وجل– بهذا، ولا يمكن أن يمضي في هذا العهد في أيام خلافتي إلا ما أدين الله به.

ما قال هذا، أشياء هو يرى أنها غير صحيحة، ومع ذلك يأمرهم أن يقضوا بما كانوا يقضون به منها، كل ذلك كراهيةً للاختلاف.

وتارةً ينهانا الشارع عن مشابهة أولئك الذين تفرقوا واختلفوا **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا}** [آل عمران: ١٠٥] فنحن منهيون عن التشبه بهم.

وشيخ الإسلام –رحمه الله– في اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ذكر أنواعًا من التشبه التي ضاهت فيها هذه الأمةُ، وشابهت من كان قبلها مصداقًا لقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: **((لتتبعنّ سَنن من قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع...))** [2].

فذكر شيخ الإسلام –رحمه الله– من هذه القضايا التي تابعت فيها هذه الأمة الأمم قبلها: التفرق والاختلاف، التنازع[3].

وتارةً يذم أهل التفرق: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}** [البقرة: ١٧٦].

يذمهم من أجل ألا نقع فيما وقعوا فيه، من أجل ألا يصدر عنا ما حصل منهم، والله –تبارك وتعالى– يقول عن أولئك: **{فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}** [المؤمنون: ٥٣].

يقول الحافظ ابن القيم –رحمه الله–: "الزُّبر: الكتب، يقول: أيْ كل فرقة صنفوا كتبًا أخذوا بها، وعملوا بها ودعوا إليها دون كتب الآخرين"[4].

كما هو الواقع الذي نعيشه الآن، يعني: هذا الذم الذي ذكره الله –عز وجل– لهؤلاء الذين تقطَّعوا أمرهم بينهم زُبرًا، هل يختص بأولئك من أهل الكتاب، أو من المشركين ممن ذمهم الله –تبارك وتعالى؟.

الجواب: أن هذا الذم يلحق من وقع في ذلك من هذه الأمة، وذلك أنه كما قيل: "على قدر المقام يكون الملام".

هذه الأمة أشرف ونبيها أكمل وكتابها أعظم، فإذا وقع منهم هذا التفرق والاختلاف كان الذم الذي يلحقهم أعظم من الذم الذي يلحق مَن قبلهم، فلا يجوز للأمة بحال من الأحوال أن تتقطع أمرها بينها زُبرًا.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم–، باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن –رضي الله عنه– (١٩/٥)، رقم (٣٧٠٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (١٦٩/٤)، رقم: (٣٤٥٦)، ومسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٢٠٥٤/٤)، رقم: (٢٦٦٩).

(٣) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١٣٨/١).

(٤) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين (١٩٧/١).

هؤلاء لهم شيوخ، وهؤلاء لهم شيوخ، هؤلاء لهم مواقع، وهؤلاء لهم مواقع، هؤلاء لهم مصنفات وكتب يرجعون إليها ويتتلمذون ويتربون عليها ويتلقون عنها، وهؤلاء لهم مصنفات وكتب يتلقون عنها، هذا لا يجوز، هذا مما ذمه الله -تبارك وتعالى- وحذّر منه.

والله -تبارك وتعالى- يقول: **{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ}** [آل عمران: ١٠٦]، يقول ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: "تبيضّ وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسودّ وجوه أهل البدعة والفرقة "[1] .

لاحظ "تبيض وجوه وتسود وجوه"، المعنى أعم من ذلك؛ لأن الله -تبارك وتعالى- قال: **{فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}** [آل عمران: ١٠٦].

فهذا فيمن وقعوا في الكفر، لكن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وجماعة من السلف حملوا ذلك على ما يشبهه فأدخلوه تحته.

إن الكثيرين يدّعون في خاصة أنفسهم أو فيما هم عليه بأنهم أهل السنة والجماعة، وأن من خالفهم فليس كذلك، فحينما يرد مثل هذا النص عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فإن السامع قد يقول: نعم نحن أهل السنة والائتلاف، وهو يمزق الصف ويشتت الشمل، ويعادي إخوانه المسلمين على قضايا اجتهادية.

أهل السنة والائتلاف! فهل نحن من الائتلاف أم أننا من أهل الاختلاف؟ هل نعرف ما هي الأمور التي ينبغي أن نختلف عليها وماهي الأمور التي ينبغي أن نجتمع عليها؟.

المسألة ليست بالدعاوى، الكل يدّعي أنه على هدى، جميع الطوائف حتى أولئك الذين عدّهم العلماء من الخارجين عن الثنتين والسبعين فرقة، يقولون: إنهم على الحق والهدى، وإن من عاداهم فهو على الضلالة.

العبرة بماذا؟ هل العبرة بالأسماء والألقاب؟ هل العبرة بالدعاوى العريضة؟

ليست العبرة بذلك، فقد يتسمّى الإنسان بالأسماء الشريفة الشرعية، ولكن واقعه أبعد ما يكون عن هذا.

العبرة بما يكون عليه الإنسان من الاستقامة، ولزوم الكتاب والسنة والصراط المستقيم، نعم نحن لا نُقر غير الأسماء الشرعية، ولا يجوز لأحدٍ أن ينتسب إلى اسم غير شرعي.

انتسب إلى الإسلام **{هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا}** [الحج: ٧٨] انتسب إلى الإسلام **{هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ}** على القولين للسلف: أن الذين سمانا هو الله، أو أن الذي سمانا هو إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ، ننتسب إلى أهل السنة والجماعة، ولا ننتسب إلى غير ذلك.

ولكننا أيضًا في الوقت نفسه لا نتعامل مع الناس انطلاقًا من تلك الأسماء التي نسميهم بها أو التي يسمون أنفسهم بها مع أننا لا نُقر غير الأسماء الشرعية، وإنما ننظر في حقيقة ما هم عليه من الاعتصام بالكتاب والسنة ولزوم الصراط المستقيم قولاً وعملاً.

المُعوَّل على هذا، الله خلق الموت والحياة لماذا؟ **{لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}** [هود: ٧].

ليست العبرة بأعمال كثيرة على غير الوجه المشروع، وليست العبرة بأسماء وألقاب أو دعاوى طويلة ندّعيها، العبرة بلزوم الحق الذي جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٩٢/٢).

النبي –صلى الله عليه وسلم– خاطبنا بقوله: **((لا تختلفوا فتختلف قلوبكم))** [1] هذا في أي سياق؟ تسوية الصفوف في الصلاة، إذا كان مثل هذا الاختلاف في الوقوف في الصف يورث اختلافًا في القلوب، فكيف بما هو أعظم من ذلك؟ كيف بما هو أعظم من هذا؟ ماذا عسى أن يُورث من الشر، والعداوات في القلوب؟ أمور يسيرة كان يراعيها النبي –صلى الله عليه وسلم– لجمع الكلمة، ودفع أسباب الشر والاختلاف، وكان –صلى الله عليه وسلم– يقول: **((اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا))** [2].

خرج –صلى الله عليه وسلم– على أصحابه وهم يتنازعون في آيات من كتاب الله –تبارك وتعالى– يتنازعون في مسائل وقضايا، فغضب حتى احمر وجهه، حتى كأنما فُقئ في وجنتيه الرمان، فقال: **((أبهذا أمرتم؟، أم بهذا أرسلت إليكم؟))** [3].

نقاش وجدال بين أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– فيكون موقفه –صلى الله عليه وسلم– هو الزجر عن ذلك والغضب والنهي عنه.

فكيف بمجادلاتنا، من يُحسن ومن لا يُحسن عبر هذه الوسائل والوسائط، وما يتلو ذلك من التراشق، وتبادل التهم والتضليل، بل والتكفير؟!.

وتارةً يُرغبنا في الصلح: **{لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ}** [النساء: ١١٤].

وفي الاقتتال بين طوائف المسلمين، هؤلاء الذين يتنازعون على شيء من الدماء أو يتنازعون على شيء من الأرض أو الأموال أو نحو ذلك: **{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا}** [الحجرات: ٩] لا تقف مع هذا دون هذا بكلمة ولا بممارسة أو محاباة أو غير ذلك، هذا خط أحمر، جَمْع الكلمة، ترك أسباب الشر والتنازع والتفرق **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}** [الحجرات: ١٠].

جاء بهذه الصيغة التي هي من أقوى صيغ الحصر **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}** ولا يصح أن يكون حالهم على غير هذا.

الأخوّة الإيمانية يجب أن تكون متحققة، وهذه الأخوة لها مقتضيات من النصرة والمحبة، **((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))** [4].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، وإقامتها (٣٢٣/١)، رقم: (٤٣٢)

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب كراهية الخلاف (١١١/٩)، رقم: (٧٣٦٤)، ومسلم، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن (٢٠٥٤/٤)، رقم: (٢٦٦٧).

(٣) أخرجه الترمذي، أبواب القدر عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر (٤٤٣/٤)، رقم: (٢١٣٣).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٢/١)، رقم: (١٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير (٦٧/١)، رقم: (٤٥).

هل نحن كذلك حينما نختلف؟ هل هذه الأخوة الإيمانية، وحفظ مقتضيات الأخوة واقع ومتحقق، أو أننا ننسى جميع هذه الحقوق، وندير ظهورنا نحوها؟.

فلا تبقى إلا القطيعة والتربص، كل طائفة تتربص بالأخرى الدوائر، بل أكثر من هذا، لربما صار ذلك إلى حال من الاقتتال، بل لربما صار إلى حال من التكفير، الرمي بالكفر، من أجل ماذا؟

من أجل أننا اختلفنا في اجتهاداتنا في بعض الأمور، والله -عز وجل- يقول: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ}** [الأنفال: ١].

قدّم الأمر بالتقوى؛ لأن القلوب إن لم تكن متحققة بالتقوى فمعنى ذلك أنها لا تصغي لنصح ناصح، ولا يؤثر ذلك فيها.

والقلوب قد اعتراها ما اعتراها، وحصل لها من أنواع القسوة ما نعلمه جميعًا، وإذا أردتم أن نقرّب لكم هذا بمثال يوضحه، فهذا الإنسان الغافل المُعرِض الذي قد انغمس في شهواته، وسَكِر في لذاته حينما يسمع نصح الناصحين، ووعظ الواعظين، فإن ذلك قد لا يؤثر فيه.

يدخل ويسمع خطيب الجمعة، ويخرج كما دخل، وإذا قيل له: اتق الله، لربما يأنف ويغضب، والآخر لربما يسمع الكلمة، والآية والموعظة، فيرق قلبه ويلين ويبكي، ويتأثر ويستجيب، وينتصح.

ما الفرق بين هذا وهذا؟ الفرق أن هذا قد وُجد في قلبه من التقوى ما يحمله على القبول والامتثال، والآخر لم يوجد في قلبه من تقوى الله -عز وجل- ما يدعوه إلى قبول نصح الناصحين، ووعظ الواعظين، والتذكر بآيات الله -تبارك وتعالى.

ننتقل من هذه الصورة إلى حالنا التي ألفنا فيها هذا الاختلاف، والشقاق والنزاع، فما صار مثل هذا الكلام يؤثر فينا.

فأصبح بعضنا حينما يسمع مثل هذه النصوص، وهذه الآيات لربما يوجه ذلك إلى غيره، وأنه ليس بحاجة إلى مثل هذا الكلام.

هو ليس بحاجة إلى أن يسمع منك، ولا أن يقضي لحظة في الوقوف مع حديثك هذا، ما الذي حصل؟ ما الذي اعترى القلوب، ما الذي غيرها؟ ما الذي يجعل ذلك المنغمس في شهواته يصير في تلك الحال، فلا ينتفع بنصح الناصحين، وهذا الإنسان الذي ظاهره الاستقامة أيضًا في هذا الباب لا يقبل مِن عاذل، ولا ناصح، ولا مشفق، ولا محب إنما يريد من الآخرين أن يوافقوه بغير استثناء.

أن لا يستثنوا، أن يكونوا معه على طول الطريق في كل اجتهاداته وآرائه، وفهمه وأحكامه، هل هذا هو المراد؟ مَن الذي يدّعي لنفسه العصمة؟.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} [الأنفال: ١] الإنسان يتهم نفسه دائمًا، يقول ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله -تبارك وتعالى-: **{فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ}**: "هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا الله وأن يصلحوا ذات بينهم"[1].

([1]) انظر: تفسير الطبري (٢٦/١١).

والله -تبارك وتعالى- يقول: {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ} [النساء: ١٢٨].

وهذا عام، وإن كان هذا السياق في قضية معينة، لكن اللفظ عام مطلق -كما يقول القرطبي -رحمه الله- يقتضي أن الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس، ويزول به الخلاف أنه خيرٌ على الإطلاق[١].

ويدخل في هذا ما جاء السياق فيه، الصلح بين الرجل وامرأته، فهذا خير من الفُرقة.

فالتمادي على الخلاف والشحناء والمباغضة يقول: هي قواعد الشر، وسيأتي في الحديث في البَغضة أنها الحالقة، الصلح -نبذ أسباب الشر- خير.

هنا ما قال: خير في الدنيا، خير في العاجلة، أو خير في الآخرة، خير في الباب الفلاني، وإنما أطلق ذلك، والأصل أن مثل هذا يُحمل فيه المُقتضَى -يعني: المقدّر المحذوف- على أعم معانيه، فإنّ حذف المُقتضَى -يعني المقدّر المحذوف- يُحمل على أعم معانيه المناسبة له {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ}، ولم يُقيّد ذلك بباب من الأبواب، ولم يُقيّد ذلك في الدنيا، أو في الآخرة.

بل قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((ما عمل ابن آدم شيئًا أفضل من الصلاة، وصلاح ذات البين، وخُلق حسن))** [٢]، هذا حديث صحيح ثابت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

فذكر مع الصلاة التي هي الركن الثاني من أركان الإسلام صلاحَ ذات البين والخُلق الحسن.

كتاباتنا ومزاولاتنا وممارساتنا في هذا الشقاق والنزاع في تويتر، وغير تويتر، هل هذا من الإصلاح إصلاح ذات البين؟ وهل نسعى في هذا؟ وكذلك أيضًا الخلق الحسن، هل نحن نحمل أخلاقًا إسلامية كريمة فيما نكتب، وما نقول، وما نعلّق؟.

سباب وشتائم، قبل هذه الوسائل والوسائط الجديدة ما كنت أظن أن الحال بلغت هذا الحضيض، كنت أظن أن من عنده شيء من التدين أنه يحمل أخلاقًا صالحة.

حتى رأينا أخلاق الشبّيحة -كما يقال- في هذا التراشق، في هذا الاختلاف والتنازع، فصار الواحد منا يكتب لربما في بعض أهل العلم، وأهل الفضل، بعض أهل الدين عبارات لا تليق أن تقال في مسلم، ولو كان فاسقًا، يُرمى بالعظائم من أجل أننا اختلفنا معه في وجهة نظر في قضية من القضايا! هل يجوز هذا؟ هل يسوغ؟

عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((ألا أخبركم بأفضلَ من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟))** قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: **((إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين الحالقة))** [٣].

((صلاح ذات البين)) يعني: صلاح الحال التي تكون بين الناس.

إصلاح أحوال البين حتى تكون أحوالكم أحوال صحة وألفة ومحبة واجتماع.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/٤٠٦).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٣/٤٢٩)، رقم: (١٠٥٧٩).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين (٤/٢٨٠)، رقم: (٤٩١٩)، والترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٤/٦٦٣)، رقم: (٢٥٠٩)، وأحمد (٤٥/٥٠٠)، رقم: (٢٧٥٠٨).

وبعضهم يقول: صلاح ذات البين، يعني: صلاح وإصلاح الإفساد والفتنة التي تكون بين الناس، لما في ذلك من عموم المنافع الدينية والدنيوية من التعاون والتناصر والتآلف، والاجتماع على الخير، حتى أُبيح فيه الكذب -كما هو معلوم- في الإصلاح بين المتخاصمين. نقول: فلان يُثني عليك، فلان يذكرك بالخير، لجمع القلوب.

مع أن الكذب حرام، وأبيح في هذه الحال بين اثنين، فكيف يكون الشأن إذا كان هذا التنازع بين طوائف من المسلمين؟.

لاشك أن السعي في ذلك لدفع الشرور، والمضار الدينية والدنيوية أعظم وآكد.

وهذا أمر لا ينبغي أن يختلف عليه اثنان، يقول -صلى الله عليه وسلم- معللاً ذلك: **((وفساد ذات البين الحالقة))**، لماذا كان إصلاح ذات البين أفضل من الصيام، والصلاة والصدقة؟

باعتبار أن فساد ذات البين يأتي على الأخضر واليابس، فساد ذات البين الشر الذي يقع بين الناس، سوء ذات البين المخاصمة، المشاجرة، المشاحنة، الفرقة، الاختلاف، فهذه الخصلة هي الحالقة.

سوء ذات البين يدخل فيها التسبب في المخاصمات، والمعارك الكلامية، والجدلية، والفكرية، والحربية.

كل هذا يدخل فيه مما يورث الفساد والفرقة والتشرذم، فهذا كله من فساد ذات البين، فهذه هي الحالقة، هكذا سماها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم.

الحالقة تحلق ماذا؟ الحالقة فُسرت بالماحية للثواب المؤدية إلى العقاب، المُهلكة، يقولون: مأخوذة من قولهم: حَلق بعضهم بعضًا -نسأل الله العافية- يعني: استأصل بعضهم بعضًا كما يُستأصل الشعر، كما يُحلق.

فهذه تأتي على الدين فتُذهبه، تُذهب حسنات الإنسان، تُذهب أعماله الصالحة، فقد فُسرت في الحديث بأنها تحلق الدين، تحلق الدين بأي اعتبار؟.

باعتبار أن الناس إذا حصل بينهم التنازع والشر والاختلاف فإن ذلك يؤدي إلى تنافر القلوب والتباغض والغل.

والقلب إذا امتلأ بالغل اشتغل عما هو بصدده من ذكر الله وطاعته، وأظلم، فيتبعه بعد ذلك ظلمة الوجه، الوجه أسود بسبب الظلمة التي تغشى القلب، وجهه أسود لما في قلبه من الغل على إخوانه المسلمين.

ينبغي على الواحد منا أن يكرر ويعيد في كل يوم النظر إلى المرآة، ينظر في وجهه، كان بعض السلف يخشى أن يكون وجهه قد اسودّ.

فإنّ ما يوجد في القلب يظهر على الوجه، والوجه مرآة تعكس حقيقة ما في القلب، فصاحب القلب المليء بالغل على إخوانه المسلمين يُظلم وجهه.

لا أعني سواد البشرة الذي خلقه الله -عز وجل- عليه، فقد يكون هذا الوجه مشعًّا منيرًا مشرقًا، تُشرق فيه أنوار السنة، وأنوار الطاعة والاستقامة.

ولكن قد يكون القلب مليئًا بظلمة المعصية، أو ظلمة البدعة، أو ظلمة الغل، فيظهر هذا في وجه صاحبه، ثم بعد ذلك يظهر في جوارحه، فتظلم هذه الجوارح، فيشتغل هذا اللسان -نسأل الله العافية- بالوقيعة.

ليس له شغل إلا الوقيعة في إخوانه، فهو يحذّر من هذا، ويقع في هذا، ويضلِّل هذا، ويرمي هذا بالعظائم، ومجالسه دامرة -وليست عامرة- بِقَالة السوء في زيدٍ وعمروٍ من صلحاء الأمة وخيارها، وفضلائها.

ولو قيل له: هات ما يكون لك عند الله فيه برهان مِن قال الله، قال رسوله -صلى الله عليه وسلم- فيما تضلل به هذا، أو ترمي به هذا بالكفر، أو البدعة، أو الزندقة، أو الضلالة.

هات قال الله، قال رسوله، اختلفتَ معه على زيد يزكيه، أو يذمه، أو يحسن الظن به، هذا يترتب عليه تضليل ورمي بالعظائم؟!.

لو قابلك الناس بمثل هذا لرموك بمثل ما رميتهم به، لو جارى الناس بعضهم بعضًا بالسفه لاستحل كل أحدٍ من الآخر ما استحل منه.

فما يراه الإنسان في زيدٍ وعمرو، ويخالفه عليه الآخرون لو قابلوه بمثل هذا التضليل لما بقي شيء، فمثل هذا -أيها الأحبة- لا يحل بحالٍ من الأحوال.

فهذه الحالقة، بدلاً من أن يشتغل اللسان بالذكر وقراءة القرآن والطاعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشتغل بِقَالة السوء وما يشتت ويُفرِّق.

والعجيب أننا صرنا إلى هذه الحال في وقت قد أحدق بنا العدو، جميع الأعداء اجتمعوا كما تجتمع الأَكَلة، أو تتداعى الأكَلة إلى قصعتها في كل ناحية، هؤلاء الأعداء يتداعون ويتآمرون، ويتضاحكون بنا ونحن نشتغل ببعضنا في أسوأ الظروف، وأحلكها، وأشدها، وأصعبها.

إذا كنا لا نجتمع في وقت الشدائد والعدو قد أخذ بخناقنا فمتى سنجتمع؟ إذا كان بعضنا يعادي بعضًا في أصعب المواقف، العدو أمام نحورنا، الأعداء من اليهود والنصارى، وطوائف المشركين، والباطنية، وغير هؤلاء ويفعلون الأفاعيل، لا يرقبون في مؤمنٍ إلًّا ولا ذمة، ونحن نشتغل ببعضنا **{تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى}** [الحشر: ١٤].

قالها الله -عز وجل- عن المنافقين واليهود على قول مشهور لعله الأقرب في تفسير الآية، وعلى القول الآخر أنها قيلت في اليهود.

لكن ذلك عُلل في النهاية سواءً كان هؤلاء أو هؤلاء بأنهم: **{قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ}** [الحشر: ١٤]، هؤلاء الذين يتفرقون هذا التفرق لا يعقلون، لو كانوا يعقلون، لو كان عندهم من العقل المعيشي ما يُسعفهم لاجتمعوا من أجل دنياهم، من أجل الدنيا، من أجل حفظ بيضتهم، من أجل حفظ أعراضهم وحرماتهم ودمائهم، وأموالهم، فإذا اختلفوا هذا الاختلاف، وتشرذموا بهذه الطريقة والعدو قد احتنكهم فما ظنكم؟، هل سيجتمعون على الغنيمة، وفي الرخاء؟ صرنا إلى حال أن بعض المسلمين يقاتلون اليهود، والأصل أنه مهما اختلفت مع إخوانك المسلمين، هؤلاء مهما اختلفت معهم لا يجوز أن تشمت بهم، وأن تفرح لمصابهم، وأن تكون في صف واحد مع هؤلاء اليهود.

أين ما أمرنا الله -عز وجل- به من التناصر والتعاضد **{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}**؟ [التوبة: ٧١].

الموالاة: النصرة، ثم بعد ذلك نكون عونًا على إخواننا؟ مهما بلغ الخلاف، كيف نصل إلى هذا الحال؟.

فهنا تكون الحالقة، فيبدأ اللسان يشتغل، تارة يرمي بالفسق وتارة بالتهم الكاذبة، الإفك **{وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ}** [النور: ١٥] التنابز بالألقاب، التراشق بالتهم، وهكذا أيضًا تشتغل الجوارح.

يبدأ اللسان الآخر "القلم" يكتب، وتبدأ هذه الجوارح تعمل في إشعال هذا الخلاف، والانتصار من المخالفين، الأمر الذي قد يصل إلى الاحتراب، والقتال كما هو واقع، وليس بمتوقَّع.

هذا شيء يشاهده الجميع، عدو لا يقف عند حد، وفي المقابل يشتغل بعضنا ببعض في الاختلاف، والوقيعة في الأعراض والقتل، هذه هي الحالقة.

فإذا وصل الأمر إلى الرمي بالكفر، أو إلى القتل واستحلال الدماء، فماذا بقي من دين الإنسان؟ ماذا بقي من دينه؟.

الإنسان لربما يكون في حال من سُكر الشهوة، فيشتغل ببعض الشهوات مما حرم الله -عز وجل- عليه من الزنا وشرب الخمر، ولربما يكون مشتغلاً بألوان اللهو والمعازف، أو القمار أو المخدرات.

وهذه آثام تتفاوت، وجرائم ليست على حد سواء.

ولكن أن يركب المراكب الصعبة في تدينه، يبتغي ما عند الله -عز وجل- ثم بعد ذلك يلغ في الدماء، وفي رمي إخوانه بالكفر، بل لربما أقرب الناس إليه.

فهذه أعظم مما سبق، أعظم من هذه المعاصي التي سبقت من الزنا وشرب الخمر.

يعني: لو بقي في تلك الأوحال لكان أهون وأسهل من أن يركب هذه المراكب الصعبة.

رأيتم كيف الشيطان يصل بكيده لنا حيث يوقعنا في هذه النهايات، والأعمال التي لربما لم تخطر لنا على بال قبل سنوات؟

يتوب الإنسان من ذنوب، يتوب من معاصٍ، يتوب من فسق، يتوب من غفلة، من تقصير.

ثم يتحول بعد ذلك إلى معول هدم في الأمة؟ يشتت شملها ويُفرّق جمعها ويقع في خيارها، ويضلّلهم، وليس له شغل إلا في هذا، هل هذا تدين؟ هل هذا تقوى لله -عز وجل-؟ هل هذا صلاح؟ هل هذه استقامة؟ هل يقال عن هذا الإنسان: إنه مستقيم وصالح ومتدين وملتزم كما يقال؟.

الجواب: أبدًا، لا يمكن، ليس هذا هو الدين الذي أمرنا الله -عز وجل- به وجاء به رسوله -صلى الله عليه وسلم-، الدين طهارة للقلب وزكاء، الدين أخلاق تطهر اللسان والجوارح والبصر، الدين فضائل يتحلّى بها المؤمن، الدين تقوى وخشية وإخبات وخشوع، الدين محبة الخير للمسلمين كما يحب لنفسه، **((لا يؤمن أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يحب لنفسه))** [1].

هذا هو الدين وهذا هو التدين الحقيقي، قلبه نظيف لإخوانه المسلمين، قلبه طاهر، يشفق عليهم ويحبهم، يحب لهم الخير، يحب لهم الصلاح، يحزن لحزنهم، يتألم لآلامهم، قد يختلف معهم، لطالما اختلف الناس، ثم ماذا؟

لكن أن يتحول التدين إلى شيء آخر، يتحول هذا الإنسان بدلا من أن كان خاملاً لا يُنتفع به في عمل دنيا ولا في عمل آخرة، يتحول إلى مارد يهدم ولا يبني؟!

معول هدم في المجتمع، وأعداؤه هم أهل الصلاح والخير، هذا لا يصح أن نفعله.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٢/١)، رقم: (١٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير (٦٧/١)، رقم: (٤٥).

فهذه حال للأسف لا يرضاها الله –عز وجل–، وإنما يفرح بها الشيطان، ويفرح بها شياطين الإنس والجن فيطربون ويرقصون على جراحنا، ويضحكون من عقولنا وهذه الحال التي صرنا إليها، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

الاختلاف وموقفنا منه

(٢) تتمة النصوص الواردة في الأمر بالاجتماع والنهي عن الاختلاف وهل حققت الأمة ما أمرها الله به؟

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فنواصل الحديث، وما زال الكلام فيما ورد في صلاح ذات البين.

قد قال النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–: **((دبّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم))**[(١)].

"دبّ إليكم داء الأمم" يعني: سار إليكم.

"داء الأمم قبلكم" يعني: عادة الأمم الماضية، الاختلاف، التفرق، الشحناء، البغضاء، فإن الشحناء والبغضاء هي من آثار الاختلاف كما سيأتي، كما أنها أيضًا ثُورِثه وتسبِّبه في بعض الحالات.

وهنا سماه داءً " دبّ إليكم داء الأمم " هذا مرض وعلة، يحتاج إلى معالجة.

فهذه يقول عنها النبي –صلى الله عليه وسلم–: الحالقة، حالقة الدين لا حالقة الشعر.

يعني: الخَصلة التي من شأنها أن تحلق دين المرء، أن تأتي على دينه وعمله وحسناته، فيحصل منه الفجور في الخصومة، ومالا يحل في حق إخوانه المسلمين، مما يتصل بقلبه، أو لسانه، أو جوارحه.

ولاحظ هنا في نفس هذا الحديث: **((والذي نفس محمد بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا))** هل نحن كذلك؟، هل نحن في حال من التحابّ؟.

الذي أدركْنا عليه الناسَ قبل أكثر من عشرين سنة: أن الإنسان إذا رأى من على سيماه الصلاح والخير أحبه، وهو لا يعرفه.

هكذا كان الناس، بمجرد ما يرى من سيماه الصلاح والخير ينجذب إليه، ويشعر أنه يُكمّله، وأنه جزء منه.

ولكن تبدّلت الأحوال لدى الكثيرين، حتى نشأ جيل لم يعرف إلا هذا الشقاق والنزاع والتدابر والتناحر والتقاطع، فظنوا أن هذا هو الأصل، وأن هذا هو الأمر الطبيعي، وهذا غير صحيح إطلاقًا.

فصار الواحد يطلب السلامة لنفسه، لا يُؤثِر الخُلطة بالآخرين، وما ذلك إلا لتغيّر القلوب، ما كان الناس هكذا أبدًا.

فهذه من نتائج هذا الاختلاف.

وفي بعض الألفاظ من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه–: **((إياكم وسوءَ ذات البين فإنها الحالقة))** [(٢)]. هذا عند الترمذي وغيره.

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– (٦٦٤/٤)، رقم: (٢٥١٠)، وأحمد (٢٩/٣)، رقم: (١٤١٢).

(٢) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– (٦٦٣/٤)، رقم: (٢٥٠٨).

وفسّر الترمذي –رحمه الله– سوء ذات البين بالعداوة والبغضاء، وأن الحالقة هي التي تحلق الدين.

فهذا كله فيه ما فيه من الترغيب في إصلاح ذات البين، واجتناب كل ما يؤثر في ذلك سلبًا، فيكون أهل الإيمان على حال من الترابط والتواد والمحبة، والعمل على تلافي كل ما يورث الشر، وفساد ذات البين والتفرق، فهذه ثُلمة في الدين لا يصح أبدًا أن تُقر.

فمن نال هذه المرتبة وهي تعاطي الإصلاح بين المسلمين، ورفع الفساد والشر عنهم فإنه يكون قد نال تلك المرتبة التي ذكرها النبي –صلى الله عليه وسلم– وهي أن ما يناله من الأجر أعظم مما يكون لدرجة أهل الصيام والصلاة والصدقة، والمقصود بذلك ما زاد عن الفرائض.

سفيان الثوري –رحمه الله– قرأ على ابن الحسن، وجاء في ذلك –وهو كلام طويل لكن الشاهد منه– "... وإياك والشحناء فإنه لا تُقبل توبة عبد يكون بينه وبين أخيه شحناء، وإياك والبغضاء فإنما هي الحالقة، وعليك بالسلام لكل مسلم يَخرج الغلُّ والغشُّ من قلبك، وعليك بالمصافحة تكن محبوبًا إلى الناس ..."[1]. إلى آخر ما جاء فيها.

السلف –رضي الله عنهم– أخلاق، ويتواصون بهذا، وسيأتي مزيد إيضاح لهذه القضية.

كما جاء النهي عن كل الذرائع المُفضية إلى العداوة والتفرق والبغضاء بين المسلمين، حتى في الأمور المادية، والتعاملات الدنيوية.

نهى الشارع عن خطبة الرجل على خطبة أخيه، خطب امرأة ما يأتي آخر ويخطب هذه المرأة، لماذا؟ لأن ذلك يوغر صدره، فمُنع من هذا ليبقى التصافي.

لماذا حُرّم أن يجمع الرجل بين المرأة وأختها، والمرأة وعمتها، والمرأة وخالتها؟ ما هي العلة؟ لِمَا يقع من الشحناء فيودي بذلك إلى قطيعة الرحم، فحُرِّم.

سوم الرجل على سوم أخيه، يقول له: بكم تبيع هذه الساعة؟ تبيعها بعشرة؟ يقول الآخر: أشتريها منك بخمسة عشر، لا يجوز.

بيع الرجل على بيع أخيه، يقول له: أبيعك هذا بكذا، ويقول له البائع الآخر: أنا أبيعك بكذا، بأقل من ذلك. فتقع الشحناء، فهذا حرام.

لاحظ بين اثنين من الباعة، ليُحفظ الود والصفاء بين المسلمين.

فكيف بهذا الذي يحمل قلمًا ناريًّا شِهابًا يُحرِق فيه المودة والإخاء بين المسلمين، في كتابات يرسلها عبر حسابه في تويتر، أو في غير ذلك؟!.

هذا كما قلت: خط أحمر، لا يجوز أن يصدر من الإنسان، ما يكون سببًا للشر بين أهل الإيمان.

جاء في حديث أبي هريرة – رضي الله عنه– وهذه الأحاديث هي من أول ما درسنا، ومن أول ما تعلمنا ولكني أراجع نفسي فيها كثيرًا طويلًا مليًّا، أنظر فيها وأقول: هل نحن فعلًا نطبق هذه المبادئ التي تعلمناها؟ ولربما ندرس من نهايات العلوم، ومن دقائقها في أبواب مختلفة في الأصول وفي غيرها ونترك هذه المبادئ!.

---

(١) انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦١/٧).

كلنا درس هذا الحديث: **((لا تحاسدوا))** والنهي للتحريم، **((ولا تناجشوا))** النَّجَش معروف، يأتي هذا يعرض سلعة، من يزيد؟، يُحرَّج عليها ثم يأتي آخرون يتواطئون معه فيرفعون السعر ليُغرّ أحد الحضور، فيشتريها بسعر أعلى، **((ولا تباغضوا))** قد يقول قائل: البغضاء تقع في القلب من غير إرادة، يقال: القاعدة في هذا أن خطاب الشارع إذا توجه إلى المكلَّف فيما لا يدخل تحت طَوقه فإنه ينصرف إلى سببه أو إلى أثره.

البغضاء، ينظر في الأسباب التي تورث البغضاء، فيتجنّبها، وينظر فيما تورثه هذه البغضاء من الوقيعة في الأعراض، فيتقي الله ويمسك لسانه، وما تورثه هذه البغضاء من سوء الظن **{إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}** [الحجرات: ١٢] وما تورثه هذه البغضاء من العدوان بأنواعه على المسلمين.

((ولا تدابروا)) يلقى هذا أخاه فيولّيه دبره، الأصل أن الإنسان حينما يلقى صاحبه يلقاه بالبِشر والطلاقة بوجهه، والتدابر هو أن يوليه دُبُره وظهره، بمعنى أنه يهجُر أخاه، ويُعرِض عنه، فهذا لا يجوز، هذا حرام.

((ولا يبع بعضكم على بيع بعض)) وهذا فقط؟ لا، **((وكونوا عباد الله إخوانًا))** قد يقول: أنا ما أبيع على بيعه، ولا أسوم على سومه، وإذا لقيته لن أوليه ظهري سأسلّم عليه، لا، ما يكفي، **((وكونوا عباد الله إخوانًا))** تكون الأخوة الإيمانية قائمة وثابتة.

ثم قال: **((المسلم أخو المسلم لا يظلمه))** وهذا الظلم قد يكون باللسان، وقد يكون بالقلب بسوء الظن، وقد يكون بالجوارح، وقد يكون بالنظر إليه بعين الاحتقار، بالبهتان، بما يكتب عنه، بما يرميه به من الألقاب القبيحة التي لا يرضاها، أو نسبته إلى ما لا يرضى بالانتساب إليه، هذا كله من الظلم.

بخس الناس، إذا اختلفنا مع شخص قبل مدة كان من أعلم أهل الأرض عندنا بمجرد ما اختلفنا معه صار هذا الإنسان ليس من العلم في قليل ولا كثير، ليس بشيء، ما عنده علم، جاهل، كيف تحول إلى جاهل بعدما اختلفنا وقبل ذلك كان من الفطاحل، العلماء، المحققين، العلّامة، البحر، الفهّامة، تحول إلى شيطان رجيم وجاهل، تبخّر العلم؟!.

قبل ذلك، هل كنا مبالغين في هذه الأحكام، ونقول كذبًا وزورًا، ونعطي الناس الألقاب التي لا يستحقونها، فنقول: فلان عالم وليس بعالم؟ فلان علّامة وليس بعلّامة؟ ثم حينما اختلفنا معه تحول إلى جاهل؟ ففي أي الحالتين كنا جاهلين أو ظالمين؟ أولًا أو آخرًا؟ كيف يتحول العلم ويتبخر العلم بعدما نختلف؟ هذا لا يجوز.

والله –عز وجل– نهانا أن نبخس الناس أشياءهم، ومن البخس البخس في مثل هذه الأحكام.

{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ} يعني: العداوة **{عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}** [المائدة: ٨] الذي يبخس الناس أشياءهم يدخل في التطفيف الذي توعّد الله أصحابه **{وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ}** [المطففين: ١ – ٣].

يُطفِّف، يبخس الناس حقهم، وما يليق بهم من المراتب، **((وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يَكذِبُه))** يكون صادقًا معه، **((ولا يحقره، التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسْبِ امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم))** بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه، فلان جاهل، فلان كذا، فلان كذا، هذا كله من التحقير.

انظر إلى اللمز، والهمز والغمز الذي تجده على تلك الحسابات، وتلك الصفحات في مواقع ومدوّنات، انظر إلى التعليقات.

هنا يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعِرضه))**[1] والحديث مخرج في صحيح مسلم.

نسأل أحيانًا عن أشياء دقيقة في العلم، ونترك هذه الأشياء الواضحة، ولا نلقي لها بالًا.

هذا الكلام كما قلت أوجهه لنفسي قبل أن أوجهه إلى من يستمع إليه، وإنما الدين النصيحة، ولو كان ما يتكلم إلا من كمّل نفسه، فمن يتكلم بعد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-؟!.

لكني أحتسب عند الله -عز وجل- أن مثل هذا الحديث هو من أعظم ما يُتقرَّب به إلى الله في مثل هذه الأوقات، وينبغي أن نشيع الحديث في مثل هذه القضايا، إصلاح ذات البين، النهي عن الشر والتفرق والاختلاف والتشرذم، وقالة السوء، والعداوة بين المسلمين.

فهنا **((لا تباغضوا))** يقول ابن رجب -رحمه الله-: "نهيٌ عن التباغض في غير الله بل على أهواء النفوس".

المشكلة حينما يقول لك قائل: إن هذا التباغض في الله ولله، لكن على ماذا؟ على ماذا؟ اختلطت الأهواء بالآراء.

قد يحصل هذا التباغض على أهواء النفوس، ويُلبّس بلَبوس الدين، وقد يكون ذلك بعيدًا عن أهواء النفوس وميلها ولكن مبناه على الجهل في أمور لا توجب هذا التباغض والتفرق كما سيأتي في الكلام على الأسباب -إن شاء الله تعالى.

فهنا على المسلمين أن يكونوا كما أمر الله إخوة، والإخوة يتحابّون فيما بينهم، ولا يتباغضون، والله -عز وجل- يقول: **{إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ}** [المائدة: ٩١].

وهكذا في النصوص التي قد مضى الكلام عليها، ولهذا حرّم الله -عز وجل- علينا المشي بالنميمة لما فيها من إيقاع العداوة والبغضاء، وهي تشبه السحر تمامًا في إيحاش النفوس، وتغييرها وتنكُّرها لبعضها، والله المستعان.

يقول ابن رجب -رحمه الله-[2]: "لمّا كثُر اختلاف الناس في مسائل الدين، وكثُر تفرقهم، كثُر بسبب ذلك تباغضهم وتلاعنهم، وكل منهم يُظهر أنه يُبغض لله، وقد يكون في نفس الأمر معذورًا، وقد لا يكون معذورًا، بل يكون متبعًا لهواه مقصّرًا في البحث عن معرفة ما يُبغض عليه، فإن كثيرًا من البغض كذلك، إنما يقع لمخالفة متبوع يظن أنه لا يقول إلا الحق، وهذا الظن خطأ قطعًا".

يعني: هو خالف فلانًا، شيخنا يقول كذا، شيخنا يقول خلاف ذلك، شيخنا يرى غير هذا.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله (١٩٨٦/٤)، رقم: (٢٥٦٤).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (٩٧٩/٣).

وهل شيخك نبي مرسل؟! شيخك يخطئ كغيره من الناس، شيخك يقابله قول شيخ آخر، وإنما العبرة بقال الله قال رسوله، وما كل ما قال شيخك يطابق ما قاله الله ورسوله، فهو يخطئ ويصيب، وإن أخطأ فإن كان مجتهدًا فهو معذور يُغفر له خطؤه، وإن كان مصيبًا فله أجران.

يقول: "وإن أُريد أنه لا يقول إلا الحق فيما خولف فيه فهذا الظن قد يخطئ ويصيب، وقد يكون الحامل على الميل مجرد الهوى والإلف أو العادة، وكل هذا يقدح في أن يكون هذا البغض لله، فالواجب على المؤمن أن ينصح نفسه ويتحرز في هذا غاية التحرز، وما أشكل منه فلا يُدخل نفسه فيه خشية أن يقع فيما نُهي عنه من البغض المحرم" هذا كلام ابن رجب –رحمه الله.

ثم يذكر أمرًا خفيًّا، وأنه يجب التفطُّن له "وهو أن كثيرًا من أئمة الدين قد يقول قولاً مرجوحاً، ويكون مجتهدًا فيه، مأجورًا على اجتهاده فيه، موضوعًا عنه خطؤه فيه، ولا يكون المنتصر لمقالته تلك بمنزلته في هذه الدرجة" يعني الذي ينتصر لمقالته ينتصر لها على سبيل مثلًا التعصُّب والحميّة، فلا يكون معذورًا وإنما يكون ذلك لهواه.

وهكذا في النهي عن التدابر، وإنما قيل للإعراض تدابر؛ لأن من أبغضته فإنك تُعرِض عنه، ومن أعرضت عنه فقد وليته الدّبر، وكذلك هو يصنع، كما قال الحافظ ابن عبد البر –رحمه الله.

وفي بعض الروايات: **((سيصيب أمتي داء الأمم، قالوا: يا نبي الله، ما داء الأمم؟ قال: الأشر والبطر، والتكاثر والتنافس في الدنيا، والتباغض والتحاسد حتى يكون البغي، ثم الهرج))**[1] والهرج هو القتل.

يقع التباغض والتحاسد، ثم بعد ذلك –نسأل الله العافية– يكون البغي والعدوان على الناس فيكون الهرج.

وفي بعض الألفاظ: **((والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تُسلموا، ولا تُسلموا حتى تحابّوا، وأفشوا السلام تحابوا، وإياكم والبغضة فإنها الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين))**[2]. تحلق الدين!

في بعض الألفاظ: **((لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا))** ثم قال: **((ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم))**[3].

وعن واثلة بن الأسقع عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: **((كل المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، والتقوى هاهنا))** وأومأ بيده إلى القلب **((وحسْب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم))**[4].

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر –رضي الله تعالى عنهما– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: **((المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسلمه))**[5].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٣/٩)، رقم: (٩٠١٦).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص: ١٠٠)، رقم: (٢٦٠).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سبب لحصولها (٧٤/١)، رقم: (٥٤).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله (١٩٨٦/٤)، رقم: (٢٥٦٤).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (١٢٨/٣)، رقم: (٢٤٤٢)، ومسلم، كتاب

وفي لفظ: **((المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، وبحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم))**[١].

وفي حديث أنس في الصحيحين: **((لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا))**[٢] " هذه من المُحكَمات.

وفي حديث ثوبان عند الإمام أحمد وغيره: **((لا تؤذوا عباد الله، ولا تُعيّروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإن من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته))**[٣].

وفي حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– مرفوعًا: **((إنّ أحبكم إليّ أحاسنكم أخلاقًا))** من هم؟، قال: **((المُوطَّئون أكنافًا الذين يألفون ويُؤلَفون))**[٤] يألف ويُؤلف، ليس بهمّاز عيّاب قتّات، إذا جالسه جليسه لا يدري ما الذي يصل إليه منه من الأذى والشر والهمز والغمز واللمز.

هنا قال: **((إن أحبكم إليّ أحاسنكم أخلاقًا المُوطَّئون أكنافًا الذين يألفون ويُؤلَفون، وإن أبغضكم إليّ المشّاءون بالنميمة، المُفرِّقون بين الأحبة الملتمسون للبرآء العيب))**[٥]، هذه كلها أحاديث ثابتة.

وفي حديث عبد الرحمن بن غنم –رضي الله عنه– يبلغ به النبي –صلى الله عليه وسلم–: **((خيار عباد الله الذين إذا رُءُوا ذُكِر الله، وشرار عباد الله المشّاءون بالنميمة، المفرِّقون بين الأحبة الباغون للبرآء العنت))**[٦].

يبحثون عن العيوب، يبحثون عن النقائص، يبحثون عن الزلات، فهي عندهم فضائح يُبشِّرون بها الناس.

أين نحن من هذا؟، عمر بن عبد العزيز –رحمه الله– في أيام خلافته جاءه رجل ونصحه بنصيحة جاء فيها "اجعل كبير المسلمين عندك أبًا" هذه نصيحة نوجهها أيضًا إلى أنفسنا، "اجعل كبير المسلمين عندك أبًا، وصغيرهم ابنًا، وأوسطهم أخًا، فأي أولئك تحب أن تُسيء إليه؟"[٧] ضع نفسك مكان هؤلاء.

وفي كلام يحيى بن معاذ الرازي: "ليكن حظ المؤمن منك ثلاثة؛ إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تُفرحه فلا تغُمّهُ، وإن لم تمدحه فلا تذُمه"[٨].

البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (١٩٩٦/٤)، رقم: (٢٥٨٠).

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله (١٩٨٦/٤)، رقم: (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر (١٩/٨)، رقم: (٦٠٦٥)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابر (١٩٨٣/٤)، رقم: (٢٥٥٩).

(٣) أخرجه أحمد (٨٨/٣٧)، رقم: (٢٢٤٠٢).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٣٥٠/٧)، رقم: (٧٦٩٧).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٦٩٧)، والخطيب في تاريخ بغداد (٢٦٣/٥)، وابن عدي في الكامل (٦٣/٤)، وابن بشران في الأمالي (٤٤/٢)، وابن أبي الدنيا في الصمت (ص١٥٤).

(٦) أخرجه أحمد (٥٢١/٢٩)، رقم: (١٧٩٩٨).

(٧) انظر: جامع العلوم والحكم (١٠٠٠/٣)، وسير أعلام النبلاء (٤٢٩/٨).

(٨) انظر: جامع العلوم والحكم (١٠٠٠/٣).

كف الأذى صدقة، كما ثبت ذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم.

المقصود أن هذه النصوص استخلص منها العلماء -رحمهم الله- أن الجماعة والأُلفة أصل من أصول الدين يُضحّى في سبيله بالفروع حينما نختلف عليها.

يقول شيخ الإسلام -رحمه الله-: الاعتصام بالجماعة والأُلفة أصل من أصول الدين، والفرع المُتنازَع من الفروع الخفيّة، فكيف يُقدح في الأصل بحفظ الفرع؟[1].

نبي الله هارون -عليه الصلاة والسلام- لمّا خلّفه موسى -صلى الله عليه وسلم- في بني إسرائيل، وذهب إلى ميقات ربه فعبدوا العجل، فرجع غاضبًا، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه ماذا قال هارون -عليه الصلاة والسلام- معتذرًا بعد أن سأله موسى: **{يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي}**؟ [طه: ٩٢، ٩٣].

قال: **{يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}** [طه: ٩٤].

قال له: **{وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}** [الأعراف: ١٤٢]، قال: خشيت أن أتخذ قرارًا، أو موقفًا ينتج عنه انقسام، فيلحقني اللوم بعد ذلك وتقول: فرّقت بين بني إسرائيل. هذه قضية تُراعَى.

شيخ الإسلام له عبارة قريبة أيضًا مما سبق يقول: "وهذا الأصل العظيم، وهو الاعتصام بحبل الله جميعًا، وألا يتفرق الناس فيه هو من أعظم أصول الإسلام" يقول: "ومما عظُمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظُم ذمُّه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصية النبي -صلى الله عليه وسلم- في مواطن عامّة وخاصة".

لاحظ يقول: هذا الأصل العظيم هو من أعظم أصول الإسلام.

فهل أعطينا هذا الأصل حقّه؟ وهل راعينا هذا الجانب؟.

بحثتُ عن الأديانِ في الأرض كلِّها ... وجبتُ بلادَ الله غربًا ومشرِقا

فلم أرَ كالإسلام أدعى لأُلفةٍ ... ولا مثلَ أهْلِيه أشدَّ تفرُّقا

للأسف! مع كثرة هذه النصوص إلا أن الانقسام والتفرق على أشُدِّه، على أشُدِّه فيما يوجب الانقسام والتفرق، وما لا يوجب ذلك.

أصبحنا نختلف على أشياء، لربما مواقف تجاه أحداث، يمكن أن تُقوَّم على أنها مواقف سياسية في أحداث معينة، ثم بعد ذلك يحصل التطاحن والتفرق والتشرذم، ثم يُرمَى هؤلاء الذين اختلفنا معهم بعد ذلك بكل قبيح، ابتداءً بالعمالة، وانتهاءً بالمروق من الدين، على موقف!.

هذا موقف يمكن أن نقول: إنه خطأ، ما كنا نود أن هؤلاء وضعوا أنفسهم في مثل هذا الموقف، أنهم تصرفوا بهذه الطريقة.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٢/٢٥٤).

لكن أن يصير الحال إلى أن يُرمَى هؤلاء بالقبائح، وألا نتورع من رميهم بالضلال، وأن نسميهم بأسماء تُنسَب إلى الشياطين، وإلى الظلام، وما إلى ذلك لأننا اختلفنا معهم في موقف أو موقفين أو ثلاثة أو عشرة ؟!

ما الموقف من القضية الفلانية؟ ما الموقف من الحدث الفلاني في البلد الفلاني؟ هؤلاء كان لهم رأي، قل: هذا الرأي خطأ، أخطئوا فيه خطأً كبيرًا، أزروا بأنفسهم، لا إشكال، لكن أن يُجعل هؤلاء من الشياطين! وأن يُنسبوا إلى الضلال والظلام! وأن تُهدر كل تلك الجهود التي بذلوها من قبلُ في الدعوة إلى التوحيد، ولزوم الكتاب والسنة مثلًا إن كانوا يدعون إلى هذا –العقيدة الصحيحة ولزومها– لموقف سياسي؟! هذا خطأ، ما يجوز.

يا أخي أخطئوا، أزروا بأنفسهم، لكن أن يتحول هذا إلى عداوة ومنابذة وتراشق بهذه الطريقة، هذا لا يجوز، هذا حرام، بل هو من أعظم المحرمات.

إذا سمعه المؤمن ينبغي أن يتأدب بما جاء في سورة النور مما أدّبنا الله به **{وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ}** [النور: ١٦].

ينأى الإنسان بنفسه **{ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا}** [النور: ١٢] يرجع إلى نفسه، يقول: أنا يمكن أن أكون خائنًا؟، الجواب: لا، لا يمكن أن أبيع مصالح الأمة، وأن أخونها، وهؤلاء أيضًا نظن بهم هذا الظن. أنهم اجتهدوا، أخطئوا، لكن خونة؟! هذا ما يجوز.

ولا يغضب أحد منكم من مثل هذا الكلام حينما يسمعه؛ لأن الأهواء حاضرة في قلوبنا، نحتاج إلى تجرد كبير منها.

والفريق الآخر أيضًا كذلك لا يجوز أن ينظر إلى من خالفه ويرميهم بالألقاب القبيحة، وبالأمور العظيمة، وأن هؤلاء كذا وكذا وكذا، ومعاول هدم للإسلام.

معاول هدم للإسلام؟! هذا ما يجوز، هذا حرام، قل يا أخي: أخطئوا، قل: هذا غلط، لكن يتحول إلى هذه الحال من الرمي بالضلالة، وكل واحد يتهم الآخر بالعمالة لأعداء الله –عز وجل.

هذا ما يجوز، وليس هذا من آداب الاختلاف، أبدًا، يبقى هؤلاء إخوانًا لك، هم مسلمون، يجب أن تُراعَى فيهم حقوق المسلمين وإن اختلفت معهم.

الخطأ خطأ لا يُقر، وتبقى هناك قضايا لربما تكون اجتهادية، وكل شيء يوضع بنصابه في موقعه الصحيح.

على كل حال: أصبحنا نختلف أقول: حتى على المواقف التي ليس الاختلاف فيها باختلاف على أصل الدين.

يعني: نحن نتفق على العقيدة الصحيحة، نتفق على التوحيد، نتفق على لزوم الكتاب والسنة، لكن نختلف في تقويم موقف.

الذي حصل في مكان كذا هل هو صحيح أو لا؟ هل تؤيد أو ما تؤيد؟ والويل الويل لمن خالفنا، سياط من نار لا تُبقي ولا تذر، هذا لا يحلّ. وهذا من الانغماس في اتباع الأهواء.

((كونوا عباد الله إخوانًا)) الأخوة الإيمانية، حسن الظن بالمسلمين، هذا اجتهادهم، انصحهم، قدم لهم نصيحة، ذكّرهم، أما الرمي بالاتهام جُزافًا فهذا لا يجوز، لا يجوز لأي فئة كانت.

أنا لا أتحدث عن فئة معينة، أنا أتكلم عن جميع الأطراف، هذا التراشق بهذه الطريقة هذا حرام، سوء الظن حرام.

حينما نختلف على تقويم موقف من المواقف، ثم يتحول ذلك إلى تضليل هذا لا يجوز، هذا حرام، اجتهدوا فأخطئوا، نسأل الله أن يغفر لهم، ننصحهم، نُسددهم.

((انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا)) نكُفّه عن هذا الظلم، عن هذه الإساءة، عن هذه المواقف غير المُشرِّفة، حتى لا يستمر.

لكن المشكلة -كما سيأتي في أسباب الاختلاف- أنه حينما يقع أحد من الأشخاص، أو طائفة في خطأ في موقف نصوِّب إليه السهام، ونرميه عن قوس واحدة، وبعبارات قوية جدًّا وعنيفة.

فما الذي يحصل إن لم يتقِ الله، ويكون عنده من الدين ما يردعه؟، لربما يرتمي بأحضان شياطين الإنس والجن، ويتلقفونه ويقولون: اعمد إلينا نواسِك، إليّ إليّ، ما جعلك الله في دار مذلّة ومهانة ومَضيعة.

الحق بنا نواسِك، هذا من قديم أرادوا أن يتلقّفوا كعب بن مالك -رضي الله تعالى عنه- لما أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يُهجر وهو موقف حق بوحي.

فكيف إذا كان هذا باجتهادات معها لربما كثير من البغي؟، فإن الأعداء سينشطون أكثر في احتواء مثل هؤلاء الذين لم نُخفِ عداوتنا وبغضنا وحنقنا عليهم.

بعد هذا -أيها الأحبة- بعد هذه النصوص ننتقل إلى السؤال الآخر:

هل حققت الأمة ذلك؟ الأمة هل امتثلت وصارت أمة واحدة غير متفرقة ولا منقسمة ولا يوجد بينها هذا الاختلاف المذموم؟ هل كانوا كذلك؟

حينما نستعرض التاريخ والخلافات التي وقعت نعرف الجواب عن ذلك.

بقي الوحي القرآن ينزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- ثلاثًا وعشرين سنة، أو عشرين سنة على الاختلاف في المدة التي بقيها النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد بعثته، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يبلغ الدين للناس حتى أتم الله النعمة، **{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ}** [المائدة: ٣].

الصحابة كانوا يتلقّون المسائل العلمية والعملية بالإذعان والانقياد والتسليم؛ لأن ذلك هو القاعدة والأصل والأساس الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمن، **{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}** [الأحزاب: ٣٦].

{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [النور: ٥١].

{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء: ٦٥].

هذا هو شأن المؤمنين، ولا يصح بحال من الأحوال أن يوجد عند المؤمن تردد أو تخيُّر، أو أن يبقى في صدره حرج -مجرد الحرج- عن القبول والإذعان.

بقوا هكذا إلى وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- واستمرت الحال على استقامةٍ وصلاحٍ إلى أواخر عهد عثمان -رضي الله تعالى عنه وعن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلا من أظهر وِفاقًا وأضمر نفاقًا، فهؤلاء يُعاملون بحسب ما يُظهرون كما هو معلوم.

نعم، وقعت هناك مواقف لكنها عولجت في حينها، وقُضي على دابر الشر في وقتها، وأنا دائمًا أتأمل هذا أقول: لو كان هذا في زماننا، في وقتنا، في أيامنا ما الذي يحصل؟ كيف ستكون النتائج؟.

خُذ على سبيل المثال في حديث الإفك الطويل، وفيه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قام على المنبر، لاحظ في وقت كرب وشدة، يُرمى أطهر عِرض، عِرض النبي -صلى الله عليه وسلم- عِرض عائشة، عِرض أبي بكر.

قام على المنبر، فاستعذر من عبد الله بن أُبيّ بن سلول، قال وهو على المنبر: **((يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عنه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي))**[1].

جاء في هذه الرواية أنه قام سعد بن معاذ الأنصاري -رضي الله عنه- سيد الأوس، وهذا فيه إشكال؛ لأن سعد بن معاذ -رضي الله عنه- كان قد توفي قبل ذلك، استُشهد -كما هو معلوم- بعد أن حكم في بني قريظة.

وقد أُصيب يوم الأحزاب، فما أدرك هذا، لكن لعله قام بعض سادات الأوس، فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

هنا أخذت الحميّة سعد بن عُبادة -رضي الله عنه- وهو سيد الخزرج.

تقول عائشة -رضي الله عنها-: وكان رجلًا صالحًا. يعني: غير مُتّهم، نحن الآن لو حصلت مواقف انظر إلى التُّهم التي ستُوجّه، وما سيكون من مغبّة ذلك.

تقول: وكان رجلًا صالحًا، لكن احتملته الحميّة. بينهم منافسات ومنافرات في الجاهلية، ومعلوم أن عبد الله بن أُبَيّ الذي تولى كِبر هذا الإفك كان من الخزرج، وأم حسان بن ثابت كانت من الخزرج.

فقال سعد -في الرواية- لسعد بن معاذ -لكن كما قلت- قال: لعَمر الله لا تقتله، ولا تقدِر على قتله، فقام أُسيد بن حُضير وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عُبادة: كذبت لعَمرُ الله لنقتُلنّه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

النبي -صلى الله عليه وسلم- على المنبر، فتثاور الحيّان -الأوس والخزرج- حتى همّوا أن يقتتلوا، الموقف ما يحتمل.

النبي -صلى الله عليه وسلم- يريد أن يؤدب هذا المنافق، ثم تتحول القضية إلى مشكلة بين الأوس والخزرج، حتى همّ هؤلاء أن يقتتلوا، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يُخفّضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، تقول عائشة: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي.

لاحظ كيف تحولت القضية، لو كان في مثل أيامنا هذه ما الذي يحصل؟، نسأل الله العافية، نسأل الله العافية.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا (٣/١٧٣)، رقم: (٢٦٦١)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٤/٢١٢٩)، رقم: (٢٧٧٠).

هناك موقف آخر، وهو أن شأس بن قيس، وكان شيخًا عظيم الكفر، شديد الضَّغَن على المسلمين، شديد الحسد لهم.

مر على نفر من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه على المحبة وبينهم الألفة، فغاظه ما رأى من أُلفتهم وجَمَعَتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية.

فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيلة بهذه البلاد -يعني الأنصار-، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار.

فأمر فتىً شابًّا من يهود كان معهم، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعاث.

لاحظ يوم بُعاث هذا يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظَّفَر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، وكان القائد -قائد الأوس- هو حُضير بن سِماك الأشهلي، حضير الكتائب، لقب لشدة شجاعته وقوته وبأسه، والد أُسيد بن حُضير -رضي الله عنه- هو سيدهم، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البَياضي، فقُتل حُضير، وقُتل عمرو بن النعمان في هذه المعركة التي انتصر فيها الأوس.

فجاء هذا اليهودي، وبدأ يردد بعض الأشعار في المجلس التي قالها الفريقان في يوم بُعاث، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا.

حضرت الآن الحمية حتى تواثب رجلان من الحيين على الرُّكب، كل واحد جثا على ركبته، أوس بن قَيظي من الأوس، وجبّار بن صخر من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جَذَعة -نسأل الله العافية- يعني الحرب- تقولون فعلنا وفعلنا؟.

فغضب الفريقان جميعًا، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة، السلاحَ السلاحَ -أعوذ بالله- الظاهرة يعني الحَرّة، تواعدوا للقتال هناك، فخرجوا إليها، فبلغ ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم-، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: **((يا معشر المسلمين، اللهَ اللهَ أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألّف به بين قلوبكم؟))**[1].

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوّهم فبكوا وعانق بعضهم بعضًا، عانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس.

هذا موقف وُئد، لكن لو كان هذا في عصرنا الذي نعيشه، ماذا يمكن أن يقع لاسيما حينما نستصحب الحال التي صرنا إليها، وهي حال خطيرة، إن القامات تُدمّر وتُكسَّر، ما يوجد كبير، والمِعْوَل الكبير في هذا -نسأل الله العافية- هي هذه الوسائل الجديدة في الإعلام واتس اب، تويتر، وغير ذلك من المواقع والمدونات، وما يجِدّ، تُدمّر القامات، هذا الذي كان الناس يتمنون أنهم يرونه، ويجلسون إليه من أهل العلم والفضل والصلاح، يقال عنه -نسأل الله العافية- ما كنا نظن أن نعيش حتى نسمع مثل هذا الكلام.

---

(١) تفسير الطبري (٦/٥٥- ٥٦)

يقال: أبو جهل؟! أبو جهل؟!! هذا الرجل الذي شهدت له الأمة بالصلاح، والإصلاح والاستقامة والعلم والدين المتين يقال عنه هذا؟!

إذا كان هذا بهذه المثابة فماذا يقال عمن دونه من الأخيار، طلاب العلم، الدعاة إلى الله –عز وجل–؟!، ماذا يُنشر؟ ماذا يقال عنهم من مقاطع صوتية وأشياء مكتوبة وتغريدات وغير ذلك؟. فما يبقى كبير.

أحقر واحد وأصغر واحد ممن لا علم، ولا عمل ولا عقل، ولا رأي ولا أدب، ولا خُلُق يتكلم في قامات، يتكلم في أهل الخير والعلم والفضل والصلاح!.

والله ما ندري أحيانًا، والله ما ندري الكاتب هذا هو يهودي، هو نصراني، هو منافق، هو أحمق! ما تدري! وضعَ لقبًا، أو بيضة أو "أبو فلان الفلاني" "أبو شاس" أو "أبو هِزبر" أو "أبو فلان"، ويتكلم ويطعن الطعون العظيمة.

أُطْلعت على حساب لأحد الأشخاص، اسم أول مرة أسمع به ما كنت أظن أن أحدًا من أهل الإيمان يكتب هذا الكلام أبدًا! قلت: أعداء الإسلام يكتبون مثل هذه القضايا للإيقاع بين المسلمين.

ثم فوجئت أن الاسم حقيقي، يتكلم في قضايا كِبار، هل يُعقل هذا؟ اسم حقيقي، ويتكلم بهذه الطريقة!، لا يكاد يُذكر أحد إلا وكفّره من الأخيار والصلحاء، والرمي بالعظائم والضلال، ونحو ذلك.

هل يُعقل هذا؟!.

فحينما تُكسّر هذه القامات الناس يرجعون إلى من؟ لمّا تحصل قضية مثل هذه النبي –صلى الله عليه وسلم– موجود.

بعد النبي –صلى الله عليه وسلم– –كما سترون– يوجد أبو بكر، عمر، أمثال هؤلاء ينهون هذه القضية في ساعتها، لكن الآن يأتي من؟ الكل متهم، هذا الطرف يُلغي الطرف الآخر تمامًا، أو يلغي كل من خالفه من الأطراف ومن الرءوس، ومن العلماء والأخيار والصلحاء والدعاة إلى الله –عز وجل– ومن لهم قدم صدق في أي ميدان من ميادين الصلاح والإصلاح والخير والبر والمعروف.

وصلنا إلى حال لا أدري هل هي مقصودة، أو غير مقصودة، هل نحن نعي ما نفعل أو لا نعي نتصرف بدون وعي، حينما نهدم كل هذا البناء والأساس والأصل، ثم بعد ذلك ما يبقى عند الناس من يرجعون إليه؟.

ما الذي يحصل؟ لا يبقى فيها إلا غراب –نسأل الله العافية– ينعِب وينعق، لا يبقى إلا:

مشائيمُ ليسوا مُصلحين عشيرةً ولا ناعبٍ إلا بِبيْنٍ غرابُها

نصير إلى حال لا يوجد أحد يُرجع إليه، ولا يُقبل كلامه، مجرد ما يكتب كلمتين نصيحة أو توجيهًا أو عظة إلا كذا .. يُرشَق عن قوسٍ واحدة بالسب والشتم والقبائح، هذا يُعقل؟ الناس يرجعون إلى من؟ الناس كانوا يرجعون إلى علمائهم، لكن حينما نُسقط هؤلاء العلماء من يقود الناس غير الجُهّال؟ والجاهل لا يمكن أن يقود نفسه، الأعمى لا يمكن أن يقود الناس، وإلا فإنه سيقودهم إلى حتوفهم ولابد.

خذ هذا الموقف الآخر الذي يذكره جابر بن عبد الله –رضي الله عنه– في غزوة المصطلق.

يقول: كنا مع النبي –صلى الله عليه وسلم– في غزاة فكسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، كسعه: يعني: أن هذا الرجل كان فيه دُعابة ومرح، كسعه بمعنى أنه ضربه بظهر قدمه على مؤخرته، هذا يُقال له كسع.

والعرب تكره أشياء منها هذا، ومنها الضرب على القفا

وكنتُ أُرَى زيدًا كما قيل سيِّدًا إذا أنه عبدُ القَفا واللَّهَازِمِ

هذه أشياء تكرهها العرب، الضرب من القفا، أو الكسع بهذه الطريقة، فهذا الرجل عنده دُعابة وضحك ومزاح كثير فكسعه، وفي بعض الروايات أنهم استبقوا إلى الماء في غزوة المصطلق، فهذا الذي هو من موالي المهاجرين من غِفار، وهو مولى لعمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لطم هذا الرجل الذي هو من موالي الأنصار من جُهينة، وهو مولى لأبيّ بن كعب، لطمه على وجهه. فماذا حصل؟

قال الأنصاري -أو هذا المولى للأنصار-: يا لَلأنصار، وقال المهاجري: يا لَلمهاجرين، فماذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-؟، قال: **((ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة))**[1] يمكن هنا أن تحصل قضية، تحصل مشكلة، تحصل حرب.

فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((ما بال دعوى الجاهلية؟))**، ماذا قالوا؟ هذا قال: يا معشر المهاجرين، وهذا قال: يا معشر الأنصار.

أسماء شرعية ذكرها الله في القرآن **{وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ}** [التوبة: ١٠٠] **{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ}** [الحشر: ٨].

{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} [الحشر: ٩] فنعلم أن المهاجرين والأنصار أسماء شرعية، يحبها الله -عز وجل- لكن لما استُعملت على سبيل العصبيّة والحميّة كان ذلك من دعوى الجاهلية.

بمعنى أننا حينما نستعمل الأسماء الشرعية أيضًا على سبيل العصبية والحمية فإن هذا يكون من دعوى الجاهلية.

إذا كان استعمال هذا الاسم يكون سببًا للحمية والتعصب والبغي والظلم فإنه لا يجوز، ويكون ذلك من قبيل دعوى الجاهلية.

ولذلك قد ننتسب أحيانًا إلى بعض الأسماء الصحيحة، لكن نستعمل ذلك على وجه الحمية والعصبية، فنكون بذلك قد أسأنا إلى هذا الاسم الذي ننتسب إليه كثيرًا.

وكما قلت: ليست العِبرة بما ندّعيه، ولكن العبرة بما نحن عليه من العمل والحال والتقوى والإيمان والصلاح والإصلاح، العبرة بهذا.

وإلا فباب الدعوى واسع، قد تجد الرجل من أكثر الناس تحذيرًا من التحزّب -وينبغي أن يُحذَّر من التحزب، التحزب لا يجوز حرام-، ولكنك تجده من أكثر الناس انغماسًا فيه، هذا الذي يحذر الناس من خالفه لا يرقب فيه إلًّا ولا ذمة، ولا يرى له حُرمة ولا حقًّا من حقوق المسلمين، ويستحل عرضه، بل لربما يستحل دمه!.

لربما يحارب بعضنا التعصب أو التقليد، ولكن إذا نظرت تجد أنه منغمس في التقليد والتعصب إلى النخاع.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [المنافقون: ٦] (١٥٤/٦)، رقم: (٤٩٠٥)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا (١٩٩٨/٤)، رقم: (٢٥٨٤).

هو يتعصب لشيخه الذي يقرأ كتبه وينشرها ويذيعها، وعند نفسه أنه مُتّبع.

الذي يقلد الإمام أحمد، أو يقرأ كتب الإمام أحمد، أو الروايات عن الإمام أحمد، الإمام أحمد عالم بالحديث وعالم بالسنة، وعالم بالعقيدة، وعالم بالفقه، وعالم بالتفسير، والقرآن وغير ذلك، إمام من أئمة المسلمين، الشافعي، مالك، هذا مُقلّد وأنت غير مقلد؟!.

فتجد الجمع من الناس صبّة واحدة في هيئتهم وعملهم وصلاتهم وحركاتهم في الصلاة، كل هؤلاء درسوا كل قضية من هذه القضايا، وكل جزئية من هذه الجزئيات على حِدة وخرجوا بنفس النتيجة؟! هذا لا يمكن! غاية ما هنالك أنهم قرءوا كتب هذا العالِم الإمام وتأثروا بها، وصاروا يُطبّقون ما فيها بحذافيره، وقد يخالفه علماء آخرون، فصار هؤلاء بهذا الاعتبار مقلدين له شاءوا أم أبوا، هذا الواقع، فإذا حصل مع هذا تعصب ووَحشة ممن لا يوافقهم فهذا هو التحزُّب.

الحزب ما هو في كلام أهل اللغة؟ الفروق اللغوية للعسكري، وما تجدونه في بعض كتب اللغة، وكتب التفسير في قوله: **{كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}** [المؤمنون: ٥٣] مثلاً، الأحزاب، سورة الأحزاب ونحو ذلك: جماعة فيها غِلَظ

جماعة فيها غِلَظ، بمعني: ناس يجتمعون لبعضهم ويتناصرون فيما بينهم مع من يوافقهم، ومن لا يوافقهم يستوحشون منه، ينقبضون منه، لهم لربما مواقف سلبية تجاهه، هذا هو الحزب.

هؤلاء لهم شيوخهم، يعني في الاصطلاح المعاصر: قيادة وأتباع، هذا في الاصطلاح المعاصر، فقد يكون الإنسان ممن يحارب ذلك.

نحن نقول: التحزُّب لا يجوز، ولا يجوز للإنسان أن ينتسب إلى غير الأسماء الشرعية، أنا مسلم وكفى.

أنا من أهل السنة والجماعة وكفى، لكن قد يكون الواقع على خلاف ذلك، بمعنى أن الإنسان تجد أنه لربما يوالي من يوافقه في الاجتهادات، أو في محبة شيخه ومتبوعه، ويستوحش ممن خالفه.

هذا الصنيع هو التحزُّب، ماله معنى غير هذا.

حاربتَ التحزب، أو دعوت إليه، أقررته، أجزته، ينبغي أن تعرف هذا القدر فقط، هذا القدر ينبغي أن يُعرف.

حتى يعرف الإنسان موطِئ قدميه، فقد يملأ الدنيا كلامًا في التحذير من التحزب وهو واقع فيه! قد يملأ الدنيا نهيًا عن التقليد والتعصب، وما إلى ذلك، وهو منغمس فيه وهو لا يشعر، هو لا يشعر ويظن أن الآخرين هم الذين يقعون في التعصب والبلاء والتحزب والمشاكل هذه، وهو يقع فيه!.

فنحتاج أن نفتش عن أنفسنا، أن نراجع أنفسنا، أن نكون متجردين لرب العالمين، لا نلتفت إلى شيء آخر، يكون الحق هو رائد الإنسان.

هناك أيضًا إثارة بعض القضايا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- وُجدت، هناك من الصحابة -رضي الله عنهم- من حصل بينهم حوار ونقاش في القدَر، غضب النبي -صلى الله عليه وسلم- ونهاهم.

كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خرج وهم يتنازعون في القدَر، هذا ينزِع آية وهذا ينزِع آية، فكأنما فُقئ في وجهه حب الرمان، فقال: **((بهذا أُمرتم -أو بهذا وُكلتم- أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟، انظروا إلى ما أُمِرتم به فاتبعوه، وما نُهيتم عنه فاجتنبوه))**[1].

دعوا عنكم هذا الخوض، قطع هذا الطريق.

لكن هذا لو وقع لبعض المتأخرين كما سترون -إن شاء الله تعالى- في التاريخ عجائب وغرائب كلمة تقال تتحول الطائفة إلى طائفتين.

أشياء ما تدري هي محزنة، مضحكة، ناس هذه عقولهم؟

وهكذا بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وعند وفاته في مرضه أيضًا الصحابة -رضي الله عنهم- اختلفوا في بعض الأشياء، لكن لم يورث ذلك التفرق.

أترك الكلام في هذه القضية -إن شاء الله تعالى- إلى الليلة الآتية، وأسأل الله -عز وجل- أن ينفعنا وإياكم بما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين.

اللهم ارحم موتانا، واشفِ مرضانا، وعافِ مبتلانا، واجعل آخرتنا خيرًا من دنيانا، والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

---

(١) أخرجه أحمد (١١/٢٥٠)، رقم: (٦٦٦٨)، والترمذي، أبواب القدر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر (٤/٤٤٣)، رقم: (٢١٣٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

الاختلاف وموقفنا منه

(٣) الاستعراض التاريخي للخلاف وماهي الأسباب التي جعلت الأمة تختلف هذا الاختلاف المذموم؟

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

مرحبًا بكم أيها الإخوة والأخوات، وأسأل الله -تبارك وتعالى- أن يلهمنا رشدنا، وأن يهدي قلوبنا، وأن يسدد ألسنتنا، وأن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته.

أذكّر في البداية بما ذكَرتُه في الليلة الماضية أن نستمع لهذا الحديث، أذكّرُ نفسي وأذكركم جميعًا أن يكون هذا الحديث سببًا للتفكر والتدبر والاعتبار، وأن يستشعر كلُّ واحد منّا أنه المخاطَب بذلك، من أجل أن ننتفع.

فلا تنصرف الأذهان إلى غيرنا، فإني لا أوجّه هذا الخطاب إلى طائفة، أو إلى شخص، ولا يمكن أن تُوجَّه الأمثلة التي أذكرها إلى من قد يفترضه الذهن -ذهن السامع-، فإني لا أريد ذلك، إنما المقصود بذلك هو النصيحة لأنفسنا، أن ننصح أنفسنا، وأن نتذكر وأن نعتبر لئلا نقع فيما يسخطه الله -تبارك وتعالى.

بعد ذلك أقول في هذا الاستعراض التاريخي للخلاف، ذكرنا أنه في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت البوادر تُدفن وتُوءد في حينها، ذلك الرجل الذي جاء للنبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: يا محمد، اعدل، قال: **((ويلك، ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل...))** [(١)].

الذي قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله[(٢)].

هذه جرأة على النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- لكن كانت تنتهي في حينها، لم يكن ذلك ليمثّل في ذلك الحين في ذلك العهد النبوي انشقاقًا وتشعُّبًا وانشطارًا في المجتمع المسلم.

وإنما كانوا على الجادة -كما قلنا- إلا من أضمر نفاقًا، وأظهر طاعة وإسلامًا، فهذا أمره إلى الله -تبارك وتعالى.

نماذج من اختلافات الصحابة -رضوان الله عليهم-:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب من ترك قتال الخوارج للتألف، وأن لا ينفر الناس عنه (١٧/٩)، رقم: (٦٩٣٣) ومسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (٧٤٠/٢)، رقم: (١٠٦٣)، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى (٢٥/٨)، رقم: (٦١٠٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه (٧٣٩/٢)، رقم: (١٠٦٢).

اختلافهم عند مرضه:

أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– وقع بينهم شيءٌ من الاختلاف في مرض موته –صلى الله عليه وآله وسلم– وذلك أنه قال في ذلك المرض: ((هلموا أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده))، فقال بعضهم: إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قرِّبوا يكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والاختلاف، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((قوموا))[1]. هذا اختلاف وقع لكنه انتهى.

كذلك حينما قبض رسول الله –صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

والأحداث الكِبار يقع بعدها وعندها شيءٌ من الاضطراب كما هو معلوم.

وإنما سبّب كثيرًا من هذه الاختلافات التي نعيشها الآن أحداث كبار حصلت قبل عشرين سنة أو أكثر، ثم بعد ذلك أحداث تتابعت بعد ذلك.

وهكذا الفتن والحروب تتسبب عن تداعيات واختلافات يتفرق كثير من الناس بسببها، والمسدَّد والموفق من وفقه الله –عز وجل– وهداه .

اختلافهم حينما مات –صلى الله عليه وسلم:

اختلفوا حينما مات النبي –صلى الله عليه وسلم– ووقع لهم شيء من الاضطراب والصدمة، كما جاء في الصحيح من حديث عائشة –رضي الله تعالى عنها– أنها قالت: أقبل أبو بكر –رضي الله تعالى عنه– على فرسه من مسكنه بالسُّنْح –ناحية في المدينة– حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة –رضي الله عنها– فتيمّمَ النبيَّ –صلى الله عليه وسلم– وهو مسجّى بِبُرْدٍ حِبَرَة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبّله، ثم بكى، فقال: بأبي أنت وأمي يا نبي الله، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها.

يقول ابن عباس –رضي الله عنهما–: إن أبا بكر –رضي الله عنه– خرج، وكان عمر يكلم الناس، فقال له أبو بكر: اجلس، فأبى، فقال: اجلس، فأبى، فتشهد أبو بكر –رضي الله تعالى عنه– أي بدأ يتكلم–، فمال إليه الناس، وتركوا عمر، فقال أبو بكر –رضي الله تعالى عنه–: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمدًا –صلى الله عليه وسلم– فإن محمدًا –صلى الله عليه وسلم– قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقرأ عليهم: **{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}** [آل عمران: ١٤٤].

يقول: فوالله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل الآية حتى تلاها أبو بكر[2].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي –صلى الله عليه وسلم– ووفاته (٩/٦)، رقم: (٤٤٣٢)، ومسلم، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه (١٢٥٩/٣)، رقم: (١٦٣٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه (٧١/٢)، رقم: (١٢٤١).

الصدمة أنستهم هذا المعلوم المحفوظ المقرر في صدورهم وقلوبهم وأذهانهم.

وهكذا يحصل الذهول في الأحداث الكبار، فتحتاج النفوس إلى تذكير.

ومن هنا عقدنا هذه المجالس للتذكير وليس غير، ليس من شأننا أن نلمز أحدًا، أو نتكلم على أحد، فالإنسان تكفيه ذنوبه وخطاياه، وينبغي أن يكون شغله بها.

ولكنها النصيحة التي قال الله -تبارك وتعالى-: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [سورة العصر].

فهنا الناس صاروا يرددونها، يقول: فما يُسمع بشر إلا يتلوها.

وفي رواية في الصحيح عن عائشة -رضي الله عنها- فقام عمر، يقول: والله ما مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك، يعني: ما كنت أقول هذا تصنُّعًا، أو لغرض، وإنما كنت أعتقده، "وليبعثنّه الله فليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم"... [1]. إلى آخر ما قال.

فلما قال أبو بكر -رضي الله تعالى عنه- ما قال، وقرأ الآية انتهى كل شيء.

لم يوجد عند المسلمين طائفة تقول برجعة النبي -صلى الله عليه وسلم- أو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يمت، وإنما ذهب إلى ربه -تبارك وتعالى- وسيرجع، بل ذهب ذلك جميعًا بمجرد قراءة هذه الآية.

اختلفوا في موضع دفنه -صلى الله عليه وسلم:

اختلفوا أيضًا في موضع دفنه -عليه الصلاة والسلام- فقال بعضهم: يُدفن في مسجده عند المنبر، وقال آخرون: يدفن مع أصحابه في البقيع، هؤلاء جميعًا يقولون: يدفن في المدينة.

وقال بعضهم: يُدفن في مكة، فبها ولد، وبها قِبلته، وبها كانت بعثته ونزل عليه الوحي، وبعضهم يقول: يُنقل إلى بيت المقدس حيث الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام.

انتهى هذا النزاع والخلاف بالصديق -رضي الله تعالى عنه- فقد ذكر لهم الحديث: ((ما دُفن نبي قط إلا في مكانه الذي توفي فيه)) [2].

فرفعوا فراش رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذي توفي عليه، فحفروا له، ثم دُفن في حجرة عائشة -رضي الله تعالى عنها وأرضاها-، انتهى هذا الاختلاف.

اختلفوا في الخليفة بعد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم:

فقد جاء في الصحيح من حديث عائشة -رضي الله عنها- أن الأنصار قد اجتمعت إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة.

فقالوا: منّا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة، فجعل عمر يتكلم، فأسكته أبو بكر -

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "لو كنت متخذًا خليلاً" (٦/٥)، رقم: (٣٦٦٧).

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجنائز، باب ما جاء في دفن الميت (٢٣١/١)، رقم: (٢٧).

رضي الله عن الجميع-، عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيّأت كلامًا قد أعجبني خشيت ألا يبلغه أبو بكر.

ثم تكلّم أبو بكر، فتكلم أبلغ الناس -رضي الله عنه- وقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء.

فقال حُباب بن المنذر: لا والله لا نفعل، منّا أمير ومنكم أمير.

فقال أبو بكر: لا، ولكنّا الأمراء، وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب دارًا -يقصد قريشًا-، وأعربهم أحسابًا، فبايِعوا عمر، أو أبا عبيدة.

فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس[1].

انتهت هذه المشكلة، وطويت صفحتها، ولم يتسبب ذلك عن افتراق أو انقسام.

هؤلاء مجموعة لهم أمير وهؤلاء مجموعة لهم أمير، انتهى.

وأرجو أن تستحضروا هذه المواقف بعدما أذكر الجانب الآخر عند أهل الافتراق المذموم، كيف يختلفون على أمور تافهة.

ستضحكون من مُبكيات ومُضحكات، كيف يتلاعب الشيطان بهؤلاء!، وانظروا إلى حال أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

اختلفوا في مانعي الزكاة:

كيف يُتعامل معهم؟ هل يُقاتَلون؟ اختلفوا في تألّف هؤلاء، وقد ارتدت العرب في نواحي الجزيرة.

فقد جاء في الصحيح عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: لما توفي النبي -صلى الله عليه وسلم- واستُخلف أبو بكر، وكفر من كفر من العرب قال عمر: يا أبا بكر، كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله الا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله))**؟.

قال أبو بكر: والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عَناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لقاتلتهم على منعها.

قال عمر: فوالله ما هو إلا أنْ رأيت أنْ قد شرح الله صدر أبي بكرٍ للقتال، فعرفت أنه الحق[2].

انتهت المشكلة وسارت الجيوش تشرّق وتغرّب حتى أعادوا الناس إلى دين الله -تبارك وتعالى.

اختلفوا في جيش أسامة وإنفاذه:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: لو كنت متخذًا خليلا (٧/٥)، رقم: (٣٦٦٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٩٣/٩)، رقم: (٧٢٨٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله (٥١/١)، رقم: (٢٠).

فقد جهّزه النبي -صلى الله عليه وسلم- لغزو الروم، فكان بعض أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- يرون أن هذا الجيش يبقى، فالمدينة أحوج ما تكون إلى الحماية.

وأن الحال لا تُسعف لمنازلة الروم، ولكنّ أبا بكر -رضي الله تعالى عنه- وقف، وأصرّ، وامتنع من حلِّ لواءٍ قد عقده النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فكلموه في أسامة، وهو قائد هذا الجيش، ولم يجاوز السابعة عشرة من عمره، وفي الجيش من كبار الصحابة، ومن البدريين، والمبشرين بالجنة.

فأبى أبو بكر -رضي الله عنه- إلا أن يُنفذه بقيادة أسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنه وأرضاه.[1]

انظروا ما سيأتي بعد ذلك من اختلاف أهل الأهواء.

فمثل هذه القضايا كانوا يرتبون عليها أحكامًا بالكفر والردّة، ويستحلّون قتال من خالفهم في ذلك، كما سنرى.

موقف عمر -رضي الله عنه- من الفتن والاختلاف:

في عهد عمر -رضي الله عنه- وهو القمّاع للفتن، ولشياطين الإنس والجن، حينما تبدو أدنى محاولة في عهد عمر -رضي الله عنه- كان يقمعها.

إذا كان يمنع من الاختلاف في قضايا فقهية بين أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ويقوم على المنبر - كما سمعنا في الليلة الماضية- فكيف بما كان من قبيل الأهواء المضلّة؟

عمر -رضي الله تعالى عنه- كان قد أبقى كبار أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- في المدينة، وكان يتخوّف، كانت سياسة لعمر -رضي الله عنه- يتخوّف أن يتفرق أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- فيجتمع الناس في كل بلد على واحد منهم.

ثم بعد ذلك في المآل قد يؤدي هذا إلى شيء من التفرق والانقسام.

فكان يُبقي الكبار من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- عنده، وإذا طالبته الجيوش بمَدد لربما أرسل لهم واحدًا، ويقول: هذا بألف، ويكتفي بذلك -رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

وتعرفون خبر صَبيغ بن عِسْل الذي جاء يسأل عن متشابه القرآن، عراجين عمر، عمر كان يبحث عن رجل قد سمع عنه يسأل عن متشابه القرآن بين الأجناد -بين العسكر- يتتبع المتشابه، ويسأل عنه، فخبأ له عراجين، والعرجون: العذق الذي يكون فيه التمر إذا يبِس، فإنه يُربط ويضرب به.

يقال: عراجين، جمع عرجون، فدخل الناس يتغدّون عند عمر -رضي الله تعالى عنه- فجاء رجل، وعليه عمامة كبيرة، ولما تغدّى مع الناس، قال: يا أمير المؤمنين، **{وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا}** [الذاريات: ١- ٢] قال: أنت هو؟، وفي بعض الروايات، قال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ، متواضع، أنا عبد الله صبيغ.

فقال: وأنا عبد الله عمر، فأخرج العراجين، فجعل يضربه على رأسه حتى سقطت عمامته، وأدمى رأسه، ففعل به ذلك أيامًا، فقال: يا أمير المؤمنين، إن كنت تريد ما برأسي فوالله قد ذهب، وإن كنت تريد قتلي فأنت وذاك، قال:

---

(١) انظر القصة في سنن سعيد بن منصور (٣٦٨/٢)، رقم: (٢٨٩٠).

والله لو وجدتك محلوقًا لأخذتُ الذي بين عينيك[1]. لو وجدتك محلوقًا يشير إلى الخوارج.

((سيماهم التحليق))[2] في ذلك الحديث الذي ذكره النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، لو وجدتك محلوقًا، عمر -رضي الله عنه- كان محدَّثًا، وصاحب فراسة.

من أحواله لما كانت تُسيَّر الجيوش يأتون بالمدد من اليمن وغيرها إلى المدينة، ويذهبون إلى العراق، وإلى الشام، فخرج لهم بظاهرة المدينة يستعرض، فجاءت مجموعة شَبَبة، ضمن بعض هذه القبائل والوفود الذين جاءوا للغزو في حروب العراق والشام.

فجاء هؤلاء الجمع من الشباب بين هؤلاء الأجناد، فصرف عمر -رضي الله عنه- بصره، لم ينظر إليهم، كأنه كره النظر إليهم، كره شيئًا.

هناك من شاهد هذا الموقف، وهذا الانصراف عن هؤلاء واستغربه، لكن كانوا يهابون عمر -رضي الله عنه-، يتهيّبون سؤاله، فبقي ذلك في نفوس بعضهم.

يقولون: فرأينا عامّتهم يطاعنوننا يوم النهروان.

وهي الوقعة التي كانت بين الخوارج، وأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- بقيادة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- يطاعنوننا يوم النهروان.

هؤلاء ذهبوا إلى الغزو في العراق والشام، لكن عمر تفرّس فيهم الفتنة في وجوههم والشر، قبل ظهور ذلك بمدة طويلة، قبل أكثر من عشرين سنة.

فالشاهد أن عمر -رضي الله تعالى عنه- ضرب صبيغ بن عسل هذا، ثم بعد ذلك أمر به إلى البصرة، وكتب لأبي موسى الاشعري -وهو أمير البصرة حينها- ألّا يُجالَس ولا يُكلَّم، فكان الرجل إذا جلس إلى حلقة من الحلق التي في المسجد ولم يعرفوه قال بعضهم: هذا عَزْمة أمير المؤمنين، يعني: هذا الذي نهى أمير المؤمنين عن مكالمته ومجالسته، فينفضّون، فيبقى وحده.

وكان شريفًا في قومه فذلّ، حتى استقامت حاله، فكتب أبو موسى الأشعري -رضي الله عنه- لعمر -رضي الله عنه- بأن الرجل قد صحّت حاله، فأمر بمجالسته ومكالمته.

كم في تويتر الآن، وفي هذا الوسائل والوسائط وكم من قُحَمَةٍ في الفتن يحتاج إلى عراجين عمر!.

لما خرجت الخوارج بعد ذلك على عليٍّ -رضي الله عنه- قيل لصبيغ: قد جاء أوانك، فقال: لا، نفعتني موعظة الرجل الصالح.

بعض هؤلاء الذين يتكلّمون في أمور كِبار لا يحسنونها، هؤلاء قد لا يحتاجون إلى الرد العلمي، بعض هؤلاء الكُتّاب الذين يطعنون في شرائع الإسلام، ويشكّكون في أصوله وثوابته، هؤلاء قد لا يحتاجون إلى رد علمي،

---

(١) انظر: الشريعة للآجري (٢٥٥٦/٥)، رقم: (٢٠٦٤)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٧٠١/٤)، رقم: (١١٣٦)، والإبانة الكبرى لابن بطة (٤١٤/١)، رقم: (٣٢٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق، وأصواتُهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم (١٦٢/٩)، رقم: (٧٥٦٢).

لأنهم ليسوا بطلاب للحق أصلاً، وإنما هؤلاء يحتاجون إلى فعل عمر -رضي الله تعالى عنه- بصبيغ.

فيذهب ما بتلك الرءوس من الشُّبه القادحة في أصول الدين وكلّياته، والله المستعان.

لما قُتل عمر -رضي الله تعالى عنه- كُسِر الباب الذي دون الفتن، العلماء -رحمهم الله- يذكرون هذا الأمر.

الفتن والاختلاف في عهد عثمان وعلي -رضي الله عنهما:

حتى جاء عهد عثمان -رضي الله تعالى عنه- وبعد صدر خلافته اختلف قوم عليه، ثم بعد ذلك خرجوا عليه واستحلوا دمه -رضي الله تعالى عنه- فقتل مظلومًا، حتى إنه -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- لم يُدفن منذ البداية في البقيع، تخوفًا عليه.

الخليفة لم يدفن في البقيع! وإنما دفن في مكان، ثم بعد ذلك دخل هذا المكان في البقيع، لما وسّعت البقيع.

الخليفة الراشد صهر النبي -صلى الله عليه وسلم- من العشرة المبشرين بالجنة، قال فيه النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: **((ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم))** [1] " بعد أن جهز جيش العسرة.

ما استطاع أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يحملوه إلى البقيع؛ لأن أهل الفتنة قد يتصرفون تصرفًا لا تُحمد عواقبه بعد قتله -رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

هكذا أيضًا حدث الاختلاف في عهد علي -رضي الله تعالى عنه- ووقعت الوقائع: الجمل وصِفين، وحصلت حادثة التحكيم المعروفة.

ومن هنا خرج قوم على عليٍّ -رضي الله تعالى عنه- ورفضوا هذا التحكيم، وكفّروا الفريقين، أهل الشام وأهل العراق، بل كفّروا أنفسهم أنهم قَبلوا التحكيم؛ لأنهم هم الذين ألزموا عليًّا -رضي الله عنه- منذ البداية بقبوله.

فكفّروا أنفسهم، ثم قالوا: رجعنا إلى الاسلام، وطالبوا عليًّا -رضي الله عنه- بأن يُكفّر نفسه، وأن يقرّ على نفسه بالكفر، ثم يرجع إلى الاسلام.

وظهر في عهد علي -رضي الله عنه- خلافُ السَّبَئية، أتباع عبد الله بن سبأ الذي كان يُؤجّج الفتنة على عثمان -رضي الله عنه- حتى قُتل.

فجاء قوم قد غلوا في علي -رضي الله عنه- في ذلك العهد، وادّعوا فيه الألوهية، فلمّا أمر مولاه -يقال له قَمْبر- بأن يؤجج النار، أججها في خندق، فجعلوا يتهافتون فيها طواعية، ويقولون: وعجلتُ إليك ربي لترضى، فكان يقول: وما ذاك؟، قالوا: لا يعذب بالنار إلا رب النار، علمنا أنك هو.

المفتون يلقي نفسه بالنار طواعية، يظن أنه بذلك على هدى وحق وصواب، نسأل الله العافية.

في ذلك الوقت يأتي من يدّعي الألوهية بعلي -رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

ظهور الفرق الأخرى بعد الشيعة والخوارج:

في أواخر عهد الصحابة -رضي الله عنهم- ظهرت القدرية بعد الشيعة والخوارج، ثم أيضًا أنكر عليهم من كان في ذلك العهد من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- كابن عمر، وابن عباس، وابن أبي أوفى، وجابر،

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٦٢٦/٥)، رقم: (٣٧٠١).

وأنس، وأبي هريرة، وعقبة بن عامر، وغير هؤلاء ممن كان على قيد الحياة من أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم–، وأمروا بهجرهم ومباعدتهم.

وهكذا أيضًا ظهر في زمن التابعين واصل بن عطاء الذي نشأت على يديه فرقة المعتزلة، ووافقه عمرو بن عبيد، واعتزلوا مجلس الحسن البصري، وكانوا من تلامذته.

عُرف هؤلاء فيما بعد بالمعتزلة لهذا السبب أو لغيره مما قيل.

في أواخر القرن الأول ظهر هؤلاء، وظهر الجهم بن صفوان، وتكلم في خلق القرآن والجبر في القدر، أن الإنسان مُجبر على فعله، وقال بفناء الجنة والنار، وتعطيل الصفات عن الله –عز وجل–، وكثُر أتباعه في بعض نواحي المشرق.

يقول سعيد بن المسيِّب –رحمه الله–: وقعت الفتنة الأولى –يعني: مقتل عثمان– فلم تُبقِ من أصحاب بدر أحدًا، ثم وقعت الفتنة الثانية –يعني الحَرّة–، فلم تُبق من أصحاب الحديبية أحدًا، ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طَبَاخ. نسأل الله العافية.

يعني: لم ترتفع وللناس عقل، تطيش العقول في هذه الأحوال والفتن.

فالخوارج والشيعة حدثوا في الفتنة الأولى، كما يقول شيخ الاسلام ابن تيمية –رحمه الله–، والقدرية والمرجئة في الفتنة الثانية، والجهمية ونحو الجهمية خرجوا بعد الفتنة الثالثة، فصار هؤلاء من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا.

وهنا بدأ الانشقاق والانشعاب والتشتت والتشرذم، فصاروا يقابلون البدعة بالبدعة –كما سيأتي– والضلالة بالضلالة، وكثرت البدع والأهواء والفرق، واستعانوا على ذلك بمنطق اليونان والفلسفة بتلك الكتب التي قد ترجمت، فصاروا يستعينون بها على تقرير قواعدهم، وأصولهم ومبادئهم، ويردّون بذلك أيضًا على الخصوم. فكثر الجدل والكلام، والخوض في مسائل الدين، وقيل لهؤلاء: أهل الكلام.

قال جمع من المؤرخين، ومن كتبوا في الفرق: إن غَيلان الدمشقي أول من قال بالقدر والإرجاء. غيلان هذا قُتل بعد سنة مائة وخمسة، لاحظ الوقت، كان مبكرًا.

الجهم بن صفوان قُتل سنة مائة وثمان وعشرين للهجرة، قال: إن الإيمان هو المعرفة، لاحظ عقيدة المرجئة. الإيمان مجرد المعرفة!.

إذًا لو نظرنا إلى نهاية القرن الأول الهجري حتى منتصف القرن الثاني الهجري نجد أن رءوس الضلالة: واصل بن عطاء المتوفى سنة مائة وواحد وثلاثين، هذا مؤسس فرقة المعتزلة.

الجعد بن درهم قبله المتوفى سنة مائة وأربع وعشرين، كذلك الجهم بن صفوان المتوفى سنة مائة وثمان وعشرين، هؤلاء ثلاثة.

واصل بن عطاء جاء بعقيدة المنزلة بين المنزلتين، بأن الفاسق الملّي ليس بمؤمن ولا كافر، بل هو في منزلة بين المنزلتين وأنه مخلّد في النار.

أيضًا زعم أن أحد الفريقين المتحاربين من أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– أهل الشام وأهل العراق، أن أحد الفريقين فاسق لا بعينه، ولهذا طعن في عدالتهم.

وجاء من كلامه، وكلام أضرابه ما يدل على احتقارهم وازدرائهم، هؤلاء كان الواحد منهم يتبجّح أنه لو شهد عنده عليٌّ ومعاوية وعمرو بن العاص -رضي الله عنهم أجمعين- على حزمة بَقْل ما قبل شهادتهم، هؤلاء أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- صار يُنظر إليهم بهذا النظر!.

الجعد بن درهم هو أول من قال بخلق القرآن، وأنكر كلام الله -عز وجل-، وأنكر أن يكون الله قد اتخذ إبراهيم خليلاً، وهو أول من تكلم في الصفات وأنكرها، وتلقّى ذلك عنه الجهم بن صفوان.

الجهم هذا تبنى آراء الجعد بن درهم من نفي الصفات، والقول بخلق القرآن، وزاد على ذلك القول بالجبر في القدر أن الإنسان مجبر على أفعاله، وأن الإيمان هو المعرفة، وأن الكفر هو الجهل بالله فقط، إضافة إلى القول بفناء الجنة والنار، وأن علم الله حادث، وأن الله لا يعلم الأشياء قبل وقوعها، نسبة الجهل إلى الله، نسأل الله العافية.

بعد ذلك من منتصف القرن الثاني الهجري إلى أن رُفعت فتنة القول بخلق القرآن، بقيت هذه الفرق الكبار: الخوارج، الشيعة، المعتزلة، المرجئة، لكن حصل بينها تزاوج وتداخل، وتلقى بعض زعماء هؤلاء من بعض.

فالشيعة مثلاً من المتقدمين منهم مَن تبنى قول المُجسمة، هشام بن الحكم مثلاً كان يُعرف بهذا، لكن ذلك لم يلبث طويلاً، فقد حصل هناك تأثر بالمعتزلة في التجهم، ونفي الصفات، كما حصل ذلك أيضًا لبعض طوائف الخوارج، فإنهم -كما هو معروف إلى عصرنا هذا- يقولون بخلق القرآن، ونفي الرؤية، ونفي الصفات، هذا كله مما تلقوه من المعتزلة.

المعتزلة هم أكثر الطوائف إكبابًا على كتب اليونان والفلسفة التي تُرجمت بعد ذلك، وصاروا يدرسونها، ويشتغلون بها، ويقررون بها أصولهم، ويردون بقواعدها الجدلية على مخالفيهم، واستطاعوا أن يقنعوا الخليفة المأمون وحاولوا قبله بأبي جعفر المنصور.

لكن الذي حدث مع أبي جعفر المنصور: أن بعض المعتزلة لما أراد أن يقنعه بأن يحمل الناس على القول بخلق القرآن، قال: هذا لا يكون ويزيد بن هارون حيّ.

ويزيد بن هارون شيخ الإمام أحمد، قال: هذا لا يكون ويزيد بن هارون حيّ، قال: فابعثني إليه أكلمه، قال: اذهب إليه.

فجاء هذا الرجل إلى يزيد بن هارون، وقال: إن أمير المؤمنين يريد أن يُظهر القول بخلق القرآن، فقال: فاجلس فإذا صلى الناس تقوم، وتتكلم بعد الصلاة بحضور الجمع.

فجلس الرجل وفرح، وبعد الصلاة قام، وقال: إن أمير المؤمنين يريد إظهار القول بخلق القرآن.

فقال يزيد بن هارون: أمير المؤمنين لا يقول بذلك، فأحرجه وقطع عليه الطريق، وقطع على أبي جعفر المنصور.

فرجع الرجل إليه في حال من الحَيرة، وقص عليه ما وقع، فقال: ويحك، يلعب بك.[1] فقُطع الطريق على هذا

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٣٧/١١).

الرجل وأضرابه، ووُئدت هذه الفتنة.

لكن ظهر قرنها بعد ذلك، واستطاعوا أن يقنعوا المأمون، وحمَلَ الناس على ذلك، وأعلن هذه العقيدة بالقوة والسيف، والسوط والحبس.

العلماء منهم من مات في الحبس كالبويطي -رحمه الله- مات في قيوده، وهو من أكبر أصحاب الشافعي، جِيء به من مصر.

ومن أهل العلم من أظهر شيئًا من الموافقة بطريق التعريض، ومنهم من أبى.

الإمام أحمد -رحمه الله- كان على رأس هؤلاء، ووقع له ما وقع، توفي المأمون في تلك السنة -سنة مائتين وثماني عشرة للهجرة-، ثم جاء المعتصم، وحمل الناس على ذلك.

وحينما يَرى أمثال الإمام أحمد يُربط ثم يُجلد، وفي رمضان كان الرجل لربما يحصل عنده شيء من التردد. ويقول للإمام أحمد: قل شيئًا أجد لك فيه مخرجًا. يعني: شيئًا يحفظ ماء الوجه، قل شيئًا.

فكان الإمام أحمد -رحمه الله- يطالبهم بدليل من الكتاب أو السنة، وكان هؤلاء يحرضون المعتصم، ويقولون: أتدعُ قولاً قال به مَن قبلك؟.

يعني: المأمون، كيف تتخلى عن عقيدة وتتراجع عنها؟ فكان يُستفز بمثل هذا الكلام.

استمرت الفتنة، وجاء الواثق وسار على نهج المأمون والمعتصم، إلى أن جاء عهد المتوكل الذي تولى الخلافة سنة مائتين واثنتين وثلاثين للهجرة، فرفعت الفتنة في عهده، وأظهر الله السنة، وهنا خف وهج ضلال المعتزلة، لكن ذلك لم ينطفئ، وأذلهم الله -عز وجل-، لكن بقيت تلك الطائفة، وبقيت تلك الأفكار، واستمر ذلك عبر العصور والقرون على تفاوت.

انظر -على سبيل المثال- من الكتب الجيدة المفيدة كتاب: "تذكرة الحفاظ"، الذهبي -رحمه الله- حينما يتكلم عن طبقة من الطبقات يعقّب بتعقيب، هذه التعقيبات جيدة وجميلة ومفيدة.

أذكر لكم نماذج قليلة منها: يذكر فيها حال المسلمين في ذلك العصر، وحال أهل العلم، ويذكر بعض ما فيه عبرة.

يقول في الطبقة الخامسة: كان الإسلام وأهله في عز تام، وعلمٍ غزير، وأعلام الجهاد منشورة، والسنن مشهورة، والبدع مكبوتة، والقوّالون بالحق كثير، والعُباد متوافرون، والناس في بُلَهْنِية من العيش بالأمن، وكثرة الجيوش المحمدية[1].

من أقصى المغرب، وجزيرة الأندلس إلى المشرق -بعض الهند-، وكذلك أيضًا أفريقيا أرض الحبشة إلى الحبشة.

يقول في آخر الطبقة السادسة: لما قُتل الأمين، واستُخلف المأمون على رأس المائتين نجم التشيع. المأمون كان من ضمن الأشياء التي همّ بها: أن يُنادَى بحيّ على خير العمل في الأذان.

---

(١) انظر: تذكرة الحفاظ (١/١٧٩).

في عهد المأمون، هذا العهد فيه أئمة كبار مثل الإمام أحمد.

فالحاصل أنه نجم التشيع، وأبدى صفحته، وبزغ فجر الكلام –هذا كلام الذهبي– يقول: ونبتت حكمة الأوائل – يعني الفلسفة–، ومنطق اليونان، وعُمل رصد الكواكب –يعني: التنجيم في ذلك الوقت–، ونشأ للناس علمٌ جديد مُردٍ مُهلك، لا يلائم علم النبوة، ولا يوافق توحيد المؤمنين، قد كانت الأمة في عافية منه، وقويت شوكة الرافضة والمعتزلة، وحمل المأمون المسلمين على القول بخلق القرآن، ودعاهم إليه، فامتحن العلماء، فلا حول ولا قوة إلا بالله[١].

يقول الذهبي: إن من البلاء أن تعرف ما كنت تُنكر، وتُنكر ما كنت تعرف، وتُقدَّم عقولُ الفلاسفة، ويُعزل منقول أتباع الرسول، ويُمارَى في القرآن، ويُتبرم بالسنن والآثار، وتقع في الحَيرة، فالفرار الفرار قبل حلول الدمار، وإياك ومضلات الأهواء ومجاراة العقول **{وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** [آل عمران: ١٠١][٢].

ويقول في آخر الطبقة الثامنة: فلقد تقالّ أصحاب الحديث، وتلاشوا، وتبذّل الناس بطلبه، يهزأ بهم أعداء الحديث والسنة، ويسخرون منهم، وصار علماء العصر في الغالب عاكفين على التقليد في الفروع من غير تحرير لها، مكبّين على عقليات من حكمة الأوائل، وآراء المتكلمين، من غير أن يعقلوا أكثرها، فعمّ البلاء، واستحكمت الأهواء، ولاحت مبادئ رفع العلم وقبضه من الناس، فرحم الله امرأ أقبل على شأنه، وقصر من لسانه، وأقبل على تلاوة القرآن، وبكى على زمانه، وأدمن النظر في الصحيح، وعبد الله قبل أن يبغته الأجل، اللهم فوفق وارحم[٣].

وقال في آخر الطبقة التاسعة: ولقد كان في هذا العصر وما قاربه من أئمة الحديث النبوي خلق كثير وما ذكرنا عشرهم هنا، وكذلك كان في هذا الوقت خلق من أئمة أهل الرأي والفروع، وعدد من أساطين المعتزلة[٤]. إلى آخره.

الحاصل: أنه في أواخر خلافة علي –رضي الله عنه– ظهرت بدعة الخوارج والرافضة؛ لأنها متعلقة بموضوع الإمامة والخلافة، ثم حدثت بعد ذلك فتنة أهل الحَرّة، وقصة ابن الزبير في مكة، وظهر المختار ابن أبي عبيد بالعراق.

المختار ابن أبي عبيد كان من قواد ابن الزبير الكبار، ثم بعد ذلك لما رأى رُجحان الكِفة في بعض النواحي لأهل التشيع أظهر التشيع، ثم بعد ذلك ادّعى أنه يُوحى إليه.

ابن عمر –رضي الله عنه– كان زوجًا لأخت المختار الثقفي هذا، حتى جاءوا إليه، وفي بعض الآثار أنهم جاءوا إلى ابن عباس فقالوا: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه، فقال: صدق **{وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ**

---

(١) انظر: المصدر السابق (١/٢٤٠).

(٢) انظر: المصدر نفسه.

(٣) انظر: المصدر السابق (٢/٨٦).

(٤) انظر: المصدر السابق (٢/١٥٠).

لِيُجَادِلُوكُمْ} [الأنعام: ١٢١] [(١)].

المختار هذا هو أول من جاء ببدعة القول بالبداء، نسأل الله العافية.

ماذا كان يقول؟ كان يقول: إنه أُوحي إليه، وإنه سيحصل كذا وكذا وكذا، ويتلاعب بهؤلاء الحمقى، ثم لا يقع، فماذا كان يقول؟.

كان يقول: بدا لله، ما معنى بدا له؟ يعني: ظهر له أمرٌ كان مغيبًا، فتغير القدر بناءً على ذلك، يعني: جَعل اللهَ كخلقه، المخلوق يُغيّر قوله وحكمه ورأيه، فهذا -قبّحه الله- كان يقول بالبداء.

عقيدة القول بالبداء جاء بها هذا الرجل الضال، لاحظ في أي وقت؟ في زمن هؤلاء الصحابة -رضي الله عنهم- ابن عمر، ابن عباس، ابن الزبير، وأمثال هؤلاء لا زالوا على قيد الحياة، علماء أئمة كبار، أعلام الهدى، ومصابيح الدجى، ويظهر مثل هذا! ويجترئ هذه الجرأة، ويقول مثل هذا الكلام!.

هذا في أواخر عهد الصحابة -رضي الله عنهم- وحصلت -كما عرفنا- بدعة القدرية والمرجئة، وتكلموا في مسائل القدر والإيمان والوعد والوعيد.

أما نفي الصفات: فهذا جاء في عهد صغار التابعين في أواخر الدولة الأموية، وبداية الدولة العباسية، وهذا لما تسلط الأعاجم في عهد الدولة العباسية، وعُرّبت الكتب الأعجمية، كتب اليونان، وكتب الفرس، وكتب الهند، والروم التي كانت تُقرِّر العلوم الفلسفية، حصل بعد ذلك توسع في هذا الباب، فانتشر الرأي والكلام والتصوف والتجهم ونفي الصفات، كل ذلك حصل، وكل ذلك وقع، والله المستعان.

التصوف كان في البداية زهدًا، وردود أفعال لحالات الترف التي كانت في عصر بني أمية، ثم بعد ذلك تحول إلى شيء آخر.

أول دُويرة بُنيت للصوفية كانت في البصرة، وانظر إلى الطرق الصوفية الآن من شرق العالم الإسلامي إلى مغربه.

وكيف صار ذلك دينًا يُدان الله -عز وجل- به، ويُعقد عليه الولاء والبراء، ويتْبع هؤلاء الملايين من الناس.

الأصول التي ضلّ بها هؤلاء من أصحاب الأهواء والتفرق ذكر بعض أهل العلم أنها سبعة: القول في ذات الله، والقول في صفاته، والقول في أفعاله، والقول في الوعيد، والقول في الإيمان، والقول في القرآن، والقول في الإمامة.

فالمُمثّلة ضلّوا في ذات الله، والجهمية ضلوا في الصفات، والقدرية ضلوا في الأفعال، والخوارج ضلوا في الوعيد، والمرجئة ضلوا في الإيمان، والمعتزلة ضلوا في القرآن، والرافضة ضلوا في الإمامة.

هذه كانت البدايات، وإلا فإن أصحاب هذه الفرق كانوا قد تلقّى بعضهم عن بعض، وتأثر بعضهم ببعض، ومن ثم تلاقحت الأفكار عندهم، وامتدت هذه الضلالات من طائفة إلى طائفة، فصارت الطائفة الواحدة تجمع مع ضلالها الأول ضلالات أخرى تضيفها إلى انحرافها، وذلك مما اقتبسته من الفرق الأخرى المنحرفة.

---

(١) انظر: المعجم الأوسط (٢٨٣/١)، رقم: (٩٢٤)، وأنساب الأشراف للبلاذري (٤٤٦/٦).

بعد هذا العرض التاريخي وسيأتي في التاريخ أشياء وأشياء أيضًا في مواضعها -إن شاء الله-:

سبب الانحراف والاختلاف:

ننتقل بعد ذلك إلى السؤال آخر:

ما الذي حدث؟ ما السبب؟ ما الذي أوجد مثل هذه الانحرافات؟ ماهي الأسباب التي جعلت هذه الأمة تختلف هذا الاختلاف المذموم؟

هذا الاختلاف منه ما يرجع إلى أمور منهجية، تتصل بالنظر والتلقي والاستدلال، وهذه الجملة تحتها فرعان:

الأول: يعني ما يتعلق بالنظر والتلقي والاستدلال هناك انحرافات وقعت من جهة مصادر التلقي، وهناك انحرافات وقعت بسبب طريقة النظر والاستنباط، والاستدلال والفهم.

يعني: على غير فهم السلف الصالح -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

نأخذ الجانب الأول: وهو ما يتعلق بمصادر التلقي.

مصادر التلقي معروفة، الكتاب والسنة، وما يرجع إلى ذلك من الإجماع والقياس، فهما راجعان إلى هذين الأصلين الكتاب والسنة.

هناك مصادر أخرى مختلف فيها، كقول الصحابي، وهو ليس بحجة رسالية، وإنما هو حجة بيانية، يعني: عند القائل به، فهو حجة بشروط، يكون ذلك مما يُبين عن أمر قد خفي علينا من حال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو فعله أو مقاله.

لكن كلامه ليس بوحي، هذا متفق عليه -أعني الصحابي-، وهكذا ما يتعلق بسد الذرائع، والمصالح المرسلة، وعمل أهل المدينة، هذه من الأصول المختلف فيها.

الزيادة على مصادر التلقي:

أولئك الذين وقع عندهم الخلل من هذه الحيثية -من جهة مصادر التلقي- فإن هذا تارة يكون بالزيادة على هذه المصادر، وتارة يكون بالنقصان منها، يعني: إلغاء بعض هذه المصادر.

الزيادة مثل ماذا؟ انظر كيف الشيطان يجعل الحُجب والحواجز، أنا كثيرًا ما أتأمل أقول: كيف يضل هؤلاء الناس وكتاب الله موجود وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- موجودة، كيف يضلون؟ ستعرفون الآن كيف يضلون.

الشيطان ليس بذي غباء وغفلة، وإنما عنده من الحِذق، وطرق الإضلال ما يجتال به كثيرًا من الناس من الأذكياء فضلاً عن غيرهم.

فالزيادات على هذه المصادر: خذ مثلاً الصوفية يقول لك: عندنا مصادرنا، ما مصادركم؟

قالوا: عندنا أولاً الإلهام، حدثني قلبي عن ربي، أنتم عندكم إسناد طويل، حدثنا فلان، قال البخاري: حدثنا فلان، أخبرنا فلان، قال فلان، حدثنا عن فلان.

أنا حدثني قلبي عن الحي الذي لا يموت، مباشرة.

وقفت على رسالة لابن عربي الصوفي المعروف، ينصح فيها الرازي صاحب التفسير المتكلم المعروف من كبار

علماء أهل الكلام يقول له: يا أخي، ما تحتاج إلى هذا العمر المديد في البحث والتنقيب والدراسة، وإنما هو خلوة وكشف.

فعندهم الكشف الصوفي بأنواعه الثلاثة:

عندهم كشف بصري، يرى أشياء ما يراها الناس، يعني: يرى أشياء على بعد آلاف الكيلومترات، ويقول لك: حصل في المكان الفلاني الشيء الفلاني، هذا الكشف البصري.

وعندهم الكشف السمعي، بمعنى أنه يسمع أشياء على بعد آلاف الأميال، ويقول: فلان قال كذا، فلان يستغيث بالقطب، أو بالشيخ، أو نحو ذلك.

وعندهم الكشف العلمي بمعنى أنه يصير عنده من العلوم والمعارف ما لا يحصّله بالطلب والدرس، وإنما بالإلهام.

هذا الذي قال فيه صاحب مراقي السعود في أصول الفقه:

ويُنبذ الإلهامُ بالعراءِ*** أعني به إلهامَ الأولياءِ

لمّا ذكر المصادر ذكر المصادر المنحرفة التي لا عبرة بها، منها هذا الإلهام، حدثني قلبي عن ربي، هذا الذي تتحدث معه تقول له: قال الله، قال رسوله، أخرج البخاري في صحيحه، يقول: وقّف، أنا عندي مصدر آخر، أقرب من هذا كله، ولست بحاجة إلى علومكم يا أهل الظاهر.

من الزيادة على مصادر التلقي على سبيل المثال عند الطوائف: الشيعة، الرافضة منهم يقولون بعصمة الأئمة.

هؤلاء الأئمة عندهم قد تحققت لهم العصمة، بمعنى أن الواحد منهم لا ينطق عن الهوى، فكلامهم تشريع؛ لأنه معصوم، فيتلقّون عنهم.

ومعلوم أن هؤلاء إنما مبنى الدين عندهم على الكذب، فهم أكذب الطوائف، فصاروا يُلفقون على هؤلاء الأئمة من الأكاذيب ويضيفون إليهم أشياء كثيرة جدًّا ما قالوها.

وملئوا الدواوين والكتب بهذه المرويات المكذوبة عن أئمة أهل البيت، فهؤلاء صار عندهم من الدين في الأصول والفروع ما لم يُنزّل الله -عز وجل- به سلطانًا، وإذا سُئلوا من أين لكم هذا؟ قالوا: هذا تلقيناه عن الأئمة، وهم معصومون.

أيضًا إذا نظرت -وهذا كله للتمثيل فقط- إلى أصحاب المدرسة العقلية قديمًا وحديثًا، قديمًا المعتزلة، وامتداد هذه المدرسة إلى اليوم بما يسمى بالتنويريين والعقلانيين، وما إلى ذلك من الأسماء المعروفة.

وقد يتأثر بهم بعض من لا بصر عنده أصلاً بأصول هؤلاء ومبادئهم، لكنه يتلقى ذلك عبر دورات، أو كلمات في تغريدات، أو إشارات عن طريق بعض ما يقدم في بعض القنوات الفضائية، دورات في البرمجة العصبية، دورات في بعض المهارات، تطوير الذات، وما إلى ذلك، ولا أعمم الحكم، ولكن أقول: يوجد في بعضها.

لا تُؤجّر عقلك، طيب ما هو المطلوب؟ المطلوب الرجوع إلى المربع البائس الذي ضلّ فيه من ضلّ من المعتزلة وأضرابهم من طوائف الجهمية، وعلماء الكلام، ضخّموا العقل، وجعلوه أصلاً -كما سنرى- وجعلوه المُعوَّل، والمقدّم والمتبوع، وجعلوا النقل عاضدًا وتابعًا له.

فإذا تعارض عندهم العقل والنقل فالمقدَّم عندهم هو العقل؛ لأنه قطعي بزعمهم، وأن العقائد لا يصح أن تُبنى ولا تُؤسس إلا على القطعيات، وأن هذه القواطع يجب أن تكون عقلية، وليست نقلية، حتى المتواتر؟ طبعًا هم يقولون: أكثر الأحاديث آحاد، والآحاد يفيد الظن، وهذا الكلام غير صحيح بهذا الإطلاق.

نقول لهم: سلّمنا جدلاً، حتى المتواتر؟ القرآن متواتر، قالوا: المتواتر قطعي في الثبوت، ولكنه غير قطعي في الدلالة، لأنه يتطرق إليه أنواع الاحتمالات من تخصيص العام، وتقييد المطلق إلى آخره.

نقول: عجبًا، إذًا لا يُستفاد من نصوص الوحي من الكتاب والسنة في أبواب الاعتقاد على سبيل الاستقلال والابتداء.

قالوا: لا يمكن، لأنها ظنيّة، وإنما يُرجع في ذلك إلى القواطع العقلية، العقل.

نقول لهم: ها أنتم تنتسبون إلى العقل، وتُعظمون العقل، وقد ألّهتم العقل، وتركتم علوم الكتاب والسنة، وقد اختلفتم هذا الاختلاف الكبير، وصار المعتزلة طوائف يكفّر بعضها بعضًا، فأين العقل الذي تزعمون؟

قالوا: هي القواعد والأصول التي نسميها بالعقليات تُعرض عليها النصوص.

نقول: هذه القواعد تختلفون فيها، وأنتم تعتقدون أنها قواعد صحيحة، والواقع أنها غير صحيحة، وتسمية هذه بقواعد عقلية لا يغير من الحقيقة شيئًا.

شيخ الإسلام –رحمه الله– في مثل كتابه: "درء تعارض العقل والنقل" و"شرح الأصفهانية" يفكك هذه القواعد، ويبيّن فسادها وبطلانها تمامًا.

فهذه ليست بقواعد صحيحة، ولا أدل على هذا من كثرة الاختلاف بينكم، فجاءت طائفة، وقالوا: نعم نحن نعترف بأن العقل واتباع العقل أورث هذا الاضطراب، والحيرة، والاختلاف.

ولذلك لا نؤمن إلا بالحس، ما رجعوا للكتاب والسنة، قالوا: الحس فقط هو الذي لا يُخطئ، الحواس الخمس. إذًا لا حاجة للوحي ونزول القرآن، ومشكاة النبوة، الحس عند كل أحد.

ما الحاجة إلى بعث الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام–؟ الذي حصل أنه جاءت طائفة وقالوا لهم: حتى أنتم يا أهل الحس فالحس يُخطئ، والخداع البصري لا يُنكَر، والسمعي كذلك.

فالإنسان يتوهم أشياء يشاهدها، ولا حقيقة لها، ويرى السراب من بعيد كالماء، ولا حقيقة له، ويرى العصا في الماء منكسرة مائلة، وليس بها انكسار، ويرى الإنسان من بعيد كهيئة الشجرة، والشجرة كإنسان أو فرس، فأين الحس؟.

يرى النجم صغيرًا، وهو ضخم هائل، لكن البعد، وهكذا يرى الألوان في الماء والهواء، وما إلى ذلك في أوقات مختلفة من ساعات الليل والنهار على غير حقيقتها، قالوا: الحس يُخطئ.

فجاءت طوائف من السفسطائية، وأهل الجهالات والسفسطة الذين يقولون: لا ندري، ما يوجد شيء معلوم ولا شيء معروف، ما نعرف شيئًا، لا نؤمن بالحس، ولا نؤمن بالعقل، ولا نؤمن بالوحي، هكذا يقولون، الضياع الكامل، فنسأل الله –عز وجل– العافية.

واليوم يقال للشاب الصغير: لا تؤجّر عقلك، فيُصدِّق، ويأتي يتفلسف بها ويرسلها بتغريدة، ويظن أن تحتها شيئًا،

وما علم أن هذا منبت الضلالة، لا تؤجر عقلك، ماذا يعني؟ يعني: اعرض النصوص من الوحي الكتاب والسنة على عقلك، فما قَبِلَه عقلك قبلتَه، وما رده عقلك رددتَه.

ما هذا العقل الذي لو سُئل عن أشياء بسيطة ما عرفها؟!.

الروح بين جنبيه لا يدركها، ما هذا العقل؟!، عقل ضعيف وقاصر.

لو سُئل عما يجري في داخل جسده، في عروقه وعصبه والأعضاء الداخلية، وما إلى ذلك، فهو لا يعرف ولا يدرك **{وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}** [الإسراء: ٨٥].

فيُؤتى بنصوص الوحي وتعرض على هذا العقل الصغير القاصر الضعيف، ويقال: ما قبله العقل نقبله.

إذًا صار المتبوع هو العقل، وصار أقوى من النقل وأبصر من الوحي، هذا كلام كبير، لكن هو لا يدري ما تحته.

ثم هذا العقل الذي يريد أن يعرِض عليه النصوص، هو يريد أن يفهم النصوص بهذا العقل، ولا يريد فهوم العلماء الذين شابت مفارقهم وهم يدرسون المبادئ، مبادئ العلوم، علوم الآلة، وعلوم الغاية، وأفنوا عقودًا من حياتهم، الواحد يدرس سبعين سنة وأكثر حتى شاب في العلم، ويأتي من لم يقرأ إلا تغريدات، وإن طالت قراءته قرأ مطوية، ويقول: لسنا بحاجة إلى فهمهم.

نحن نفهم، والله أعطانا العقل، ولا يمكن أن نؤجره لأحد، كائنًا من كان.

ما شاء الله، بخٍ بخٍ على هذا الفهم، ما شاء الله البصر النافذ، والهدى الكامل!. هذا منبت الضلالة، لكني أعلم أن الكثير ممن يرددون هذا لا يعرفون ما تحته.

هم يدرسون ذلك في دورات، فكّر، استنتج، افهم، لا تُؤجر عقلك، وعبارات تُعرض لهم بالبوربوينت، وتُكتب لهم بطرق، ويحضر دورة بخمسمائة، أو بخمسة آلاف، ويأتي ويحضر المجلس، ويقول: أنا حضرت دورة، وما خرج منها إلا بهذه الضلالات، للأسف الشديد، والله المستعان.

قارن، انظر بين حال هؤلاء وما وقع للنبي -صلى الله عليه وسلم- مع عمر -رضي الله عنه- لما أتى النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي -صلى الله عليه وسلم- فغضب وقال: **((أمتهوِّكون فيها يا ابن الخطاب؟، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني))** [(١)].

نسخة من التوراة، وهذا يقول: عقلي، وذاك يقول: المنطق والفلسفة والقواعد والمقررات المنطقية والفلسفية، صارت هذه هي المصادر والمراجع التي يُعوّل عليها وتُحاكم إليها النصوص.

انظر إلى أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- العلماء والرجوع إلى العلماء.

الأسود النخعي من علماء التابعين وعبّادهم. اقرءوا تراجم هؤلاء من النَّخعيين عبد الرحمن والأسود، وأمثال

---

(١) أخرجه أحمد (٣٤٩/٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٧/١)، رقم: (١٧٤).

هؤلاء، اقرءوا في مثل: سير أعلام النبلاء، أئمة كبار، تراجم ثرية.

الحاصل أن الأسود -رحمه الله- قال: أصبت أنا وعلقمة صحيفة، فانطلق معي إلى ابن مسعود بها وقد زالت الشمس، أو كادت تزول، فجلسنا بالباب، ثم قال للجارية: انظري من بالباب، فقالت: علقمة والأسود، فقال: ائذني لهما، فدخلنا، فقال: كأنكما قد أطلتما الجلوس؟ قلنا: أجل، قال: فما منعكما أن تستأذنا؟ قالا: خشينا أن تكون نائمًا، قال: ما أحب أن تظنوا بي هذا، إن هذه ساعة كنا نقيسها بصلاة الليل، فقلنا: هذه صحيفة فيها حديث حسن، فقال: يا جارية هاتي الطَّست واسكبي فيه ماء، قال: فجعل يمحوها بيده، ويقول: **{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ}** [يوسف: ٣] ، فقلنا: انظر فيها فإن فيها حديثًا عجبًا، فجعل يمحوها ويقول: ((إن هذه القلوب أوعية، فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره)) [(١)].

يقول أبو عبيد القاسم بن سلّام -رحمه الله- المتوفى سنة مائتين وأربع وعشرين من أئمة أهل السنة: إن هذه الصحيفة أُخذت من بعض أهل الكتاب، فلهذا كرهها عبد الله[(٢)].

ما انتظر، وما قال: نقرأ، وهذه مصادر في الثقافة تنضاف إلى الثقافة التي عندنا من أجل أن لا يكون هناك إنكفاء على الذات، وأحادية في التفكير، وتقوقع في الفِكر، والعبارات السوقية التي نسمعها أحياناً تُكرر، والله المستعان.

جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود، فقال: علمني كلمات جوامع نوافع، فقال: ((تعبد الله، ولا تشرك به شيئًا، وتزول مع القرآن أينما زال، ومن جاءك بصدق من صغير أو كبير وإن كان بعيدًا بغيضًا فاقبله منه، ومن جاءك بكذب وإن كان حبيبًا قريبًا فارده عليه)) [(٣)].

بهذا كانوا أئمة، أئمة هدى، هذا بالنسبة للزيادة، وهذه مجرد أمثلة، وإلا فهناك مصادر أخرى عند طوائف كثيرة من الضُّلال والمنحرفين.

---

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله (٢٨٣/١)، رقم: (٣٥٨).

(٢) المصدر السابق.

(٣) مساوئ الأخلاق للخرائطي (ص: ٧٢)، رقم: (١٣٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

الاختلاف وموقفنا منه

(٤) مواصلة الحديث في الأسباب التي جعلت الأمة تختلف هذا الاختلاف المذموم

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فنواصل الحديث في الكلام على أسباب الاختلاف التي تعود إلى مصادر التلقي وطرق الاستدلال.

ذكرنا نماذج من الزيادة على المصادر الصحيحة، وأما ما يتعلق بالنقص من هذه المصادر فيمكن أن نمثل لذلك بما وقع لطوائف من أهل الكلام حينما جعلوا معوَّلهم على العقل، فأدى ذلك إلى جعل النقل غير صالح للاحتجاج في أبواب الاعتقاد التي يُطلب فيها القطع واليقين كما يقولون.

فجعلوه تابعًا للعقل، إذًا عندهم لا يصح أن يكون ذلك على سبيل الاستقلال في الدِّلالة على التوحيد والإيمان، و ما ينبغي أن يعتقده المؤمن، وبعض الطوائف نقص من هذه المصادر، فرَدّ سنة رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم–، قالوا: لا حاجة إلى السنة، هذا وقع فيه طوائف مختلفة.

الخوارج –على سبيل المثال– منذ القدم طعنوا في النَقَلة من أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– فلما كفّروهم ردّوا هذه السنن، فضلّوا، والسنة شارحة للقرآن.

وكذلك أيضًا الذين طعنوا في أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– من الرافضة، وكفّروهم، إلا نفرًا يسيرًا، هؤلاء ألغوا سنة رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم.

كذلك أيضًا الذين قالوا لا يُحتج بخبر الآحاد في مسائل الاعتقاد، فهذا رد جزئي للسنة، واليوم تسمع من بعض المنحرفين في هذا العصر من لربما يظهر من كلامه تعظيم القرآن، وأن القرآن قد احتوى على الهدى الكامل، وأن الله جعله تبيانًا لكل شيء، وأن هذا القرآن مشتمل على ألوان الهدايات، فإذا سمعت كلامه، قلت: يا فتاح! لعل الله فتح على قلبه وهداه.

وإذا به يرمي من بعيد إلى أمرٍ آخر يريد أن يقول: ما الحاجة إلى السنة؟ لسنا بحاجة إلى السنة، يكفينا القرآن، لأن هؤلاء إذا ألغوا سنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فالقرآن كما قال عليٌّ –رضي الله عنه– وجمعٌ من السلف: "حمّالٌ ذو وجوه"[1].

بمعنى أن ألفاظ القرآن تحتمل المعاني المختلفة، ولذلك عَمِدت الطوائف والفرق للاحتجاج بآيات من القرآن.

القدرية بطوائفها من الذين ينفون القدر، أو الذين يقولون بالجبر يحتجون بآيات من القرآن، وكذلك الخوارج والمعتزلة من الوعيدية، وما يقابلهم من المرجئة، هؤلاء يحتجون بآيات من القرآن، وهؤلاء يحتجون بآيات من القرآن، ولكن السنة هي التي تشرح القرآن، مثل هؤلاء يقال للواحد منهم: هل تصلي أو لا تصلي؟ قبل النقاش

---

(١) انظر: التنوير شرح الجامع الصغير (٤٣٨/١).

معك، من كان لا يصلي فإن النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: **((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر))** [٢].

فإذا قال: أصلي، نقول له: كم تصلي الظهر؟ وكم تصلي العصر؟ وكم تصلي المغرب؟ وكم تصلي العشاء؟ وماذا تقول؟ وماذا تقرأ في الركعة الأولى والثانية والقيام والركوع والسجود؟ فلابد أن يرجع إلى السنة، وأن يذكر ما ورد في السنة، لأن ذلك لم يرد في القرآن، فيكون قد نقض أصله.

وإذا حصل النقض بمثال فإن ذلك يكفي في الإبطال، ما تحتاج إلى تطويل، قل له: الحق بأهلك وتدبّر وتبصّر في باقي الأمثلة حتى لا يضيع الزمان بجدل لا طائل تحته.

قل له: أجبت نفسك، إلا إذا قال: إنه عفيف الجبهة لا يصلي، ولا يسجد لله –عز وجل–، فهذا ليس بحاجة إلى نقاش في السنة، وإنما بحاجة إلى نقاش آخر.

فالمقصود –أيها الأحبة– أن النقص يكون بهذا الإلغاء للوحي أو لبعضه.

كذلك أيضًا رد الإجماع مثلًا، رد القياس الصحيح بشروطه وأركانه، هذا كله من النقص.

هناك أمر آخر، الجانب الآخر في الانحراف في هذا الباب، وهو:

طريقة الاستدلال، والتعامل مع النصوص:

قد يقول: أنا أؤمن بالكتاب والسنة، وعلى العين والرأس، أقبل عن الله ما جاء عن الله، وأقبل عن رسول الله ما جاء عن رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– ولكن، لكن ماذا؟ قال: لكن أفهمها، أفهمها بحسب المعطيات التي وُجدت في هذا العصر، فلكل أهل زمان عقول، ولكل زمان فهم ومصطلحات ولغة ومعايير، فأنا لست بملزمٍ بفهم أحد.

فهْمُ السلف الصالح –رضي الله عنهم– الذين خُوطبوا بالقرآن وهم أعلم الناس بالوحي بالكتاب والسنة وبشرائع الدين وأبرّ الأمة وأطهر الأمة قلوبًا، اختارهم الله لصحبة نبيه –صلى الله عليه وسلم–. يقول: لستُ مُلزمًا! هم رجال ونحن رجال.

تفهم على ضوء ماذا؟ قال: أفهم بحسب ما عندي من المعطيات العصرية، والقُدر والإمكانات العقلية، فالله أعطاني فهمًا أفهم به مباشرة عن الكتاب والسنة من غير أي معايير، حتى اللغة؟ قال: حتى اللغة، هناك قواعد، هناك أصول، هناك ضوابط، العلماء جمعوا هذه الأشياء.

الإمام محمد بن إدريس الشافعي جمع كتابًا في هذا سماه: "الرسالة" يضبط الفهم وجعل قواعد في الأصول، من أجل أن يكون ذلك أداة وآلةً للاستنباط الصحيح والفهم عن الله وعن رسوله –صلى الله عليه وسلم– بعد أن كان ذلك في الأولين سَليقة، فدوّنه الإمام الشافعي –رحمه الله– لمّا تغيرت الألسُن، الأمر الذي أعقب تغير القلوب والأفهام، ودخلت العُجمة في الألسن والقلوب معًا.

---

(٢) أخرجه الترمذي، أبواب الإيمان عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، باب ما جاء في ترك الصلاة (١٣/٥)، رقم: (٢٦٢١)، والنسائي، كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة (٢٣١/١)، رقم: (٤٦٣).

ولهذا كان السلف –رضي الله عنهم– حينما يسمعون بعض الغرائب في الفهم والانحراف في الاستنباط، يقولون: أهلكتهم العُجمة.

ولهذا الشاطبي –رحمه الله– في كتابه: "الموافقات" ويشير إلى هذا أيضًا في كتابه الآخر البديع "الاعتصام" يذكر هذه القضية، ويركز عليها طويلًا، لاسيما في الموافقات، ويجعل فهم مقاصد الشريعة، وفهم اللغة العربية من أركان الاجتهاد.

يقول: معرفة الحديث الصحيح من الضعيف، الحكم على الروايات يمكن أن يسأل عنه الفقيهُ المتخصصَ بالعلوم الحديثية والصناعة الحديثية.

والشاطبي يتكلم بكلام قد لا تبلغه بعض الأفهام، أُعرِض عنه، ولكن أذكر من كلامه –رحمه الله– ما يحصل به الكفاية في هذا المقام، يقول: من لا يفهم كما تفهم العرب عمن خاطبها في وجوه مخاطباتها فإنه لا يحل له أن يتكلم في نصوص الكتاب والسنة، ولا يستنبط[٣]، وتكلم بكلام طويل بهذا المعنى.

هؤلاء يريدون أن يلغوا ذلك كله، ويفهمون بحسب المعطيات المزعومة عندهم، فيتخرصون، ويقولون على الله –عز وجل– بلا علم.

الشاطبي –رحمه الله– كثيرًا ما يورد أمثلة لاسيما في الموافقات والاعتصام أورد بعض الأمثلة لفهم هؤلاء، كيف يفهمون، وشيخ الإسلام أورد أشياء.

هؤلاء المشكلة أنهم لإعراضهم عن ذلك كله أصلًا هم لا يرفعون بهذه العلوم –علوم الوحي– رأسًا.

شيخ الإسلام يقول: جيء بمصحف لأحد علماء الكلام يقال له: الأصبهاني، فأراد أن يقرأ بسورة الأعراف، بدلا من أن يقرأ **{المص}** [الأعراف: ١] قال: المَصّ[٤].

لا يعرف كيف يقرؤها، هذا عالم من علماء أهل الكلام، هؤلاء يقولون: نحن نفهم كما يفهم الصحابة، نحن رجال وهم رجال.

الشاطبي –رحمه الله– يورد بعض الأمثلة، هذا واحد من هؤلاء سُئل عن قوله: **{رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ}** [آل عمران: ١١٧].

قال: هذا هو الصَّرصَر، ما هو الصَّرصر؟ قال: صرَّار الليل، هذه الدُّويبة الصغيرة الحشرة التي تصوّت في الليل، لها صوت يقال: صَرصر، تسمع أصوات صَرصرة في الليل **{رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ}** قال: الصَّرصر[٥].

الصَّرصر غير الصِّرّ، المادة تختلف تمامًا في اللغة، هذه صِرّ، وهذه صَرصر اسم لدابة.

النَّظَّام من شيوخ المعتزلة وله فرقة من فرق المعتزلة تنتسب إليه، وحال الرجل سيأتي الإشارة إليها –إن شاء الله تعالى.

---

(٣) انظر: الموافقات (٣٩/١)

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٩٦/٤).

(٥) انظر: الاعتصام للشاطبي (٣٠١/١).

يقول مثلًا –وهذه مسائل فقهية الآن– يقول: إذا آلى المرء بغير اسم من أسماء الله –تبارك وتعالى– لم يكن مُوليًا[٦].

لماذا يا النَّظام؟، قال: لأن الإيلاء مشتق من اسم الله.

الإيلاء: من الأَلِيّة، وهي الحلف، والنّظام هذا عالم من كبار أئمة المعتزلة، يظن أن الإيلاء مشتق من اسم الله، يعني: هذه جهالة، من يسمعها ممن له أدنى بصر يداري الضحك.

بل في بعض المواقف –أنا لا أريد أن أطيل– ضجَّ الناس بالضحك من بعض ما قاله وتفوّه به بعض هؤلاء الضُّلال، يأتون بمضحكات مبكيات.

كذلك اتباع المتشابه، ضرب النصوص، يضربون بعضها ببعض، كما قال الله –عز وجل–: **{فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ}** [آل عمران: ٧].

وفي الحديث: **((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله، فاحذروهم))** [٧] اتباع المتشابه قديم.

يبحثون عما يوافق أهواءهم، ويتطلّبون له التكلّفات والتأويلات البعيدة، من أجل أن يقرروا باطلهم، فإن عجزوا عن ذلك فإنهم يصادرون المعاني التي دلت عليها النصوص مما يدل على عقيدة من خالفهم.

هذه طريقة أهل الأهواء، ويأخذون من النصوص، النظر في النصوص، كما يقول الشاطبي –رحمه الله–: نظر أهل الأهواء في النصوص. هم ينظرون إليها بنظر خاص، وهو نظر المتخيّر لما يؤيد هواه، بخلاف نظر أهل العلم والإيمان، فإنهم يَعرضون ما عَنّ لهم على النصوص، فيستخرجون الأحكام، ويستنبطون بناءً على ذلك –على النصوص–، يعرضون ذلك على النصوص، أما هم فيعرضون الوحي على أهوائهم، فما وافق قبِلوه، وما خالف ردّوه، بعض الذين تابعوهم في عصرنا هذا، الذين يتخيّرون بهذه الطريقة، ويتبعون المتشابه، هؤلاء يَشغَبون على الناس كثيرًا في قضايا في أصول الدين وفروعه، وساعدهم على ذلك وسائل إعلامية متنوعة، ولربما ساعدهم بعض المنتكسين المنحرفين، الذين كانوا في يوم من الأيام يطلبون العلم، فيقفون على بعض الأشياء.

روايات هنا وهناك، فيجمعونها لهم في كتيب، ثم بعد ذلك يأتي ذاك الذي لا يفقه في دين الله قليلًا ولا كثيرًا ويورد هذه الشبهات، في كتاباته، أو في عموده، أو في كلامه أو في مقالاته.

اتباع المتشابه، وهذا باب وأصل كبير من أصول الضلال، وهو من أعظم الأبواب التي ضلّ بها من ضلّ من أهل الأهواء والبدع.

من هذه الطرق في الفهم والاستنباط، والتعامل مع قواعد الاستدلال: تقديم دعوى تحقيق مقاصد الشريعة على النصوص الثابتة الصريحة من غير اضطرار.

---

(٦) انظر: المصدر السابق (١/٣٠١).

(٧) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: **{مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ}** [آل عمران: ٧] (٦/٣٣)، رقم: (٤٥٤٧)، ومسلم، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن (٤/٢٠٥٣)، رقم: (٢٦٦٥).

يعني: تجد النصوص تُردّ بحكم أن مقاصد الشريعة تأبى ذلك، فصاروا يَشغَبون على النصوص، ويردّون الأحاديث الصحيحة الثابتة الصريحة بحجة أنها تخالف مقاصد الشريعة، أو بحجة المحافظة على مقاصد الشريعة.

وهل هذه الأحاديث تخالف مقاصد الشريعة حتى تُرد؟! فصار التفلت من أحكام الله وحدوده وشرائعه، ومن هنا جاءت الرخص.

ليست الرخص الشرعية، وإنما ما يسمى برخص الفقهاء بزعمهم للتوسعة على الناس، فصار الشرع يُطوَّع ويذلّل من أجل أن يكون تابعًا لأهواء الناس، ما يطلبه المشاهدون، أو الجمهور.

والصحيح أن الشريعة إنما جاءت كما يقول الشاطبي –رحمه الله– لإخراج المكلف من داعية هواه[٨]، من أجل ضبط المكلفين.

هم عكسوا القضية، وجعلوا الشريعة طوعًا لأهواء الناس، فجاء ما يسمى بمنهج التيسير المعاصر، يقولون: نبقى مع الأشياء القطعية، الأشياء المُجمَع عليها، وأما المختَلف فيه فهذا بابٌ لا نتطرق إليه، يعني: كأن الخلاف صار ذريعة عندهم للترخيص والتسهيل والتخيير، نبقى مع المجمَع عليه، وما مقدار المجمع عليه بالنسبة للمختلَف فيه؟!.

وهكذا أيضًا الاعتراض على النصوص بالرأي المجرّد، ومحاكمة النصوص إلى الآراء، أو الأذواق والمواجيد، الأذواق والمواجيد عند بعض الطوائف.

وهكذا أيضًا الاجتهاد أو القياس في مورد النص، وقد تُردّ كثير من النصوص بحجة أنها تخالف الأصول، تخالف القياس.

ابن القيم –رحمه الله– ذكر عشرات الأمثلة من هذا النوع في كتابه البديع "إعلام الموقّعين" عشرات الأمثلة، وأجاب عنها بإجابات بديعة قوية محكمة.

هذه التي يقولون بأنها تخالف القياس، وبين أن أقيستهم فاسدة، وشيخ الإسلام تكلم على هذا في عدد من كتبه، وكذلك ابن القيم: لا يوجد نص من القرآن ولا من السنة صحيح يخالف شيئًا من القياس، ولا العقل.

بل شيخ الإسلام –رحمه الله– يقول: بل لا يوجد من كلام الصحابة –رضي الله عنهم– شيء صحيح ثابت يخالف العقل الصحيح.

يقول: هم أعلم الناس بالمقرّرات العقلية الصحيحة، وليست بالقواعد اليونانية الفاسدة، فهذا القياس إذا عورضت به النصوص فهو قياس فاسد، يسمونه فاسد الاعتبار.

وهذا معروف عند الأصوليين، فساد الاعتبار إذا خالف النص، وإذا جاء نهر الله بطل نهر مَعقِل، لا قياس ولا اجتهاد.

---

(٨) انظر: الموافقات (٢/٢٦٤).

المهم أنه لما وُجد مثل هذه الانحرافات في مصادر التلقي بالزيادة أو النقصان، أو في طريق التعامل مع هذه المصادر في الفهم والاستنباط والاستدلال، حتى وُجد من يقول الآن في هذا العصر: نحن بحاجة إلى أن نؤلّف في أصول الفقه من جديد.

يؤلف بماذا؟ بحسب أي فَهم؟ بحسب هواه، يطالب بالإعادة، إعادة تأليف أصول الفقه من جديد!، يلغي كل تلك القواعد المستنبطة من فهوم السلف –رضي الله عنهم– ويأتي بأصول فقه جديدة، يُفهَم على ضوئها ويُستنبط من خلالها! هذه دعوى عريضة موجودة في هذا العصر.

المهم أنه نتج عن هذا الخلل الجرأة على نصوص القرآن، وعلى نصوص السنة، والجرأة على الصحابة –رضي الله تعالى عنهم– والسلف الصالح، جرأة عجيبة.

أحد هؤلاء من علماء الكلام، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– وللأسف هو من المشاهير يقول: "في القرآن حِجاج".

انظر، إزراء بالقرآن!، يقول: "في القرآن حجاج" حُجج يعني، "وإن لم يكن فيه الغَلبة والفَلْج". الغلبة والفلج عندهم أين؟، في المقررات العقلية عندهم التي تلقوها من اليونان والهند والفرس.

يقول: القرآن فيه حِجاج، ولكن ليس فيه الغلبة والفلج. يعني: هذا الحجاج ليس بمُقنع لكن يصلح للوسطاء، هو ما يقول العبارة هذه، أنا أقرأ لكم عبارته حتى لا أتجنى على أحد، لكن هذا معنى الكلام.

يقول: "في القرآن حجاج، وإن لم يكن فيه الغَلبة والفَلْج، غير أن العاميّ يكتفي به، كقوله تعالى: **{أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ}** [ق: ١٥] –انظر الاعتراض الآن– يقول: وليس من أنكر الحشر ينكره لأجل العَياء، يعني يقول: ما رددت عليه –لاحظ الجرأة!– يقول: وكذلك قوله تعالى: **{وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ}** [النحل: ٦٢] **{أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى}** [النجم: ٢١] وليس هذا يدل على نفي الولد قطعًا، فمبادئ النظر كافية لهم"[٩].

يقصد أن العَوامّ هؤلاء ربما هذه المبادئ البسيطة تكفيهم، لكن أهل العلوم الكلامية عنده ما يكفيهم هذا، هذا كلام رب العالمين، ويقال عنه مثل هذا الكلام، وبهذه الجرأة؟!.

الرازي يذكر كلامًا طويلا –لا أطيل بذكره– في نهايته يقول: فخرج مما ذكرناه أن الدلالة النقلية لا يجوز التمسك بها في المسائل العلمية"[١٠].

ولذلك إذا قرأت في كتاب من كتب الاعتقاد عند هؤلاء –علماء الكلام– تشفق عليهم، تقول: كأنه ما نزل وحي ولا جاء رسول، كأنك تقرأ في كتاب في المنطق تمامًا، هذه كتب العقيدة، بل يقولون: إن الأخذ بظواهر النصوص من الكتاب والسنة من أصول الكفر.

هذا موجود، نسأل الله العافية.

الشاطبي –رحمه الله– تكلم على هذه القضية، وردِّ النصوص، والقدح في الرواة من الصحابة فمن بعدهم، والأحاديث التي ردُّوها ذكر جملة منها.

---

(٩) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٣٦٠/٧).

(١٠) انظر: المصدر السابق (٣٣٥/٥).

الخطيب البغدادي نقل عن عمرو بن عبيد، عمرو بن عبيد هذا من روّاد المعتزلة الأوائل من أصحاب واصل بن عطاء، ومن تلاميذ الحسن البصري، هذا رجل كان يُذكر بالعبادة والزهد.

هذا الذي قال فيه الخليفة:

كُلُّكُمْ يَطْلُبُ صَيْدَا.

كُلُّكُمْ يَمْشِي رُوَيْدَا.

غَيْرُ عَمْرِو بْنِ عُبَيد.[١١]

يعني: يقصد أن كل هؤلاء العلماء من المحتالين على الدنيا بالدين إلا عمرو بن عبيد.

عمرو بن عبيد تعرفون خبره -إن شاء الله تعالى- في هذه المجالس، هذا رجل كان يكذب على الحسن البصري، من تلاميذ الحسن البصري، كثيرًا ما يقول: هذا قول الحسن، فإذا نوقش في هذا، قال: أقول: حسن يعني القول حسن، يعني هذا القول حسن! نعم، لكن ماذا يقول عن هؤلاء؟.

لما ذكر حديث ابن مسعود حديث الصادق المصدوق: **((يُجمع خلق أحدكم في بطن أمه))**[١٢] كلنا نعرف الحديث، ماذا يقول؟ انظر يذكر الرواة من الأعمش.

يقول: لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذبته. الأعمش من أئمة التابعين، من حفاظ السنة الكبار، يقول: ولو سمعتُ زيد بن وهب يقول هذا ما أجبته، ولو سمعت عبدالله بن مسعود يقول هذا ما قبلته، ولو سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول هذا لرددته، ولو سمعت الله تعالى يقول هذا لقلت له: ليس على هذا أخذت ميثاقنا[١٣].

والله إني أقول هذا الكلام وأخشى أن يسقط علينا سقف المسجد، أعوذ بالله.

هذا متى؟ هذا في زمن التابعين، هذا عمرو بن عبيد كان يقول عن عبدالله بن عمر من علماء الصحابة يصلح للخلافة، كان يقول عنه: هذا حشوي! بل رموا الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بالعظائم: بالتجسيم والتشبيه.

عيسى -صلى الله عليه وسلم- حينما قال: **{تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}** [المائدة: ١١٦] موسى -صلى الله عليه وسلم- لما قال: **{رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ}** [الأعراف: ١٤٣] والنبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ما سَلِم هؤلاء الأنبياء، بل ما سَلِم رب العالمين منهم.

النَّظّام، وما أدراك ما النَّظّام؟ النَّظام ذكر عنه ابن قتيبة أنه كذّب هذا الحديث، وردّ عليه، يقول ابن قتيبة في آخر الرد أيضًا على النَّظام، يقول: وله أقاويل في أحاديث يدّعي عليها أنها مناقضة للكتاب، وأحاديث يستبشعها من جهة حجة العقل، وذكر أن جهة حجة العقل قد تنسخ الأخبار، وأحاديث ينقض بعضها بعضًا[١٤]. يعني: عند النظام -كما سيأتي إن شاء الله- أن العقل ينسخ النقل، إلى هذا الحد! انظر الجرأة!.

---

(١١) انظر: الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي (١٩٥/٦).

(١٢) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (١١١/٤)، رقم: (٣٢٠٨)، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٠٣٦/٤)، رقم: (٢٦٤٣).

(١٣) انظر: تاريخ بغداد (٧٠/١٤)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال (١٢٩/٢٢).

(١٤) انظر: تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (ص: ٩٣- ٩٤).

هذا متى؟ ما هو في القرن الخامس عشر، هذا في القرن الثاني الهجري، بل في أواخر القرن الأول الهجري، في قرون متقدمة عمرو بن عبيد، وأمثال عمرو بن عبيد، وإن كان النّظام جاء بعده.

الشافعي -رحمه الله- يقول: ذاكرتُ -حديث القرعة يعني- المرّيسي، بشر المريسي هذا من المعتزلة الجهلة، كان دائمًا يناقش الشافعي، ويجادل الشافعي، وأم المرّيسي تكلم الشافعي تقول: لعل الله أن يصلح قلبه وأن يهديه بك، فكان الشافعي يتحمّل لعل وعسى.

يقول: ذاكرت المريسي في هذا الحديث حديث القرعة بين الستة الأعبُد فقال: هذا قمار[١٥].

النبي -صلى الله عليه وسلم- حكم بالقرعة في هذه القضية، والمريسي يقول: هذا قمار.

سُئل عمرو بن عبيد -كما يقول عمرو بن النضر- عن شيء، فأجاب فيه، فقال له عمرو بن النضر: ليس هكذا يقول أصحابنا -انظروا الإزراء بالسلف الآن سيرد بماذا عمرو بن عبيد-، قال: ومن أصحابك لا أب لك؟ قلت: أيوب -يعني السختياني-، ويونس -يعني ابن عبيد-، وابن عون -يعني عبدالله بن عون-، والتَيمي. -هؤلاء الأئمة في زمن التابعين- قال: هؤلاء أنجاس أرجاس أموات غير أحياء، هذا الآن العابد! هذا كلكم يطلب صيدا، كلكم يمشي رويدا، غير عمرو بن عبيد؟! أنجاس أرجاس أموات غير أحياء[١٦].

وتستغرب إذا جاء كويتب صعلوك من الصعاليك في آخر الزمان قبل ظهور الدجال، سَلِ الله العافية.

واصل بن عطاء تكلم يومًا، فقال عمرو بن عبيد هذا: ألا تسمعون؟! على سبيل الإعجاب بكلام واصل، ما كلام الحسن..؟ لاحظ هو من تلاميذ الحسن هو وواصل، ما كلام الحسن وابن سيرين عندنا كما تسمعون إلا خِرقة حيض ملقاة[١٧]، قبحه الله.

السلف يقولون: قال الحسن، قال ابن سيرين، قال فلان، عنده كلامهم خرقة حيض ملقاة!

وآخر من زعمائهم، كان يقول: إن علم الشافعي وأبي حنيفة جملته لا يخرج من سراويل امرأة[١٨].

لا يخرج من سراويل امرأة: يعني هم يتكلمون على الحيض علماء الحيض والنفاس، وهي عبارة تُردد إلى اليوم، فقهاء وعلماء الحيض والنفاس، الإزراء بأهل العلم، والحيض والنفاس الله -عز وجل- ذكرهما في القرآن.

النَّظّام هذا -كما يقول عنه بعضهم- طعن في خِيار الصحابة والتابعين من أجل فتاويهم، وعاب على أصحاب الحديث رواية أحاديث أبي هريرة، وزعم أن أبا هريرة كان أكذب الناس.

وطعن في عمر الفاروق -رضي الله عنه- وعاب عثمان، وابن مسعود، ثم ذكر عليًّا..، هذا النظام الآن، تلميذ أبي هُذيل العلّاف -كما سنعرف بعد قليل- هذا تنتسب إليه فرقة من المعتزلة، ذكر عليًّا -رضي الله عنه- وزعم أنه سُئل عن بقرة قتلت حمارًا، يعني: ما الحكم؟ يعني هل يُعوّض صاحب الحمار بالبقرة؟ أو ماذا يكون؟

---

(١٥) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠٠/١٠).

(١٦) انظر: الاعتصام للشاطبي (١٥٨/١).

(١٧) انظر: المصدر السابق (٧٤١/٢).

(١٨) انظر: المصدر السابق (٧٤٢/٢).

فقال علي –رضي الله عنه–: أقول فيها برأيي. يقول النَّظام هذا: نعم، من هو حتى يقضي برأيه؟ من هو حتى يقضي برأيه؟[١٩].

نسأل الله العافية، ما سَلِم منهم أحد لا عمر، بل ولا النبي –صلى الله عليه وسلم– ولا القرآن، ولا جبريل، ولا رب العالمين.

فهؤلاء مع جرأتهم كانوا أجهل الناس بكلام السلف وبأقوال السلف، وكما ذكر شيخ الإسلام –رحمه الله– أنهم يذكرون الإجماع أحيانًا ولا يعرفون قول السلف في المسألة.

ويُوردون القولين والثلاثة والأربعة والخمسة ويجادلون في مناقشة هذه الأقوال ويطوّلون الكلام، وقول السلف الذي دل عليه الكتاب والسنة لا يعرفونه، ولا يُوردونه من جملة هذه الأقوال، وإنما يُوردون أقاويل باطلة، كل هذه الأقاويل أصلًا من قبيل الغلط، أقاويل منحرفة، ولا يعرفون القول الذي دلّ عليه الكتاب والسنة، فهم أجهل الناس بهذا.

واليوم تسمع من يقول مثل هذا الكلام: وما شأني؟ بعضهم يقول: وما شأني بالإجماع؟ لستُ مُلزمًا بالإجماع، وبعضهم يقول: ومن هؤلاء؟ تقول لي: قال أبو قِلابة، وقال أيوب، وقال فلان، وقال فلان، من هؤلاء؟! مجاهيل.

مثل الذين يقولون: ومن الذي يضمن لك أن صحيح البخاري ما دُس فيه أحاديث؟ ما الذي يضمن لك؟ هذا تحتاج معه إلى دورات حتى تصل معه إلى أصول ومنطلقات تستطيع معه الحوار، يكون هناك قواسم مشتركة، وأرضية للنقاش وللحوار، أنت تناقش إنسانًا ما عنده شيء إطلاقًا، ما في قاعدة مشتركة، تقول له: هذا حديث في البخاري، يقول لك: ما أدراني أن البخاري ما دُس فيه أحاديث؟ فهّمه أن البخاري ما دُس فيه أحاديث.

أحيانًا الجواب يكون: كم بلغ سعر الحِنطة؟ بمعنى أنك تقول له: كيف الحال؟ ولا تجيب، لا تتعب نفسك إذا كانت الجهالة وصلت إلى هذا المستوى.

والذي زاد من هذا الشر والانحراف حتى بلغ مداه هو ترجمة كتب اليونان والفرس والروم والهند، التعريب للكتب، كتب المنطق والفلسفة، فجعلوا منها ميزانًا للحقائق الشرعية، فيعرضون عليها نصوص الوحي، فما وافقها قبلوه، وما خالفها أنكروه وردّوه.

كان ابتداء هذا فيما ذكره بعض أهل العلم، كما جاء عن ابن أبي زيد القيرواني –رحمه الله– كان يقول: رحم الله بني أمية، لم يكن فيهم قط خليفة ابتدع في الإسلام بدعة، وكان أكثر عُمّالهم –يعني الولاة والأمراء لبني أمية– من العرب، فلما زالت دولتهم ودارت إلى بني العباس، قامت دولتهم بالفرس، وكانت الرياسة فيهم، وفي قلوب أكثر الرؤساء منهم –يعني من الفرس الذين صاروا وزراء لبني العباس– الكفر والبغض للعرب دولة الإسلام فأحدثوا في الإسلام الحوادث. هذا كلام ابن أبي زيد القيرواني –رحمه الله–...، إلى أن يقول: فأول الحوادث التي أحدثوها إخراج كتب اليونان إلى أرض الإسلام[٢٠].

---

(١٩) انظر: الفرق بين الفرق (ص: ١٣٤).

(٢٠) انظر: صون المنطق (٤٢/١).

وذكر السبب في خروجها، خلاصة الكلام الذي ذكره: أن خالد بن برمك، ويحيى بن خالد بن برمك الذي قُتل – كما هو معلوم– هذا الرجل يقول القيرواني: إنه كان يواصل ملك الروم بالهدايا المتتابعة، فاستراب ملك الروم وعرض هذا الأمر على كبار أهل دولته ومملكته، وقال لهم: هذا الرجل ما زال يرسل الهدايا، وإنما ذلك لشيء، وأخشى أن يطلب مني ما يشق عليّ، فما ترون؟

ثم بعد ذلك رأى هو أن يسأل رسوله إذا جاء بهدية، يقول له: سل صاحبك ماذا يطلب؟ ماذا يريد؟.

فرجع إليه وسأله، فرد عليه يحيى بن خالد فرِحًا مسرورًا مستبشرًا، قال: يريد الكتب التي بُني عليها البناء، كانت هناك كتب المنطق والفلسفة هذه، يقولون: إنه بُني عليها بناء عند الروم، وأُغلق بابه بالحجارة والجص والطين، طُيّن الباب، يعني: ما يصل إليها أحد.

باعتبار أنهم تخوّفوا على أهل ملتهم إذا نظروا في كتب الفلاسفة هذه أن يتزعزع دينهم، وإيمانهم ويقينهم بعقائدهم النصرانية، فيرجعون عنها إلى دين الفلاسفة، فبنوا عليها هذا البناء.

فلما رجع الرسول إلى ملك الروم، وذكر له مثل هذا الكلام فرح ملك الروم، وجمع الكبراء من أهل مملكته، وأخبرهم بما ردّ عليه يحيى بن بَرمك، وقال لهم: قد كنت ذكرت لكم –يعني عن هذا الرجل– أنه لا يخلو من حاجة، وقد أفصح بحاجته، وهي أخف الحوائج عليّ.

وقد رأيت رأيًا فاسمعوه فإن رضيتموه أمضيته، يقول: حاجته الكتب اليونانية يَستخرج منها ما أحب ويردُّها، قالوا: فما رأيك؟.

قال: قد علمت أنه ما بنى عليها من كان قبلي إلا أنه خاف إن وقعت في أيدي النصارى كان سببًا لهلاك دينهم وتبديد جماعتهم، وأنا أرى أن نبعث بها إليه، وأن أسأله ألا يردها، يُبتلَون بها، ونسلم نحن من شرِّها، فإني لا آمن أن يكون بعدي من يتجرأ على إخراجها إلى الناس، فيقعوا فيما خِيف عليهم.

قالوا: نعم الرأي رأيت أيها الملك، فأمضه.

فبعث بالكتب إلى يحيى بن خالد، فلما وصلت إليه جَمَع عليها كل زنديق وفيلسوف، فمِمّا أُخرج منها كتاب (حد المنطق)، يقول أبو محمد بن أبي زيد القيرواني: وقَلّ من أنعمَ النظر في هذا الكتاب، وسلم من زندقة.

ثم جعل يحيى البرمكي هذا المناظرةَ في داره، والجدال فيما لا ينبغي، يعني: من الذات الإلهية إلى الأرض السابعة، يجادلون في كل شيء، لا يوجد خط أحمر، كل شيء معروض للنقاش، كما يقول بعض المنحرفين اليوم في قناة فضائية، يجمع هؤلاء الذين قد جمعهم يجعلهم على فريقين، ثم بعد ذلك يعرض عليهم قضايا، حد الزنا ماذا تقولون؟ الذي يؤيد هنا يرفع يده، والذي يؤيد هنا يرفع يده.

هذا كلام يقال؟! ويقول: نحن نناقش كل شيء بلا استثناء، كل شيء عندنا قابل للنقاش، كل شيء عندهم قابل للنقاش! نسأل الله العافية.

فالشاهد يقول القيرواني: فيتكلم كل ذي دين في دينه، ويجادل عليه آمنًا على نفسه، تكلم الزنادقة، وتكلم أهل الانحرافات المتنوعة، فإذًا مقتضى هذا الكلام أنها قد عُربت في خلافة هارون الرشيد؛ لأن يحيى بن خالد كان مُستوزَرًا في خلافة الرشيد، وقُتل في سنة سبعٍ وثمانين ومائة.

هكذا قال جمعٌ من أهل العلم، وذكر آخرون أن ذلك وقع من قِبل المأمون، لما هادن بعض ملوك النصارى، كَتَب يطلب من خزانة كتب اليونان، وذكروا واقعة مشابهة لما سبق، وأن الملك جمع خواصه واستشارهم، ويقولون: إنهم جميعًا أشاروا بمنع بعثها وإرسالها.

يقولون إلا أحد البطارقة، واحد فقط هو الذي خالفهم، وقال لهم: جهّزها إليهم. فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها.

على كل حال: كانت البدايات قبل هذا، يعني: المشهور أن المأمون أول من ترجم كتب اليونان، لكن الواقع أن المأمون كان ذلك في وقته بصورة أكبر وبدعم أعظم، وكان يَزِن الكتاب بالذهب، لمن يترجم كتبًا من تلك الكتب، وإلا فقد وقع ذلك في وقت قبل هذا.

يعني: خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة خمس وثمانين للهجرة كان مولعًا بالكيمياء، وكانت البداية في الترجمة على يديه، يقولون: هو أول من بدأ يعرِّب كتب اليونان[٢١].

على كل حال: النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن هذه الأمة ستفترق، وحصل هذا، وصارت كل فرقة تتشبث بمقررات منطقية وفلسفية، وما يسمونه بالقواعد العقلية من أجل المناظرة والذبّ عن مبادئها، والرد على الخصوم، وكَثُر الجدال، والاحتجاج والكلام في قضايا الدين والاعتقاد، وزاد الشر شرًّا والضُر ضُرًّا، نسأل الله العافية.

وتترست كل طائفة، وكل فرقة بهذه العلوم الكلامية والفلسفية، وجعل هؤلاء جدالَهم مبنيًا عليها، وتشعّبت هذه الطوائف والفِرق وانقسمت على نفسها، فكثُر الافتراق، وعمّت الأهواء.

هذا كان بسبب ترجمة هذه الكتب، ووصلت للأسف إلى أبعد مدى، حتى الأندلس التي كانت بعد سقوط الدولة الأُموية تمثل دولة مستقلة عن الدولة العباسية، يقال: أول من أدخل الفلسفة إلى الأندلس هو أمير الأندلس عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان الأموي.

يقولون: كان يشبه المأمون من هذه الناحية، طلب الكتب الفلسفية، إضافة إلى الجبروت، فكان يُشبَّه بالوليد بن عبدالملك في هذا الجانب، وهذا متوفى سنة مائتين وتسع وثلاثين للهجرة.

لاحظوا: الوقت مبكر، ووصلت إلى الأندلس!.

ثم بعد ذلك صارت هذه الكتب -للأسف الشديد- ثقافة، فزلّت بها ألسن كثير من المشتغلين بالعلوم الشرعية، حتى جاء أبو حامد الغزالي، واستفزّ العلماء -كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وقال: إنه لا يبلغ مرتبة الاجتهاد من لا يعرف المنطق[٢٢].

وقال أيضًا: إنه لا يوثق بعلم من لا يعرف المنطق.

---

(٢١) انظر: لوامع الأنوار البهية (٩/١).

(٢٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٧٢/٩).

فصار العلماء يقبلون على هذه العلوم، فيذكرون ذلك في ثنايا كتبهم، ومصنفاتهم، وصار ذلك يَعلق بالقلوب والألسن والأقلام، فإذا ألّف أحدهم فإما أن يذكر ذلك في سبيل الرد وسياق الجدل مع الخصوم، أو يذكر ذلك في سبيل التقرير والإثبات؛ ليُثبت أنه قد بلغ هذه المرتبة.

فدخلت هذه العلوم الكلامية في التفسير وشروح الحديث، وسُرِق علم أصول الفقه من أهل السنة، الذي أول من ألّف فيه الشافعي، وصارت عامّة المؤلفات في أصول الفقه أصحابها من المعتزلة والأشاعرة، وعلماء الكلام، للأسف!.

فدخلت فيها هذه الأشياء، بل دخل حتى في العلوم الأخرى من علوم العربية كالنحو، وصار ذلك صعبًا على التلاميذ، فما عبارة الإسناد والمُسنَد والمُسنَد إليه، وما إلى ذلك التي في النحو وفي البلاغة إلا من عبارات أهل المنطق والكلام.

ودخل هذا في علوم البلاغة، بل دخل في القواميس اللغوية، فصارت هناك معانٍ لم تكن موجودة في كتب الأولين، كتب الثقات، مثل الأزهري "تهذيب اللغة" وابن فارس، وأمثال هؤلاء من المتقدمين، فتجد في كلام المتأخرين كصاحب اللسان وصاحب القاموس، ونحو هذه الكتب عبارات لا يُعرف لها أصل في كلام العرب.

مثل تفسير: استوى باستولى! هذه كيف دخلت؟ ثم يأتي يتتلمذ على هذه الكتب فئام من الناس، خلائق لا يحصيهم إلا الله –عز وجل–، ويتلقّفون ذلك ويتلقّونه ويظنون أنه علم صحيح ثابت، وهكذا.

ذكر الحافظ ابن كثير –رحمه الله– أنه في حوادث سنة ستمائة وسبع وثمانين لما أخذ التتار بغداد في سنة ستمائة وسبع وخمسين.

يقول: عَمِل الخواجه نصير الدين الطوسي، نصير الشرك الطوسي، الذي ألّب التتر على دخول بغداد، ويقال: إنه حرّضه على قتل الخليفة، قُتل الخليفة العباسي، ونُهبت بغداد وحصلت أمور هائلة تعرفون كثيرًا منها.

يقول ابن كثير –رحمه الله– عن هذا –نصير الدين الطوسي– لما تسلّط، يقول: إنه عمل دار حكمة، فيها فلاسفة، لكل واحد في اليوم ثلاثة دراهم، ودار طب. دار الحكمة يعني الفلسفة يسمونها الحكمة، من يجترئ أن يقيم دارًا للفلاسفة في حاضِرة الخلافة؟.

فجاء هذا الرافضي وعَمِل ذلك، وجعل دار طب فيها للحكيم –يعني: الطبيب– درهمان، وصرف لأهل الحديث جعل لهم دار الحديث لكل مُحدّث نصف درهم في اليوم، هذه مثل خطة دنلوب –كما هو معلوم– لما جعل المتخرج من العلوم الشرعية ما يأخذ إلا أجورًا يسيرة بسيطة، ثم بعد ذلك العلوم الأخرى يأخذون الأجور العالية، فصار الناس لا يسمحون لأولادهم بدراسة العلوم الشرعية في الأزهر.

فصار النجباء والأذكياء يذهبون إلى العلوم التجريبية، والعلوم المادية من أجل الكسب المادي، المستقبل كما يقولون.

وأصحاب المعدّلات الضعيفة يدرسون العلوم الشرعية، ولا نُعمم أن كل من درس هو من هؤلاء، فقد يدخل الرجل رغبةً.

فصار الناس يشتغلون بالفلسفة، وفشا ذلك، كما يقول ابن كثير، يقول: ما كان الناس يشتغلون بها قبل ذلك إلا الآحاد في خُفية.

يقول: وبُدّلت بغداد بعد تلاوة القرآن بالنغمات والألحان، وإنشاد الأشعار وكان وكان -حكايات-، وبعد سماع الأحاديث النبوية بدرس الفلسفة اليونانية، والمناهج الكلامية والتأويلات القُرمطية، وبعد العلماء بالحكماء - الحكماء يعني الفلاسفة-، وبعد الخليفة العباسي بشرّ الولاة من الأناسي، وبعد الرياسة والنّباهة بالخساسة والسفاهة، وبعد الطلبة المشتغلين بالظَلَمة والعَيَّارين، -يعني الشَّبِّيحة-، وبعد الاشتغال بفنون العلم من التفسير والحديث والفقه وتعبير الرؤيا بالزَّجل والموشَّح ودوبيت ومواليا.

نقول: وما أصابهم ذلك إلا ببعض ذنوبهم[٢٣].

واليوم الفلسفات الجديدة، الفلاسفة من الغربيين والشرقيين؛ ألبرت حوراني، وستافلو بون، وإدوارد سعيد، ومايكل كوك، وإيريك هوفر، ومن شاكلهم، وكذلك أيضًا تلامذة هؤلاء، أركون، وبقية القائمة التي تعرفون.

فصار يُتهافت على كتاباتهم المترجمة، وغير المترجمة من أصحاب عُجمة القلوب، ويُظن أن ذلك من الثقافة، وتجد تلك الدور المعروفة التي تُعنى بنشر هذه الكتب المشبوهة في المعارض، والمحافل التي تباع فيها الكتب، تجد فِئامًا من الناس من الرجال والنساء يجتمعون على هذه الدور يتهافتون، ويفرحون بالظَّفَر الكبير والفوز العظيم إذا وجدوا نسخة من كتاب مايكل، أو إيريك، أو غوستاف، أو جورج، أو ميري، للأسف الشديد.

وتجد هذا الذي كان يشتغل بالعلم الشرعي، كان من طلاب العلم، ثم بعد ذلك حصل له انحراف وانتكاسة يرسل رسائل وتغريدات، قال غوستاف لوبون، أو قال إيريك هوفر، بعدما كان يقول: قال الله، قال رسوله، قال معاذ - رضي الله عنه-، قال ابن سيرين، صار إيريك و مايكل وأمثال هؤلاء!.

بعد ذلك اتسع الخرق على الراقع، وانتشرت البدع والضلالات والأهواء، فبعد أن كان الانحراف يبدأ محدودًا، وربما ساذجًا ما يلبث حتى يتحول إلى ضلالات عظمى.

وهذا ما سنتحدث عنه -إن شاء الله تعالى- في الليلة الآتية، كيف تبدأ هذه القضايا؟، كما يقول شيخ الإسلام: تكون في أولها شبرًا، ثم تكثُر في الأتباع حتى تصير أذرعًا وأميالًا وفراسخ! كيف حصل التوسع؟ كيف كانت البدايات ساذجة وبسيطة،؟ حتى يخاف المؤمن على نفسه ولا يُفرِّط بدينه، فهي نفس واحدة، لا تُغرِّر بها.

الزم الجادّة، والصراط المستقيم، وابتعد عن الأهواء والضلالات، هي نفس واحدة، وغدًا يوضع الإنسان في خرقة في كفن، ثم بعد ذلك يبقى مرتهنًا بإيمانه وعمله ويقينه، فإذا جاءه الملَكان وانتهراه، من ربك؟ وما دينك؟ ومن هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فعندها يظهر اليقين والثبات، ويعرف الإنسان على أي أرضٍ كان يقف.

لا يُغرِّر أحد بدينه بسبب عداوة زيد وعمرو، أو عداوة الفئة الفلانية، والطائفة الفلانية، فيحمله بغضهم على بُغض الدين، ومحادّة الله -عز وجل-، ومحادة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، تتحول القضية من تصفية حسابات إلى نكاية بالنفس، نسأل الله العافية.

الحذرَ الحذرَ، والإنسان يطلب النجاة، وسيصير الجميع عما قريب إلى الله -تبارك وتعالى-، هذا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه.

---

(٢٣) انظر: البداية والنهاية (١٠/١٠٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

الاختلاف وموقفنا منه

(٥) مواصلة الحديث في أسباب الاختلاف التي ترجع إلى أمور منهجية في التلقي والنظر والاستدلال

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

مرحبًا بكم جميعًا، وأسأل الله -تبارك وتعالى- أن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته.

نواصل الحديث فيما كنا بصدده من الكلام على أسباب الاختلاف التي ترجع إلى أمور منهجية في التلقي والنظر والاستدلال.

وعرفنا كيف صارت الفلسفة وترجمة كتب اليونان والهند وفارس والروم سببًا لتوسع الاختلاف، وسببًا لكثرة التفرق والتمزق.

ونواصل الحديث فيما وقفنا عنده، وذلك ما أشرت إليه من كون الاختلاف قد يبدأ في أول أمره يسيرًا، ثم ما يلبث بعد ذلك أن يتسع، ويتحول إلى شيء آخر.

وهذا شيء مشاهد في القديم والحديث، وذكرت قول شيخ الإسلام -رحمه الله-: إن البدع تكون في أولها شبرًا، ثم تكثر في الأتباع حتى تصير أذرعًا وأميالًا وفراسخ[1] .

الخوارج في أول أمرهم وظهورهم -كما هو معلوم- ما كانوا يردون النصوص باعتبار أنها تخالف المعقول، وإنما كانوا يطعنون في النقلة.

لما كفروا أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- صاروا يقبلون خبر من يرتضون، فهم لا يردون خبر الآحاد الذي لم يبلغ حد التواتر، ولكنهم يقبلون خبر الآحاد الذي يكون بالطريق التي يرتضونها.

لا شك أن هذا أدى إلى رد السنة بعامتها، ولكن ما كانوا يردون ذلك -كما أسلفت- بسبب أنه يعارض المعقول كما فعلت المعتزلة، وطوائف من أهل الكلام.

المرجئة والقدرية لما حدثوا في أواخر عهد الصحابة -رضي الله عنهم- كانوا ينتحلون النصوص، ويحتجون بها على قولهم، وما كانوا يدعون أن لديهم من العقليات ما يعارض النصوص، هذا في البداية.

فهذه الفرق في بداياتها أخطأت في التعامل مع النصوص، وصاروا يأخذون بجزء منها، ويتركون ما يقابله من النصوص، فحصل بسبب ذلك الانحراف، كما هو معروف.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/٤٢٥).

الجهمية لما حدثت في أواخر عهد التابعين، أي: في عهد صغار التابعين، هؤلاء هم الذين عارضوا النصوص برأيهم، لكن كانوا في البداية مقموعين.

نحن عرفنا أن الجعد بن درهم قُتل، وأن الجهم بن صفوان قتل، فكان هؤلاء لا يجرءون على الإعلان بباطلهم وإظهاره كما اجترءوا بعد ذلك.

ومن هنا، انظر إلى حال هؤلاء مع النصوص، وكيف كانت البدايات، أعني المعتزلة.

واصل بن عطاء عرفنا أنه المؤسس للمعتزلة، وأبو الهذيل العلاف، والنظّام، هؤلاء ثلاثة رءوس من رءوس المعتزلة، ينضاف إلى هؤلاء مثل: عمرو بن عبيد صاحب واصل بن عطاء.

واصل بن عطاء سئلت عنه زوجته، فقالت: كان واصل إذا جنه الليل صف قدميه يصلي، ولوحٌ ودواة موضوعان، فإذا مرت آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها، ثم عاد في صلاته[1].

هذا يهتم بموضوع تقرير البدعة، والرد على المخالفين، وهو يقوم الليل، إذا مرت به آية رأى أنها تؤيد باطله، أو ترد على الخصوم أخذ الدواة واللوح وكتبها وهو يصلي، ثم عاد إلى صلاته.

يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، عجائب وغرائب في التاريخ.

لو تقرءون في ترجمة أبي العلاء المعري الذي رمي بالزندقة، هذا الذي كان يعترض على قطع اليد بربع دينار، هذا الرجل اعتزل الناس تسعًا وأربعين سنة في بيته لا يخرج، ما خرج قط إلا مرة أحاط الجيش بالبلدة لحدث وقع، فجاء الناس إليه ليشفع عند السلطان، فخرج تلك المرة فقط في تسع وأربعين سنة، معتزل، ولا يأكل الحيوانات، لا اللحوم ولا البيض.

ويرى أن هذا من الظلم، ما ذنب وما جناية هذه حتى يؤكل لحمها أو بيضها، وكان يصوم الدهر، ويقوم الليل، يحيي الليل كله طول السنة، والرجل رُمي بالزندقة، هو معتزل الناس تسعًا وأربعين سنة [2].

وانظر إلى الضلال الذي كان ينغمس به.

النظّام المتوفى سنة مائتين وواحد وثلاثين، وقيل غير ذلك، هذا من أكبر شيوخ المعتزلة، رمي بالزندقة، والذين رموه بالزندقة ليسوا أهل الحديث، بل كبار علماء أهل الكلام مثل: الباقلاني شيخ المتكلمين من الأشعرية في زمانه.

يطعن في الصحابة –أعني النظّام– وينكر القياس والإجماع.

يقول عنه الجويني وهو من كبار علماء المتكلمين بعد أن نقل طعنه في الصحابة، وإنكار الإجماع والقياس، يقول : "وما ذكره النظّام كفر وزندقة، ومحاولة استئصال قاعدة الشرع"[3].

يقول عنه أديب أهل السنة والجماعة ابن قتيبة –رحمه الله– وكان في مناكفات مع النظام والجاحظ، ورءوس الضلالة.

---

(١) انظر: ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (٣١/٤)

(٢) انظر: وفيات الأعيان (١١٣/١)، ومعجم الأدباء (٢٩٥/١)، وسير أعلام النبلاء (٢٣/١٨).

(٣) البرهان في أصول الفقه للجويني (١٣/٢).

الجاحظ الأديب المعروف، صاحب كتاب "الحيوان"، هذا من رءوس المعتزلة، وله طائفة وفرقة خاصة تنتسب إليه يقال لها: "الجاحظية".

النظّام له طائفة تنتسب إليه أيضًا من المعتزلة.

يقول ابن قتيبة عن النظّام: "وجدنا النظّام شاطرًا من الشطار"[1] الشاطر غير ما نعهد الآن، ونستعمل هذا اللفظ، الشاطر: هو الذي أعيا أهله بخبثه.

يقول ابن قتيبة عن النظام: كان شاطرًا من الشطار، يغدو على سكر، ويروح على سكر، ويبيت على جرائرها ويدخل في الأدناس، ويرتكب الفواحش والشائنات.

شيخ لفرقة من المعتزلة، يغدو على سكر، ويروح على سكر، ويبيت على جرائرها، وشيخ طريقة، هؤلاء الأتباع الذين يتبعون على ماذا؟! لكن لكل ناعق تبع.

واصل بن عطاء ماذا فعل؟ كان في البداية بالنسبة للتعامل مع النصوص قد قرر قاعدة وأصلًا، وهو أن المقبول من النصوص هو ما لا يحتمل التواطؤ على الكذب.

تواطؤ الرواة، الاحتمال العقلي، بصرف النظر عن ثقة الرواة، ولو كان بسلسلة الذهب، بصرف النظر عن كون هذا الحديث من أصح الأحاديث.

المهم عنده هذا المعيار العقلي إذا كان ذلك يُحتمل عقلًا، أي: يحصل تواطؤ من قبل الرواة على الكذب سواء كان متواترًا، أو من قبيل الآحاد لا فرق.

كان هذا أول مسمار وضعه واصل بن عطاء، وكان في أواخر القرن الأول الهجري، وبدايات القرن الثاني الهجري.

تطورت هذه المقالة، يعني واصل بن عطاء مولود سنة ثمانين ومتوفى سنة مائة وواحد وخمسين، تطورت هذه المقالة بعد ذلك.

لكن هذا مؤشر إلى قضية مهمة، وهي أن العقل بدأ يدخل في الحكم على ما يُقبل، وما يرد من النصوص، في هذا الوقت المبكر.

جاء بعده شيخ كبير من شيوخ المعتزلة، وهو: أبو الهذيل العلاف، المتوفى سنة مائتين واثنتين وثلاثين للهجرة.

أبو الهذيل العلاف وجد بعد ترجمة كتب اليونان، واصل بن عطاء لم يمعن في كتب الفلسفة؛ لأنها لم تترجم بعد، لكنّ أبا الهذيل العلاف نهل منها، وأكب عليها، ويمكن أن يقال: إنه أول من قام بالربط بين قضايا الاعتقاد والتشريع وبين الفلسفة، أوغل في هذا الباب، وخلط كلامه بالفلسفة، وكلام الفلاسفة.

أيد مقالة واصل بن عطاء، وبدأ ينظر لها وطورها؛ حيث جعل الرواية للأخبار ريبة، وجعل الحق في الاتباع للمقاييس العقلية.

يعني: جعل النقل ريبة، يعني: يبعث على الريبة -الارتياب-، وأن الاطمئنان والثقة إنما هي بالمقاييس العقلية.

عِش رجبًا ترى عجبًا، كما يقال في هذه الخلائق .

---

(١) انظر: تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة (ص: ٦٦).

أعطيكم من الطرائف فتعجبون كما كنت أنظر وأعجب في كتب التاريخ وكتب الفرق، خذ هذه الواقعة لأبي الهذيل العلاف مع صالح بن عبد القدوس.

صالح بن عبد القدوس هذا من الموغلين في الفلسفة، يعتبر من الفلاسفة، وعلى رأي الثنوية، فكان بينه وبين أبي الهذيل العلاف مناظرات، الشاهد أنه مات ولد لصالح بن عبدالقدوس، فجاء أبو الهذيل العلاف مع تلميذه النظّام، وكان النظّام في ذلك الوقت فتى، ثم بعد ذلك صار من شيوخ المعتزلة.

جاء إلى صالح بن عبدالقدوس يعزيه، فلما رآه حزينًا قال له: لا أعرف لجزعك وجهًا إلا إذا كان الإنسان عندك كالزرع.

ماذا يقصد؟ يقصد مذهب الدَّهرية، يقولون: أرحام تَدفع وأرض تبلع، لا خالق، ولا مدبر، يقول أبو الهذيل العلاف لهذا الفيلسوف صالح بن عبدالقدوس، ما وجه هذا الجزع؟ إلا إذا كان الإنسان عندك كالزرع، يعني: ينبت هكذا، ثم يحصد إذا استتم.

فماذا قال صالح بن عبدالقدوس؟ قال: إنما أجزع لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك.

قال له العلاف: وما كتاب الشكوك؟

قال: كتاب وضعته –أي: ألفته–، من قرأ فيه شك فيما كان –يعني: فيما وقع، يشك في كل شيء– حتى يتوهم أنه لم يكن، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان.

يعني: يشك فيما وجد، ومالم يوجد.

فقال له أبو الهذيل العلاف: فشُكّ أنت في موت ابنك، واعمل على أنه لم يمت، وإن كان قد مات، وشُكّ أنه قد قرأ الكتاب، وإن كان لم يقرأه، فتحير صالح بن عبدالقدوس، ولم يرد عليه ببنت شفه[1].

ذكرت هذا المثال لتعرف طريقة هؤلاء، والتفكير، والمستوى الذي وصلوا إليه بعدما درسوا هذه الفلسفة، وكيف تحولت العقول والأفهام، وتحمد الله –عز وجل– على العافية.

مثل هذا هل تظنون أنه يعتقد أنه على باطل وأنه ضال؟ أبدًا، يموت وهو ثابت على باطله، كما سيأتي أمثلة من التاريخ كيف يموتون في سبيل باطلهم وبدعهم، هو يعتقد أنه على الحق، ويتمسك به، ويسأل الله –عز وجل– الثبات عليه قائمًا وقاعدًا.

الإنسان يعرف قدر الهداية، ولا يفرط بنعمة الله عليه باتباع السنة، والله المستعان.

من المعتزلة رجل يقال له: عبّاد بن سليمان، يقولون عنه ملأ الأرض كتبًا وخلافًا، يؤلف، ليس له شغل إلا في التأليف والجدل، والرد على المخالفين، وخرج عن حد الاعتزال، قالوا: إلى الكفر والزندقة –نسأل الله العافية– الخطوة الأولى معتزلي، المرحلة التي بعدها الزندقة.

يقولون: لِحِدّة نظره وكثرة تفتيشه، الذكاء أحيانًا يكون نقمة على صاحبه، لا يريد أن يكون أسوة العامة، كانوا يسمون أهل العلم من أهل الحديث والعلماء والفقهاء يسمونهم الجمهور.

---

(١) انظر: الوافي بالوفيات (١٢/٦).

ولذلك شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– لما ذكر طريقة الرد على المخالفين، وذكر أنه يرد بأقرب طريق، ذكر أن بعض النفوس مريضة، وأن ذلك لا يجدي معها؛ لأنه لا يريد أن يكون مثل الجمهور، أو العامة، فيحتاج إلى طريقة خاصة، مريض يحتاج إلى دواء مر، يقول: فلا بأس أن يُسلك معه الوعر من الطرق، يعني: يُجادَل بطرق فيها عبارات ومصطلحات صعبة، وكلام لا يفهمه عامة الناس، بل عامة طلاب العلم والعلماء، اصطلاحات منطقية، واصطلاحات جديدة، وما إلى ذلك؛ لأن هذا الذي يروق له، وهذا الذي يجد صدى في نفسه، لا يريد أن يُناقَش يقال له: قال الله، وقال رسوله، أخرج الإمام البخاري في صحيحه؛ لأن هذا لا يعرف قدر الوحي، هذا يحتاج إلى مصطلحات.

مثل بعض المفتونين اليوم بالغرب، وبأفكار الغرب، وفلسفات الغرب المعاصرة، مثل هذا قد يحتاج معه إلى أشياء من هذا القبيل من كلام أولئك من المفكرين الغربيين الذي يبينون به فساد وانحراف تلك النظريات والأفكار، وما جنت على البشرية، والله المستعان.

من هؤلاء أبو علي الجُبّائي المشهور، وهذا له فرقة أيضًا تنتسب إليه، أبو علي الجُبّائي هذا هو الذي سهل الجدل على الناس، ثم جاء ابنه أبو هاشم الجبائي، يقولون: فوضع مائة وستين كتابًا في الجدل.

ماذا تحوي هذه الكتب؟، كيف قضى هؤلاء حياتهم؟، ثم ماذا كانت النتيجة؟ سترون كيف كانت النتائج، سترون كيف أدى ذلك إلى أحوال مرة، وحصاد مر.

تطورت هذه المقالة على يد تلميذ أبي الهذيل العلاف، وهو النظّام، وكان النظّام هذا حفظ كتب أرسطو الفيلسوف المعروف في الفلسفة، والمنطق، وكان من أعلمهم بالكلام كما يشهد له أيضًا تلميذه الجاحظ.

هنا ازداد الارتباط بين فكر المعتزلة مع فكر الفلاسفة على يد النظام، وازداد إيغالهم في النظر العقلي المجرد البعيد عن الوحي تمامًا، فبقدر ما يقتربون من الفلسفة يكون بعدهم عن مشكاة الوحي والنبوة.

النظام هذا زاد على مقالة واصل وأبي الهذيل العلاّف فقال: "إن الحجّة العقلية قادرة على نسخ النقل" الحجة العقلية تنسخ النص! هل هذا يتصور؟ إلى هذا الحد؟ العقل عندهم هو الأصل وعليه المعول.

لاحظ كيف تطورت مقالة المعتزلة على ثلاث مراحل، وآل الأمر عندهم إلى أن العمدة هو العقل، والمقاييس العقلية، وأما الوحي فإنه لا يصلح للاحتجاج، هكذا آل الأمر.

كانت القضية في البداية في الفاسق الملي، صاحب الكبيرة في مجلس الحسن البصري، لما جاء سائل، وقال ما حكمه؟ فقال واصل بن عطاء: أرى أنه في منزلة بين المنزلتين.

كان الخلاف فقط في هذه، وانتهى أين فيما بعد؟، هكذا البداية تكون أحيانًا بكلمة، ثم تنتهي بهاوية قد تهوي بأصحابها في جهنم –نسأل الله العافية.

كثر بعد ذلك الاختلاف والتنازع بين المعتزلة أنفسهم فضلاً عن غيرهم.

أبو علي الجُبّائي يكفر ابنه أبا هاشم الجُبّائي، وهذا له طائفة، وهذا له طائفة، تحمد الله –عز وجل– على العافية.

هؤلاء أصحاب العقول الآن، والمقاييس العقلية التي تنسخ النص، تركوا الوحي، واشتغلوا ببعضهم، وتخالفت عقولهم وتفاوتت غاية التفاوت.

أبو هاشم هذا الابن خالف أباه في تسع وعشرين مسألة، تسع وعشرين مسألة كافية لرميه بالزندقة عندهم، هم يختلفون في مسألة واحدة، ومباشرة التكفير، فكيف في تسع وعشرين مسألة؟!.

أبوه كان يخالف أبا الهذيل العلاف في تسع عشرة مسألة، هؤلاء يكفرون هؤلاء، وهؤلاء يكفرون هؤلاء.

معتزلة بغداد، ومعتزلة البصرة بينهم خلاف مشهور وكثير وفاحش، يكفر بعضهم بعضًا، معتزلة بغداد ومعتزلة البصرة، ذكر بعضهم أن الاختلاف بين الفئتين كان في أكثر من ألف مسألة.

الآن هؤلاء أصحاب قواعد عقلية، كيف اختلفوا في ألف مسألة؟!

وهكذا تكون الضلالة، في البداية شرارة، ثم بعد ذلك حريق يلتهمهم.

بِشر المرِّيسي هذا من شيوخ المعتزلة وهو رجل صاحب لغط وشغب، وذكرت لكم خبره مع الشافعي –رحمه الله– وكيف كان يشغب في مجالس أهل العلم، وكان مُرجئًا أيضًا، كان يقول: "إن السجود للشمس والقمر ليس بكفر، ولكنه علامة على الكفر"[1].

هؤلاء في عصر جبال، هذا معاصر للشافعي، ويجلس مع الشافعي، ويناظر الشافعي، وليس بكفء، ولكن الشافعي كان يداريه من أجل أمه، كانت تتوسل إلى الشافعي لعل الله أن يهدي ابنها.

فالسجود للشمس والقمر عنده ليس بكفر لكنه علامة على الكفر، لماذا؟ لأنه أوغل في الإرجاء، لا يكفر أحداً، لاحظ الذين يبالغون في التكفير هؤلاء على انحراف وضلال، وهؤلاء يقابلونهم، فصار الأمر عندهم إلى حال أنه لو سجد للشمس والقمر لا يكفر بذلك، هذا يقال له: الإرجاء، يقابل مذهب المعتزلة والخوارج.

المعتزلة والخوارج يقال لهم وعيدية؛ لأنهم يقولون بأنه خالد في النار، هذه مسائل الأحكام يسمونها.

وفي مسائل الأسماء: المعتزلة يقولون هو بمنزلة –يعني فاعل الكبيرة– بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر، والخوارج يقولون: كافر، والمرجئة يقولون: كامل الإيمان؛ لأنه لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة، انظر التناقض، الضلال المبين أين وصل بهؤلاء الناس؟.

المريسي هذا يقولون: كان أبوه يهوديًّا، الإمام أحمد –رحمه الله– لما سُئل عنه قال: ما تراه يكون؟ أبوه يهودي، فماذا عسى أن يكون؟ كان يحضر مجلس أبي يوسف، صاحب أبي حنيفة ويصيح، ويرفع صوته، ويستغيث، ويشغب، يقولون: ما كان صاحب حجج، بل كان صاحب خطب كما يقول الإمام أحمد –رحمه الله.

وهكذا استمرت الحال، بلغت البجاحة بالزمخشري صاحب "الكشاف" الملقب بجار الله؛ لأنه جاور في الحرم وألف الكشاف في نحو سنتين في مكة، ثم حينما أتم تفسير الكشاف وضعه في الكعبة في مدة الحج.

من أجل ماذا؟ أن يطالعه العلماء الذين يحضرون الموسم، وقال: "من بدا له أن يجادل في شيء فليفعل"[2]، الكشاف يوضع في الكعبة!.

كان أمير مكة معجباً بالزمخشري، معظما له، وهو الذي طلب منه أن يؤلف الكشاف، فأقام عنده هذه المدة وألف الكشاف ووضع في داخل الكعبة.

---

(١) انظر: نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله –عز وجل– من التوحيد، لأبي سعيد الدارمي السجستاني (٥٩/١)، ووفيات الأعيان (٢٧٧/١).

(٢) انظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (٢٣٥/٢).

الشر قديم، والبلاء قديم، والانحراف قديم، لكن ينبغي للإنسان أن يطلب النجاة لنفسه، ويسأل الله العافية.

يقول هارون الرشيد: "طلبت أربعة فوجدتها في أربعة: طلبت الكفر فوجدته في الجهمية، وطلبت الكلام فوجدته مع المعتزلة، وطلبت الكذب فوجدته مع الرافضة، وطلبت الحق فوجدته مع أصحاب الحديث"[1] والله المستعان.

أبو علي بن عبدالوهاب، هذا من المعتزلة، يقولون: وضع كتبًا كثيرة تبلغ أكثر من أربعين ألف ورقة في نصرة مذهب المعتزلة والرد على المخالفين.

أعمار تقضى في الضلالة.

وغير المعتزلة من طوائف المتكلمين، وماذا كانت نهاياتهم؟

الجويني من كبار علماء الأشاعرة من أئمة أهل الكلام يقول: "قرأت خمسين ألفًا في خمسين ألفًا" يعني: من الكتب، خمسين ألفًا في خمسين ألفًا، كم تبلغ؟ كم كتابًا قرأ؟ هذا ما قرأ خمسين تغريدة، ولا خمس مطويات، ولا كتيبًا مترجمًا.

هذا يقول: "قرأت خمسين ألفًا في خمسين ألفًا، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم، وغصت في الذي نهى أهل الإسلام، كل ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد" لاحظ قالوا له: لا تؤجِّر عقلك لهؤلاء، انتبه.

"كنت أهرب من التقليد، والآن فقد رجعت لكلمة الحق، عليكم بدين العجائز، فإن لم يدركني الحق بلطيف بره، فأموت على دين العجائز، وتختم عاقبتي عند الرحيل على كلمة الإخلاص لا إله إلا الله، وإلا فالويل فالويل لابن الجويني"[2].

الشهرستاني من كبار أئمة المتكلمين، أقر على نفسه بالحيرة بعدما درس العلوم الكلامية، وأوغل فيها، وتقلب وتلون، تارة مع الباطنية، اقرءوا في ترجمته، ويشك البعض أنه كان من الباطنية، وتارة مع الأشاعرة، والذين يحسنون الظن يقولون: لم يكن من الباطنية، لكن لمصالح دنيوية لربما صانع بعض الأمراء من الباطنية، الذين يحسنون الظن ويدافعون عنه.

الشاهد أنه من أئمة المتكلمين، كان يستشهد بالأبيات المعروفة:

لقد طفتُ في تلك المعاهدِ كلها *** وسيّرتُ طرفي بين تلك المعالمِ

فلم أرَ إلا واضـعًا كف حائر *** عـلـى ذَقَنٍ أو قارعاً سن نادمِ[3]

وكلامهم في هذا كثير.

والآخر الذي يقول:

نهايةُ إقدام العـقول عقالُ *** وغايـةُ سعيِ العالمينَ ضـلالُ

ولم نستفد من بحثنا طولَ عمرنا *** سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وكم من جبالٍ علت شُرفاتِها *** رجالٌ فزالوا والجبالُ جبالُ[1]

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (ص: ٥٥).

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٨٥/٥)، وسير أعلام النبلاء (٤٧١/١٨).

(٣) انظر: وفيات الأعيان (٢٧٤/٤)، والملل والنحل (١٧٣/١).

الآخر يقول: أضع الملحفة على وجهي حتى أصابح الصبح، وأقارن بين أقوال هؤلاء، وأقوال هؤلاء فلا أخرج بشيء[٢].

وآخر في مرض الموت دخل عليه أحد أصحابه يعوده، فقال له هذا المحتضر من كبار علماء هؤلاء المتكلمين: يا فلان، ما تعتقد؟ فذكر له عقيدته، فقال له: وأنت مطمئن بهذا؟ قال: نعم، فبكى هذا المحتضر وقال: والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد.

هؤلاء ابتلعوا كتب الفلسفة، كما يقول ابن العربي نفسه الذي كان معجبًا بأبي حامد الغزالي، يقول: إنه ابتلع الفلسفة وما استطاع أن يخرجها[٣]. -نسأل الله العافية.

هذا مثال لهؤلاء من أهل الكلام من المعتزلة، وغيرهم كالأشاعرة.

بداية التشيع:

التشيع كان في بدايته يعني الميل إلى علي -رضي الله تعالى عنه-، تفضيل علي -رضي الله عنه- على عثمان، وليس على أبي بكر وعمر، من غير انتقاص، ولا سب لعثمان -رضي الله عنه- فضلاً عن الشيخين، هذه في بداية التشيع.

حتى ظهر عبدالله بن سبأ اليهودي، وادعى الإسلام، وانتحل محبة آل البيت، وغالى في علي -رضي الله عنه- فادّعى في البداية أنه الوصي، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- جعله وصيًّا في الخلافة، وهذا يقتضي أن أبا بكر وعمر وعثمان قد اغتصبوا الخلافة.

ثم غالى لما وجد قبولًا وإذعانًا وآذانًا صاغية، فادعى الألوهية لعلي -رضي الله تعالى عنه- وذكرت لكم في الليلة الماضية، ماذا حدث حينما حفر علي -رضي الله عنه- الخندق، وقال:

لما رأيتُ الأمرَ أمرًا منكرًا***أجّجتُ ناري ودعوتُ قَنبرًا

وهو مولى لهم يقال له: قَنبر، فكانوا يتهافتون في النار، ويقولون: وعجلت إليك ربي لترضى، أنت هو، يقول لهم: من هو؟ يقولون: لا يعذب بالنار إلا رب النار، أنت ربنا[٤].

في ذلك الوقت في زمن الخليفة الراشد علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- والصحابة متوافرون، ويخرج مثل هؤلاء!.

الخوارج كيف كانت البدايات؟

في البداية كان هؤلاء الخوارج بجيش علي -رضي الله تعالى عنه-، ثم دعا أهل الشام إلى التحكيم في القصة المعروفة، أبى ذلك عليٌّ -رضي الله عنه- فألح عليه الخوارج بقبول التحكيم والتحاكم إلى كتاب الله -عز وجل-، ثم بعد ذلك لما حصل التحكيم انقلبوا على عليٍّ -رضي الله تعالى عنه- ونابذوه وكفروه، وكفروا أهل

---

(١) انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز (٢٤٤/١).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢٤٧/١).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٦٤/٤).

(٤) انظر: المخلصيات، لمحمد بن عبد الرحمن بن العباس بن عبد الرحمن بن زكريا البغدادي المخَلِّص، (٣٣٥/١)، رقم: (١٨٠)، وفتح الباري لابن حجر (٢٧٠/١٢).

الشام وكفروا أنفسهم، وقالوا: رجعنا إلى الإسلام، فإن أردت أن نتابعك فلابد أن تقر على نفسك بالكفر، ثم ترجع إلى الإسلام.

رفض عليٌّ -رضي الله عنه- كيف يُضيّع سعيه وجهاده مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وهجرته من أجل هؤلاء، فنابذوه فاجتمعوا في منزل عبدالله بن وهب الراسبي، فخطبهم خطبة بليغة، زهدهم في الدنيا، ورغبهم في الآخرة رغبهم في الجنة، حثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم قال: فاخرجوا بنا إخوانَنا من هذه القرية الظالم أهلها، هجرة، هجرة من ماذا؟ من دار الإسلام.

كفّروهم، قالوا إلى جانب هذا السواد، إلى بعض كور الجبال، أو بعض هذه المدائن منكرين لهذه الأحكام الجائرة[1].

اجتمعوا أيضًا في بيت رجل منهم، يقال له: زيد بن حسين الطائي فخطبهم وحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتلا عليهم الآيات من القرآن، كقوله تعالى: **{يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ... }** [ص: ٢٦] الآية، وهكذا **{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}** [المائدة: ٤٤]، **{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}** [المائدة: ٤٥]، **{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}** [المائدة: ٤٧].

ثم قال: فأشهد على أهل دعوتنا -يقصد من؟، يقصد المسلمين- من أهل قبلتنا أنهم اتبعوا الهوى، ونبذوا حكم الكتاب، وجاروا في القول والأعمال -يعني ظلموا- وأن جهادهم حق على المؤمنين، لاحظ الآن البداية: أن جهادهم حق على المؤمنين.

كفروهم والآن يريدون أن يقاتلوهم.

فبكى رجل منهم يقال له عبدالله السلمي، ثم حرض أولئك على الخروج على الناس، وقال في كلامه: "... اضربوا وجوههم وجباههم بالسيوف، حتى يطاع الرحمن الرحيم، فإن أنتم ظفرتم، وأطيع الله كما أردتم أثابكم الله ثواب المطيعين له العاملين بأمره، وإن قتلتم فأي شيء أفضل من الصبر والمصير إلى الله ورضوانه وجنته"[2].

لاحظ هؤلاء يعتقدون هذا، ما كانوا يمثلون، ولكنه عمى الأبصار -نسأل الله العافية.

وهنا يقول ابن كثير - رحمه الله- بعدما ذكر هذا يقول: "وهذا الضرب من الناس من أغرب أشكال بني آدم، فسبحان من نوع خلقه كما أراد، وسبق في قدره ذلك، وما أحسن ما قال بعض السلف في الخوارج إنهم المذكورون في قوله تعالى: **{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}** [الكهف: ١٠٣ - ١٠٥][3].

هذا كلام ابن كثير، يقول ابن كثير: "والمقصود أن هؤلاء الجهلة الضلال والأشقياء في الأقوال والأفعال اجتمع رأيهم على الخروج من بين أظهر المسلمين، وتواطئوا على المسير إلى المدائن ليملكوها ويتحصنوا بها، ثم يبعثوا

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٥/٧٤)، والبداية والنهاية (٧/٣١٦).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٧/٣١٦).

(٣) المصدر السابق.

إلى إخوانهم وأضرابهم ممن هم على ما هم عليه من أهل البصرة وغيرها فيوافوهم إليها، ويكون اجتماعهم عليها، فقال لهم زيد بن الحصين: إن المدائن لا تقدرون عليها؛ لأن بها جيشًا لا تطيقونه، ولكن واعدوا إخوانكم إلى جسر نهر جوخا، ولا تخرجوا من الكوفة جماعات -يقول اخرجوا متسللين فرادى-؛ من أجل أن لا يشعر بكم أحد.

فكتبوا كتابًا عامًّا إلى من هو على مذهبهم ومسلكهم من أهل البصرة وغيرها، وبعثوا به إليهم ليوافوهم إلى النهر ليكونوا يدًا واحدة على الناس.

يقول: ثم خرجوا يتسللون وحدانًا؛ لئلا يعلم أحد بهم فيمنعهم من الخروج، فخرجوا من بين الآباء والأمهات والأعمام والعمات، وفارقوا سائر القرابات، يعتقدون بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم أن هذا الأمر يرضي رب الأرض والسموات، ولم يعلموا أنه من أكبر الكبائر والذنوب الموبقات والعظائم والخطيئات وأنه مما يزيّنه لهم إبليس وأنفسُهم التي هي بالسوء أمّارات". تركوا الأهل والقرابات.

يقول: "وقد تدارك جماعةٌ منهم -يعني: من أهل البصرة أو الكوفة- بعضَ أولادهم وقراباتهم وإخوانهم، فردوهم وبخوهم، فمنهم من استمر على الاستقامة، ومنهم من فر بعد ذلك فلحق بالخوارج، فخسر إلى يوم القيامة".

يعني: ما قبل نصح الناصحين، ولا وعظ الواعظين، ولا زجر الزاجرين، فأول ما وجد فرصة خرج إليهم.

فذهب الباقون إلى ذلك الموضع ووافى إليهم من كاتبوه من أهل البصرة وغيرها، واجتمع الجميع بالنهروان وصارت لهم شوكة ومنعة، ولهم صبر وثبات" إلى غير ذلك مما ذكر.

يقول: "وعندهم أنهم متقربون بذلك إلى الله -عز وجل-، فهم قوم لا يُصطلى لهم بنار، ولا يطمع أحد في أن يأخذ منهم بثأر، في غاية الاستماتة على مبادئهم[1].

مقتل عبدالله بن خباب:

لما أقبل هؤلاء من البصرة ودنوا من النهروان رأى جماعة منهم رجلاً يسوق بامرأة على حمار، وفي بعض الروايات أنهم رأوا رجلاً ينحاز عنهم، ويفر منهم، فأقبلوا عليه ودعوه وانتهروه، فأفزعوه، وقالوا: من أنت؟ قال: أنا عبدالله بن خباب صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقالوا له: أفزعناك؟، قال: نعم، قالوا: لا روع عليك. طبعًا فَهِم الآن أن هذا أمان.

لا روع عليك حدثنا حديثًا سمعتَه عن أبيك سمعه من الرسول -صلى الله عليه وسلم- تنفعنا به.

فقال: حدثني أبي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ذكر فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، قال: "فإن أدركت ذاك، فكن عبد الله المقتول[2].

قالوا: لهذا الحديث سألناك، فما تقول في أبي بكر وعمر؟ الآن هذا الرجل ما عمل شيئًا، ما بدا منه شيء، ولا قاتلهم، رجل مع امرأته وحماره، مع أم ولده وحماره، ما عمل شيئًا، ما تعرض لهم، لكن لابد من البحث عن شيء، فقالوا له: ما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما خيرًا.

---

(١) انظر: المصدر السابق (٣١٧/٧).

(٢) أخرجه أحمد، رقم: (٢١٠٦٤).

قالوا: ما تقول في عثمان في أول خلافته، وفي آخرها؟ قال: إنه كان محقًّا في أولها وآخرها، قالوا: ما تقول في علي قبل التحكيم وبعده؟، قال: إنه أعلم بالله منكم وأشد توقيًا على دينه، وأنفذ بصيرة.

قالوا: إنك تتبع الهوى وتوالي الرجال على أسمائها، لا على أفعالها، والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحدًا.

ماذا عمل؟، فأخذوه وكتفوه، ربطوا يديه إلى الخلف، ثم أقبلوا به وبامرأته وهي حبلى مُتِم –يعني: في التاسع–، حتى نزلوا تحت نخلٍ مواقير، يعني: على رءوسها التمر، فسقطت منه رطبة فأخذها أحدهم فتركها في فيه.

فقال آخر: أخذتها بغير حلها وبغير ثمن، فألقاها، ورع من تمرة سقطت مصيرها إلى التلف!.

ثم مر بهم خنزير لأهل الذمّة فضربه أحدهم بسيفه، فقالوا: هذا فساد في الأرض، فلقي صاحب الخنزير فأرضاه، اعتذر منه أو أعطاه ثمن الخنزير.

فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال: لئن كنتم صادقين فيما أرى –يعني: ليست تمثيلية– فما عليّ منكم بأس.

يقول: أنا مطمئن، خنزير وتمرة لرجل من أهل الكتاب!

إني مسلم ما أحدثت في الإسلام حدثًا، ولقد أمّنتموني قلتم: لا روع عليك.

فأضجعوه على النهر فذبحوه كما تُذبح الشاة، فسال دمه في الماء، فأقبلوا إلى امرأته، فقالت: اتقوا الله إني امرأة، فبقروا بطنها، حامل في التاسع، ماذا فعلت؟ ما ذنبها؟! بقروا بطنها، وقتلوا ثلاث نسوة من طيّئ، وقتلوا أم سنان الصيداوية[1].

موقف أمير المؤمنين علي –رضي الله عنه– منهم:

فلما بلغ عليًّا –رضي الله تعالى عنه– قتْلُهم عبدالله بن خباب واعتراضهم الناس، يعني: بدأوا يعترضون الطرق والمارّة، فبعث إليهم الحارث بن مُرّة العَبدي ليأتيَهم وينظر ما بلغه عنهم ويكتب به إليهم.

الآن هذا رسول جاء ليستفهِم، والرسل لا تُقتل، فقتلوه، هذا المبعوث الآن للتفاهم والتثبت أخذوه وقتلوه، فجاء عليًّا –رضي الله عنه– الخبرُ والناس معه.

فقالوا: يا أمير المؤمنين، علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في عيالنا وأموالنا؟ سر بنا إلى القوم فإذا فرغنا منهم سرنا إلى عدونا في الشام.

كان علي –رضي الله عنه– يتجهز للمسير إلى الشام، فقالوا له: إن سرنا إلى الشام، فهؤلاء معول هدم، سيخلفوننا في أهلينا، فلماذا نتركهم؟.

نبدأ بهؤلاء ثم نذهب إلى الشام، فأرسل علي –رضي الله تعالى عنه– إلى هؤلاء الذين اجتمعوا عند النهر أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم، أقتلهم بهم، ثم أنا تاركم وكافٌّ عنكم حتى ألقى أهل المغرب–يعني: أهل الشام– ، فلعل الله يُقبل بقلوبكم ويردكم إلى خيرٍ مما أنتم عليه من أمركم.

يقول: أنا لا شأن لي بقتالكم، هاتوا الذين قتلوا، فقالوا: كلنا قَتَلهم، وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم.

([1]) تاريخ الطبري (٥/٨١-٨٢).

فخرج إليهم قيس بن سعد بن عبادة –رضي الله عنه– فقال لهم: عباد الله، أخرِجوا إلينا طِلبتنا منكم –يعني: هؤلاء الذين طلبناهم–، وادخلوا في هذا الأمر الذي خرجتم منه، وعودوا بنا إلى قتال عدونا وعدوكم، فإنكم ركبتم من الأمر عظيمًا، تشهدون علينا بالشرك، وتسفكون دماء المسلمين.

فقال لهم عبدالله السُّلمي –هذا الخارجي–: إن الحق قد أضاء لنا فلسنا متابعيكم أو تأتونا بمثل عمر.

فقال: ما نعلمه فينا غير صاحبنا –يعني عليًّا –رضي الله عنه–، فهل تعلمونه فيكم؟ قالوا: لا، قال: نشدتكم الله في أنفسكم أن تهلكوها؛ فإني لا أرى الفتنة إلا وقد غلبت عليكم.

ثم خطبهم أبو أيوب الأنصاري –رضي الله عنه– وقال: عباد الله، إنا وإياكم على الحال الأولى التي كنا عليها، أليست بيننا وبينكم فرقة؟ فعلام تقاتلوننا؟ فقالوا: إنا لو تابعناكم اليوم حكّمتم غدًا.

تعودون إلى التحكيم، فقال: فإني أنشدكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتي في القابل.

يقول: أنتم تفترضون الآن أمورًا ما وقعت، وتقاتلون بناء على افتراضات واحتمالات.

فأتاهم عليٌّ فقال: أيتها العصابة التي أخرجها عداوة المِراء واللَّجاجة، وصدها عن الحق الهوى، وطمع بها النَّزَق، وأصبحت في الخطب العظيم، إني نذير لكم أن تصبحوا تلعنكم الأمة غدًا صرعى بأثناء هذا الوادي... إلى آخر ما ذكر.

وقال لهم: من أين أوتيتم؟ فقالوا: إنا حَكَّمنا فلما حَكّمنا أثمنا وكنا بذلك كافرين، وقد تبنا، فإن تبت فنحن معك ومنك، وإن أبيت فإنا منابذوك على سواء.

وكان مما قاله علي –رضي الله تعالى عنه–: بينوا لنا بماذا تستحلون قتالنا، والخروج عن جماعتنا، وتضعون أسيافكم على عواتقكم، ثم تستعرضون الناس تضربون رقابهم؟، إن هذا لهو الخسران المبين، والله لو قتلتم على هذا دجاجةً لعظم عند الله قتلها، فكيف بالنفس التي قتلها عند الله حرام؟!.

هؤلاء حينما تورد عليهم النصوص تقول لهم: **{وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا... }** [النساء: ٩٣].

والأحاديث الواردة في الباب وما إلى ذلك كما سترون في أصولهم التي يذكرها بعضهم –بعض الخوارج– هم عندهم أن ذلك محل القبول أنه **{وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ...}** ويكفرونه، لكن يقولون: نحن نقتل الكفار، نحن ما قتلنا المسلمين، نحن لا نقتل المسلمين، هؤلاء كفار، هؤلاء الذين يخالفونهم كفار.

ولذلك إيراد هذه الآيات **{وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا...}** والأحاديث الواردة في الباب لا يُجدي مع هؤلاء؛ لأنهم يقولون: نعم، نحن نقر بهذا، لكن ما قتلنا المسلمين، نحن نقتل الكفار –نسأل الله العافية.

الشاهد لما قال لهم عليٌّ –رضي الله عنه– ذلك تنادوا: لا تخاطبوهم، ولا تكلموهم، وتهيئوا للقاء الله، ثم صاروا بصوت واحد: الرواح الرواح إلى الجنة –نسأل الله العافية.

انظر، أُشربوا في قلوبهم العجل، أشربوا الضلالة والبدعة والهوى، و يموتون دونها –كما سترون– فأمر عليٌّ –رضي الله عنه– أبا أيوب الأنصاري أن يرفع راية أمان للخوارج، ويقول لهم: من جاء إلى هذه الراية فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن، إني لا حاجة لي في دمائكم إلا فيمن قتل إخواننا، انصرف منهم طوائف كثير، كانوا في أربعة آلاف، يقولون: لم يبقَ منهم إلا ألف، أو أقل مع عبدالله بن وهب الراسبي.

فزحفوا على عليٍّ، فقدّم عليٌّ بين يديه الخيل، وقدم منهم الرماة وصفّ الرَّجّالة -يعني: الذين على الأقدام-، ورأى الخيّالة، وقال لأصحابه: كفوا عنهم حتى يبدءوكم، وأقبلت الخوارج وهم يقولون: لا حكم إلا لله، الرواح الرواح إلى الجنة.

ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف، فأناموا الخوارج، فصاروا صرعى تحت سنابك الخيول وقُتل أمراؤهم: عبدالله بن وهب، حُرقوص بن زهير، شريح بن أبي أوفى، عبدالله السُّلمي، يقول المؤرخون كما يقول ابن كثير: قبحهم الله.

ما قُتل من أصحاب علي -رضي الله عنه- إلا نفر قليل نحو سبعة، وهؤلاء ما نجا منهم إلا نحو أيضًا تسعة، وقد تفرقوا ذهب اثنان إلى اليمن، وذهب بعضهم إلى ناحية عمان، تفرقوا.

ثم بعد ذلك بدأوا ينشطون من جديد، وأعادوها جَذعة، الجلد والصبر على الباطل، وسيأتي من هذا أشياء في الجلد، جلد أهل الباطل في باطلهم.

جعل عليٌّ -رضي الله عنه- يمشي بين القتلى من هؤلاء، ويقول: بؤسًا لكم، لقد ضركم من غركم، فقال من معه: يا أمير المؤمنين، ومن غرهم؟ قال: الشيطان، وأنفسٌ بالسوء أمارة، غرتهم بالأماني وزينت لهم المعاصي، ونبأتهم أنهم ظاهرون، ثم أمر بالجرحى من بينهم فإذا هم أربعمائة، فسلمهم إلى قبائلهم ليداووهم.. إلى آخر ما ذكر.

وكما قلت: إن بعضهم قال: لم يبقَ منهم إلا أقل من عشرة، والباقي قُتل، وكان علي -رضي الله عنه- قال لأصحابه: لا يُقتل منكم عشرة، ولا يبقى منهم عشرة[1].

مناظرة ابن عباس -رضي الله عنهما- للخوارج قبل النهروان:

ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- كان قد ناظرهم لما اجتمعوا على عليٍّ -رضي الله تعالى عنه- ليخرجوا عليه.

فدخل عليهم ابن عباس في معسكرهم، يقول: وهم قائلون، فإذا هم مُسهَمة وجوههم من السهر -قيام الليل- قد أثر السجود في جباههم، كأن أيديهم ثَفِن الإبل، عليهم قمص مُرحَّضة، فقالوا: ما جاء بك يا ابن عباس؟ وما هذه الحلة التي عليك؟ -حلة جميلة-، فرد عليهم: أنه رأى على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحسن ما يكون من الثياب اليمنية إلى آخر ما قال لهم.

الشاهد أن بعضهم قال: لا تُكلّموه، الله يقول -يعني عن قريش-: **{بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}** [الزخرف: ٥٨] ، فقال بعضهم: بلى، فلنكلمنّه.

الخوارج إذا سبرت أحوالهم هي مجموعات فوضوية، ولذلك من الخطأ أن يُظن أنهم كانوا على سنن واحد، يعني بعض الناس يقول: الخوارج في السابق ما كانوا يغدرون، ولا يقتلون غيلة، هذا غير صحيح، فكما ترون أنهم أمّنوا عبدالله بن خباب، ثم قتلوه.

عليٌّ -رضي الله عنه- قتلوه غيلة.

---

(١) انظر: سنن الدارقطني (١٥١/٤)، رقم: (٣٢٥٠).

لكن بعضهم لا يرى ذلك، ولذلك سيأتي أن بعضهم يتبرأ من عبدالرحمن بن ملجم الذي قتل عليًّا -رضي الله عنه- يقولون: لأنه قتله غيلة.

هي مجموعة فوضوية ما لاح لهم فعلوه، لا عقول، ولا بصائر يبصرون بها الحق، مجموعة فوضوية -وسيأتي مزيد إيضاح لهذا- الشاهد هؤلاء الذين قالوا: لنكلمنّه.

يقول: كلمني منهم رجلان أو ثلاثة، قلت: ماذا تنقمون عليه -أي على عليٍّ -رضي الله عنه-؟، قالوا: ثلاثًا، قلت: ما هن؟ قال: حكَّم الرجال في أمر الله، والله يقول: **{إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ}** [الأنعام: ٥٧].

قال: وماذا أيضًا؟ قالوا: قاتل فلم يسبِ ولم يغنم، فإن كانوا مؤمنين ما حل قتالهم، وإن كانوا كافرين لقد حل قتالهم وسبيهم، قال: ماذا أيضًا؟

قالوا: محا نفسه من أمير المؤمنين -يعني أثناء التحكيم- فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.

الفهم والعقول والفقه، ما أنت أمير المؤمنين إذًا أمير الكافرين! فقال لهم ابن عباس -رضي الله عنهما-: أرأيتم إن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- ما ينقض قولكم هذا، أترجعون؟

قالوا: وما لنا لا نرجع؟

يقول: قلت: وأمّا قولكم حكّم الرجال فإن الله -عز وجل- قال في كتابه **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ}** [المائدة: ٩٥].

وقال في المرأة وزوجها: **{وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا}** [النساء: ٣٥]، فصير الله تعالى ذلك إلى حكم الرجال.

فنشدتكم الله أتعلمون حكمَ الرجال في دماء المسلمين، وفي إصلاح ذات بينهم أفضل أو في دم أرنب -يعني الصيد- ثمن ربع درهم وفي بُضع امرأة؟، قالوا: بلى هذا أفضل، يعني: في دماء المسلمين.

قال: أخرجتُ من هذا؟ يعني: اقتنعتم؟

قالوا: نعم، قال: وأما قولكم: قاتل فلم يسبِ ولم يغنم، أفتسْبون أمكم عائشة؟ -لأنها كانت مع أهل الشام في وقعة الجمل- فإن قلتم نسبيها فنستحل منها ما نستحل من غيرها فقد كفرتم، يعني: يستحلون منها ما يستحلون من الجواري والإماء.

وإن قلتم: ليست بأمنا فقد كفرتم، فأنتم تترددون بين ضلالتين، أخرجتُ من هذه؟ قالوا: نعم.

فقال: أما قولكم محا نفسه من أمير المؤمنين فأنا آتيكم بمن ترضون.

إن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : **((اكتب يا علي، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله))**، قال أبو سفيان وسهيل بن عمرو: ما نعلم أنك رسول الله، و لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك. قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((اللهم إنّك تعلم أني رسولك، امحُ يا علي، واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله وأبو سفيان وسهيل بن عمرو))**.

قال: فرجع منهم ألفان وبقي بقيتهم، فخرجوا فقُتلوا أجمعون[1].

هذه مناظرة مع ابن عباس قبل النهروان، لاحظ الطرح، والفهم، والفقه، ولاحظ القضايا التي يتشبثون بها ويكفرون بناء عليها، يكفرون من؟ يكفرون هؤلاء كبار الصحابة، وبالمناسبة ما معهم صحابي واحد، وما معهم عالم واحد، لأنهم أنهوا الصحابة، وأنهوا العلماء، فبقي يقودهم مثل هؤلاء ابن حُرقوص، وأمثال ابن حرقوص، عليٌّ عندهم ضال وكافر ورأس في الكفر، ابن عباس كذلك، وهكذا بقية الصحابة -رضي الله تعالى عنهم و أرضاهم- إذًا من هو الإمام المتبع؟ ابن حرقوص وأمثاله.

إذا كان هذا الأعمى يقودهم فما ظنكم؟ وهذه مشكلة كبيرة جدًّا حينما يسقط العلماء.

ظاهرة إسقاط العلماء:

يا إخواني، إسقاط هؤلاء العلماء قد لا يكون مقصودًا لدى المتكلم، لكن قد يتكلم بدافع الغيرة، قد نتكلم نرسل رسالة فيها مقطع غير مناسب، عبارة أخطأ فيها عالم، في مقام، في مجلس، في غير ذلك، أو نقول: أين العالم الفلاني أو العلماء من القضية الفلانية، أو المنكر الفلاني؟، ونتداول هذا، فما الذي يحصل؟

يحصل تغير في الصدور، فهذه رمية بسهم، ثم تأتي أخرى مثلها من دافع الغيرة على الدين، انظر فلان ماذا يقول، مقطع بصوته وصورة، انظر ماذا يقول، خطأ، أخطأ، ثم ماذا؟ أين العلماء من كذا وكذا وكذا؟ أين العلماء من كذا وكذا؟.

يا أخي أين أنت الآن إذا سألناك حينما ترى منكرًا على مائدتك، أحد الضيوف يأكل بيده الشمال، سألت الكثيرين هل تنكرون عليه، وتقولون: لو سمحت كل بيدك اليمين؟ كل هؤلاء الذين سألتهم فيما يحضرني الآن ما أحد منهم قال: نعم، يجبن من أن يتكلم بكلمة مثل هذه أمام إنسان في بيته لا يملك له نفعًا وضرًا.

رأيت إنساناً على مائدة في زواج، أو في غيره وهو يشرب بالشمال، يأكل باليمين ويشرب العصير، أو البيبسي أو غير ذلك بالشمال.

تقول له: لو سمحت بارك الله فيك، اشرب باليمين، **((فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله))**[2] من منكم رأى أحدًا يأكل بالشمال، ويشرب بالشمال في زواج، في مناسبة فليقل له: لو سمحت انتبه.

يأكل وهو متكئ، تقول: ارفع يدك لو سمحت بارك الله فيك لا تتكئ، يجبن عن هذا، يدخل إلى أي مكان يرى منكرات يرى امرأة متبرجة أو غير ذلك، ينزل رأسه ويمشي، يجبن.

طيب العالِم بشر، لو حقناك علمًا حتى خرج العلم من تحت أظافرك لن تتغير الخصائص الإنسانية الطبيعية التي فيك من الشجاعة والجبن، ما تتغير، هي تبقى، هذه الخصائص باقية.

فلماذا تطالب الآخرين بأمور لو نظرت إلى نفسك أمام من لا يملك شيئًا، تدخل عند الحلاق وهو يحلق لحية إنسان لا تقول له: لو سمحت هذا ما يجوز، يجبن ويجلس على الكرسي الآخر، ويحلق رأسه، ولا يتكلم.

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب قتال أهل البغي وهو آخر الجهاد (٢/١٦٤)، رقم: (٢٦٥٦)، والبيهقي في في السنن الكبرى (٨/٣٠٩)، رقم: (١٦٧٤٠)، والنسائي في السنن الكبرى (٧/٤٨٠)، رقم: (٨٥٢٢).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما (٣/١٥٩٨)، رقم: (٢٠٢٠).

طيب هذا منكر الآن، انصح بالتي هي أحسن، يجبن، تجبن من ماذا؟! هذا لا يملك لك نفعًا ولا ضرًّا هذا الحلاق، ولا هذا المحلوق أصلاً هو مشغول يحلق لا يستطيع أن يقوم من كرسيه، ومع ذلك يجبن، طيب كيف تطالب الآخرين، وتلمز الآخرين، وتنتقص الآخرين، وتؤذيهم وتنسب إليهم أمورًا عظيمة؟، ثم بعد ذلك تكون النهاية ما هي؟

أن هؤلاء لا يُقبل منهم شيء، فلا يبقى عند الناس كبير، فتصير الأمور فيما بعد إلى فوضى يقودهم الجهال، هي هكذا تنتهي القضية.

ولذلك ينبغي أن الإنسان يلتفت لنفسه، وينظر في ذنوبه وأخطائه وتقصيره قبلما يتكلم على الآخرين، أحيانًا نتكلم بألسنة حداد وبأقلام من نار، نكتب فيها، لكن هذه الكتابات تؤدي في النتيجة وفي النهاية إلى ماذا؟

هل تبصرت؟، فكرت فيها؟ ماهي آثارها؟ ما هي سلبياتها؟ إلى أي حال سنصير؟، ما عاد يُقبل من أحد ولا يُحترم أحد ولا يُتأدب مع أحد، الكل يُشتم، والكل يُسخر منه، ومن كلامه، ومن قوله.

هذا الذي يرضي الله -عز وجل-؟ **((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليَقل خيرًا أو ليصمت))**[1] ، إذا رأيت من أحد تقصيرًا تنصح هذا الإنسان إذا كنت تستطيع، ما تستطيع فكفُّ الأذى صدقة.

لكن تداول هذا في واتس آب، وفي الغرف، وفي البيوت، هل غيّرنا؟ أبدًا إنما الصدور تضطرم، و تمتلئ بالغل على أهل الفضل والعلم والدين والخير والصلاح، ثم بعد ذلك الذي يقود الناس غراب .

مناظرة عمر بن العزيز للخوارج:

عمر بن عبدالعزيز -رحمه الله- ناظرهم أيضًا في زمانه، وكانوا يخرجون طول تلك المدة، وخرجوا في زمن عمر بن عبد العزيز، فأرسل إليهم من يكلمهم ويعرض عليهم المناظرة مع عمر بن عبدالعزيز -رحمه الله- فجاء إليه رجلان منهم.

فقال لهم: ما أخرجكما هذا المخرج؟ وما الذي نقمتم؟ قالوا: ما نقمنا سيرتك، إنك لتتحرى العدل والإحسان، لكن هنا لابد من الامتحان.

هذا أمامكم نموذج فذ، لا، ما يكفي، أخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضا من الناس ومشورة أم ابتزاز لأمرهم؟ وقالوا له أيضًا: بيننا وبينك أمر واحد، قال: ما هو؟ قال: رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك -يعني الخلفاء قبلك من بني أمية- وسميتها مظالم فإن كنت على هدى وهم على الضلال، فالعنهم وابرأ منهم.

فقال عمر: قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبًا للدنيا.

يقول: أنا عارف أن نيتكم والمقصد من خروجكم هو الآخرة.

يقول: أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها، إن الله -عز وجل- لم يبعث رسوله -صلى الله عليه سلم- لعانًا، وقال إبراهيم -عليه السلام-: **{فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [إبراهيم: ٣٦].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان (٨/١٠٠)، رقم: (٦٤٧٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان (١/٦٨)، رقم: (٤٧).

وقال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠] يقول: أنا أقتدي بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وبإبراهيم -عليه الصلاة والسلام.

يقول: وقد سميت أعمالهم ظلمًا، وكفى بذلك ذمًّا ونقصًا، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لابد منها، فإن قلتم: إنها فريضة، فأخبرني أنت متى لعنت فرعون؟

فقال: هاه، ما أذكر متى لعنته، قال: أفيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم، ولا يسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون؟

قال: أمَا هم كفار بظلمهم؟، قال: لا؛ لأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دعا الناس إلى الإيمان فكان من أقر به وبشرائعه قبل منه، فإن أحدث حدثًا أقيم عليه الحد.

فقال الخارجي: إنّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده.

قال عمر: فليس أحد منهم يقول -يعني من أهل بيتي من بني أمية-: لا أعمل بسنة رسول الله، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم، ولكن غلب عليهم الشقاء.

فقال هذا الرجل: فابرأ مما خالف عملك، ورد أحكامهم.

فقال لهم عمر بن عبد العزيز: أخبراني عن أبي بكر وعمر أليسا على الحق؟ قالا: بلى.

قال: أتعلمان أن أبا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دماءهم وسبى الذراري، وأخذ الأموال؟

قالوا: نعم.

قال: أتعلمان أن عمر رد السبايا بعد أبي بكر إلى عشائرهم بفدية -يعني خالف أبا بكر-؟.

قالوا: نعم.

فقال: فهل عمر من أبي بكر؟

قالوا: لا.

قال: أفتبرءون أنتم من واحد منهما؟

قالوا: لا.

قال: فأخبراني عن أهل النهروان وهم أسلافكم، هل تعلمان أن أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دمًا ولم يأخذوا مالًا وأن من خرج إليهم من أهل البصرة قتلوا عبدالله بن خباب وجاريته وهي حامل؟، قالوا: نعم، قال: فهل برئ من لم يقتل ممن قتل واستعرض؟ -يعني يقول: الخوارج من أهل البصرة والآخرين هؤلاء قتلوا وهؤلاء لم يقتلوا فهل تبرأ أحد منهم؟

قالوا: لا، قال: فتبرءون أنتم من إحدى الطائفتين؟

قالوا: لا.

قال : أفيسعكم أن تتولوا أبا بكر وعمر، وأهل البصرة وأهل الكوفة، وقد علمتم اختلاف أعمالهم، ولا يسعني إلا البراءة من أهل بيتي والدين واحد؟!.

فاتقوا الله، فإنكم جهال تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وتردون عليهم ما قبل، ويأمن عندكم من خاف عنده، ويخاف عندكم من أمن عنده.

يأمن عندكم من خاف عند النبي –صلى الله عليه وسلم– يعني: الكافر والمنافق، ويخاف عندكم من أمن عنده يعني: أهل الإيمان، يخافون عندكم.

فإنه يخاف عندكم من يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وكان من فعل ذلك عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم– آمنًا وحقن دمه وماله، وأنتم تقتلونه، ويأمن عندكم سائر أهل الأديان، فتحرمون دماءهم وأموالهم[1]. هذه مناظرة مع عمر بن عبدالعزيز.

(١) انظر: الكامل في التاريخ (١٠٣/٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

الاختلاف وموقفنا منه

(٦) مواصلة الحديث عن الفرق التي كان الانحراف يبدأ فيها يسيرًا ثم يتوسع في الأتباع

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فمرحبًا بكم أيها الأحبة، ونواصل الحديث عن هذه الطوائف التي كان الانحراف يبدأ فيها يسيرًا ثم ما يلبث أن يتوسع ويتشعّب.

فهؤلاء الخوارج مثلاً صاروا بعد ذلك -كما سيأتي إن شاء الله- إلى طوائف وفرق يكفر بعضها بعضًا، فتبنوا عقائد أخرى.

وصاروا يخرجون حتى يخيل لمن يطالع في التاريخ أن هؤلاء قد شغلوا الدنيا، كنت أعجب حينما أقرأ في تاريخ الدولة الأموية، والدولة العباسية على سبيل المثال، كيف فُتحت الأمصار، وكيف كانت الجيوش تغزو الكفار، فحصلت الفتوحات، وهؤلاء يخرجون من كل ناحية.

وسيأتي -إن شاء الله تعالى- تفصيل لهذا وسترون أشياء، فلربما هزموا عشرين جيشًا، ولربما قتلوا ستين قائدًا في معركة واحدة من قواد الدولة العباسية، يقتلون ستين قائدًا في وقعة واحدة، عجائب وغرائب.

حقيقة مذهب هؤلاء كما يقول أيوب السختياني من أئمة التابعين: "أصحاب الأهواء كلهم خوارج، اختلفوا في الاسم، واجتمعوا على السيف"(١).

بمعنى: أن هؤلاء لا يقولون ويقرون ويذعنون بأنهم خوارج، لكن الواقع أنهم كذلك.

الجانب الآخر أيضًا أن هؤلاء الخوارج لم يكونوا على حال واحدة في الاعتقاد، وإنما كانوا يختلفون اختلافات كثيرة جدًّا.

كثير من الخوارج كان لا يتولى عبدالرحمن بن ملجم الذي يعد من زعمائهم، وهو الذي قتل عليًّا -رضي الله تعالى عنه.

يقولون: لأنه قتله غيلة، فبعض الخوارج لا يرون القتل غيلة، ولكن بعضهم يرى ذلك.

وكذلك أيضًا كما سيأتي في الكلام على بعض فرقهم فرقة يقال لها النَّجْدات، نسبة إلى نَجْدة الحنفي.

أنا متأكد أن الكثيرين ممن يستمعون لهذا الكلام لم يسمعوا بكثير من هذه الفرق، ولا بزعمائها، فذهبوا، وذهب من اغترّ بهم، وهلك في سبيل باطلهم.

ولذلك نقول: لا يصح لأحد أن يغرر بنفسه، فهي نفس واحدة.

هؤلاء النَّجْدات من الخوارج كانوا لا يكفرون أصحاب الحدود من موافقيهم(٢).

يعني: لا يشترط في الخوارج أنهم يكفّرون صاحب الكبيرة مثلاً، ما كانوا يتفقون على هذا.

---

(١) انظر: الشريعة للآجري (٥/٢٥٤٩)، رقم: (٢٠٥٧)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/١٦٢)، رقم: (٢٩٠).

(٢) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين (١/٨٤).

الذين خرجوا على عليٍّ -رضي الله عنه- ما كانت القضية عندهم أن صاحب الكبيرة كافر، وإنما كانوا يقولون: حكّمت الرجال في دين الله -عز وجل-. فكفروه بهذا الاعتبار.

لم يكن المبدأ أن صاحب الكبيرة كافر، إذًا لا يُشترط في الحكم على هؤلاء أن يقر الواحد منهم أنه يكفر صاحب الكبيرة.

هذا ليس بشرط، ولم يكن الخوارج يتفقون على هذا الأصل، إطلاقًا، ولم يمنع ذلك من تسميتهم بالخوارج، ما كل الخوارج يقولون بهذا الأصل، ويوافقون عليه، وكما ترون الآن هؤلاء النَّجْدات لا يكفرون أصحاب الحدود، أصحاب الحدود أصحاب ماذا؟، أصحاب كبائر، مِن موافقيهم.

وقد قال قوم من الخوارج: إن التكفير إنما يكون بالذنوب التي ليس فيها وعيد مخصوص، وهذه طائفة أخرى، فأما الذي فيه حد أو وعيد في القرآن فلا يزاد صاحبه على الاسم الذي ورد فيه، كأن يقال: فلان زانٍ، فلان سارق، ونحو ذلك.

النجدات من الخوارج يقولون بأن صاحب الكبيرة من موافقيهم كافر نعمة، وليس بالكفر المخرج من الملة.

إذًا هؤلاء في تكفير صاحب الكبيرة لم يكونوا على وفاق، هذه قضية مهمة، فبعض هؤلاء الخوارج لا يكفرون مطلقًا صاحب الكبيرة.

فلا يشترط أن يكون ممن يكفر صاحب الكبيرة، ونقول: فلان لا يكفر أصحاب الكبائر إذًا هو ليس من الخوارج، لا.

قد يكفِّر على ما هو أقل من الكبائر، يكفر كل من خالفه في الاجتهادات، ويستحل دمه، هذا أعظم من التكفير بالكبائر، هو يكفره؛ لأنه خالف في اجتهاد، فالذي يكفِّر على الكبيرة يكون أكثر احترازًا من هذا الذي يكفر من خالفه في اجتهاده.

وما تقول في فلان؟، وما تقول في فلان؟، مثل هؤلاء الذين قتلوا عبدالله بن خباب، ما قتلوه على أنه صاحب كبيرة، ما تقول في عليٍّ؟، ما تقول في عثمان قبل وبعد؟ إذًا لابد أن نفهم هذا المعنى جيدًا.

قد يكون هؤلاء أصحاب عبادة، كأولئك الذين خرجوا على عليٍّ -رضي الله عنه- ووصفهم ابن عباس بما وصفهم، وقد يكون هؤلاء من البطالين، ليسوا بأصحاب عبادة، وإنما جفاة، أجلاف، جفت نفوسهم من العبادة، ولكنهم اتفقوا على هذا الأصل.

يستحلون قتل من خالفهم ويكفرونه، فقد لا يكون هؤلاء بمنزلة من التعبد، فهذه أمور نحتاج أن نتبصرها، وأن نعرفها.

البدعة والضلالة والانحراف يبدأ صغيرًا ثم يتسع:

المرجئة -على سبيل المثال- كيف بدأ الإرجاء؟ وإلى أي شيء بلغ -نسأل الله العافية؟.

يقولون: إن أول من تكلم في الإرجاء: هو الحسن بن محمد ابن الحنفية، كتب رسالة، ذكرها الحافظ ابن حجر -رحمه الله-[1] وغيره[1].

---

(١) انظر: تهذيب التهذيب (٣٢١/٢).

ثم بعد ذلك استُغلت، وفُهمت على غير مراده، ودخل عليه بعضهم ولامه أنه أسس الآن انحرافًا جديدًا، وهو الإرجاء، فقال: وددت أني كنت مت ولم أكتبه[٢].

الإرجاء المنسوب إلى الحسن كيف كان؟

هي كلمة قيلت في أمر المشتركين في الفتنة التي حدثت بين أهل الشام والعراق.

الخوارج كفروهم، واصل بن عطاء، قال: إحدى الفئتين -يعني: التي ليس معها الحق، ولم يحدد قد يكون هؤلاء، وقد يكون هؤلاء- فاسقة لا تقبل شهادتها.

هذا ماذا قال؟ يقول بأن نرجئ أمرهم إلى الله، كلمة.

نترك ونفوض أمر هؤلاء إلى الله، والله يتولى عباده. فهذا غير ما كان عليه المرجئة، عقائد المرجئة تختلف عن هذا.

لكنها كلمة طار بها الشيطان، فتلقفها بعد ذلك طوائف، وهي عبارة عن رد فعل لموقف الخوارج الذين يكفرون من خالفهم، وكذلك أيضًا يحكمون بخلود هؤلاء في النار من أهل الكبائر.

وكذلك أيضًا المعتزلة الذين يقولون: في منزلة بين المنزلتين، فهو الفاسق الملي، ويحكمون بخلوده في النار.

رد فعل الآن مقابل الوعيدية من الخوارج والمعتزلة، جاء هؤلاء ويقولون، يعني: المرجئة الجهمية الخُلّص -نسأل الله العافية- قالوا: الإيمان هو مجرد المعرفة في القلب، هذا القول انتشر، ولم يبقَ مع غلاة الجهمية، بل تلقفه بعض أهل الكلام، ذكر بعض أهل العلم أنه تلقفه أيضًا الأشعري، ونصره، وكذلك قال به أكثر أصحابه لكنهم قالوا: الإيمان تصديق القلب.

يعني: ما عبروا بالمعرفة، قالوا: تصديق القلب.

المرجئة هؤلاء طوائف: الكرّامية من المرجئة، يقولون: الإيمان قول باللسان فقط، لاحظ أولئك يقولون: المعرفة، وهؤلاء قالوا: التصديق فقط.

فرعون كان مصدقًا وعارفًا، **{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ}** [النمل: ١٤]، وهو رأس الكفر.

وأبو طالب كان يقول:

ولقد علمتُ بأن دين محمدٍ *** من خير أديانِ البرية دينًا

في قصيدة طويلة جميلة نقلها ابن كثير -رحمه الله- في البداية والنهاية[٣]، تنسب لأبي طالب يمدح فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- ويذكر عذره في عدم الدخول في الإسلام، وأنه يخشى أن يُعيَّر بذلك فيقال: ترك دين الآباء والأجداد.

الشاهد: أن هؤلاء الكرّامية كانوا يقولون: الإيمان قول باللسان فقط، فمن تكلم به فهو كامل الإيمان، فإن كان مقرًّا بقلبه فهو من أهل الجنة وإن كان مكذبًا بقلبه كان منافقًا من أهل النار.

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (٧/٨)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال (٣٢١/٦).

(٢) انظر: السنة لعبد الله بن أحمد (٣٢٤/١).

(٣) انظر: البداية والنهاية (٥٦/٣).

هذا قول الكرّامية ولم يسبقهم إليه أحد كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو آخر ما أُحدث من الأقوال في الإيمان[1].

لاحظ الآن انتهى الأمر بعد كلمة قيلت: "نرجئ أمرهم إلى الله" إلى أن الإيمان مجرد المعرفة القلبية أو مجرد القول باللسان فقط.

مع أن الإيمان هو: اعتقاد بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، فهؤلاء يقولون: أفجر الناس إيمانه كإيمان جبريل –عليه السلام– لا فرق بين الفاجر والبَر في الإيمان، هم سواء في الإيمان، لا تضر مع الإيمان معصية ولو كانت كبيرة، ولا ينفع مع الكفر طاعة مهما عظمت، هؤلاء جاءوا بعقيدة في غاية الفساد.

بداية القول بالقدر:

القول بالقدر كيف بدأ؟ القدرية وطوائف القدرية، ومذاهب القدرية كيف كانت البداية؟

ذكر بعضهم أن منشأ ذلك أن الكعبة لما احترقت في عهد ابن الزبير، وهو محصور بمكة من قبل الحجاج.

يقولون: فقال أناس: احترقت بقدر الله.

فقال آخرون: لم تحترق بقدر الله[2].

كأن هذا ردة فعل، لربما فهموا أن الذين قالوا: احترقت بقدر الله أنهم يعتذرون أو يريدون أن يخففوا من جرم الحجاج.

أن هذا قدر، قضاء وقدر.

يعني: لا يصح بحال من الأحوال أن تكون ردود الأفعال تَحمل على ركوب الضلالات.

هكذا كانت البداية، لكن البداية الحقيقية بداية الضلال الكبير كان أول ذلك على يد معبد الجهني كما جاء في صحيح مسلم عن يحيى بن يعمر أنه قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني[3].

ومعبد الجهني هذا أخذ مقالته عن رجل نصراني يقال له: سوسن.

يقول الأوزاعي: أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له: سوسن وكان نصرانيًّا فأسلم ثم تنصر، فأخذ عنه معبد الجهني، وأخذ غيلان الدمشقي عن معبد الجهني[4].

يقول ابن عون المتوفى سنة مائة وواحد وخمسين: أدركت الناس وما يتكلمون إلا في علي وعثمان –يعني من هو الأفضل– حتى نشأ هاهنا حقير يقال له: سَنْسويه، هو يقال له: سوسن، ويقال له: سنسويه[5].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٩٥/٧).

(٢) انظر: الإيمان لابن تيمية (ص: ٣٠١).

(٣) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة (٣٦/١)، رقم: (٨).

(٤) انظر: القدر للفريابي (ص: ٢٤٠)، رقم: (٣٤٨)، والشريعة للآجري (٩٥٩/٢)، رقم: (٥٥٥)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٨٢٧/٤)، رقم: (١٣٩٨).

(٥) انظر: القدر للفريابي (ص: ٢٦٢)، رقم: (٤٠٨)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٨٢٦/٤)، رقم: (١٣٩٦).

وعلى كل حال القاعدة عند العلماء من أهل اللغة وغيرهم: أعجميٌّ فالعب به، يعني القاعدة عندهم أن الأسماء الأعجمية لا يتقيد العرب بالنطق بحروفها كما ينطق الأعاجم، وإنما يتصرفون بها بما يوافق ألسن العرب ومعهودهم في الكلام.

فيقولون: أعجميٌّ فالعب به، يعني غيِّرْ بالاسم بما يتفق مع اللسان العربي.

فيقول: هذا الرجل كان أول من تكلم في القدر.

بداية ظهور التصوف:

التصوف على سبيل المثال، التصوف في البداية كان رد فعل للترف، والانغماس في اللذات في عهد بني أمية، صارت ردود أفعال عند طائفة فأظهروا الزهد.

فكانت القضية في البداية زهدًا عن حطام الدنيا ومتاعها ولذاتها، فيلبسون لربما الخشن من اللباس، ويأكلون الغليظ من الطعام، مقابل أولئك الذين صارت حياتهم مخملية كما يقال، فهي رد فعل.

لكن الأمر ما وقف عند هذا، التصوف مضى في مراحل وأطوار، بعد أن كان ممارسات فردية تحول إلى فرق، وطرق لها مدارسها، ولها أربطتها، ولها كل ما تحتاج إليه، ولا تنقطع بموت الشيخ الذي يرتبط به هؤلاء من المريدين، وإنما يتوارث ذلك بعده أقوام.

وهكذا بدأت الكرامات التي تضاف إليهم، وبدأ كثير من هؤلاء ونحن لا نعمم الأحكام، لكن كثير من هؤلاء صار طوائف منهم يربطون التصوف بالفلسفة، التصوف الفلسفي، فهذا وصل بهم إلى الزندقة، أمثال الحلاج وابن سبعين، ونحو هؤلاء كابن عربي، فإذا قرأت في كلامهم وما يسمونه بالتفسير الإشاري الذي يقوله هؤلاء هو زندقة، فضلاً عن كون أكثر الكلام أصلاً لا يُفهم؛ لأنه مُزج بالفلسفة، هذا الذي يُسمى بالتصوف الفلسفي، المنهج الفلسفي في التصوف، زندقة.

وصاروا يقولون: إن القرآن له ظاهر وباطن، ويقولون: إن هؤلاء العامة الفقهاء والعلماء، ومن تبعهم يقولون: هؤلاء لهم الظواهر، ولنا البواطن.

وجاءت عقيدة الحلول والاتحاد، ووحدة الوجود، وصار الواحد من هؤلاء يقول: ما في الجُبّة –الثوب الذي يلبسه– إلا الله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

آخر يرى كلبًا، ويقول لصاحبه: هذا ربي وربك، وآخر يقول:

العبدُ ربٌّ والربُّ عبدٌ *** يا ليت شعري مَن المكلَّف

هذه عقيدة أصحاب وحدة الوجود والحلول والاتحاد، ما صارت القضية مجرد زهد.

لا نقول: كل الصوفية هكذا، هم يتفاوتون في بدعهم، وانحرافاتهم، لكن بلغ الأمر بقوم منهم إلى هذا الحد –نسأل الله العافية.

وفشت هذه الطرق الصوفية في أرجاء البلاد الإسلامية، شرقًا وغربًا، وعُمرت الأضرحة، وصار يطاف ببعضها كما يطاف بالكعبة، وصار يستغاث بأصحاب القبور، وتقدم لهم النذور، والذبائح، وما إلى ذلك.

فعُبِد هؤلاء من دون الله، وصار هؤلاء يدّعون أو يُدّعى لبعضهم أنه يعلم الغيب، وأنه يعلم ما في نفسك، وفي كتبهم أشياء في التراجم التي تنسب للسلمي، وابن عربي –وليس ابن العربي المالكي، وإنما ابن عربي–، تجد في

طبقات السلمي، وفي طبقات الشعراني، تجد من هذا أشياء كثيرة تجد المريد يجلس بين يدي الشيخ، فيذكر له الشيخ ما يدور في نفسه من انتقاد مثلاً على تصرف من التصرفات.

تاريخ طويل، وممارسات عجيبة من الانحرافات والضلالات، فيقولون لمن أنكر شيئًا من ذلك: أنت محجوب. يعني: أنت ترى أن هذا الشيخ يفعل الفاحشة بهذه الدابة مثلاً، والواقع أنه لا يفعل ذلك، وإنما هو يصلي، أو يذكر ربه، ولكن لأنك محجوب ترى الأمور على غير حقيقتها.

ليس كل الصوفية هكذا، لكن هذا موجود في بعض كتب الطبقات هذه، انظر إلى أين وصل الحال والانحراف!.

هكذا تبدأ الانحرافات، ثم بعد ذلك تصير وتتحول إلى شيء آخر.

أسباب انتشار الضلالات:

ما الذي جعل هذه الضلالات المعتزلة، وغير المعتزلة تنتشر حتى كادت أن تطبق المعمورة في بعض المراحل التاريخية؟

هذا له عدة أسباب، من ذلك:

أولا: الاتصال بالخلفاء، والتأثير عليهم، واستعدَوْهم على خصومهم منذ وقتٍ مبكر.

عمرو بن عبيد هذا الذي حدثتكم عنه، وهو من تلامذة الحسن البصري، وهو رأس من رءوس المعتزلة، كان صفيًّا لأبي جعفر المنصور، ويقول فيه أبو جعفر المنصور:

كلُّكم يمشي رويدا ... كلكم يطلب صيدا

غيرَ عمرو بن عبيد[1].

أبو هذيل العلاف الذي ذكرت خبره كان أستاذًا للمأمون –شيخ المأمون–، ماذا تتوقع؟ المأمون هو الذي أظهر القول بخلق القرآن، وجُلد الإمام أحمد في عهد المعتصم؛ لأن المأمون مات والإمام أحمد في الطريق إليه.

يحيى بن أكثم المعتزلي كان يحكي عن المأمون أنه كان إذا دخل عليه هشام بن عمرو الفوطي –من زعماء المعتزلة– يتحرك له حتى يكاد يقوم.

المأمون يكاد يقوم للفوطي من شدة ولعه به واحترامه وتعظيمه له، خليفة!.

ثُمامة بن أشرس –من زعماء المعتزلة ومن كبارهم– يقولون: هو الذي أغوى المأمون بأن دعاه إلى مذهب المعتزلة.

غير المعتزلة: أهل الكلام من الأشاعرة مثلاً هؤلاء تبناهم بعض كبار الوزراء، من أشهر هؤلاء: نِظام المُلك الذي تولى الوزارة لسلاطين السلاجقة مدة طويلة، تولى الوزارة لألب أرسلان، وملِك شاه مدة ثلاثين سنة من سنة ٤٥٥ إلى ٤٨٥هـ.

هذا الوزير نظام المُلك بنى المدارس المعروفة بالمدارس النظامية، أنشئت في عدد من المدن البصرة، أصفهان، بلخ، هراة، مرو، الموصل، بغداد، نيسابور، جعلها مع أوقافها وكل ما تحتاج إليه وقفًا على أصحاب الشافعي أصلاً وفرعًا.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٠٥/٦).

الإمام الشافعي كان على عقيدة السلف، لكنه يقصد كثيرًا من المتأخرين ممن كانوا على عقيدة أهل الكلام، فكان نظام المُلك هذا معظمًا للمتكلمين من الأشاعرة، معظمًا للصوفية وللقشيري، ومعظمًا للجويني، وغير هؤلاء من أعلام المتكلمين.

القشيري صاحب "الرسالة القشيرية" كان من الصوفية، من أعلام الصوفية، فالشاهد أنه بنى لهم هذه المدارس وجعل لها الأوقاف وجعلهم يعلمون فيها فيُخرّج التلاميذ في أنحاء البلاد الإسلامية في عاصمة الخلافة وفي غيرها.

ثانياً: الموقع الجغرافي.

المذهب الأشعري أين نشأ؟ نشأ في حاضرة الخلافة في بغداد، أبو الحسن الأشعري كان في بغداد، بينما لاحظ مع التقارب الشديد بين الكُلّابية والأشعرية –يختلفون في مسائل معدودة– لكن الكُلّابية لم تشتهر هذا الاشتهار لماذا؟ لأن الموضع كان بعيدًا، وكذلك الماتريدية، ما وراء النهر.

فهنا مذهب الأشاعرة في بغداد، حيث العلماء والفقهاء والمحدّثون، وما إلى ذلك، الأنظار متوجهة إلى العاصمة عاصمة الخلافة.

أبو ذر الهروي كان ممن تأثّر بالمذاهب الكلامية، واستقر بمكة هذا كانت وفاته سنة ٤٣٤هـ، نقل مذهب الأشعري كما يقول شيخ الإسلام إلى الحرم.

كيف وصل؟ كان الناس على مذهب أهل السنة، على مذهب السلف، أهل الأندلس كانوا على مذهب السلف، أهل بلاد المغرب كانوا على مذهب السلف.

لو تقرءون في رحلة ابن العربي المالكي وولعه الذي ذكره فيها، وإعجابه بالغزالي، كان أبوه من أهل العلم، وكان من الكبراء، فكان العلماء يأتون إلى بيت والد ابن العربي، وابن العربي صغير، فكان يسمع منهم أشياء –من هؤلاء العلماء والفقهاء–، فكان مما يُذكر أنهم يُعجبون بأبي الوليد الباجي.

وأبو الوليد الباجي من علماء وفقهاء المالكية في تلك الناحية، ويقولون: لكنه جاء بما لم يعهده الناس فما عرفوا –يعني قدره ومنزلته–، جاء بمذهب أهل الكلام، مذهب جديد.

فأبو بكر بن العربي–رحمه الله– يقول: ما زلت أسمع هذا حتى عزمت أن أرِد من حيث ورد؛ لأنه جاء به من المشرق، وأن آخذ من حيث أخذ، وهو صغير، فجاء برحلة الحج مع أبيه وجماعة.

ولما حج ذهب إلى العراق، ثم إلى بيت المقدس –الشام–، الشاهد أنه لقي الغزالي، وأخذ عنه ورجع بالمذهب الأشعري إلى الأندلس، كتابة المشهور: "العواصم من القواصم" هو من أحسن الكتب التي تكلمت على الفتنة، ووقعة الجمل وما وقع بين الصحابة، وينصح عادةً أهل العلم بقراءة هذا الكتاب؛ لأنه لم يطبع منه إلا هذا الجزء فقط، لكن الكتاب كبير وطبع فيما بعد، من ضمن القواصم التي ذكرها اعتقاد أهل السنة، اعتقاد السلف الذين يعتبرهم من المشبهة المجسمة، هذه من القواصم عنده.

فهذا القدر من الكتاب لا يصلح للقراءة، الشاهد أنه نقل مذهب الأشاعرة والمتكلمين بهذه الطريقة.

أبو ذر الهروي بقي في الحرم الناس يأتون في الحج يسمعون منه، وهو الذي كان يروي البخاري من طرقه المعروفة المشهورة، فيأتي الناس، ويأخذون منه، يسمعون منه البخاري، ويتلقون عنه ذلك بالإجازة، فانتقل المذهب بسبب ذلك.

طبعًا هناك أسباب كثيرة للانتشار، لكن دعوني أذكر هنا بما أننا نتحدث عن أبي ذر الهروي -رحمه الله-، ما الذي جعله وهو مشتغل بالحديث يتأثر بمذهب المتكلمين؟

موقف، كان يمشي مع الإمام الدارقطني -صاحب السنن- لاحظوا خطورة مثل هذه الأشياء، هو يتحدث عن هذا لمّا قيل له: من أين لك هذا؟

قال: كنت ماشيًا ببغداد مع الحافظ الدارقطني، فلقينا أبا بكر بن الطيب -يعني الباقلّاني وهو من رءوس المتكلمين- يقول: فالتزمه الشيخ أبو الحسن -يعني: الدارقطني-، وقبل وجهه وعينيه، فلما فارقناه قلت له: من هذا الذي صنعت به ما لم أعتقد أنك تصنعه، وأنت إمام وقتك؟.

أبو ذر الهروي يقول لشيخه الدارقطني، يقول: ما توقعت أن تتعامل مع إنسان بهذه الطريقة، وأنت إمام الوقت.

فقال: هذا إمام المسلمين والذابِّ عن الدين، هذا القاضي أبو بكر بن محمد الطيب.

طبعًا الباقلاني كان يرد على النصارى، وكان يرد على الملاحدة، وكان يرد على المعتزلة، لكن يرد بحسب ما يعلمه من دين الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- لم تكن عنده بضاعة في علوم الحديث والسنة، وإنما كان يعرف الكلام والعلوم الكلامية، فيرد على المعتزلة ردودًا قوية، لكن هذه الردود قد يكون فيها نقص، بسبب أنه لم يكن عنده من معرفة السنة على الوجه الصحيح، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله.

لمّا سمع أبو ذر الهروي هذا الكلام يقول: صرت أتكرر إليه مع أبي، يقول: كل بلد دخلته من بلاد خراسان وغيرها لا يشار فيها إلى أحد من أهل السنة إلا من كان على مذهبه وطريقته[1].

ولذلك من الخطورة أن نُثني أحيانًا على شخص منحرف، أو على فئة أمام الملأ بزعم أننا نريد أن نحتويه، أن تبقى هناك جسور، أن نتألفه لعلنا نؤثر عليه، لا، هذا يمكن أن يكون في مصانعةٍ بينك وبينه حينما تكلمه، حينما تنصحه، حينما تتكلم معه.

لكن أن يكون هذا على الملأ؛ فيغتر به فئام من الناس لا يدركون مرامي هذا الكلام، وما القصد الذي قصدته فيعجبون به ويقولون: زكّاه فلان، وأثنى عليه فلان. هذا خطير، هذا خطير.

فمهما كان: الغاية لا تبرر الوسيلة، لا نزكي هذا الإنسان المنحرف، أو هذه الطائفة المنحرفة بحجة أننا نريد أن نحتويها؛ فيعْلق ذلك في قلوب كثيرة.

ثالثاً: دعم الأعداء:

من الأسباب: دعم الأعداء، الأعداء يدعمون منذ القدم، مثلاً: بناء الخوانق والرُّبُط والزوايا للصوفية التي انتشرت انتشارًا عظيمًا بعد عصور وقرون لاسيما في عصر الأيوبيين والمماليك.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٥٥٨/١٧).

يقولون: أول خانقة بنيت في الشام كانت برملة بيت المقدس بناها أمير النصارى، حين استولى الفرنج على القدس.

هم يعرفون أن هؤلاء لا يمانعونهم.

الفرنسيون حينما كانوا يضربون الأزهر بالمدافع، كان الصوفية يقرءون صحيح البخاري بزعمهم أن ذلك يرد العدو.

ولذلك تجد الدعم الكبير بعصرنا هذا لتلك الطوائف المنحرفة من الصوفية؛ لأنه ليس عندهم ممانعة، ويعرضون إسلامًا خانعًا.

ثم أيضًا لو تقرءون في التاريخ حينما جاء الاستعمار الفرنسي –على سبيل المثال– في مصر كان القادة من هؤلاء الفرنسيين يحضرون في موالد الصوفية، حضور الموالد بناءً على ماذا؟ هو يعتقد أن النبي –صلى الله عليه وسلم– هو رسول الله ويحتفي به ويعظمه؟، لا، إنما هو دعم لهؤلاء؛ لأنهم لم يجدوا وسيلة لتحقيق أهدافهم كما يكون ذلك على أيدي بعض المسلمين.

فالأعداء ما زالوا يدعمون بعض الطوائف المنحرفة؛ لأنهم يحققون بذلك ما لا يستطيعون تحقيقه بجيوشهم.

بل لربما نتصرف نحن تصرفات، ونفعل بعض الحماقات التي يفرح بها الأعداء، ويتمنونها فتورث شرًّا كبيرًا وضررًا مستطيرًا.

نحن نفعل بأنفسنا هذا أحيانًا –للأسف– معاشر المسلمين، ولذلك قلت لكم قبل ليلة أو ليلتين: ما عدنا نفرق بين الأحمق والمندس، ما نفرق، تصرف يمكن أن يفعله أشد أعداء الإسلام نكاية بالمسلمين، وممكن أن يكون هذا التصرف من بعض المسلمين.

ولذلك يختلف العقلاء كما ترون في بعض التصرفات، هذا يقول: لا يمكن، هذا الذي فعله هم أعداء الإسلام، والآخر يقول: لا، بعض المسلمين هم الذين ارتكبوا هذه الشنائع والعظائم على جهالةٍ وغواية.

العقلاء يختلفون في تحليل هذه التصرفات، هل فعلها العدو أو فعلها هذا الذي بزعمه ينصر الإسلام! رأيتم؟

في نظري ليست قضية مهمة أن نعرف أن هذا فعل العدو، أو دعم العدو أو مدعوم من قبل الأعداء.

القضية أن هذا التصرف غير سوي، وهذا من المعايير التي نعرف بها هذا التصرف هو حق أو باطل، أن يختلف العقلاء فيه، هذا يقول: فعله ألد أعداء الإسلام، وهذا يقول: لا، الذي فعله إنما هو من جملة هؤلاء المسلمين الذين أغواهم الشيطان والنفس الأمارة بالسوء.

فِعل واحد يختلف فيه العقلاء هذا الاختلاف يدل على ماذا؟ أن هذا الفعل فساد وشر وضرر؛ لأن العدو مهما فعل لن يجد أفضل من هذا في الإيقاع بالمسلمين والإفساد.

هذه الفِرق كثير والحديث عنها طويل لكن خُذ

بعض السمات البارزة لهذه الفرق:

السمة الأولى: الفُرقة:

هؤلاء أهل تفرّق واختلاف، والله يقول: **{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ}** [الأنعام: ١٥٩]، لست منهم في شيء **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ}** [آل عمران: ١٠٥].

يقول بعض المفسرين: صاروا فِرقًا لاتباع أهوائهم، وبمفارقة الدين تشتتت أهواؤهم فافترقوا، يقول: ثم برأه الله منهم بقوله: **{لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ}**.

وهم أصحاب البدع والضلالات، كما يقول الشاطبي -رحمه الله- في كتابه الموافقات ينقل عن بعض أهل العلم، يقول: "وجدنا أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد اختلفوا في أحكام الدين ولم يفترقوا، ولم يصيروا شيعًا؛ لأنهم لم يفارقوا الدين، وإنما اختلفوا فما أدى ذلك إلى التشتت والتمزق.

يقول: "فصاروا محمودين؛ لأنهم اجتهدوا فيما أُمروا به كاختلاف أبي بكرٍ وعمر وعلي وزيد". ذكر مسائل فقهية في المواريث، وغيرها.

يقول: "وكانوا مع هذا أهل مودة وتناصح، وأخوة في الإسلام فيما بينهم، فلما حدثت الأهواء المُردية التي حذر منها النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وظهرت العداوات، وتحزَّب أهلها، وصاروا شيعًا دل على أنه إنما حدث ذلك من المسائل المحدثة التي ألقاها الشيطان على أفواه أوليائه.

فكل مسألة حدثت في الإسلام -هذا ضابط- فاختلف الناس فيها، ولم يورث ذلك الاختلاف بينهم عداوة، ولا بغضاء، ولا فرقة علمنا أنها من مسائل الإسلام.

وكل مسألة طرأت فأوجبت العداوة والتنافر والتنابز -هذا كذا، وهذا كذا- والقطيعة علمنا أنها ليست من أمر الدين في شيء، وأنها التي عنى النبي -صلى الله عليه وسلم- بتفسير الآية، وهي قوله: **{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا}** [الأنعام: ١٥٩].

يقول: "فيجب على كل ذي دينٍ وعقلٍ أن يجتنبها" هذه التي تثير العداوات بين المسلمين.

يقول: ودليل ذلك قوله: **{وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}** [آل عمران: ١٠٣]، فإذا اختلفوا وتقاطعوا كان ذلك لحدث أحدثوه من اتباع الهوى.

يعقب الشاطبي على هذا، يقول: وهو ظاهر في أن الإسلام يدعو إلى الألفة والتحاب والتراحم والتعاطف، فكل رأي أدى إلى خلاف ذلك فخارج عن الدين.

يقول: وهذه الخاصية موجودة في كل فرقة من تلك الفرق، ألا ترى كيف كانت ظاهرة في الخوارج الذين أخبر بهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في قوله: **((يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان))**[(١)][(٢)].

وبالمناسبة الخوارج فيما ذكرته، وما سأذكره لم يعهد قط في التاريخ من أوله إلى آخره أنهم فتحوا بلدًا واحدًا، أبدًا، ولا يوجد من قادة المسلمين رجل واحد من الخوارج، ولا يوجد من علماء المسلمين رجل واحد من الخوارج، وإنما

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد (١٢٧/٩)، رقم: (٧٤٣٢)، ومسلم، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (٧٤١/٢)، رقم: (١٠٦٤).

(٢) انظر: الموافقات (١٦٠/٥-١٦٤).

هم معول هدم، يغيرون على البلاد الإسلامية على المدن والقرى، يقطعون الطرق، ويشغلون الناس بحروبهم وقتلهم وإفسادهم، وإراقة الدماء، هذا شغل الخوارج.

تخصص في بلاد المسلمين، نكاية؛ لأنهم يرون أن قتل هؤلاء وقتال هؤلاء أولى من قتل الروم، والهند، والصين، وغير ذلك.

يقولون: إن البداية يجب أن تكون بهؤلاء المرتدين، حتى يفرغوا منهم، ثم بعد ذلك يذهبون إلى الصين والهند وغير ذلك فيقاتلونهم، عبر التاريخ الطويل ما غزوا غزوة واحدة للكفار، لا يعرف هذا في التاريخ، ولا فتحوا مصرًا واحدًا، ما هؤلاء؟!.

فرق الخوارج:

وإليكم نماذج عجيبة من سرعة التشتت والتشرذم والتفرّق.

أعطيكم مثالا على ذلك، هذا موجود في كل الفرق.

الخوارج مثلًا، انقسموا إلى عشرين فرقة: المُحكِّمة الأولى، الأزارقة، النَّجْدات، الصفرية، العجاردة افترقت إلى الخازمية، الشعيبية، المعلومية، هذه فرقة اسمها المعلومية، الفرقة الثانية اسمها المجهولية.

اسمعوا واضحك إن شئت وابكِ إن شئت واحمد الله -عز وجل- على العافية، أصحاب طاعة لا يُراد الله تعالى بها هذا اسم طائفة، أصحاب طاعة لا يُراد الله -عز وجل- بها، سمعتم بهذا؟! اقرءوا التاريخ.

الإنسان ليس له إلا نفس واحدة.

الصلتية، الأخنسية، الشيبية، الشيبانية، المعبدية، الرشيدية، المُكرَمية، الخُمرية، الشمراخية، الإبراهيمية، الوافقة، الأباضية، وهم فِرق حفصية، حادثية، يزيدية، ميمونية، العجاردة هؤلاء على فرقتين[1].

هؤلاء الخوارج قلنا بأنهم خرجوا على عليٍّ -رضي الله عنه- قيل: عددهم كان أربعة آلاف، ثم بعد ذلك تفرقوا، وصاروا إلى أن بقي ألف وثمانمائة، وقيل: ألف وخمسمائة، وقيل: ألف ومائتان فقُتلوا إلا نفرًا قليلًا -كما سبق.

بعضهم يقول: ما السبب في أنهم تفرّقوا على قائدهم عبد الله بن وهب الراسبي؟.

في أول لقاء الآن، في أول مواجهة مع خصومهم يقولون: إن هؤلاء الخوارج تنادوا عند إحاطة أصحاب عليٍّ بهم، فقالوا: يا إخوتنا أسرعوا بنا الرَّوحة إلى الجنة، فقال قائدهم عبدالله بن وهب: فلعلها إلى النار.

لا نعرف لماذا قال هذه الكلمة، ما ندري، ربما اعتبر قولهم: "أسرعوا بنا إلى الجنة" تزكية.

فقال بعضهم: نقاتل مع رجلٍ شاكٍّ؟ ففارقوه، وانقسموا عليه، وهم يستقبلون الحرب والمعركة، انقسموا إلى فرقتين[2].

اسمع وتعجب، واحمد الله على العافية .

فرقة الأزارقة:

---

(١) الفرق بين الفرق ص: (١٧- ١٨).

(٢) انظر: التنبيه والإشراف (٢٥٧/١).

هم أتباع نافع بن الأزرق الحنفي المُكنَّى بأبي راشد، هؤلاء من أشد فرق الخوارج، ومن أكثرهم عددًا وأعظمهم شوكة، هؤلاء يقولون بأن مخالفيهم من هذه الأمة –اسمعوا الخلافات وقارنوا بينها– مشركون، وكانت المُحكِّمة الأولى في عهد عليٍّ –رضي الله عنه– يقولون: إنهم كفرة لا مشركون –لاحظ الخلاف–.

ويقول هؤلاء الأزارقة: إن القَعَدة، من هم القَعَدة؟، الذين ما يخرجون معهم في غزواتهم، وهم معهم على رأيهم، خوارج لكنهم لم يخرجوا معهم في غزواتهم، ولم يهاجروا إليهم يقولون: هؤلاء مشركون، ولو كانوا على رأي الخوارج، على رأي الأزارقة، وكانت المُحكِّمة الأولى لا يكفرون القَعَدة عنهم إذا كانوا على رأيهم.

الأزارقة هؤلاء أوجبوا امتحان من قصد عسكرهم إذا ادعى أنه منهم، ما الاختبار حتى يثبت أنه منهم؟ يعطونه أسيرًا من المسلمين من مخالفيهم ويأمرونه بقتله.

يقولون: تفضل هذه السكين، فإن قتله صدقوه في دعواه، هؤلاء الأزارقة، وإن لم يقتله قالوا: هذا منافق ومشرك فقتلوه.

مما يقوله هؤلاء الأزارقة: إنهم يستبيحون قتل النساء، تستغرب لماذا قتلوا المرأة الفلانية، أو المرأة الفلانية مثلًا أم ولد ابن خباب!، يستحلون قتل نساء المخالفين، وقتل الأطفال وزعموا أن الأطفال مشركون، وقطعوا بأن أطفال مخالفيهم مخلدون في النار.

واختلفوا في أول من أحدث ما انفردت به الأزارقة من إكفار القَعَدة عنهم، ومن الامتحان لمن قصد عسكرهم. منهم من قال: إن أول من قال ذلك رجل منهم، يقال له: عبد الله بن الوضين خالف نافع بن الأزرق في ذلك، واستتابه منه، فلما مات ابن الوضين رجع نافع وأتباعه إلى قوله.

وقالوا: كان الصواب معه، لكنّ نافعًا لما رجع إلى قول ابن الوضين لم يكفر نفسه لما خالف ابن الوضين، وأكفر من يخالفه بعد ذلك.

نافع بن الأزرق يقول: الذي يخالفني كافر، ولم يتبرأ من المُحكِّمة الأولى في تركهم إكفار القَعَدة عنهم.

قال: ما أكفِّرهم، ما يكفِّر من؟ ما يكفر المُحكِّمة الأولى.

وقال: إن هذا شيء مازلنا دونهم.

يعني: هذا أمر انتهى، ونحن جئنا بعد هؤلاء، لكنه أكفر من يخالفه بعد ذلك في إكفار القَعدة عنهم، يعني: نافع بن الأزرق يقول إن القَعدة الذين لا يهاجرون إلينا من الخوارج كفار.

فإذا خالفه أحد من الخوارج، وقال: لا، ما نقول: هؤلاء كفار، يكفِّر الذي خالفه، يكفر الذي لا يكفر القَعدة، من لا يكفِّر، من لا يكفِّر، من لا يكفِّر، حتى يصير الواحد يكفر نفسه، انظروا في التاريخ.

زعم نافع هذا وأتباعه أن دار مخالفيهم دار كفر، يعني: البلاد الإسلامية هذه كلها هي دار كفر، ويجوز فيها قتل الأطفال والنساء.

وأنكر الأزارقة الرجم، واستحلوا كفر الأمانة التي أمر الله بأدائها، يعني الذين يخالفونهم يعتبرونهم من المشركين. يقولون: لا يلزمنا أداء أمانة إليهم. يعني الغدر، لا عهد ولا ذمة، والرسل تقتل، إلى غير ذلك من الأشياء التي كانوا يعتقدونها وأحدثوها.

وزادوا على ذلك تكفير عثمان وطلحة والزبير وعائشة وابن عباس وسائر المسلمين معهم، وأنهم مخلّدون في النار.

عائشة عندهم –رضي الله عنها– مُخلدة في النار! هؤلاء بشر؟!.

هؤلاء الأزارقة بايعوا نافع بن الأزرق، وسموه أمير المؤمنين، بايعوه بالخلافة، وسموه أمير المؤمنين، وانضم إليهم خوارج عمان واليمن، فصاروا أكثر من عشرين ألفاً، واستولوا على الأهواز، وما وراءها من أرض فارس وكرمان، وجبوْا الخراج، إلى غير ذلك من أمور وحروب.

ابن الزبير كان أميرًا في مكة في الحجاز، فبعث إلى المهلب بن أبي صفرة وهو يومئذ بخراسان بعد أن هُزمت عدد من الجيوش أمام هؤلاء الخوارج يأمره بحرب الأزارقة وولاه ذلك، فرجع المهلب إلى البصرة، وانتخب من جندها عشرة آلاف وانضم إليه قومه من الأزد فصار في عشرين ألفًا وخرج وقاتل الأزارقة، وهزمهم عند دولاب الأهواز إلى الأهواز، ومات نافع بن الأزرق في تلك الهزيمة، ثم بعد ذلك حصلت أمور(١).

هؤلاء في غاية العجب، الاختلاف بينهم كان ينشب لأتفه الأشياء، المهلب بن أبي صفرة كان قبل المعركة يدس إليهم من يثير قضية بينهم، فيكفر بعضهم بعضًا.

خذ هذا المثال: المهلب بن أبي صفرة، قيل: إنه دس إليهم رجلاً من النصارى، وجعل له جُعلاً –يعني مالا– وقال له: إذا رأيت قَطَرِيًّا، قَطَري بن الفجاءة هذا من شجعان الخوارج، ومن زعمائهم الكبار ومن شعرائهم، إذا رأيت قطريًّا زعيم الأزارقة من الخوارج فاسجد له –هذا بعد نافع بن الأزرق– فإذا نهاك فقل: إنما سجدت لك، ففعل النصراني ذلك، فقال قطري: إنما السجود لله تعالى.

فقال النصراني: ما سجدت إلا لك، فقال رجل من الخوارج: إنه قد عبدك من دون الله، وتلا قوله: **{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ}** [الأنبياء: ٩٨].

فقال قطري بن الفجاءة: إن النصارى قد عبدوا عيسى ابن مريم، فما ضر ذلك عيسى شيئًا.

فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله.

فأنكر قطري ذلك عليه، وأنكر قوم من الخوارج إنكاره، الآن هم أمام جيش المهلب.

فوجه إليهم المهلب رجلًا آخر دسه، يسألهم فقال لهم: أرأيتم رجلين خرجا مهاجرين لكم –هم يوجبون الهجرة إليهم ومن لا يخرج فهو كافر– مات أحدهما في الطريق، وبلغ الآخر إليكم فامتحنتموه –يعني الذي ما مات– فلم يَجُز المحنة –يعني ما نجح في الاختبار أعطيتموه إنسانًا يذبحه فرفض– ما تقولون؟

قال بعضهم: أما الميت ففي الجنة، وأما الذي لم يَجُز المحنة فكافر حتى يُجيز المحنة.

قال آخرون: هما كافران حتى يُجيزا المحنة.

فكثر الاختلاف وانقسموا، فخرج قطري إلى حدود إصطخر، فأقام شهرًا والقوم في خلافهم واختلافهم حتى أقبل عليهم رجل منهم يقال له: صالح بن مخراق، فقال: يا قوم، إنكم قد أقررتم عين عدوكم، وأطمعتموهم فيكم لما ظهر من اختلافكم، فعودوا إلى سلامة القلوب، واجتماع الكلمة.

---

(١) انظر: الفرق بين الفرق (ص: ٦٣– ٦٤)

ما تقولون في واحد هاجر ومات في الطريق؟، هؤلاء يقولون: كافر لأنه ما جاز المحنة ما ندري يجتاز أو ما يجتاز الأصل الكفر، وهؤلاء يقولون: لا، ما نكفره وينقسمون إلى فريقين[1].

هذه عقول بشر؟!، يعقل أن يصل العقل إلى هذا؟!.

دعك من الدين، دعك من العلم، دعك من أي شيء آخر، العقل فقط العقل يصل إلى هذا المستوى؟!.

بعد ذلك جاء رجل منهم يقال له: عبيد الله بن مأمون التميمي، وصار بعد قطري بن الفجاءة.

طبعًا قطري بن الفجاءة يذكر بعض المؤرخين أن الذين قتلوه هم الخوارج؛ لأنه كان بينهم معارك، حصلت معارك اشتغلوا ببعضهم؛ لأنهم صاروا يكفرون بعضًا، حتى إنه في بعض المواجهات قصده رجل من الخوارج، وكان عليه الحديد والسلاح ما يظهر وجهه -الذي هو قطري بن الفجاءة- فلما جاء الخارجي يريد قتله في معركة بين الخوارج كشف وجهه -يعني قطري بن الفجاءة- ففر الخارجي لما رآه، خاف، فقال: ويحك أما تستحي؟ تنهزم؟ فقال: مِن مثلك لا يُستحيا من الهزيمة.

يعني: أنت ما أحد يقف في وجهك، الذي ينهزم أمامك ما يعاب.

الشاهد قاتلهم المهلب بعد ذلك بالأهواز، وقُتل عبيد الله بن مأمون في تلك الواقعة، وقُتل أيضًا أخ له يقال له: عثمان مع ثلاثمائة من أشد الأزارقة، وانهزم الباقون منهم إلى أيدج، وبايعوا بعد ذلك أميرًا، وحتى قطري بن الفجاءة سموه أمير المؤمنين، وبايعوه على أنه أمير المؤمنين، ووقعت حروب طويلة بينهم وبين المهلب، وغير المهلب وانهزمت الأزارقة في آخرها إلى سابور من أرض فارس، وجعلوها دار هجرتهم، وبقي المهلب وأبناؤه على قتال هؤلاء تسع عشرة سنة[2]. تصور هذا الإشغال تسع عشرة سنة يقاتلونهم!

فرقة النَّجْدات:

النَّجْدات: هؤلاء أتباع نَجْدة يقال كان السبب في رياسته وزعامته أن نافع بن الأزرق لما أظهر البراءة من القَعَدة عنه -وإن كانوا على رأيه- وسماهم بالمشركين، واستحل قتل الأطفال والنساء منهم.

ففارقه رجل يقال له: أبو قُديل، وعطية ابن الأسود اليمامي -هذا من أمراء الخوارج-، وراشد الطويل، ومِقلاص، وأيوب الأزرق، وجماعة من أتباعهم، وذهبوا إلى اليمامة، فاستقبلهم نجدة بن عامر في جند من الخوارج يريدون اللحوق بعسكر نافع بن الأزرق.

فهؤلاء قالوا له: إن نافعًا تغير، وإنه صدرت منه أشياء توجب ردته، فردوهم إلى اليمامة، وبايعوا بها نجدة بن عامر، وأكفروا من قال بإكفار القَعَدة منهم عن الهجرة إليهم.

لاحظ: كفّروا الذي يكفر القَعَدة، وأكفروا من قال بإمامة نافع، الذي يقول: إن نافعًا إمام هذا كافر، وأقاموا على إمامة نَجْدة إلى أن اختلفوا عليه في أمور نقموها عليه، فلما اختلفوا عليه صاروا ثلاث فرق، فرقة صارت مع عطية بن الأسود الحنفي وراحوا إلى سجستان، وتبعهم خوارج سجستان؛ ولهذا قيل لخوارج سجستان في ذلك الوقت: عَطَوية.

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (٤٢٩/٧).

(٢) انظر: الفرق بين الفرق (ص: ٦٥).

وفرقة صارت مع أبي قُديل حربًا على نجدة –على صاحبهم–، وهم الذين قتلوا نجدة، وفرقة عذروا نجدة في إحداثه وأقاموا على إمامته.

الذين نقموا على نجدة هؤلاء الذين كانوا من أتباعه، نقموا عليه ماذا؟ اسمع واحمد الله على العافية.

قالوا: إنه بعث جيشًا في غزو البر، وجيشًا في غزو البحر، ففضّل الذين بعثهم في البر على الذين بعثهم في البحر في العطاء، هذه واحدة، لماذا يفضل هؤلاء؟، كافر.

ومنها أنه بعث جيشًا، فأغاروا على مدينة النبي –صلى الله عليه وسلم– غزوة للمدينة النبوية، وأصابوا منها جارية من بنات عثمان بن عفان –رضي الله عنه– الآن السبي من؟ من بنات عثمان، حفيدة لعثمان –رضي الله عنه– فكتب عبدالملك بن مروان إلى نجدة في شأنها، فاشتراها نجدة من الذي وقعت في سهمه، وردها إلى عبدالملك بن مروان، فقالوا له: رددت جارية لنا على عدونا!. إذًا كافر.

ومنها: أنه –نجدة يعني– عذر أهل الخطأ في الاجتهاد بالجهالات، يعني: هذا الذي يقع في المخالفة وهو جاهل معذور، العذر بالجهل، قالوا: كيف تعذر بالجهل؟ أنت كافر، ما يُعذر بالجهل.

يقولون: كان السبب في ذلك أنه بعث ابنه المُطَرِّح –عنده ولد اسمه المُطَرِّح– مع جند من عسكره إلى القطيف –القطيف في ذلك الوقت كان فيها بنو عبد القيس– فأغاروا عليها وسبوا منها النساء والذرية وقوّموا النساء – مستعجلون، يريدون السبايا.

فقالوا: نحن نأخذ النساء قبل قسم الغنيمة، فإن كانت الواحدة عند الواحد منا تساوي سهمه فبها ونعمت.

وإن كانت تزيد على سهمه دفعنا التعويض، الآن أخذوا السبايا، واستحلوهن قبل قسم الغنيمة، ونكحوهن قبل إخراج الخمس من الغنيمة.

فلما رجعوا إلى نجدة سألوه عما فعلوا من وطء النساء، ومن أكل طعام الغنيمة قبل إخراج الخمس منها، وقبل قسمه لأربعة أخماس بين الغانمين، فقال لهم: لم يكن لكم ذلك.

فقالوا: لم نعلم أن ذلك لا يحل لنا، فعذرهم؛ لأنه يعذر من وقع في الجهل.

ثم قال: إن الدين أمران.

اسمع الآن ما شاء الله المذهب، الأصول، المتن –نسأل الله العافية.

يقول: الدين أمران –الآن يقرر العقيدةَ عندهم نجدة هذا– يقول لهم: الدين أمران؛ أحدهما: معرفة الله تعالى، ومعرفة رسله –هذا الأصل الأول الأركان–، وتحريم دماء المسلمين.

لاحظ هذا عندهم أصل والذي يخالفه كافر، تحريم دماء المسلمين.

وهؤلاء الذين تقتلونهم؟!، قالوا: هؤلاء كفار، أما دماء المسلمين فنحن نعوذ بالله لا نستحلها، ونعظمها، لا يمكن أن نستحل قتل مسلم، كيف؟.

المشكلة أنهم يرون أن هؤلاء كفار، هذه هي المشكلة.

فهذا يقول: تحريم دماء المسلمين، وتحريم غصب أموال المسلمين، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى جملة، فهذا واجب معرفته على كل مكلف.

يعني: هذا فرض عين، يقول: وما سواه، يعني هذه الأصول ما يعذر بها أحد بالجهل، وما سواه فالناس معذورون بجهالته حتى تقام عليهم الحجة في الحلال والحرام، فمن استحل باجتهاده شيئًا محرمًا فهو معذور، ومن خاف من العذاب على المجتهد المخطيء قبل قيام الحجة عليه فهو كافر.

يقول: هذا الذي يُضلِّل، ويقول: هذا يكْفر، أو يخلد في النار قبل قيام الحجة عليه هذا كافر.

فهنا تبرأ منه بعضهم قالوا: كيف تعذر بالجهل؟ أنت كافر. وأشياء كثيرة.

يقول مثلاً: من نظر نظرة صغيرة، أو كذب كذبة صغيرة، وأصر عليها فهو مشرك، ومن زنا وسرق وشرب الخمر غير مصر عليه فهو مسلم، إذا كان من موافقيه على دينه.

فلما أحدث هذه الأمور، وعذر أصحاب الجهل استتابه أكثر أتباعه من هذه البدع والضلالات والكفريات بزعمهم.

وقالوا له: اخرج إلى المسجد، وتب من إحداثك، ففعل ذلك، ذهب إلى المسجد وندم، وأقر بأنه ضل، وأنه تاب، ثم ندم قوم منهم على استتابته، وانضموا إلى العاذرين له؛ لأنه كان هناك ناس عذروه قالوا: هو مجتهد، وهؤلاء قالوا: نحن ألزمناه بشيء، والآن ندمنا، وقالوا له: أنت الإمام، ولك الاجتهاد، ولم يكن لنا أن نستتيبك، فتب من توبتك.

إي والله يا إخوان هذا نص الكلام، وأنا حريص أن آتي به من أجل ألا يقال: هذه تحليلات، وهذه استنتاجات، لكن المشكلة أننا لا نقرأ، التاريخ مليء بالعجائب والغرائب، ولكن لا نقرأ.

قالوا له: فتب من توبتك واستتب الذين استتابوك.

ليس فقط تتوب من توبتك، لا، الذين استتابوك لابد أن يستتابوا وإلا نابذناك، ففعل ذلك، تاب من توبته، فافترق عليه أصحابه، وخلعه أكثرهم وقالوا له: اختر لنا إمامًا، فاختار أبا فديك، وصار راشد الطويل مع أبي فديك يدًا واحدة، فلما استولى أبو فديك على اليمامة علم أن أصحاب نجدة إذا عادوا -يعني الذين عذروه وبقوا معه- من غزوتهم أعادوا نجدة إلى الإمارة، فطلب نجدة ليقتله، فاختفى نجدة في دار بعض عاذريه -يعني الذين قالوا: نحن نعذر نجدة لأنه اجتهد- ينتظر رجوع عساكره الذين كان فرّقهم في سواحل الشام ونواحي اليمن -غزوات إلى بلاد المسلمين الشام واليمن- ونادى منادي أبي فديك: من دلنا على نجدة فله عشرة آلاف درهم، وأي مملوك دلنا عليه فهو حر.

فدلت عليه أمة للذين كان نجدة عندهم، فأنفذ أبو فديك راشدًا الطويل في عسكر فكبسوه وحملوا رأسه إلى أبي فديك -ذبحوه وأخذوا رأسه وذهبوا به إلى أبي فديك- فلما قُتل نجدة صارت النَّجْدات بعده ثلاث فرق؛ فرقة أكفرته، وصارت إلى أبي فديك كراشد الطويل، وأبي بُهيس، وأبي الشمراخ، وأتباع هؤلاء. -سمعتم بهم؟.

وفرقه عذرته فيما فعل وهم النجدات اليوم -هذا الذي يقوله المؤرخون وأصحاب كتب الفرق-، وفرقة من النجدات بعُدوا عن اليمامة -يعني كانوا في مواقع بعيدة في البصرة وغيرها- وشكوا فيما نقل من الأخبار عن نجدة، فقالوا: نتوقف ونحن لانعرف حقيقة ما جرى. لا نحكم عليه بشيء فلا نبرأ منه إلا باليقين[1].

---

(١) انظر: الفرق بين الفرق (ص: ٦٦- ٧٠)

هناك طائفة من هؤلاء الخوارج يقال لهم: الصُّفْرية ولهم أخبار عجيبة أيضًا.

الوقت انتهى أتوقف هنا وأكمل -إن شاء الله تعالى- في الليلة القادمة لنعرف كيف كان هؤلاء وغير هؤلاء من أهل الضلال والبدع والأهواء يتفرقون على أتفه الأشياء.

نسأل الله -عز وجل- أن يهدي قلوبنا، وأن يسدد ألسنتنا، وأن يعيذنا وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الاختلاف وموقفنا منه

(٧) مواصلة الحديث في: أبرز سِمات أهل الاختلاف والتفرق تعود إلى مصادر التلقي وطرق الاستدلال

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فما زلنا نتحدث عن أسباب الاختلاف والتفرق، وذكرنا من سمات هؤلاء، ومن أبرز سماتهم: كثرة التفرق والاختلاف على أقل الأشياء، وأدنى الأمور.

ذكرنا طرفًا من أحوال الخوارج وفرقهم، وأواصل في هذا الحديث.

طائفة الصُّفرية من الخوارج:

من الخوارج طائفة يقال لها: الصُّفرية، هؤلاء أتباع زياد بن الأصفر[1]، هؤلاء اتخذوا عمران بن حطان زعيمًا وإمامًا لهم.

وعمران بن حطان يقولون: إنه كان من العباد النساك، وهو من الشعراء الشجعان، وكان شديدًا في مذهب الصُّفرية، وهو الذي مدح عبد الرحمن بن ملجم الذي قتل عليًّا -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- وقال فيه أبياته المشهورة:

يا ضربةً مِن تقيٍّ ما أَراد بها *** إلا ليبلُغَ من ذِي العرشِ رضوانا

إنِّي لأذكرُهُ يومًا فأَحسَبُهُ *** أَوفى البريَّةِ عند الله ميزانا[2]

نسأل الله العافية، الضلال المبين، علي بن أبي طالب عندهم بهذه المنزلة، يتقربون إلى الله بقتله، وهذا يَعدُّ قاتله من أعظم الناس منزلة عند الله -جل جلاله-، هكذا يبلغ الضلال بأصحابه.

طائفة العَجارِدة:

طائفة أخرى من هؤلاء يقال لهم: العَجارِدة، هؤلاء أتباع عبد الكريم بن عجرد، وهذا كان من أتباع عطية بن الأسود الحنفي الذي مضى طرفٌ من خَبرِه.

العجاردة هؤلاء افترقوا إلى عشر فرق، وذكر بعض أهل العلم أنهم افترقوا إلى خمس عشرة فرقة، هذه فرقة واحدة -العجاردة- تنقسم إلى هذه الفرق الكثيرة!

يجمعهم القول بأن الطفل يُدْعى إذا بلغ، وتجب البراءة منه قبل ذلك، يعني: لا يحكمون بإسلامه.

---

(١) الفرق بين الفرق (ص: ٧٠).

(٢) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٣/٤٩٥).

كل من عنده أولاد وبنات، أو ذكور وإناث فإنهم إذا بلغوا يعرض عليهم الإسلام، قبل ذلك لا يتولاهم، تصور هذا المذهب، وكيف ينشأ هؤلاء الأطفال في أحضان هؤلاء القساة!.

ويقولون: لابد أن يُدْعى إلى الإسلام، أو يصف الإسلام، واختلفوا مع طوائف الخوارج الأخرى، كالأزارقة، وغيرهم.

لاحظ القضية ما عادت تقف عند قولهم بتكفير المُحكِّمة مثلاً كما كانت بداية الخوارج، لا حكم إلا لله، كلمة حق أريد بها باطل.

هؤلاء العجاردة يرون أن سورة يوسف ليست من القرآن، يقولون: لا يمكن أن تكون سورة، أو قصة تحتوي على عشق، وتكون من سور القرآن، بل هي قصة من القصص[1].

وصلت القضية إلى إنكار سورة مجمع عليها من كتاب الله -تبارك وتعالى-، هكذا يفعل الشيطان بهؤلاء المنحرفين، فما يقف الانحراف عند حد -نسأل الله العافية.

فرقة الشُّعيبية:

من فرق هؤلاء فرقة يقال لها: الشُّعيبية، هؤلاء ظهر زعيمهم الذي يدعى بشعيب، رجل يقال له شعيب.

اختلف مع رجل من الخوارج اسمه ميمون.

ما سبب هذا الاختلاف؟ انظروا إلى العقول والفقه والفهم، وأنا أورد هذا من أجل أن تعجب، وأن تحمد الله -عز وجل- على نعمة العقل والسنة والعلم والسلامة من هذه الأهواء والبدع والضلالات، وأن تتمسك بلزوم الكتاب والسنة، وأن تعتصم بذلك، وأن تبتعد عن الشر وأهله والفتن وأصحابها.

انظر: كان لميمون على شعيب مال فتقاضاه، قال: أعطني مالي، فقال شعيب: أعطيكه -إن شاء الله.

فقال ميمون: قد شاء الله ذلك الساعة، هات المال.

فقال شعيب: لو كان قد شاء ذلك لم أستطع إلا أن أعطيكه.

يعني: لو شاءه الآن فلابد أن أعطيك الآن.

فقال ميمون: قد أمرك الله بذلك، وكل ما أمر به فقد شاءه، وما لم يشأ لم يأمر به.

هنا لا يفرقون بين الأمر الكوني والأمر الشرعي الذي يعرفه صغار أهل السنة، صغار التلاميذ.

فانقسموا، وافترقت العجاردة عند ذلك، فتبع قوم شعيبًا، وقيل لهم: الشُّعيبية، على قضية اقضني المال الذي عندك، انقسموا إلى فرقتين، فهنا تبع قوم ميمونًا، وتبع الآخرون شعيبًا، وكتبوا في ذلك إلى عبد الكريم بن عجرد.

عبد الكريم بن عجرد هو الزعيم، وكان محبوسًا في السجن، فكاتبوه، فأرسل في الجواب: إنما نقول: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا نلحق بالله سوءًا.

هذا الجواب، فوصل الجواب إليهم، ولكن عبد الكريم هذا كان قد توفي حين وصول الجواب، مات في الحبس، فلما وصلهم الجواب ادعى ميمون أنه قال بقوله، قال: هو يوافقني، يقول: لأنه قال: لا نلحق بالله سوءًا.

---

(١) الفرق بين الفرق (ص: ١٨).

وقال شعيب: بل قال بقولي؛ لأنه قال: نقول ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

لاحظ الآن يتركون أئمة السنة والعلماء الأعلام الأئمة الجبال، ويختلفون على قول عبد الكريم هذا المجهول الخارجي.

فمالت الخازمية وأكثر العجاردة إلى قول شعيب، ومالت الحمزية مع القدرية إلى ميمون.

ثم زادت الميمونية على كفرها في القدر نوعًا من المجوسية، فأباحوا نكاح بنات البنات وبنات البنين، القضية ما تقف عند لا حكم إلا لله.

ورأوا قتال السلطان، هذا مفروغ منه عند الخوارج، وهو من أصولهم: الخروج على أئمة المسلمين، وليس ذلك فقط، بل من رضي بحكمه فقتاله فرض، من رضي بحكمه.

فأما من أنكره فلا يرون قتله إلا إذا أغار عليهم، يعني: أحد يقول مثلاً: حكم السلطان غير شرعي، لا يتعرض له أصحاب الفرقة هذه إلا إذا عابهم، إلا إذا انتقدهم فهنا يرون قتله.

أو كان دليلا للسلطان، يعني يعتقدون أنه يبلغ خبرهم إلى السلطان أو يشي بهم، فهذا عندهم يجب قتله.

طائفة المعلومية، وطائفة المجهولية:

من هؤلاء أيضًا طائفة يقال لها: المعلومية، وطائفة أخرى اسمها: المجهولية، فهؤلاء من الخازمية، لكن المعلومية خالفت من سبقها من الخوارج في شيئين: ادعوا أن من لم يعرف ربه -تبارك وتعالى- بجميع أسمائه الحسنى فهو جاهل به، والجاهل به كافر.

والثاني: أنهم قالوا: إن أفعال العباد غير مخلوقة لله تعالى، يعني: قالوا بقول القدرية.

المجهولية قالوا كقول المعلومية بوجوب معرفة الله بأسمائه -معرفة الأسماء الحسنى-، أن هذا يجب لكنهم قالوا: يكفي أن يعرف بعضها ولو جهل البعض، فقيل لهم: المجهولية.

هل يعقل هذا؟!، ينقسمون بهذه الطريقة؟!.

يقولون: من عرف ربه ببعض أسمائه فقد عرفه، وحكموا بكفر المعلومية؛ لأنهم قالوا: يجب أن يعرف بجميع الأسماء، وإلا فإنه يكون كافرًا، فقالوا: هم كفار. بذلك -نسأل الله العافية.

طائفة الصَّلتية:

طائفة منهم يقال لها: الصَّلتية، أنا لست أعرِّف الآن بفرق الخوارج، لكني أذكر هذه العجائب، وكيف ينقسمون، هؤلاء منسوبون إلى صلت بن عثمان، وقيل: صلت بن أبي الصلت، وكان من العجاردة، غير أنه قال: إذا استجاب لنا الرجل وأسلم تولیناه، وبرئنا من أطفاله؛ لأنه ليس لهم إسلام حتى يُدرِكوا فيُدعَون حينئذ إلى الإسلام.

طائفة الحَمزية:

طائفة يقال لها: الحمزية، أتباع حمزة بن أكرك الذي عاث في سجستان، وخرسان، وكرمان، وتلك البلاد، وهزم الجيوش الكثيرة، هذا في الأصل كان من العجاردة الخازمية، ثم خالفهم في باب القَدر والاستطاعة.

فقال بقول القدرية فأكفرته الخازمية في ذلك، ثم زعم مع ذلك أن أطفال المشركين في النار، فأكفرته القدرية في ذلك، ثم إنه والى القَعَدة من الخوارج، يعني: الذين لم يهاجروا إليه، مع قوله بتكفير من لا يوافقه على قتال مخالفيه من فرق هذه الأمة، الذي يقول: لا يحق لك أن تقاتل هؤلاء -أيًّا كانوا؛ لأنه كان يقاتل الخوارج أيضًا-

هذا عنده كافر، من أنكر عليه قتال من خالفه فهو كافر –نسأل الله العافية– ويقول: إن هؤلاء من المشركين، يعني: الذين يخالفونه في قتال أولئك، وكان إذا قاتل قومًا وهزمهم أمر بإحراق أموالهم وعقر دوابهم، وكان مع ذلك يقتل الأسرى من المخالفين.

هذا ظهر في أيام الرشيد، وبقي الناس في فتنته إلى أيام المأمون، ووقعت أمور وعظائم على يده.

هذا بدأ بقتال البَيْهسية، طائفة من الخوارج، وقتل الكثير منهم، ثم بايعه موافقوه بعد ذلك بالخلافة، وصار يدعى بأمير المؤمنين، وقالوا فيه أشياء وأشعار، ومدائح.

حمزة هذا أرسل سرية إلى الخازمية من الخوارج، فقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم ذهب بنفسه على رأس جيش إلى هراة فمنعه أهلها من دخولها، ماذا صار يفعل؟.

صار يستعرض الناس خارج المدينة، يضع حواجز، ثم بعد ذلك الذين يأتون من خارج البلد يريدون دخول البلد، أو الخروج منها يقتلهم.

فقتل خلقًا كثيرًا، فخرج إليه عمرو بن يزيد الأزدي –هذا والي هراة– مع جنده فدامت الحرب بينهم شهورًا، وقُتل من أهل هراة جماعة كبيرة جدًّا، ثم أغار حمزة على مناطق قريبة ومحاذية من أرياف هراة، فدامت الحرب مدة طويلة، وأحرق أموال هؤلاء، وعقر أشجارهم، ثم بعد ذلك وصل إلى سجستان، فمنعه أهل بعض تلك النواحي من دخول البلد، فصار يستعرض الناس خارجها بالسيف، كل من اجتاز في تلك الصحراء قتله.

ثم تنكر لأهل بعض تلك النواحي، يعني: ألبس جنده بالسواد الذي كان شعارًا لجند السلطان –يعني: للعباسيين– فألبسهم السواد ليخدع أهل البلد، فبلغهم ذلك –يعني عرفوا–، قيل لهم: ترى الرجل لبس لباس الجيش –جيش الدولة العباسية–، فعندها منعوه من دخول البلدة، فعقر نخلهم، وقتل المجتازين في صحاريهم، ثم قصد ناحية أخرى هناك، وقتل بها الكثير من الخوارج الخلفية، وعقر أشجارهم، وأحرق أموالهم، وانهزم رئيسهم، يقال له: مسعود بن قيس، وعبر في هزيمته واديًا وغرق هناك، فشك أتباعه –أتباع مسعود– في موته وصاروا ينتظرونه بعد ذلك ويعتقدون برجعته قرونًا متتابعة.

لاحظ الآن عندهم إمام غائب، ما عادت القضية كما بدءوا: لا حكم إلا لله.

ثم بعد ذلك رجع حمزة من كرمان وأغار في طريقه على بُسْت، ونواحٍ في نيسابور، وكان بها من الخوارج الثعالبة، فقتلهم ودامت فتنته بتلك النواحي في آخر أيام الرشيد، وفي بداية خلافة المأمون، فلما تمكن المأمون من الخلافة كتب إلى حمزة كتابًا استدعاه فيه إلى طاعته، فما زاد إلا عتوًّا في أمره، فبعث المأمون بطاهر بن الحسين لقتاله، فدارت بينهم حروب قُتل فيها من الفريقين أكثر من ثلاثين ألفًا –هذا زعيم واحد من زعماء الخوارج–، وانهزم فيها حمزة إلى كرمان، وذهب إلى بعض تلك الجبال.

فرقة الثعالبة:

من فرق هؤلاء: الثعالبة، أتباع ثعلبة بن مُشكان، هؤلاء يدعون إمامته بعد عبد الكريم بن عجرد الذي مات في الحبس.

ويزعم هذا أن عبد الكريم بن عجرد كان إمامًا، قبل أن يخالفه ثعلبة في حكم الأطفال، فلما اختلفا في ذلك كفَرَ ابن عجرد، وصار ثعلبة هو الإمام في نظر هؤلاء.

ما هو السبب في اختلافهما؟ انظر إلى السبب.

السبب أن رجلاً من العجاردة خطب إلى ثعلبة ابنته، قال: زوجني ابنتك، واذكر لي مهرها، ثم أرسل امرأة إلى أم تلك البنت يسألها هل بلغت البنت؟.

فإن كانت قد بلغت ووصفت الإسلام على الشرط الذي يعتبره العجاردة؛ لأنهم لا يعتبرون للصغير قبل البلوغ، لا يعتبرون له إسلامًا، فيريدون أن يمتحنوها قبل أن يتزوجها، إذا كانت قد بلغت، فيقول: إذا اجتازت الامتحان فالمهر لا تسأل عنه. يعني: نعطيك ما شئت.

فقالت أمها: هي مسلمة في الولاية. يعني: يكفي أنها بنت مسلمين بلغت أو لم تبلغ، فأُخبر بذلك عبد الكريم بن عجرد، وثعلبة بن مُشكان، فاختار عبد الكريم البراءة من الأطفال قبل البلوغ، وقال ثعلبة: نحن على ولايتهم صغارًا وكبارًا إلى أن يبين لنا منهم إنكار للحق.

فلما اختلفا في ذلك برئ كل واحد منهما من صاحبه، وصار أتباع كل واحد منهما فرقًا.

لاحظ: على قضية خطبة فتاة، انقسموا هذا الانقسام!.

وصارت الثعالبة بعد ذلك ست فرق، فرقة أقامت على إمامة ثعلبة، ولم تقل بإمامة أحد بعد ثعلبة، ولم يكترثوا لما وقع من خلاف.

فرقة المَعْبَديّة:

ومن فرق هؤلاء طائفة يقال لهم: المَعْبدية، قالوا بإمامة رجل منهم بعد ثعلبة اسمه مَعبد، خالف جمهور الثعالبة في أخذ الزكاة من العبيد إذا كانوا أغنياء، وكيف يكون المملوك غنيًّا وهو وما يملك لسيده؟! لكن هكذا قالوا.

وقالوا: إذا كان فقيرًا فإنه يعطى أيضًا من الزكاة، فهنا أكفره سائر الثعالبة بسبب ذلك.

لماذا يقول: إن المملوك تؤخذ منه الزكاة إذا كان غنيًّا، أو يعطى من الزكاة إن كان فقيرًا؟، فكفروه، هذا خلاف يستوجب التكفير؟!.

طائفة الأخنسية:

من هؤلاء طائفة يقال لهم: الأخنسية، أتباع رجل كان يُعرف بالأخنس كان في أول الأمر على مذهب الثعالبة في موالاة الأطفال، ثم خنس من بينهم، فقال: يجب علينا أن نتوقف عن جميع من في دار التُّقية إلا من عرفنا منه إيمانًا فنواليه عليه، أو كفرًا فنبرأ منه، وقال بتحريم القتل والاغتيال في السر.

يعني الغيلة والغدر، ما كلهم كان يقول بهذا.

وقال أيضًا: لا يُبدأ أحد من أهل القبلة بقتال حتى يُدعى إلا من عُرف بعينه أنه مخالف وكافر، وصار له أتباع على هذا القول، وبرئ من سائر الثعالبة، وبرئ منه سائرهم.

طائفة الشيبانية:

من هؤلاء طائفة من الثعالبة يقال لهم: الشيبانية، أتباع شيبان بن سلمة الخارجي، هذا خرج أيام أبي مسلم بزمن بني العباس، فتحالف مع أبي مسلم على أعدائه في بعض المعارك، وكان مع ذلك يقول بأشياء من تشبيه الله –تبارك وتعالى– بخلقه وما إلى ذلك، فكفّره سائر الثعالبة نظرًا لهذا القول في تشبيه الله –عز وجل–، وكذلك

أيضًا هؤلاء الخوارج كفروه قالوا: لأنه أعان أبا مسلم، كيف يعين هؤلاء الكفار، ويتحالف معهم؟ إذًا هو كافر، فكفروه، هذا حكم به عامة الخوارج، بل كل الخوارج.

ممن أكفره طائفة يقال لهم: الزيادية، أصحاب زياد بن عبد الرحمن.

والشيبانية يزعمون أن شيبان تاب من ذنوبه، وقالت الزيادية: إن ذنوبه كان منها مظالم للعباد لا تسقط بالتوبة، وإنه أعان أبا مسلم على قتاله مع الثعالبة كما أعانه على قتاله مع بني أمية.

قالوا: هذا ما تقبل توبته بهذه الطريقة، والذين بقوا معه قالوا: تاب.

طائفة الرشيدية:

من هؤلاء الثعالبة طائفة يقال لهم: الرشيدية، ينسبون إلى رجل اسمه رشيد، وقالوا: فيما سُقي -يعني: من الزرع- بالعيون والأنهار الجارية نصف العشر، وإنما يجب العشر الكامل فيما سقته السماء فحسب.

وخالفهم زياد بن عبد الرحمن، فأوجب فيما سقي بالعيون والأنهار الجارية العشر، يعني: كالذي سقي بالسماء؛ لأنه بدون تعب ومشقة.

فهذا حينما خالفهم، وقال بأنه يجب العشر الكامل فيما سقته العيون، وقال: لا تجوز البراءة ممن قال بأن فيه نصف العشر.

يعني: الذين خالفوهم، قال: لا نبرأ منهم، هذا خطأ، فقال رشيد الذي تنسب إليه الرشيدية: إن لم تجز البراءة منهم فإنا إذًا على قولهم ورأيهم ومذهبهم وعملهم، فافترقوا بذلك فرقتين، كفر بعضهم بعضًا.

مسألة فيما سقت العيون العشر أو نصف العشر!، إلى هذا الحد!.

طائفة المُكرَميّة:

الطائفة السادسة من هؤلاء الثعالبة يقال لهم: المُكْرَمية، أتباع أبي مكرم، زعموا أن تارك الصلاة كافر ليس لأجل ترك الصلاة، ولكن لجهله بالله -عز وجل-، وزعموا أن كل ذي ذنب هو جاهل بالله والجهل بالله كفر.

يعني: القضية ليست فقط الكبائر، كل صاحب ذنب فهو جاهل بالله، إذًا فهو كافر، بهذا الاعتبار.

فرقة الأباضية وفرقها:

من فرق هؤلاء الخوارج: الأباضية، هؤلاء يتفقون على القول بإمامة عبد الله بن أباض، وافترقوا فيما بينهم فِرقًا يجمعها القول بأن كفار هذه الأمة -يعنون المخالفين- برآء من الشرك والإيمان، وأنهم ليسوا مؤمنين ولا مشركين، ولكنهم كفار.

وأجازوا شهادتهم، وحرموا دماءهم في السر، واستحلوها في العلانية، وصححوا مناكحتهم والتوارث منهم، وزعموا أنهم في ذلك محاربون لله ولرسوله، لا يدينون دين الحق، وقالوا باستحلال بعض أموالهم دون بعض.

ثم افترق هؤلاء الأباضية فيما بينهم إلى أربع فرق: الحفصية، والحارثية، واليزيدية، وأصحاب طاعة لا يُراد الله بها.

طائفة اليزيدية:

اليزيدية هؤلاء هم أصحاب يزيد بن أُنيسة الذي قال بتولي المُحكِّمة الأولى قبل الأزارقة، وتبرأ ممن بعدهم إلا الأباضية فإنه يتولاهم، وزعم أن الله سيبعث رسولًا من العجم، ويُنزِّل عليه كتابًا من كتب السماء كُتبَ في

السماء، وينزِّل عليه جملة واحدة هذا الكتاب، ويترك شريعة المصطفى -صلى الله عليه وسلم- ويكون على ملة الصابئة المذكورة في القرآن.

وأيضًا يزيد هذا يتولى أهل الكتاب الذين يقرون بنبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- لكن يقولون: إنه بُعث للعرب خاصة، هذا موجود عند بعض أهل الكتاب.

فهو يتولاهم، وإن لم يدخلوا في الإسلام، وقال: إن أصحاب الحدود من موافقيه وغيرهم كفار مشركون، وكل ذنب صغير أو كبير فهو شرك.

إذًا القضية لا تختص بالكبائر، يعني: ليس كل الخوارج يقولون بأن فاعل الكبيرة كافر، هذا يقول به طوائف منهم.

طائفة الحفصية:

الحفصية من هؤلاء قالوا: بإمامة حفص بن أبي المقدام، الذي زعم أن بين الشرك والإيمان معرفة الله تعالى وحدها.

فمن عرفه، ثم كفر بما سواه من رسول، أو جنة، أو نار، أو عمل بجميع المحرمات من قتل النفس، واستحلال الزنا وسائر المحرمات فهو كافر بريء من الشرك.

ومن جهل بالله تعالى، وأنكره فهو مشرك، وتأول هؤلاء في عثمان -رضي الله عنه- مثلما تأول الرافضة في أبي بكر وعمر، وزعموا أن عليًّا هو الذي أنزل الله فيه: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ}** [البقرة: ٢٠٤].

وأن عبد الرحمن بن ملجم هو الذي أنزل فيه: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ}** [البقرة: ٢٠٧] هذه الآية نازلة قبل أن يولد عبد الرحمن بن ملجم.

طائفة الحارثية:

من هؤلاء طائفة يقال لها: الحارثية، أتباع حارث بن مزيد الإباضي، وهم الذين قالوا في باب القدر بمثل قول المعتزلة، وزعموا أن الاستطاعة قبل الفعل، وأكفرهم سائر الأباضية في ذلك، وزعموا أنه لم يكن لهم إمام بعد المُحكِّمة الأولى إلا ابن إباض وبعده حارث بن مزيد الإباضي.

طائفة أصحاب طاعة لا يُراد الله بها:

الطائفة الأخرى: أصحاب طاعة لا يُراد الله بها، هذا اسم الفرقة الآن!

يزعمون أنه يصح وجود طاعات كثيرة مما لا يُراد بها وجه الله تعالى.

من الإباضية رجل يقال له: إبراهيم، دعا قومًا من أهل مذهبه إلى داره، وأمر جارية له كانت على مذهبه بشيء فأبطأت عليه -انظر كيف يختلفون الآن- فحلف ليبيعنها في الأعراب -هم عندهم هؤلاء الأعراب كفار-، فقال له رجل منهم يقال له ميمون من العجاردة: كيف تبيع جارية مؤمنة إلى الكفرة؟

فقال له إبراهيم: إن الله تعالى قد أحل البيع، وقد مضى أصحابنا وهم يستحلون ذلك، فتبرأ منه ميمون، وتوقف آخرون منهم في ذلك، وكتبوا بذلك إلى علمائهم، فأجابوهم بأن بيعها حلال، وأنه يستتاب ميمون، ويستتاب من توقف في إبراهيم، هذا قول الآن العلماء، فصاروا في هذا ثلاث فرق: إبراهيمية وميمونية وواقفة.

هذا داعيهم على غداء، أو على عشاء الآن، وتأخرت الجارية، فحلف على أن يبيعها إلى الأعراب، فانقسموا إلى ثلاث فرق.

تبع إبراهيم على إجازة هذا البيع قوم يقال لهم: الضَّحّاكية، وأجازوا نكاح المسلمة من كفار قومهم في دار التُّقية، فأما في دار حكمهم فلا يستحلون ذلك.

وقوم منهم توقفوا في هذه المسألة، وقالوا: إن ماتت هذه المرأة لم نصلِّ عليها، ولم نأخذ ميراثها؛ لأنا لا ندري ما حالها.

وتبع بعد هؤلاء الإبراهيمية قوم يقال لهم: البَيْهَسيّة، أصحاب أبي بَيْهَس هَيْصَم بن عامر.

قالوا: إن ميمونًا كفر بأن حرم بيع الأمة في دار التُّقية من كفار قومنا، وكفرت الواقفة بأن لم يعرفوا كفر ميمون. كيف خفي عليهم أنه كافر؟ ومن لم يكفر الكافر فهو كافر، فكفروه.

وما عرفوا صواب إبراهيم أيضًا، يعني: ما عرفوا الحق من الباطل إذًا هم كفار، ما عرفوا حال هذا وهذا.

وكفر إبراهيم بأن لم يتبرأ من أهل الوقف، يعني: الذين توقفوا ما تبرأ منهم فهو كافر.

قالوا: وذلك أن الوقوف إنما يكون بما يسع على الأبدان، وإنما الوقوف على الحكم بعينه ما لم يوافقه أحد، فإذا وافقه أحد من المسلمين لم يسع من حضر ذلك إلا أن يعرف.

يعني: من عرف الحق ودان به، ومن أظهر الباطل ودان به، لابد أن تعرف أن هذا محق، وهذا مبطل، وإذا ما عرفت أو توقفت فالحكم بالردة، -نسأل الله العافية.

هؤلاء البَيْهسية قالوا: إن من واقع ذنبًا لم نشهد عليه بالكفر حتى يرفع إلى الحاكم، ويُحدّ، ولا نسميه قبل الرفع مؤمنًا ولا كافرًا.

هؤلاء يقول بعضهم بأن الإمام حاكم، إذا كفر كفرت الرعية جميعًا.

وأيضًا العوفية من البَيهسية انقسموا إلى فرقتين:

فرقة قالت: من رجع عنا من دار هجرته -يعني جاء إلينا ثم رجع أو رجع من الجهاد إلى حال القعود- برئنا منه.

وطائفة قالت: بل نتولاه؛ لأنه رجع إلى أمر كان مباحًا له.

وكل هؤلاء قالوا: إذا كفر الإمام كفرت الرعية، الغائب منهم والشاهد. -نسأل الله العافية.

من هؤلاء البَيهسية طائفة يقال لهم: أصحاب التفسير، فرقة يقال لهم: أصحاب التفسير، زعموا أن من شَهِد من المسلمين شهادة أُخذ بتفسيرها وكيفيتها.

طائفة أصحاب السؤال:

وطائفة من هؤلاء يقال لهم: أصحاب السؤال، قالوا: الرجل يكون مسلمًا إذا شهد الشهادتين، وتبرأ، وتولى.

يعني: تبرأ من غيرهم، وتولاهم، وآمن بما جاء من عند الله جملة، وإن لم يعلم فيسأل ما افترض الله عليه، ولا يضره أن لا يعلم حتى يُبتلى به فيسأل، وإن واقع حرامًا يعلم تحريمه فقد كفر، ليست القضية مختصة بالكبيرة.

وقالوا بمثل قول الثعلبية في الأطفال، ووافقوا القدرية في القدر، وقالوا بأن الله تعالى فوض إلى العباد ولا مشيئة له في أفعال العباد، فبرئت منهم عامة البَيهسية.

طائفة الشَّبيبية:

طائفة من هؤلاء يقال لهم: الشَّبيبية، ينتسبون إلى رجل يقال له شبيب بن يزيد الشيباني، المكنى بأبي الصحاري، هؤلاء أيضًا يعرفون بالصالحية لانتسابهم إلى صالح بن مِشْرح الخارجي، وكان شبيب من أصحاب صالح، ثم تولى الأمر بعده على جنده.

ذكر أصحاب التواريخ أن شبيبًا هذا في ابتداء أمره قصد الشام، ونزل على رَوح بن زنباع.

لاحظ بداية المشكلة، فنزل على رَوح بن زنباع، ورَوح بن زنباع هذا له منزلة عند عبد الملك بن مروان.

وقال له: سل لي أمير المؤمنين، لاحظ: أمير المؤمنين، سل لي أمير المؤمنين أن يفرض لي في أهل الشرف.

يعني: هؤلاء من زعماء القبائل والعشائر، أو نحو ذلك يُعطوَن بعض المال أكثر من غيرهم.

قال: فإن لي في بني شيبان تبعًا كثيرًا، فسأل رَوح بن زنباع عبد الملك بن مروان.

فقال عبد الملك: هذا رجل لا أعرفه، وأخشى أن يكون حروريًّا، فذكر رَوح ذلك لشبيب، قال: عبد الملك يقول: أنا لا أعرفه، قال: سيعرفني بعد هذا.

فحقد عليه ورجع إلى قومه بني شيبان، وجمع من الخوارج الصالحية مقدار ألف، واستولى بهم على ما بين كَسْكر والمدائن.

فبعث إليه الحجاج بعبيد الله بن أبي المَخارق في ألف فارس، فهزمه شبيب، فوجه إليه بعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فهزمه شبيب، فوجّه بعتّاب بن وَرْقاء، فقتله شبيب، وما زال على ذلك حتى هزم للحجاج عشرين جيشًا.

وكانت القضية في منشئها أنه يريد شيئًا من المال.

فحمله المنع على ركوب هذه العظائم، هزم للحجاج عشرين جيشًا في مدة سنتين، وقيل: إنه قتل له عشرين قائدًا.

ثم إنه كبس الكوفة ليلاً، ومعه ألف من الخوارج، ومعه أمه غزالة وامرأته في مائتين من نساء الخوارج قد اعتقلن الرماح، وتقلدن السيوف، فلما كبس الكوفة ليلاً قصد المسجد الجامع، وقتل حراس المسجد، والمعتكفين فيه ونصب أمه غزالة على المنبر حتى خطبت، وصلى بأصحابه في المسجد صلاة الفجر، وقرأ فيها سورتي البقرة وآل عمران، ثم خرج إليه الحجاج بأربعة آلاف، واقتتل الفريقان في سوق الكوفة إلى أن قُتل كثير من أصحاب شبيب، وانهزم شبيب فيمن بقي معه إلى الأنبار، فوجه الحجاج في طلبه جيشًا، فهزموا شبيبًا هذا إلى الأهواز، وبعث الحجاج قائدًا ومعه ثلاثة آلاف من المقاتلين لطلب شبيب، فنزل عند شط الدُّجيل، وركب شبيب جسر الدُّجيل ليعبر فهذا القائد أمر أصحابه بقطع حبال الجسر، فاستدار الجسر، وغرق شبيب مع فرسه وهو يقول: **{ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}** [الأنعام: ٩٦].

إلى آخر لحظة، هذا الخارجي يغرق مع فرسه، ومن غير أي إظهار للندم، أو الرجوع أو الضعف!.

فبايع أصحابه في الجانب الآخر –الذين عبروا– غزالة أم شبيب، فتابعهم جند الحجاج، وقتلوا أكثرهم وقُتلت غزالة وزوجة شبيب، وأُسر الباقون، وغاص قوم من الجند فأخرجوا جثة شبيب، ثم بعثوا بهؤلاء الأسرى إلى الحجاج، فأمر بقتل رجل منهم.

انظروا ماذا قال!، انظروا الجلد على الباطل! -وسيأتي نماذج من الجلد على الباطل-، هذا الرجل قال للحجاج والحجاج صاحب بطش، ومن يجرؤ على الحجاج وقد أمر بقتل هذا الرجل؟.

فقال: اسمع مني بيتين أختم بهما عملي. الآن ماذا سيقول؟ سيتشهد؟ سيتوب؟ لا، قال:

أبرأ إلى الله من عمرٍو وشيعته *** ومن عليٍّ ومن أصحاب صِفِّينِ

يعني عمرو بن العاص.

ومن معاويةَ الطاغي وشيعتِه *** لا بارك اللهُ في القوم الملاعين [1]

هذا الذي ختم فيه حياته -نسأل الله العافية-، انظر إلى الخاتمة، يموت على الضلالة والباطل، فأمر الحجاج بقتله، وقتل جماعة منهم، وأطلق الباقين.

السمة الثانية من خواص أهل الأهواء أصحاب التفرق والاختلاف: أنهم يتبعون المتشابه، كما قال الله -عز وجل-: **{فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ}** [آل عمران: ٧].

والكلام في المتشابه يطول، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: **((إذا رأيتم الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله، فاحذروهم))** [2].

وقد تكلمت على اتباع المتشابه في الكلام على موضوع آخر، في مجالس أخرى في الكلام على خواص أهل الأهواء والبدع.

السِّمة الثالثة التي تجمع هؤلاء جميعًا أهل الافتراق وهي: اتباع الهوى، كما قال الله -عز وجل-: **{فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ}** [آل عمران: ٧] وهو الميل عن الحق اتباعًا للهوى.

وقال: **{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ}** [القصص: ٥٠]، **{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ}** [الجاثية: ٢٣].

فهذه من خصائصهم، ولهم سمات أخرى -على كل حال- وذلك كاتباع الظن **{إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}** [الأنعام: ١١٦].

وكذلك اتخاذ رءوس من الجُهّال، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- : **((إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالمًا اتخذ الناس رؤساء جُهالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا))** [3].

سماتهم كثيرة لا أطوِّل بذكرها؛ فليس الحديث في هذه المجالس عن السمات، بخلاف سمات أهل السنة، انظروا مثلاً ما ذكره قَوّام السنة في كتابه: "الحجة في بيان المحجة" ماذا يذكرون من سِمات أهل السنة،

---

(١) انظر فرق الخوارج في كتاب الفرق بين الفرق (ص: ٧٤-٩٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، بَابُ {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ} [آل عمران: ٧] (٣٣/٦)، رقم: (٤٥٤٧)، ومسلم، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن (٢٠٥٣/٤)، رقم: (٢٦٦٥).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب: كيف يقبض العلم (٣١/١)، رقم: (١٠٠)، ومسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٢٠٥٨/٤)، رقم: (٢٦٧٣).

وينبغي أن نعرض أنفسنا على هذه السمات، وكما قلت لكم: هذا الحديث موجه إلينا، نحن نعظ به أنفسنا ونُذكّر أنفسنا ونتبصّر به، نحن لا نتحدث عن قوم آخرين.

يقول: "من مذهب أهل السنة: التورع في المآكل، والمشارب، والمناكح، والتحرز من الفواحش والقبائح، والتحريض على التحاب في الله، واتقاء الجدال، والمنازعة في أصول الدين، ومجانبة أهل الأهواء والضلالة، وهجرهم ومباينتهم، والقيام بوفاء العهد والأمانة، والخروج من المظالم والتبعات، وغض الطرف عن الريبة والحرمات، ومنع النفس من الشهوات، وترك شهادة الزور، وقذف المحصنات، وإمساك اللسان عن الغيبة والبهتان، والفضول من الكلام، وكظم الغيظ، والصفح عن زلل الإخوان، والمسابقة إلى فعل الخيرات، والإمساك عن الشبهات، وصلة الأرحام، ومواساة الضعفاء، والنصيحة في الله، والشفقة على خلق الله، والتهجد لقيام الليل لاسيما لحملة القرآن، والبَدار إلى أداء الصلوات ..."[1] إلى آخر ما ذكر.

وذكر علامات أخرى يقول: "لمحبة أهل السنة علامة ولبغض أهل البدعة علامة: إذا رأيت الرجل يذكر مالك بن أنس، وسفيان بن سعيد الثوري، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، وعبد الله بن المبارك، ومحمد بن إدريس الشافعي، والأئمة المرضيين بخير فاعلم أنه من أهل السنة.

وإذا رأيت الرجل يخاصم في دين الله، ويجادل في كتاب الله، فإذا قيل له: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: حسبنا كتاب الله، فاعلم أنه صاحب بدعة يرد السنة.

وإذا رأيت الرجل إذا قيل له: لم لا تكتب الحديث؟ يقول: العقل أولى، فاعلم أنه صاحب بدعة، وإذا رأيته يمدح الفلسفة، وما إلى ذلك، ويمدح الذين ألفوا الكتب فيها، فاعلم أنه ضال، وإذا رأيت الرجل يسمي أهل الحديث حشوية أو مشبهة، أو ناصبة، فاعلم أنه مبتدع، وإذا رأيت الرجل ينفي صفات الله -عز وجل- أو يشبهها بصفات المخلوقين، فاعلم أنه ضال"[2].

هذه بعض السمات، هذا يذكره العلماء في كتب العقائد، فيحتاج العبد إلى أن ينظر في حاله، ولسنا بحاجة إلى أن نقول اليوم: إذا رأيت الرجل يحب فلانًا وفلانًا فاعلم أنه من أهل السنة.

هذه جملة من الأسباب التي ترجع إلى منهج النظر والتلقّي والاستدلال.

أمور ترجع إلى الناظر:

فأول ذلك: إذا تصدر أو تكلم من لا يُحسِن. فهذا يفسد أكثر مما يصلح، إذا وُسد الأمر إلى غير أهله، وقد ذكر الشاطبي -رحمه الله- أن الاختلاف في القواعد الكلية لا يقع بين المتبحرين في علم الشريعة العالمين بمواردها ومصادرها، بدليل اتفاق العصر الأول، وعامة الثاني.

يقول: "فلما وُسد الأمر إلى غير أهله، وتصدر للفتيا والتدريس كل من وجد في نفسه زيادة فهم وفضل ذكاء، ولكن لم ترسخ قدمه في العلم وقع الافتراق"[3].

---

(١) انظر: الحجة في بيان المحجة (٢/ ٥٧١-٥٧١).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢/٥٣٩-٥٤٠).

(٣)انظر: الاعتصام للشاطبي (٢/٦٨٠)

وقد عد أهل العلم –كما يقول الشاطبي– من البلايا أن يعتقد الإنسان في نفسه أو يُعتقد فيه أنه من أهل العلم والاجتهاد ولم يبلغ ذلك، فيعمل على ذلك.

يعني: يجعل نفسه بهذه المنزلة، ويعدّ رأيه بجملة آراء أهل الاجتهاد.

يقول: "فتراه آخذًا ببعض جزئيات الشريعة في هدم كلياتها"، هو التصور عنده ناقص، فيأخذ ببعض الجزئيات يهدم بها الكليات.

يقول: "وقد بكى ربيعة –يعني شيخ الإمام مالك، ربيعة بن عبد الرحمن– فسُئل فقال: استُفتي من لا علم له وظهر في الإسلام أمر عظيم، وقال–يعني ربيعة–: لَبعض من يفتي هنا أحق بالسجن من السُّراق"[1].

لأن هذا يفسد الدين.

ابن حزم يذكر أنه قد يحمل اسم التقدم في الفقه في بلد ما عند العامة من لا خير فيه، ومن لا علم عنده ومن غيره أعلم منه يقول: "وقد شهدنا نحن قومًا فُساقًا حملوا اسم التقدم في بلدنا، وهم ممن لا يحل لهم أن يفتوا في مسألة من الديانة، ولا يجوز قبول شهادتهم"[2].

يعني ما تُقبل شهادته فضلاً عن أن يكون بهذه المنزلة.

والحافظ ابن القيم –رحمه الله– تكلم على هذا المعنى وذكر أن الله –تبارك وتعالى– أقام لكل عالم ورئيس وفاضل من يُظهر مماثلته –يعني يحاكيه– ويرى الجهال –وهم الأكثرون– مساجلته، يرون أن هذا نظير لفلان، وعلى طراز فلان، وأنه يجري معه في الميدان، وأنهما عند المسابقة كفرسي رهان.

يقول: لاسيما إذا طوّل الأردان، وأرخى الذوائب الطويلة وراءه كذنب الأتان، وهذر باللسان، وخلا له الميدان الطويل من الفرسان.

يقول: فلو لبس الحمارُ ثيابَ خزٍّ *** لقال الناسُ يا لكَ من حمارِ

يقول: وهذا الضرب إنما يُستفتون بالشكل لا بالفضل، وبالمناصب لا بالأهلية، وقد غرهم عكوف من لا علم عنده عليهم، ومسارعة من أجهل منهم إليهم، تعج منهم الحقوق إلى الله تعالى عجًّا عجيبًا، وتضج منهم الأحكام إلى من أنزلها ضجيجًا[3].

هؤلاء أرباع المتعلمين وأنصاف المتعلمين.

وقد ذكر الشوكاني –رحمه الله– في "البدر الطالع" في ترجمة أحد علماء اليمن، يقال له علي بن قاسم متوفى سنة ألف ومائتين وتسع عشرة، ذكر عن هذا العالم كلامًا جيدًا.

يقول: "الناس على طبقات ثلاث: الطبقة العالية، وهم العلماء الأكابر، وهم يعرفون الحق والباطل، وإن اختلفوا لم ينشأ عن اختلافهم الفتن لعلمهم بما عند بعضهم بعضًا".

هذا اختلاف العلماء الذين يحملون العلم الحقيقي، وقد رسخت أقدامهم فيه.

---

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله (١٢٢٥/٢)، رقم: (٢٤١٠)، والاعتصام للشاطبي (٦٨٠/٢).

(٢) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (١٦٧/٦).

(٣) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين (١٥٩/٤– ١٦٠).

الطبقة السافلة يقول: "العوام على الفطرة، لا ينفرون عن الحق وهم أتباع من يقتدون به، إن كان مُحِقًّا كانوا مثله وإن كان مُبطِلاً كانوا كذلك".

هؤلاء ليست منهم المشكلة، أين المشكلة؟ الطبقة المتوسطة هذه.

يقول: "وهم منشأ الشر، وأصل الفتن الناشئة في الدين، وهم الذين لم يُمعنوا في العلم حتى يرتقوا إلى رتبة الطبقة الأولى، ولا تركوه حتى يكونوا من أهل الطبقة السافلة، فإنهم إذا رأوا أحداً من أهل الطبقة العليا يقول ما لا يعرفون مما يخالف عقائدهم التي أوقعهم فيها القصور فَوّقوا إليه سهام التقريع ونسبوه إلى كل قول شنيع، وغيروا فطر أهل الطبقة السفلى -يعني العامة- عن قبول الحق بتمويهات باطلة، فعند ذلك تقوم الفتن الدينية على ساق"[1].

تقوم الفتن على ساق، حينما يوجد هؤلاء الذين تحصرموا ولم يتزبّبوا بعدُ.

فهؤلاء لا يحتملون المخالفة، ولهم شيء من النظر والمطالعة، فإذا اطلعوا على مخالفة لعالم أو نحو ذلك فإنهم يقيمون الدنيا، يقيمون الشناعة، فهؤلاء هم منشأ الفتن والمشكلات، ومن أعظم أسباب الافتراق والانقسام على أمور لا توجب ذلك.

من الأسباب: الإفراط والتفريط:

وانظروا إلى الطوائف والفرق التي خرجت، أصول الفرق، الخوارج مثلاً غلو في فهم آيات الوعيد، وأعرضوا عن آيات الرجاء والوعد بالمغفرة والتوبة، فماذا حصل؟

قابلهم المرجئة فقالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب.

في باب الأسماء، الخوارج يقولون: فاعل الكبيرة كافر، هذا يقول به طوائف منهم، والمرجئة يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، وهو مؤمن كامل الإيمان، إيمانه كإيمان جبريل -عليه السلام.

المعتزلة قالوا: منزلة بين المنزلتين.

الشيعة غلو في عليٍّ -رضي الله عنه- وفي الأئمة حتى أوصلوهم إلى مرتبة العصمة، قابل هؤلاء النواصب الذين عابوا وذموا عليًّا -رضي الله عنه- وعادوه.

فدين الله وسط -كما يقول شيخ الإسلام -رحمه الله- بين الغالي فيه والجافي عنه، والله تعالى ما أمر بأمر إلا اعترض الشيطان فيه بأمرين لا يبالي بأيهما ظفر، إما إفراط فيه، وإما تفريط فيه[2].

يقول: إذا كان على عهد النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وخلفائه الراشدين قد انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة، حتى أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بقتالهم؛ فيُعلم أن المنتسب إلى الإسلام أو السنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضًا من الإسلام والسنة، حتى يدعي السنة من ليس من أهلها، بل قد مرق منها، وذكر أن من أعظم أسباب هذا: الغلو.

---

(١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٤٧٣/١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣٨١/٣).

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ} [النساء: ١٧١]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: **((إياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين))** [١] هذا الغلو، هذا الإفراط أو التفريط قد يكون في الأحكام كما قلنا: الوعيدية والمرجئة.

في الأسماء: الخوارج، المعتزلة، المرجئة، يعني: تكفير فاعل الكبيرة مثلاً، أو أنه بمنزلة بين المنزلتين، أو أنه كامل الإيمان، هذا إفراط وهذا تفريط.

وهذا الغلو كما أنه يكون في أحكامنا قد يكون أيضًا في بعض الشيوخ، فتجد المبالغات، وتجاوز الحد، يغلو بشيخه، أو بمن يحب، فيوصله إلى مرتبة يبالغ في وصفه، بل قد يجعله بمرتبة لا تصلح إلا لله -عز وجل.

الذين غلو في عليٍّ -رضي الله عنه- أو الذين غلو في المسيح من النصارى، فعبدوه من دون الله، فالحب قد يزيد.

المشكلة أن هؤلاء الذين لا يتَّزنون في مثل هذه المحبة أنهم أيضًا قد يتحولون إلى الطرف الآخر تمامًا.

هؤلاء الذين يبالغون في المدح والمحبة، قد ينقلب عليك لأتفه سبب أو لأدنى مخالفة، ثم تتحول عنده إلى شيطان مارد، في الأول: أوصاف يبالغ فيها، ثم بعد ذلك تحول إلى شيطان رجيم، هذا كله من الإفراط والتفريط.

التاريخ مليء وكتب التراجم مليئة بالمبالغات، هذا يقول: عندنا بخرسان يظنون أن الإمام أحمد لا يشبه البشر، يظنون أنه من الملائكة.

آخر يقول: نظرة عندنا من أحمد تعدل عبادة سنة.

الذهبي -رحمه الله- يقول: هذا غلو لا ينبغي، لكن الباعث له حب ولي الله في الله[٢].

الإمام أحمد إمام عظيم، والصدِّيق الثاني، من أئمة أهل السنة، ولكن أيضًا مثل هذا الكلام: يظنون أنه من الملائكة، هذا فيه غلو.

وهكذا من هذه النماذج: أن إمام الحرمين الجويني لما مات غُلقت الأسواق، يقولون: وكسر أربعمائة من تلاميذه محابرهم وأقلامهم، وجلسوا عامًا لا يغطون رءوسهم يطوفون في البلد نائحين عليه، مبالغين في الصياح والجزع[٣].

هذا لا يجوز، هذه مبالغة، هذا غلو، فهذا غلو في المحبة.

وقد يكون الغلو بالكراهية والبغض، من الأمثلة أن طلاب العلم في مجلس أبي بكر الذَّكْواني لما فرغوا من الكتابة عنه، دعا أحدهم أصحابه لحضور مجلس أبي نعيم.

وأبو نعيم -رحمه الله- كان قد تأثّر بشيءٍ من العلوم الكلامية، ومقالة أهل الكلام.

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب مناسك الحج، باب: التقاط الحصى (٢٦٨/٥)، رقم: (٣٠٥٧)، وابن ماجه، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي (١٠٠٨/٢)، رقم: (٣٠٢٩).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢١١/١١)

(٣) وفيات الأعيان (١٧٠/٣)، وسير أعلام النبلاء (٤٧٦/١٨)

وكان الحنابلة قد هجروه، وكانت هناك أمور، فلما سمع بعض من يُنسب إلى الحديث وليس هؤلاء بأهل علم، وإنما بعض من ينتسب إليهم ممن يسيء إليهم بسوء تصرفه وجهله، قاموا إلى الداعي الذي قال: نحضر الدرس، وبأيديهم السكاكين التي يبرون بها أقلامهم، وكاد الرجل أن يقتل.

يقول الذهبي -رحمه الله-: ما هؤلاء بأصحاب حديث، بل فجرة جهلة، أبعد الله شرهم[1].

يعني: أهل الحديث ينزهون عن هذا، ليست هذه هي أخلاقهم، ولكن يوجد من ينتسب إليهم، ويكون بهذه المثابة.

كذلك أيضًا أحيانًا المبالغة في تحقير المخالف، والغمط منه، وما إلى ذلك.

هذا أحد فقهاء العراق من الأحناف ذهب إلى الحج، ولما رجع قال مُبشرًا لأهل الكوفة الذين على مذهبه: أبشروا يا أهل الكوفة، فإني قدمت على أهل الحجاز فرأيت عطاء وطاوسًا ومجاهدًا، فصبيانكم بل صبيان صبيانكم أفقه منهم[2].

إلى هذا الحد؟!، صبيانكم وصبيان صبيانكم أفقه من هؤلاء الأئمة علماء التابعين؟!.

وهكذا قد يحمل هذا الإفراط في البغض والمخاصمة والعداوة أن يُنسب إلى الإنسان ما هو بريء منه.

يذكر عن بعضهم أن ابن كُلّاب، وهو من رءوس المتكلمين في البصرة، أنه إنما ابتدع ما ابتدعه من القضايا الكلامية ليدس دين النصارى في ملتنا، وأنه أرضى أخته بذلك.

يقول الذهبي: وهذا باطل، والرجل أقرب المتكلمين إلى السنة[3].

يعني: لا يتورع أحيانًا هذا المبالغ من قذف أعراض الناس، أو رميهم بالتهم الكبار على سبيل الغلو في البغض، وهكذا في أمثلة كثيرة لا نطوِّل بذكرها.

الثالث من أسباب التفرق: اتباع الظن وما تهوى الأنفس

وقد ذكر شيخ الإسلام -رحمه الله- أن عامة التفرق والاختلاف إنما هو بسبب اتباع الظن وما تهوى الأنفس.

وأن السبيل إلى علاج ذلك هو سلوك سبيل العلم، والقيام بالقسط، ولو على حساب النفس والأقربين[4].

لا يتكلم أحد إلا بعلم في دين الله -عز وجل-، وفيمن يتكلم فيه، إذا كان لا يعرف حاله، ما سمع منه، ما جلس معه، كيف يتكلم فيه بالظنون الكاذبة؟.

وكذلك القيام بالقسط -كما سيأتي- والله -تبارك وتعالى- يقول: **{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ}** [الأنعام: ١٥٩].

يقول شيخ الإسلام: "فكيف يجوز مع هذا لأمة محمد -صلى الله عليه وسلم- أن تفترق وتختلف حتى يوالي الرجل طائفة، ويعادي طائفة أخرى بالظن والهوى، بلا برهان من الله تعالى" [5].

هات برهانًا، لماذا تبغض هذا؟ لماذا تتكلم في عرضه؟ لماذا تعاديه؟

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٧/٤٦٠).

(٢) المصدر السابق (٥/٢٣٥).

(٣) المصدر السابق (١١/١٧٥).

(٤) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١/٤٣٥).

(٥) مجموع الفتاوى (٣/٤١٩-٤٢٠).

يقول: "وقد بَرَّأ الله نبيه –صلى الله عليه وسلم– ممن كان هكذا، فهذا فعل أهل البدع كالخوارج الذين فارقوا جماعة المسلمين، واستحلوا دماء من خالفهم.

وأما أهل السنة والجماعة فهم معتصمون بحبل الله وأقل ما في ذلك –يعني هذا الإنسان الذي عنده نوع من اتباع الهوى– أن يفضل الرجل من يوافقه على هواه وإن كان غيره أتقى لله منه، وإنما الواجب أن يقدم من قدمه الله ورسوله، ويؤخر من أخره الله ورسوله، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، وينهى عما نهى الله عنه ورسوله، وأن يرضى بما رضي الله به ورسوله، وأن يكون المسلمون يدًا واحدة، فكيف إذا بلغ الأمر ببعض الناس أن يضلل غيره ويكفره، وقد يكون الصواب معه وهو الموافق للكتاب والسنة؟.

يقول: "ولو كان أخوه المسلم قد أخطأ في شيء من أمور الدين فليس كل من أخطأ يكون كافرًا ولا فاسقًا، بل قد عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان، وقد قال تعالى: **{رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}** [البقرة: ٢٨٦].

وثبت في الصحيح أن الله قال: **((قد فعلت))**[1] .

يقول: "لاسيما وقد يكون من يوافقكم في أخص من الإسلام مثل أن يكون مثلكم... ". إلى آخر ما يقول.

يقول: "ثم بعد هذا قد يخالف في شيء وربما كان الصواب معه، فكيف يُستحل عرضه ودمه، أو ماله مع ما قد ذكر الله تعالى من حقوق المسلم والمؤمن؟.

وكيف يجوز التفريق بين الأمة بأسماء مبتدعة لا أصل لها في كتاب الله، ولا سنة رسوله –صلى الله عليه وآله وسلم؟[2].

هذا كذا، وهذا كذا، وهذا كذا، وطحن في هذه الأمة، وتمزيق وتشقيق –نسأل الله العافية–، لا يسلم من ذلك أحد لا كبير ولا صغير.

ومن سلم من هذا لا يسلم من هذا، ومن سلم من ذاك لا يسلم من الآخر –نسأل الله العافية–، وهذا يورث البغي، وهو:

الرابع من هذه الأسباب: البغي الذي يكون به العدوان.

قد يكون هذا الاندفاع بحسن نية ورغبة في نصرة الحق، يوجد جيل يقرأ ويغار على الدين، ويطالع ويحضر بعض الدروس، ويقرأ عن سير الأئمة، ثم بعد ذلك يريد أن تكون الأمور بالمسطرة، كل شيء بحد دقيق لا يخرج عنه أحدٌ أدنى خروج لا باجتهاد، ولا تأويل، ولا خطأ، ولا جهل، فإذا رأى من أحدٍ أدنى مخالفة زهد فيه، وزهّد الناس فيه، وصار يعيبه في المجالس، ويتكلم في حقه، ويستحل عرضه ويغتابه.

هذا اجتهد، هذا إنسان عنده فضائل كثيرة، عنده علم كثير، لا نعلم أنه يتبع الهوى، له رأي في المسألة الفلانية، انتهى، افتح له هاشتاج ثم بعد ذلك تصوب إليه السهام، يا أخي خالفك.

هب أن هذا الإنسان قال شيئًا، وأنا لا أحب أن أمثل لكن أقول: قد يقول في مسألة فقهية، أو مسألة من المسائل الواقعية يكون له رأي فيها.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ} [البقرة: ٢٨٤] (١/١١٦)، رقم: (١٢٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٤٢١).

ثم بعد ذلك لا يحتمل منه هذا الخطأ لسبب أو لآخر، لأننا مثلاً عهدنا واعتدنا على سماع كلام في هذه القضية، ولا نحتمل المخالفة فيها.

الآن لو جاء من أفتى مثلاً وقال بأن الشيء الفلاني يجوز، ونحن اعتدنا على أن هذا غير جائز، هو ليس له أن يثير هذه الفتاوى الغريبة، لكن اجتهد فأخطأ.

هنا تقوم الشناعة، لكن من الذين يفعلون هذه الشناعة؟ ليسوا العامة، وليسوا من العلماء الراسخين في العلم، وإنما من الطبقة هذه الوسط الذين قال عنهم هذا الشيخ من شيوخ الشوكاني: إنهم أصل الشر ومنشأ الفتن.

افتح له هاشتاج وابدأ، فيُمحى كل فضل، وكل خير وكل علم، وكل معروف ويُجهّل ويُرمى بالعظائم؛ لأنه خالفنا في هذه المسألة الفقهية أو خالفنا في الموقف من القضية الفلانية التي حصلت.

حصل موقف فهذا رفضه أو وافقه أو غير ذلك، يُنهَى تمامًا، هكذا نفعل بأنفسنا، ونسقط أهل العلم فينا، وما من أحد إلا ويخطئ، فهذا يسقط بهذه القضية، وهذا يسقط بهذه القضية، وهذا يسقط بهذه القضية.

ويجترئ كل أحد، ثم بعد ذلك يصير العالِم في حال من المهانة في نفوس الناس، بل قد يعاديه بعضهم لله وفي الله بزعمه، والسبب أنه أخطأ في هذه المسألة التي لا توجب شيئًا من ذلك.

غاية ما هنالك أنه اجتهد يا أخي، الرجل غير متبع للهوى، ثم ماذا؟ فللأسف ليس هناك ميزان ولا معيار توزن به الأمور ويوزن به الناس لدى كثيرٍ منا.

ثم دعك من الأسلوب والطريقة التي نتعامل بها طريقة قاسية، طريقة عنيفة، وعبارات مؤلمة وجارحة لا تصلح لأفجر الناس تقال لخيار الناس، أهل الفضل وأهل العلم وأهل الدين من لهم أيادٍ بيضاء وجهود ونصح للأمة يُتعامل معهم بهذه الطريقة لخطأ؟، لتقصير في نظرنا؟، هذا لا يجوز بحال من الأحوال.

بسم الله الرحمن الرحيم

الاختلاف وموقفنا منه

(٨) مواصلة الأسباب التي جعلت الأمة تختلف هذا الاختلاف المذموم

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فنواصل الحديث عن هذا الجانب من أسباب الاختلاف والتمزق والتفرق والتطاحن، وهو البغي.

هذا البغي قد يقودنا إليه ويوقعنا فيه بعضُ من نقتدي به من المتبوعين.

من أمثلة ذلك: في بغداد قديمًا كان رجل من أهل العلم يقال له: أبو جعفر الهاشمي في القرن الخامس الهجري، كان شديدًا على المبتدعة، وكما يقول الذهبي: كان منقطعًا إلى العبادة وخشونة العيش والصلابة في مذهبه، حتى أفضى ذلك إلى مسارعة العوام إلى إيذاء الناس، وإقامة الفتن، وسفك الدماء، وسب العلماء فحبس[(١)].

فهذا الاندفاع غير الموزون تجاه المخالفين قد يورث الفتن، قد يحصل شيء من البغي، ولذلك على الإنسان أن يتقي ربه -تبارك وتعالى.

وأن يحاسب نفسه على كل ما يقول وما يفعل، ولا يغتر بأن شيخه يسارع في مثل هذه الأمور، ويطلق لسانه فيمن اختلف معه، ويرميه بالعظائم، هذا لا يجوز.

وقد ذكر أيضًا ابن الجوزي -رحمه الله- واقعة مشابهة لبعض ما يجري من بعض طلاب العلم، أنه في سنة خمسٍ وخمسين وخمسمائة، يقول: مُنع المحدِّثون من قراءة الحديث في جامع القصر، ما السبب؟

يقول: إن صبيانًا من الجهلة قرءوا شيئًا من أخبار الصفات، ثم أتبعوا ذلك بذم المتأولين وكتبوا على جزء من تصانيف أبي نعيم اللعن له والسب، فبلغ ذلك أستاذ الدار، فمنعهم من القراءة[(٢)]. يعني هذا التصرف، لَعْن هذا العالم وكتابة ذلك على بعض كتبه، عبارات، يلعنون أبا نعيم صاحب الحلية، ويسبونه، فأدى ذلك إلى إيقاف قراءة الحديث بسبب هذا التصرف الذي هو من جملة البغي.

وشيخ الإسلام -رحمه الله- يذكر أن هذا الاختلاف الكثير الذي وقع وخولف فيه الأصل الكبير وهو الجماعة والمحافظة عليها، فأوقع الفرقة، والتقاتل، والتكفير والتلاعن والتباغض، وغير ذلك، يقول: هذا الباب أصله المحرم فيه من البغي، فإن الإنسان ظلوم جهول، **{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ}** [البقرة: ٢١٣].

هذا البغي قد يكون لمنافسة، لحسد بين أقران، قد يكون لحسد من غير الأقران، كون هذا الإنسان تميز، كون هذا الإنسان صار له ملكة في العلم، في الفقه، في الحديث، في غير ذلك، صار له أتباع وطلاب كثير، أو

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/٥٤٨).

(٢) انظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٨/١٣٨).

نحو هذا، فهو يحسده على أن يتابعه مثلاً هذا العدد في تويتر، هذا الأمر لا ينظر إليه من أراد الله والدار الآخرة؛ لأنه لا يلتفت إلى مثل هذه الأمور، بل يفرح إذا انتشر الخير على يده أو على يد غيره.

وهذا الإنسان الذي قد تُشن عليه الغارة يقول شيخ الإسلام: "قد يكون ذلك الخطأ الذي وقع فيه من باب التأويل والاجتهاد الذي يكون الإنسان فيه مستفرغًا وسعه، علمًا وعملاً" والله المستعان، والله –عز وجل– يقول: **{رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}** [البقرة: ٢٨٦].

يقول: "وإذا كان كذلك فينبغي أن يُعلم أن للقلوب قدرة في باب العلم والاعتقاد العلمي، وفي باب الإرادة والقصد، وفي الحركة البدنية أيضًا"[(١)].

يعني: يقول: الإنسان له طاقة عقلية، قدرات عقلية وقدرات علمية وقدرات بدنية، فما خرج عن طاقته وقدرته فهو معذور **{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا}** [الطلاق: ٧]، **{لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا}** [البقرة: ٢٣٣]، **{وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}** [الحج: ٧٨].

يقول: "فالخطأ والنسيان هو من باب العلم، يكون إما مع تعذر العلم عليه، أو تعسره عليه"، فمثل هذا كما قال الله –عز وجل–: **{يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}** [البقرة: ١٨٥] ، فلا يكلفه فوق ما يطيق.

وهكذا فيما يتعلق بالمدارك العقلية والإمكانات في الفهم والتحصيل، فقد لا يفهم ما فهمت، وقد لا يبلغ ذلك ولا يصل إليه، فهذا يكون معذورًا ولا يلام.

ولكن البغي هو الذي يحمل على الإساءة والظلم والتجني والعدوان، يقول: "ثم إنه من مسائل الخلاف ما يتضمن أن اعتقاد أحدهما يوجب عليه بغض الآخر ولعنه".

يقول: أحيانًا يظن أنه يلزمه شرعًا أن يبغض هذا المخالف، وأن يفسّقه أو أن يكفره، أو نحو ذلك، يتخذ منه موقفًا.

يقول: "وهذه حال البغاة المتأولين مع أهل العدل، سواء كان ذلك بين أهل اليد والقتال من الأمراء ونحوهم، أو بين أهل اللسان والعمل من العلماء والعبّاد ونحوهم، وبين من يجمع الأمرين، ولكن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي، لا لمجرد الاجتهاد"[(٢)].

هذه الاختلافات الموجودة بين المنتسبين إلى السنة اليوم، هي اختلافات من باب الاجتهاد، فما الذي حول ذلك إلى حروب طاحنة؟ هو البغي، وإلا فإنه لا يوجد ما يوجب ذلك، والله المستعان.

يقول: "وكل ما أوجب فتنة وفرقة فليس من الدين، سواء كان قولاً أو فعلاً، ولكن المصيب العادل عليه أن يصبر عن الفتنة، ويصبر على جهل الجهول وظلمه"[(٣)].

لأن المشكلة أيضًا –كما سيأتي– ردود الأفعال، فقد يتوهم الإنسان أنه وقع عليه ظلم، إساءة، تجنٍّ، فيحمله ذلك

---

(١) الاستقامة (٢٨/١).

(٢) المصدر السابق (٣١/١).

(٣) المصدر السابق (٣٧/١).

على ركوب الشطط -نسأل الله العافية- يعني: هذا الإنسان الذي لربما ينحرف ويضل، ويركب المراكب الصعبة، أحيانًا قد يكون منشأ هذا أنه يستشعر أنه وقع عليه ظلم، وهذا الظلم يوجب عليك الصبر، لا أن تركب طريقًا في الانحراف لتنتقم لنفسك، وتفعل ما يكون نكايةً بهذا الذي تعتقد أنه ظلمك، هذا لا يجوز، ومن أصعب الأشياء -أيها الأحبة- أن الإنسان لربما يقع عليه الأذى وهو على ضلال فلا ينبغي للإنسان أن يفتك بنفسه وأن يسيء إليها مثل الطفل الشقي الذي إذا أراد أن يُبدي سَخطه على أهله أو نحو ذلك ذهب وجلس في الشمس وفي الحر وفي الرطوبة، يعذّب نفسه ويؤذيها فيكون الأذى والانتقام واقعًا عليه، هو الذي يتأذّى، هو الذي يحصل له الألم، فيجلس على الأرض في وقت الحر، في وقت الظهيرة، في الشمس حافي القدمين ويُمرّغ ثيابه ويصر على هذا من باب العقوبة لهؤلاء الأهل الذين لم يعطوه، أو يشعر أنهم أساءوا إليه أو ظلموه.

الإنسان الكبير أحيانًا يفعل ما هو أكثر من هذا، يستشعر أنه وقع عليه جناية، ثم بعد ذلك يحمله ذلك على ركوب الضلالات والانحرافات -نسأل الله العافية- وهذا قد يقع كثيرًا، إن لم تُزمّ تصرفات الإنسان بالتقوى والصبر، وإرادة ما عند الله -عز وجل- فكفى به -نسأل الله العافية- أذىً أن يكون منحرفًا ضالا، وهذا أيضًا في التاريخ كثير، نزعة، انتقام تجعل هذا الإنسان يتجنّى ويحصل منه البغي على هؤلاء الذين يشعر أنهم أساءوا إليه، ولربما يتصرف تصرفات تذهب بدنياه وبآخرته، وإنما المؤمن هو الذي يضبط عمله وقوله بزِمام الشرع، فلا يتجاوز ذلك، ويكون على هدى.

البغض والكراهية أحيانًا يحمل الإنسان أيضًا على البغي والتجني على الناس، والله -عز وجل- يقول: **{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ}** يعني: عداوة وبغض **{قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}** [المائدة: ٨].

فنهى أن يحمل المؤمنين بغضُهم للكفار على ألا يعدلوا عليهم، فكيف إذا كان البغض لفاسق أو مبتدع متأول من أهل الإيمان؟ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله.

يقول: "فهو أولى أن يجب عليه ألا يحمله ذلك على أن لا يعدل على مؤمن، وإن كان ظالمًا له، فهذا موضع عظيم المنفعة في الدين والدنيا فإن الشيطان مُوكَل ببني آدم وهو يعرِض للجميع ولا يسلم أحد من مثل هذه الأمور، ودع ما سواها من نوع تقصير في مأمور أو فعل محظور باجتهاد أو غير اجتهاد وإن كان هو الحق.

ثم ذكر قول الله -عز وجل-: **{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ}** [غافر: ٥٥].

هذا هو الطريق، فأمره بالصبر، وأخبره أن وعد الله حق، وأمره أن يستغفر لذنبه.

يقول: "ولا تقع فتنة إلا من ترْك ما أمر الله به، فإنه سبحانه أمر بالحق وأمر بالصبر، فالفتنة إما من ترك الحق وإما من ترك الصبر، فالمظلوم المُحق الذي لا يقصر في علمه يؤمر بالصبر، فإذا لم يصبر فقد ترك المأمور، وإن كان مجتهدًا في معرفة الحق ولم يصبر فليس هذا بوجه الحق مطلقًا، ولكن هذا وجه حق فيما أصابه فينبغي أن يصبر عليه.

هذا كلام يكتب بماء الذهب.

يقول: "وإن كان مقصرًا في معرفة الحق فصارت ثلاثة ذنوب: أنه لم يجتهد في معرفة الحق، وأنه لم يصبه -

يعني ما أصاب الحق وما عرفه- وأنه لم يصبر، وقد يكون مصيبًا فيما عرفه من الحق فيما يتعلق بنفسه ولم يكن مصيبًا في معرفة حكم الله في غيره، فيحكم عليهم بأحكام ظالمة".

يقول: "وذلك بأن يكون قد عَلِم الحق في أصلٍ يُختلف فيه بسماع وخبر أو بقياس ونظر أو بمعرفة وبصر، ويظن مع ذلك أن ذلك الغير التارك للإقرار بذلك الحق عاصٍ أو فاسقٌ أو كافر، ولا يكون الأمر كذلك؛ لأن ذلك الغير يكون مجتهدًا قد استفرغ وسعه ولا يقدر على معرفة الأول لعدم المقتضى ووجود المانع، وأمور القلوب لها أسباب كثيرة"[(١)].

يعني: لست مأمورًا أن تنقّر عن هؤلاء، وأن تشتغل بهم هل عرفوا فعلاً الحق وحادوا عنه أو لم يحيدوا عنه، أو تركوه عمدًا أو لم يتركوه عمدًا، دع أمر هؤلاء إلى الله -تبارك وتعالى.

فمثل هذا مما يقع في الصدور من الغل، واستشعار الإساءة والظلم كثيرًا ما يحمل صاحبه على البغي بالقول والفعل.

وهذه قضية نحن بحاجة كبيرة إلى تأملها في مثل هذه الأوقات.

إياك أن تركب مركبًا من مراكب الضلالة بسبب أنك ناقم، إياك، اصبر والأجر على الله -عز وجل- لكن لا تؤذِ نفسك بركوب هذه المراكب الصعبة.

تُظلم ويحصل البغي والعدوان، شيخ الإسلام يقول: الإنسان قد يكون ظالمًا بالدعاء، يُظلم فيدعو على ظالمه بدعاء أعظم من المظلمة، فيكون ظالمًا بالدعاء، فكيف بما هو أكبر من الدعاء إذا حكم بكفره، أو سعى في إراقة دمه، أو نحو ذلك؟!.

شيخ الإسلام يقول: "إذا تأملت ما يقع من الاختلاف بين هذه الأمة علمائها، وعبادها، وأمرائها، ورؤسائها وجدت أكثره من هذا الضرب الذي هو البغي بتأويل أو بغير تأويل".

يقول: "فإن كل طائفة بغت على الأخرى فلم تعرف حقها الذي بأيديها ولم تكف عن العدوان عليها".

ثم بعد ذلك يصير هذا الباغي -نسأل الله العافية- كما قال شيخ الإسلام في موضعٍ آخر: "إن الجاهل في كلامه على الأشخاص، والطوائف، والمقالات بمنزلة الذباب الذي لا يقع إلا على العقير -يعني المكان المصاب- ولا يقع على الصحيح، يقول: "والعاقل يزن الأمور جميعًا هذا، وهذا"[(٢)].

تكون أحكامه موزونة، مواقفه موزونة، تصرفاته موزونة، سواء كان الناس يحسنون إليه أو يسيئون إليه، يستشعر أنهم ظلموه، غمطوه حقه أو لا.

فعليه أن يتقي الله -تبارك وتعالى-، وقد ذكر الإمام ابن عبد البر -رحمه الله- ما جاء عن مالك قال: "كان أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم يقول: إذا وجدت أهل المدينة مجتمعين على أمر فلا تشك أنه الحق"[(٣)].

---

(١) المصدر السابق (٣٩/١).

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية (١٥٠/٦).

(٣) انظر: جامع بيان العلم وفضله (١١١٣/٢)، رقم: (٢١٧٨).

ليس هذا هو الشاهد، الشاهد تعليق ابن عبد البر، إمام أهل المغرب والأندلس، بل إمام من أئمة أهل السنة، إمامان في وقت واحد توفيا في سنة واحدة، سنة أربعمائة وثلاث وستين، ابن عبد البر في المغرب والخطيب البغدادي في المشرق، صاحب تاريخ بغداد، يقول ابن عبد البر: "إذا وجدت أهل المدينة مجتمعين على أمرٍ فلا تشك أنه الحق.

يقول: فروايةُ هذا وشبهِه وكتابُه -يعني كتابته- أولى من رواية انطلاق الألسنة في أعراض أهل الديانة والفضل، ولكن أولوا الفهم قليل، والله المستعان"[1].

والله -تبارك وتعالى يقول: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}** [المائدة: ٨]، الكلمة التي قلتَها: الله خبير.

الخبير هو الذي يعلم بواطن وخفايا الأشياء، ما منطلق هذه الكلمة؟، قد تكون الكلمة في ظاهرها من قبيل المدح، ولكنه يقصد بها التنقيص والإساءة.

فيعلم -تبارك وتعالى- هذه المزاولات والتصرفات ما منشؤها، فنحن نتعامل مع من لا تخفى عليه خافية، ولا ينبغي لأحدٍ أن يؤذي نفسه، بل نرفُق بأنفسنا، فنحن الذين سنتحمل الحساب والتبعة والجزاء.

يقول ابن القيم: "إذا كان قد نهى عباده أن يحملهم بغضُهم لأعدائه على أن لا يعدلوا عليهم مع ظهور عداوتهم ومخالفتهم وتكذيبهم لله ورسوله، فكيف يسوغ لمن يدعي الإيمان أن يحمله بغضه لطائفة منتسبة إلى الرسول تصيب وتخطئ على أن لا يعدل فيهم، بل يجرد لهم العداوة وأنواع الأذى، ولعله لا يدري أنهم أولى بالله ورسوله وما جاء به منه علمًا وعملًا ودعوة إلى الله على بصيرة وصبرًا من قومهم على الأذى في الله وإقامة للحجة لله ومعذرة لمن خالفهم بالجهل، لا كمن نصب معالمه صادرة عن آراء الرجال فدعى إليها، وعاقب عليها وعادى من خالفها بالعصبية وحميّة الجاهلية"[2].

خامسا: من البغي: امتحان الناس بما لم يأمر به ربنا -تبارك وتعالى- وما أمر به رسولُه -صلى الله عليه وآله وسلم.

امتحان الناس بأمور ما أنزل الله بها من سلطان كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: "وكذلك التفريق بين الأمة وامتحانها بما لم يأمر الله به ولا رسوله مثل أن يقال للرجل: أنت شَكِيلي أو قَرَفندي؟"

يقول: "فإن هذه الأسماء باطلة ما أنزل الله بها من سلطان، وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ولا في الآثار المعروفة عن سلف الأمه لا شَكيلي ولا قَرفندي.

والواجب على المسلم إذا سُئل عن ذلك أن يقول: لا أنا شَكيلي ولا قَرفندي، بل أنا مسلم متّبع لكتاب الله وسنة رسوله".

---

(١) المصدر السابق.

(٢) بدائع الفوائد (٢/١٦٥- ١٦٦).

وذَكر عن معاوية -رضي الله عنه- أنه سأل ابن عباس -رضي الله عنهما- قال له: أنت على ملّة علي أو على ملّة عثمان؟

فقال: لست على ملّة علي، ولا على ملّة عثمان بل أنا على ملّة رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

وكذلك كان كلٌّ من السلف يقولون: كل هذه الأهواء في النار، ويقول أحدهم: ما أبالي أي النعمتين أعظم عليّ أن هداني للإسلام، أو أن جنبني هذه الأهواء.

والله تعالى قد سمانا في القرآن المسلمين، المؤمنين، عباد الله، فلا نعدل عن الأسماء التي سمانا الله بها إلى أسماء أحدثها قوم وسموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان، بل الأسماء التي قد يسوغ التسمي بها يعني: مثلًا الانتساب للمذاهب الفقهية ونحو ذلك كما ذَكر، أو الأمصار والبلدان ونحو هذا، فلا يجوز لأحد أن يمتحن الناس بها ولا يوالي بهذه الأسماء ولا يعادي عليها، بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أي طائفة كان".

ليست العبرة بالأسماء، نحن لا نقر غير الأسماء الشرعية، ولكن في الوقت نفسه نحن نتعامل مع الناس بحسب ما هم عليه من لزوم الكتاب والسنة والاستقامة على الصراط المستقيم، هذا هو المعيار، مع إنكار الأسماء غير الشرعية والانتساب إليها، يقول: "وأولياء الله الذين هم أولياؤه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون".

وذكر صفة هؤلاء المتقين **{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}** [البقرة: ١٧٧]. هذا هو المُعوَّل. يقول: "والتقوى هي فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى عنه، وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن حال أولياء الله وما صاروا به أولياء، كما في الصحيح عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: يقول الله تعالى: **((من عادى لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرّب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه...))**.[(١)] إلى آخر الحديث.

فكل من آمن بالله ورسوله واتقى الله فهو من أولياء الله، والله قد أوجب موالاة المؤمنين بعضهم لبعض، وأوجب عليهم معاداة الكافرين"[(٢)]. فلا يُمتحن الناس بغير هذا.

{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا} [المائدة: ٥٥]، والله يقول: **{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}** [الحجرات: ٩، ١٠].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع (١٠٥/٨)، رقم: (٦٥٠٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٤١٥/٣-٤١٦).

وهكذا الأحاديث التي أوردناها والنصوص في هذا الباب ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا)) [1]، هل نحن حققنا هذا وراعينا حقوق إخواننا المسلمين وإن حصل منهم ما حصل تجاهنا، وإن أساءوا إلينا، وإن ظلمونا؟، فنحن على الإخوة الإيمانية، فالله مع القتال يقول: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} [الحجرات: ١٠].

سادساً: مقابلة البدعة بالبدعة، والانحراف بالانحراف، والضلالة بالضلالة، والجناية بالجناية، والخطأ بالخطأ، وهي من ردود الأفعال.

وكما سبق: أهل البدع المرجئة والخوارج، والممثلة في الصفات والمعطلة هذه كلها ردود أفعال، وإذا نظرت إلى حال كثير من المخالفات لوجدت أنها من قبيل ردود الأفعال، ردود فعل عنيفة، هذا يبالغ في هذا الجانب، ويأتي آخرون، ويبالغون في الجانب المقابل تمامًا، وهذا خطأ، والإنسان عليه أن يلزم الحق، ولا يعتبر بمن ضل عنه وحاد، هذا أمر لابد من أن نعرفه، وأن نستحضره دائمًا، وتجد الناس في كثير من الأحيان على طرفين، وانظر في واقعك تجد من هذا شيئًا كثيرًا، تجد هذا فيما يتبناه الإنسان من الآراء، وتجد ذلك أيضًا فيما يقال عن الأشخاص، هذا يجعله في حال من التقديس والتنزيه والإطراء والثناء، ولربما رفعه فوق منزلته، والآخر يجعله شيطانًا رجيمًا.

ما هكذا يكون العاقل فضلًا عن المؤمن، فضلًا عن طالب العلم، هذا لا يسوغ بحال من الأحول، أحيانًا لربما تكون المبالغة في مدح إنسان من قِبل المحبين تحمل آخرين على الوقوف في الطرف الآخر.

سابعاً: الخوض في أمور قد حُجب عن الخلق الإحاطة بها.

الشوكاني -رحمه الله- في تفسيره فتح القدير، في الكلام على الروح يقول: "حكى بعض المحققين أن أقوال المختلفين في الروح بلغت إلى ثمانية عشر ومائة قول"[2].

والله -عز وجل- يقول: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} [الإسراء: ٨٥] إذًا هي قضية غيبية، مائة وثمانية عشر قولا على أي أساس؟

هم يتكلمون في أمر لا سبيل إلى الإحاطة به، وقد استأثر الله -تبارك وتعالى- بعلمه، فهذا من الاشتغال بما لا ينفع، الاشتغال بالفضول.

ثامناً: الأخذ بالشاذ:

بعض الناس قد يكون ذلك طبيعة له، يميل إلى الشذوذ في كل شيء، يعني: تجده في لباسه يميل إلى الأشياء الغريبة، القلم الذي معه غريب، السيارة غريبة، الأدوات غريبة، لون المنزل غريب، هي طبيعة، فآراء مثل هذا الإنسان تجدها شاذة وغريبة، الناس هنا وهو هناك.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً (١٢/٨)، رقم: (٦٠٢٦)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (١٩٩٩/٤)، رقم: (٢٥٨٥).

(٢) انظر: فتح القدير للشوكاني (٣٠٢/٣).

تجد بعض الناس –على سبيل المثال، ورأيت أنا من هذا– يثني على الحَجّاج، ويعظّم الحجاج، ويقول: الحجاج مظلوم، ويمدحه شعرًا ونثرًا، ما حاجتك إلى هذا؟ ما وجدت أحدًا تتبناه إلا الحجاج؟ أفضى إلى ربه، لا داعي لمثل هذا المدح والرجل معروفة مظالمه، وتجد هذا الرجل مولَع بالحجاج، إذا جلس في مجلس فاتحهم بذلك، وابتدأهم، وابتدرهم بالثناء عليه.

وترى بعض من يبدي إعجابه الشديد بمثل أبي العلاء المعري، الشاعر المعروف الذي رمي بالزندقة، تدافع عنه وتتبناه وتحبه وتعجب به، لماذا؟

هو يخالف الآخرين، ماذا يقول الناس؟ تجد هذا الإنسان بالطرف الآخر، وهذا مشاهد، أحيانًا إذا عرفت حال هذا الإنسان، وما عنده من الخلل في الميزان مباشرة تعرف رأيه قبل أن تسمعه.

حينما يرسل لك مقطعًا أو نحو ذلك لفلان ما تحتاج أن تسمعه، أنت ستعرف، الناس هنا، إذًا هو سيكون في الجهة الأخرى.

يأتي بالغرائب والعجائب، وهذا داء وعلة ومرض يحتاج الإنسان أن يتعالج منه، وقد لا يكون كذلك، قد تكون هذه جرأة عند الإنسان، أو قد يكون ذلك من باب حب المعرفة، والظهور والشهرة، خالف تذكر، فيأتي بفتاوى غريبة، فتاوى شاذة، كثيرًا ما يتبنى الأقوال التي لم يعهدها الناس، وما تبناها العلماء، وإنما يخالف هؤلاء جميعًا فيطير الناس بفتواه، وتبلغ الآفاق، وينشرها الناس، ويتحدثون عنها في المجالس، فتوى غريبة.

فمثل هذا قد يكون –نحن لا نعمم– الدافع أحيانًا هو طلب الشهرة، تعرفون خبر ذاك الذي بال في بئر زمزم، فلما سئل عن هذا، وأُخذ، قال: أردت أن أشتهر، أن يعرفه الناس، ولو بالبول ببئر زمزم.

فمن الناس من يكون بهذه الطريقة، بل بعض هؤلاء –نسأل الله العافية– لربما سب العلماء، الأئمة من المتقدمين والمتأخرين، فإن لم يجد بغيته لربما سب الصحابة، بل بعضهم لربما اجترأ على سب رب العالمين، ويضع ذلك في تغريدة، وهذا حصل.

فتجد هذا للأسف الشديد يبحث عن هذه الشهرة بكل طريق.

يقول ابن مهدي –رحمه الله–: "لا يكون إمامًا في العلم من أخذ بالشاذ من العلم، أو روى عن كل أحد، أو روى كل ما سمع"[1].

تاسعاً: التعصب:

التعصب للمذاهب، التعصب للطوائف، التعصب للمقالات، التعصب للأشخاص، كل ذلك، يقول شيخ الاسلام –رحمه الله–: "من نصّب شخصًا كائنًا من كان فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو **{مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا}** [الروم: ٣٢] ".

نصّب شخصًا كائنًا من كان، لا تقل: شيخي صاحب سنة، لا تتعصب، فإذا نصّبته وجعلته ميزانًا يقول شيخ الإسلام: فهذا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا.

---

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله (٢/٨٢٠)، رقم: (١٥٣٩).

يقول: "وإذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين، مثل اتباع الأئمة والمشايخ، فليس له أن يجعل قدوته وأصحابه هم المعيار، فيوالي من وافقهم ويعادي من خالفهم".

نحن نقع في هذا كثيرًا، نجعل هؤلاء هم المعيار، توافقهم إذًا أنت بمنزلةٍ ويكال لك المدح والثناء حثوًا، بل لا يكال، بل يقال حثوًا بلا كيلٍ ولا ميزانٍ.

وإن كنت تخالفهم في شيء فهنا يقال فيك كل عظيمة وتُكال لك التهم، والسباب والشتائم حثوًا، لا تكال، بل تُقال حثوًا بلا كيلٍ ولا ميزانٍ.

يقول شيخ الإسلام: "وليس لأحد أن يدعو إلى مقالة أو يعتقدها لكونها قول أصحابه، ولا يناجز عليها، بل لأجل أنها مما أمر الله به ورسوله، أو أخبر الله به ورسوله؛ لكون ذلك طاعة لله ورسوله"[1].

القضية أننا أحيانًا -كما سيأتي- لشدة تعصبنا قد نرد الحق؛ لأنه عُرفت به الطائفة الفلانية التي نكرهها، يا أخي هذا حق، لا ترد الحق، لكن التعصب يحمل الإنسان على هذا.

التعصب يحمل الإنسان أحيانًا على رد الآيات، أحد العلماء من المعاصرين توفي -رحمه الله- سمعت شريطًا له قبل أكثر من خمس وعشرين سنة، ما رأيته لكن سمعت ذاك الشريط الوحيد، وأحببته، صاحب توحيد، وصاحب سنة، أحسبه والله حسيبه، دروس في التوحيد، والعقيدة، يذكر مناظرة لبعض غلاة الصوفية من القبوريين، يقول: فأوردت عليه الآيات **{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}** [العنكبوت: ٦١]. إلى آخره .

قال: يا ابني، هذه آية وهّابية -نسأل الله العافية-، هو يسمع ترداد هذا من قِبل علماء يتهمهم بهذه التهم، فقال: هذه آية وهابية، إلى هذا الحد يرد القرآن، ولا يحب أن يسمع هذه الآيات في التوحيد، لبغضه لهؤلاء وتعصبه لباطله.

فمثل هذا -نسأل الله العافية- قد يقع في أمورٍ عظيمة قد تذهب بدينه.

ويقول شيخ الإسلام: "وهذا يبتلى به كثير من المنتسبين إلى طائفة معينة في العلم أو الدين أو إلى رئيس معظّم عندهم"[2].

كل واحد ينبغي أن يراجع نفسه، لا تذهب أذهاننا إلى زيد وعمرو، لا، نحن هل سلمنا من مثل هذه القضايا؟ هل عالجنا المشكلات؟.

نحن كما قلنا منذ البداية: ليس المقصود الكلام هنا -لا بالتصريح، ولا بالتعريض- على قوم، أو آخرين، وليس هذا من أخلاقنا وما عُهد لا في الدروس الخاصة، ولا في العامة، ولا في المجالس الخاصة، ولا في المجالس العامة، إذا تكلم أحد في أحد قلنا له: سبح، اشتغل بما ينفع، اذكر الله -عز وجل.

وإذا جاء بعض الشباب هنا يسأل عن الطائفة الفلانية، أو الطائفة الفلانية، أقول: ما عندك غير هذا؟ اشتغل بما

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/٨-٩).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/٨٦).

ينفع، اشتغل بذكر الله –عز وجل–، دع أهل العلم يختلفون، ويعرفون كيف يتفقون.

المقصود أن نعالج أنفسنا، أن نتبصر، عندنا نقص، وعندنا عيوب، وعندنا تقصير، لابد من المحاسبة والمراجعة، هل نحن متعصبون؟.

هل عندنا شيء من التعصب لشخص أو لطائفة أو نحو ذلك؟ قد تكون هذه التعصبات لنزعة، لميول معين، لاهتمامات معينة في أمور عملية أو علمية، تخصص علمي، أو تخصص عملي.

شيخ الإسلام –رحمه الله– يقول: "تجد كثيرًا من المتفقهة إذا رأى المتصوفة، أو المتعبّدة"، يعني: أصحاب التعبد دعنا من التصوف، يقصد الذين يهتمون بالعبادة، يقول: "لا يراهم شيئًا" هذا المهتم بالفقه.

يقول: "ولا يعدهم إلا جهالاً ضلالاً، ولا يعتقد في طريقهم من العلم، والهدى شيئًا، وترى كثيرًا من المتصوفة والمتفقرة –يعني الفقراء يقصد الصوفية– لا يرى الشريعة ولا العلم شيئًا".

يرى أن هؤلاء الذين يتفقهون يشتغلون بالعلم فيضيعون الأوقات والزمان، وكان ينبغي عليهم أن يُعنَوا بالعبادة البدنية، والخلوة وما إلى ذلك.

يقول شيخ الإسلام: "بل يرى أن المتمسك بها منقطع عن الله –يعني هذا الصوفي أو المشتغل بالعبادات البدنية يرى أن المشتغل بالعلم والتفقّه منقطع عن الله–، وأنه ليس عند أهلها –يعني أهل الفقه والعلم– مما ينفع عند الله شيئًا".

يقول: "وإنما الصواب أن ما جاء به الكتاب والسنة من هذا وهذا حق، وما خالف الكتاب والسنة من هذا وهذا باطل"[1].

قد يكون عندي أنا اهتمامات، القيام على الفقراء والأرامل والمساكين والأيتام والجوعى، هذا عمل صالح، آخر عنده اهتمامات بالعلم، أنا لا أحتقر عمل ذاك، وذاك لا يحتقر عملي.

أنا قد يكون الاهتمام عندي هو الجوانب الدعوية للشباب، أو نحو ذلك، وهذا الإنسان يهتم بجوانب أخرى من الدين.

لا يصح أن أحتقر عمله، ولا يصح أيضًا أن يحتقر عملي، فقد يتعصب كل طرف لعمله ولاهتمامه، أو تخصصه، أو نحو ذلك، فيقع في الذنب.

هكذا التعصب للمذاهب الفقهية، قديمًا كان الناس –ولا زالوا– يتعصبون لمذاهبهم، من كان من أتباع أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد –رحم الله الجميع.

واليوم قد يكون هذا التعصب لغير ذلك، يتعصب الإنسان لطائفة –أو نحو هذا– تنتسب إلى الدين، أو الدعوة، أو نحو ذلك، هذا لا يجوز، وإنما يكون الإنسان دائمًا مع الحق، كن مع الحق دائمًا، فالمصيب يعان، والمخطئ يسدد.

إذا لقيت الله –عز وجل– بهذا وبقلب سليم للمسلمين، ولزوم الكتاب والسنة والاعتصام بهما، فأبشر أنت على

---

(١) المصدر السابق (٩١/١).

الطريق.

ينبغي أن نتواصى أن نلقى الله بهذا، أن نلقى الله بهذا دون أي اعتبار آخر، هذا هو الطريق.

التعصب للمذاهب انظر كيف بلغ بأصحابه، نعطيكم نماذج من العبارات التي جُعلت قواعد عند هؤلاء المتعصبين.

هذا يقول: الأصل أن كل آية تخالف قول أصحابنا فإنها تحمل على النسخ، أو على الترجيح، والأولى أن تحمل على التأويل من جهة التوفيق.

آخر يقول: الأصل أن كل خبر يجيء بخلاف قول أصحابنا فإنه يحمل على النسخ، أو على أنه معارض بمثله، ثم صار إلى دليل آخر، أو ترجيح فيه، بما يحتج به الأصحاب من وجوه الترجيح، أو يحمل على التوفيق، وإنما يفعل ذلك على حساب قيام الدليل، فإن قامت دلالة النسخ يحمل عليه، وإن قامت الدلالة على غيره صرنا إليه[1]. ما شاء الله، هكذا يتعامل مع الأدلة.

آخر يقول: الأصل أن الحديث إذا ورد عن الصحابي مخالفًا لقول أصحابنا فإن كان لا يصح كُفينا مئونة جوابه، وإن كان صحيحًا في مورده فقد سبق ذكر أقسامه، إلا أن أحسن الوجوه وأبعدها عن الشُّبه أنه إذا ورد حديث الصحابي في غير موضع الإجماع أن يحمل على التأويل أو المعارضة بينه وبين صحابي مثله[2].

نصوص الكتاب والسنة، أقوال الصحابة، كل ما خالف المذهب عنده ينبغي أن يتعامل معه بتأويل، أو دعوى نسخ، أو غير ذلك.

هذا الإنسان الذي يقع عنده التعصب للأسف لا تكون أحكامه صائبة، ولا عادلة، ولا مسددة، بل يكيل بمكيالين، تجد أنه حينما يتحدث عن المذاهب، أو الآراء، أو الأشخاص، أو الكتب، أو غير ذلك، لربما يستنكر تصرفًا، أو سلوكًا، أو خطأً، أو قولًا، أو فتوى، أو نحو ذلك صدر ممن يختلف معه، أو لا يحبه، فأقام عليه الشناعة وجرّده من كل فضيلة، ثم بعد ذلك يقع تصرف شبيه -بل مثيل- في موقف آخر من بعض أصحابه، أو من يحبهم، أو يعظمهم، فتجد هذا يُحمل على أنه حسن نظر في الأمور، وبعد نظر، وتصرف صحيح ومسدد، فيذكَّر يقال له: نسيت كيف كنت تتصرف، وكيف كنت تقول حينما صدر التصرف نفسه ممن لا تحبهم؟!، هذا لا يجوز.

التعصب يجعلنا نقع في مثل هذه التعسفات، فلا نكون عادلين، ونبالغ -كما سبق- في مواقفنا تجاه المخالفين، كما يقول ابن عبد البر -رحمه الله- يصف بعض طلاب العلم في زمانه، يقول: "كلهم يتجاوز الحد في الذم، وعند كل واحد من الطائفتين خير كثير، وعلم كبير"[3]. لكن المشكلة التعصب.

وذكر الذهبي -رحمه الله- في ترجمة تقي الدين المقدسي -واسمه عبد الساتر بن عبد الحميد-، يقول: "قلّ من سمع منه؛ لأنه كان فيه زعارة، وكان فيه غلو في السنة، عُني بالسنة، وجمع فيها، وناظر الخصوم وكفرهم،

---

(١) الأصول لأبي الحسن الكرخي، ص: (١٦٩).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: جامع بيان العلم وفضله (١١٣٤/٢)، رقم: (٢٢٣٤).

وكان صاحب حزبية، وتحرق على الأشعرية، فرموه بالتجسيم، ثم كان منابذًا لأصحابه الحنابلة، وفيه شراسة في أخلاقه مع صلاح ودين يابس"[1].

يعني: هذه المواقف المتصلبة بهذه الطريقة التي يتجاوز فيها الإنسان الحد المشروع لا يُقَرُّ عليها، فتأتي الأحكام بسبب هذا التعصب ظالمة، جائرة.

انظر هذا المثال العجيب الذي ذكره الشوكاني -رحمه الله- يذكر أنه أدرك في أول زمان الطلب شيخًا يشتغل بالفقه يقال له صالح النَّهمي.

يقول: قد اشتهر في الناس بالعلم والزهد، وطلبَ علومَ الاجتهاد طلبًا قويًّا، فأدركها إدراكًا جيدًا، فرفع يديه في بعض الصلوات -يعني: في التكبير-، ورآه يفعل ذلك بعض المدرسين في علم الفقه.

فماذا قال هذا المدرس؟ قال: اليوم ارتد الفقيه صالح[2]. من أجل ماذا ارتد؟ لأنه رفع يديه في التكبير، نسأل الله العافية.

ابن العربي ذكر مثالاً آخر وقع أمامه مع أبي بكر الطرطوشي -رحمه الله- وهذا من العلماء المشاهير، وذلك أنه جاء إلى المسجد الجامع في صلاة الظهر، وجعل يتنفل، يصلي، ويرفع يديه عند الركوع.

يعني: ليس فقط في تكبيرة الإحرام، بل عند الركوع، وعند الرفع من الركوع، يقول ابن العربي: وهو مذهب مالك والشافعي، يقول: فحضر عندي يومًا، يعني: كان يفعل هذا الطرطوشي، وشاهده رجل يعتبر في ذلك الوقت قائد البحرية في تلك الناحية في الأندلس، ومعه بعض الأعوان، فرأوا هذا العالم وما يعرفونه، أعني أبا بكر الطرطوشي.

يقول: فلما نظروا إليه، ورفع يديه في الصلاة، قالوا: ألا ترون إلى هذا المشرقي، كيف دخل إلى مسجدنا؟ -المشرقي من المشرق، الذين يرفعون يدهم عند الركوع، وعند الرفع منه-، قوموا إليه فاقتلوه، هذا قائد البحرية، قوموا إليه فاقتلوه، وارموا به في البحر، فلا يراكم أحد، يُقتل ويرمى في البحر، الإمام الطرطوشي رجل معروف في نصر السنة، وقمع البدعة ومحاربتها، وأقواله في هذا مشهورة وكلامه.

يقول أبو بكر بن العربي: فطار قلبي من بين جوانحي، وقلت: سبحان الله! هذا الطرطوشي فقيه الوقت، فقالوا لي: ولم يرفع يديه؟.

فقلت: كذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يفعل، وهو مذهب مالك في رواية أهل المدينة عنه.

وجعلت أسكنهم وأسكتهم حتى فرغ من صلاته[3]. يريدون قتله وهو يصلي ويُرمى في البحر.

المسجد كان على البحر يقول ابن العربي: كنت في الظهيرة في شدة الحر أستنشق النسيم، يعني: عند النافذة، نافذة المسجد، وهؤلاء جلوس، فلما رأوه قالوا ما قالوا، فيريدون أن يلقوه في البحر، ويتخلصوا منه.

---

(١) سير أعلام النبلاء (المقدمة/١٣٤).

(٢) انظر: أدب الطلب ومنتهى الأدب للشوكاني (ص: ٨٥).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٣٧٠/٤).

فهؤلاء إذا رأوا من يخالفهم وهم في حال من التعصب اجترءوا على القتل أو على الحكم بردته كما سبق من قول ذلك المدرس.

وكما يقول الشوكاني أيضًا بذكر هذه الجهالات، وما يحصل من هؤلاء من المعاداة، يقول: "أعظم من معاداة اليهود والنصارى، وظنوا أنه على شريعة أخرى، وعلى دين غير دين الإسلام، وأوقعوا في أذهان العوام أنه ناصبي، يقول: فانظر هذا الصنيع الشنيع الذي هو شبيه بلعب الصبيان"[(١)].

وشيخ الإسلام –رحمه الله– يتكلم عن العمل، وما يصدر من الإنسان يقول: "فصاحبه إما معتدٍ ظالم، وإما سفيه عابث، وما أكثر ما يصور ذلك الشيطانُ بصورة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، ويكون من باب الظلم والعدوان"[(٢)]. هو عند نفسه أنه ما شاء الله ينصر الدين، والواقع أنه ظالم ومعتدٍ.

وهكذا لربما يُلصق بهذا من باب التعصب تهمٌ هو برئ منها، يعني: قد لا يتورع هذا المتعصب من الكذب على هذا الذي خالفه.

الذهبي –رحمه الله – ذكر عن شيخ القرّاء محمد بن عتيق القيرواني، يقول: كان يتعصب لمذهب الأشعري، ووقعت بينه وبين الحنابلة فتن، يقول: "قال ابن ناصر وجماعة: كان أصحاب القيرواني يشهدون عليه أنه لا يُصلي" يعني هو يريد أن يُدين هذا بقول أصحابه.

يقول: "كانوا يشهدون عليه أنه لا يصلي، ولا يغتسل من الجنابة في أكثر أحواله، ويُرمى بالفسق مع المُرد، واشتهر بذلك".

كيف هذا؟ يقول الذهبي: "قلت: هذا كلامٌ بهوى"[(٣)]. يعني: هذا رجل من القراء وإن كان قد انحرف في باب الاعتقاد، لكن هذا لا يعني أن يظلم، وأن يرمى بمثل هذه الأمور.

رجل لا يصلي، ولا يغتسل من الجنابة، ويتهم بالفواحش لأننا اختلفنا معه؟!.

وذكر ابن كثير –رحمه الله– أشياء أيضًا من هذا القبيل، وذكر سببًا لهذا البغي أو أحد أسباب هذا البغي وهو التنافس على الدنيا، وأن هذا البغي هو من أعظم أسباب التفرق والاختلاف، وهو سبب لذهاب الريح، وتسلط الأعداء.

وهذا –للأسف كما قلت– قد يورث رد الحق الذي يكون مع المخالف كما ذكر شيخ الإسلام –رحمه الله– أمثلة من ذلك.

يقول: الفلاسفة أحيانًا يقولون بعض الأشياء الصحيحة فيردها خصومهم؛ لأن الفلاسفة قالوها، وهي حق، فيبالغون في ردّها، ولا يصدقون بها، وهكذا أيضًا مع غير الفلاسفة.

بل ذكر شيخ الإسلام أشياء غريبة وعجيبة، ذكر أن بعض الجهال إذا سمع الرافضة يسبون ويشتمون أبا بكر

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأدب، للشوكاني (ص: ٨٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٤٨٢/١٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤١٨/١٩).

وعمر اشتغل بشتم علي -رضي الله عنه-، وأن بعض الجهال من المسلمين إذا كان في الصف -يعني صف القتال-، وسمع النصارى يشتمون النبي -صلى الله عليه وسلم- شرع في شتم عيسى -عليه الصلاة والسلام-، نسأل الله العافية، والإنسان يقبل الحق ويقر به ولا يقع في شيء من الباطل.

يقول: كما قد يصير بعض جهال المتسننة في إعراضه عن بعض فضائل عليٍّ وأهل البيت إذا رأى أهل البدعة يغلون فيها، بل بعض المسلمين يصير في الإعراض عن فضائل موسى وعيسى بسبب اليهود والنصارى، وذكر شتم المسيح -عليه الصلاة والسلام- من قِبل بعض الجهال[1].

وذكر خبر أبي هريرة مع الشيطان، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((صدقك وهو كذوب))[2]، وهو شيطان.

وهكذا في قوله عن ملكة سبأ: **{إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً}** قال الله: **{وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}**.[النمل: ٣٤] فقال ذلك تصديقًا لقولها، طبعًا هذا على القول بأن هذا من الموصول لفظًا المفصول معنى.

وذكرنا لكم عبارة ابن مسعود -رضي الله عنه- لما قال له رجل: أوصني، فكان مما ذكر: ومن أتاك بحق فاقبل منه وإن كان بعيدًا بغيضًا[3].

ومن هنا لا يصح بحال من الأحوال أن نرد الحق لأنه جاء على يد من نكرهه ونبغضه، والمعلمي -رحمه الله- في كتابه التنكيل الذي أفرد جزءا منه بعنوان: "القائد إلى تصحيح العقائد" -هذا عنوان داخل الكتاب لكن أفرد بالطباعة- ذكر أمورًا دقيقة جميلة مهمة مفيدة في سبب رد الحق، من ضمن هذه الأشياء أنه يأتي على يد من يبغضه، أو يشنؤه أو يخالفه، وذكر كيف رد هؤلاء الكفار دعوة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- منهم من فعل ذلك احتقارًا له، ومنهم من فعل ذلك حسدًا، ومنهم من فعل ذلك لئلا يقال بأنه كان على باطل هذا العمر المديد، أو أن طائفته على باطل، وذكر جملة من الأمور يمكن أن تراجع[4].

والمشكلة أن مثل هذا التعصب والمواقف الحادة تجعل الطرف الآخر أحيانًا يتترس في باطله، ويغوص في ضلالته، كانت البداية لربما محدودة، هو ربما يقول: أنا أخطأت، أنا ما قلت هذا الكلام، أعوذ بالله، أنا ما يصدر مني هذا، والمفروض أن نقول: كثر الله خيرك، هذا هو الظن بك، جزاك الله خيرًا، مثلك ما يقول هذا، أحيانًا لا، عندنا الشاهد، ونجلس له ونأخذ بالحنك، فلا يبقى له مجال، ولربما نشن الغارة عليه، ثم بعد ذلك هذا الإنسان الذي كان الخطأ منه في البداية بسيطًا لربما يرتمي بأحضان الشياطين، فيتلقفونه، تتلقفه شياطين الإنس والجن.

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/٢٥- ٢٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٤/١٢٣)، رقم: (٣٢٧٥).

(٣) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٤/١٨٦).

(٤) انظر: القائد إلى تصحيح العقائد (ص: ١٣)

بعض هؤلاء الذين لربما يشككون في أصول الإسلام، وفي ثوابته، ويطعنون فيها، ويمعنون في هذا الطعن لربما كانت القضية هي بعض الخطأ، أو بعض الانحراف، ثم واجهوا حملة شرسة، فجعلتهم يضلون.

وهذا الضلال مركب، مثل هذا المركب المطاطي الذي تراه في البحر في البداية قريبًا منك، ثم بعد ذلك ما يلبث أن يبتعد شيئًا فشيئًا، ثم يبتعد حتى لا تراه، يذهب بعيدًا.

فنحتاج إلى أننا نحاول أن نحتوي هذا الإنسان، أن نرده إلى الحق بأقرب الطريق، لا نكون سببًا في ضلاله وغوايته وبعده وانحرافه بسبب مواقفنا الصارمة تجاهه.

كما يقول بعض أهل العلم: إن أكثر الجهالة إنما رسخت في قلوب العوام بتعصب جماعة من جهال أهل الحق، أظهروا الحق في معرض التحدي والإدلاء، ونظروا إلى ضعفاء الخصوم بعين التحقير والازدراء، فثارت من بواطنهم دواعي المعاندة والمخالفة، ورسخت في قلوبهم الاعتقادات الباطلة، وتعذر على العلماء المتلطفين محو ذلك، مع ظهورها وفسادها[1]. يعني: هذه الانحرافات.

ويذكر هذا أيضًا أنه إذا اشتد تعصبهم وقع اليأس منهم، فالتعصب سببٌ يرسِّخ العقائد في النفوس، وهو من آفات علماء السوء، فإنهم يبالغون في التعصب للحق، وينظرون للمخالفين بعين الازدراء والاحتقار.

ثم يذكر ما يؤثّره ذلك، وينتجه يقول: تتوفر بواعثهم بعد ذلك على طلب نصرة الباطل، ويَقْوى غرضهم في التمسك بما نُسبوا إليه، ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة لا في معرض التعصب والتحقير لنجحوا في ذلك.

يقول: هؤلاء لربما –يعني الذين تكون عندهم مثل هذه الغلظة والصرامة– يعتبرون ذلك من قبيل الذبِّ عن الدين والنضال عن المسلمين، والواقع أن هذا يكون فيه هلاك الخلق، ورسوخ البدعة في النفوس.

إذًا نحن إذا أخطأ إنسان، إذا انحرف إنسان نحاول أن نحتويه، أن نرده إلى الحق، أن نتلطف بتفهيمه وتعليمه، أن نتحاور معه لا أن نتسلط عليه وكأننا ظفرنا بظفر، فرصة الآن عندنا شخص جديد أخطأ، شخص جديد أصدر قولًا أو رأيًا خالفنا فيه، افتح له "هاشتاج" وتعال.

هذا ما يصح، ليست الأمور بهذه الطريقة، لا تكون المعالجة بهذا الأسلوب، وإنما يكون ذلك بطرق حكيمة، يُراعَى فيها أمورٌ يكون من شأنها استجلاب هؤلاء للحق ورد هؤلاء للحق.

وقد نوقش بعض هؤلاء الذين –نسأل الله العافية– ركبوا مراكب صعبة وصاروا يشككون في أصول الدين ويثيرون الشبهات، ويحكي لي أحد المشايخ أنه كتب لأحدهم نصيحة تلطّف بها، فقال: لو أن هذه النصيحة جاءتني في البداية، أو لو أني عوملت من البداية بمثل هذا لما وصلت إلى هذه الحال، ثم ذكر له أنه محتفظ بعبارات قيلت له، يقول: فأرسل مجموعة من العبارات التي رُشق بها في أول مخالفته –نسأل الله العافية–، طبعًا هو لا يجوز له هذا، كما قلنا: الإنسان لا يركب المراكب الصعبة بسبب جناية الآخرين عليه في زعمه أو ظنه أو توهمه، لكن نحن أيضًا لا نعين الشيطان على هذا، والله المستعان.

---

(١) الموافقات (٥/٢٨٩).

وشيخ الإسلام يذكر أن من أسباب انتقاص بعض المبتدعة للسلف، يقول: ما حصل في المنتسبين إليهم -يعني إلى السلف- من نوع تقصير وعدوان، وما كان من بعضهم من أمور اجتهادية الصواب في خلافها، فإن ما حصل من ذلك صار فتنة للمخالف لهم ضل به ضلالًا كبيرًا[1].

وهكذا، أحيانًا تكون طريقة المناقشة، أحيانًا المناظرة أمام الآخرين، أحيانًا في القناة الفضائية، أحيانًا في كذا، تحمل هذا الإنسان -كما يقول بعض أهل العلم- أن يأتي بالمتردية والنطيحة -يعني من الدلائل- من أجل أن يتشبث بباطله، وأن يخرج في النتيجة منتصرًا، فإن لم يستطع أن يورد من الدلائل والحجج فإنه يستعيض عن ذلك برفع الصوت، مع تحريك اليد، فإن لم يجدِ هذا فإنه يستعيض بالسباب والشتائم، بل قد يصل الأمر إلي مد الأيدي، ولربما رأينا في بعض المقاطع في قنوات ونحو ذلك بعض من يتحاورون يشتبكون بالأيدي في حال مزرية يخجل منها العاقل وهو يشاهد.

والعلماء -رحمهم الله- ذكروا بعض المناظرات قديمًا، كما ذكر ابن قدامة -رحمه الله- يقول: يصل الأمر إلى القذف، يتناظرون في المسجد في مسائل علمية أو فقهية، يصل الأمر إلى قذف العرض، يقول: ولربما مد يده فجذب لحيته، إذا أعيته الحجج يلجأ إلى السباب والشتائم، فإن أعياه ذلك مد يده، المهم أن ينتصر، وأن يخرج غالبًا، نسأل الله العافية.

العلم يفترض أن يكون رحمًا بين أهله، كما يقول الشافعي: رحم متصل، يقول: لا أدري كيف يتحول ذلك إلى عداوات قاطعة بين أهل العلم؟!.

فيتحول هذا التعصب إلي نوع من التحزب، كما يقول شيخ الإسلام: "أمّا رأس الحزب فإنه رأس الطائفة التي تتحزب -أي تصير حزبًا-، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به"[2]، إلى آخره.

يعني تتحول القضية إلى مناصرة، وكل شخص يقوي الآخر، ويؤازره وينابذ الآخرين، وهذا لا يصح ولا يسوغ بحالٍ من الأحوال.

والمشكلة حينما ينشأ جيل في بيئة كهذه، جيل ينشأ في بيئة متعصبة، بيئة يكثر فيها مثل هذا التراشق، والتحزّب، والعصبيات.

الذهبي -رحمه الله- يذكر نموذجًا من هذا يصف زمن معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- وحب الناس له، ومغالاة هؤلاء في تفضيله، يقول: لِمَا رأوا من إحسانه ولنشأتهم في الشام على حبه، فنشأ أولادهم على ذلك، كما أنه في الطرف الآخر في العراق نشأ جيل على حب علي -رضي الله عنه- كوّن منهم جيشه، وكانوا يبغضون من بغى عليه ويتبرءون منهم، وغلا خلق منهم في التشيّع.

ويختم الذهبي هذا بقوله: فبالله كيف يكون حال من نشأ في إقليم لا يكاد يشاهد فيه إلا غاليًا في الحب، مفرطًا في البغض؟، ومن أين يقع له الإنصاف والاعتدال؟.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥٥/٤).

(٢) المصدر السابق (٩٢/١١).

فنحمد الله على العافية، أنْ أوجدنا في زمان قد انمحص فيه الحق واتضح من الطرفين، وعرفنا مآخذ كل واحد من الطائفتين وتبصرنا"[1]، إلى آخره.

يعني: هذا فيما سبق، ولكن في زماننا وفي كل زمان يقع مثل هذا، وينشأ جيل ولا يشاهد إلا هذا الانقسام والتعصب ويتقمص ذلك ويتلقف هذه الأمور، ثم بعد ذلك يكون نبتًا جديدًا يواصل هذه المسيرة الظالمة.

فهذا ينبغي للعاقل أن يتجرّد منه وأن يفكر وأن ينظر فيما يُقدم عليه، والطبع لص، الطبع سرّاق، فإذا استرسل الإنسان مع أهل زمانه فإنه يتأثر بذلك ولابد.

وقد يكون الباعث على هذا التعصّب والتجني بهذه الطريقة -كما سبق- أمورًا أخرى وهو السبب العاشر الذي سنتحدث عنه -إن شاء الله تعالى- في الليلة الآتية، نحن سنواصل الحديث -إن شاء الله - في الأيام والليالي الآتية حتى نأتي على هذا الموضوع، بقيت فيه بقايا، والحديث ذو شجون، وأسأل الله -عز وجل- أن ينفعنا وإياكم بذلك.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٢٨/٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

الاختلاف وموقفنا منه

(٩) مواصلة الأسباب التي جعلت الأمة تختلف هذا الاختلاف المذموم

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

مرحبًا بكم جميعًا، وأسأل الله –تبارك وتعالى– أن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته.

نواصل الحديث في هذه الليلة على الأسباب التي أودت إلى التفرق والاختلاف، وقد ذكرنا من جملة هذه الأسباب: البغي والتعصب.

وأشرتُ هناك إلى أن الحسد ربما يكون من أسباب البغي أو التعصب.

من أسباب الاختلاف: الحسد:

ولذلك فإن العاشر من أسباب الاختلاف هو: الحسد، فقد يُظهر المخالفةَ والمباينة من يكون دافعه وباعثه إلى هذه المخالفة هو الحسد.

إذا كانت دعوة الرسل –عليهم الصلاة والسلام– قد ردها أقوام بسبب الحسد، وهكذا نجد في التاريخ الممتد أقوامًا قد خالفوا بباعثِ ودافع الحسد.

ولهذا أشار بعض أهل العلم إلى أن الواحد من هؤلاء لربما يزعم أن غرضه إصلاح الخلق، يقول: وفي المقابل لو أنه ظهر من أقرانه من أقبل عليه الخلق وحصل الصلاح على يديه لمات غمًّا وحسدًا.

يقول: ولو أثنى أحد من المترددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه[1].

ولذلك ذكروا في المعيار بما يتصل بالتجرّد: أن المخلص المتجرد لا يبالي إذا كان الصلاح والإصلاح يجري على يديه أو على يد غيره، وأنه إذا جاء غيره من المصلحين، فأقبل الناس بوجوههم إليه، فإنه يفرح بذلك، ويسعد؛ لأن الخير ينتشر، بخلاف غير المخلص فإنه يتخذ ذلك خصمًا وعدوًّا، ومن ثَمّ فهو يبحث عن أخطائه وزلاته، ويفرح بمن جاء يبشره بشيء من هذه الأخطاء أو الزلات.

ولربما يكون ذلك ظاهرًا وكثيرًا حينما تكون المخالفة مع أقوامٍ نتفق معهم، ليس بيننا وبينهم اختلاف، وإذا نظرت فيما يذكره هذا المتحدث الذي يظهر المخالفة فإنك لا تجد شيئًا، اللهم إلا إن كان المخالف لا يحمل عقلًا يسعفه، فهو يعد الأوهام، والزلات اليسيرة مما يوجب المباينة والمفاصلة والمخالفة.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– أن هذا الحسد يقع كثيرًا بين المتشاركين في رئاسة، أو مال، إذا أخذ بعضهم قسطًا من ذلك، وفات الآخر.

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/٣٩٦).

وهكذا أيضًا بين المنتسبين للعلم أو الدعوة.

يقول: ويكون بين النظراء لكراهة أحدهما أن يُفضَّل الآخر عليه كحسد إخوة يوسف، وكحسد ابني آدم أحدهما لأخيه، فإنه حسده لكون أن الله تقبل قربانه، ولم يُتقبل قربان الآخر، فحسده على هذا التفضيل، وكحسد اليهود للمسلمين[1].

وهكذا في أمثلة كثيرة، ولهذا قيل: إن أول ذنب عُصي الله -تبارك وتعالى- به ثلاثة: الحرص: وهذا ذنب آدم -عليه السلام-، والكبر: وهذا ذنب إبليس، والحسد: وهذا ذنب ابن آدم الذي قتل أخاه.

ولربما امتنع الرجل -كما أشرنا، وكما ذكر الحافظ ابن القيم رحمه الله- من الدخول في دين الإسلام حسدًا[2]، إما حسدًا للداعي، وهو النبي -صلى الله عليه وسلم- أو حسدًا للأتباع كون هؤلاء تقدّموا عليه وسبقوه، وهم من الأعبُد في نظره، فيرى هذا الشريف العظيم في قومه أنه جاء متأخرًا، وأن هؤلاء سيكون لهم السبق والتفضيل وقد نالوا من العلم والعمل ما لم ينله، فيترك دين الله -تبارك وتعالى- حسدًا؛ لئلا يكون مسبوقًا يُفضَّل عليه من كان دونه في جاهليته.

والله -تبارك وتعالى- جعل بعض الخلق فتنة لبعض **{وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ}** [الفرقان: ٢٠] الكبراء ومن دونهم، هؤلاء يفتنون بهؤلاء، وهؤلاء يفتنون بهؤلاء، الأغنياء والفقراء، العلماء والعامة، هؤلاء يُمتحنون بهؤلاء ويفتنون بهم، وهؤلاء يفتنون بهؤلاء **{أَتَصْبِرُونَ}** يعني: أتصبرون على البلاء؟، جعل الله ذلك امتحانًا، فهو يختبر صبر العباد، وهذا الفَتْنُ هو كِير القلوب، هذا الامتحان هو الذي يحصل به التمييز وينقسم الناس بين صادقٍ وكاذب.

في التاريخ أمثلة مؤلمة وجِراح وقعت لأقوامٍ نحسبهم من الأخيار الأبرار إنما حلّ بهم ما حلّ من البلاء بسبب الحسد من قومٍ موافقين.

الإمام البخاري ما تقولون به؟، لازال كتابه عند المسلمين وسيبقى أصح كتاب بعد كتاب الله -تبارك وتعالى-، ومَن مِن المسلمين لا يعرف البخاري؟.

ولكن أحد العلماء المعاصرين للبخاري، ممن كان يعظم البخاري ويحبه ويبشر تلامذته بقدوم الإمام البخاري إلى بلده، -ولا حاجة لذكر الأسماء لأن هذا من أهل السنة-، فلمّا قَدِم البخاري انجفل الطلاب والتلاميذ على الإمام البخاري، وذاك الذي كان يطريه ويزكيه ويُثني عليه ويَعِد بقدومه لما رأى ذلك وقع في قلبه ما وقع، وحصل بسبب ذلك فتنة في مسألة طُرحت فأدى ذلك إلى شناعة وبلاء حل بالبخاري -رحمه الله- حتى جاءه أحد أصحابه وقال: يا أبا عبد الله، هذا رجل مقبول بخرسان خصوصًا في هذه المدينة قد لَجّ في هذا الحديث -يعني: تصدى لهذه الفتنة- حتى لا يقدر أحد منا أن يكلمه فيه، فما ترى؟ فقبض على لحيته -يعني الإمام البخاري- ثم قال: **{وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}** [غافر: ٤٤]، اللهم إنك تعلم أني لم أرد

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٢٦).

(٢) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (٢/٣٧١).

المقام بنيسابور أشرًا ولا بطرًا –هذه نيسابور التي كان فيها وحصل فيها ما حصل– ولا طلبًا للرئاسة وإنما أبت عليّ نفسي في الرجوع إلى وطني لغلبة المخالفين.

البخاري ما يستطيع أن يذهب إلى موطنه الأصلي، وقد نصحه الإمام أحمد –رحمه الله– ألا يسافر، فأبت عليه نفسه أن يذهب إلى وطنه لغلبة المخالفين، يعني هناك أعداء للبخاري، هناك من يخالفه في الاعتقاد من الجهمية ونحوهم، فذهب إلى نيسابور عند عالم من علماء أهل السنة ولكنه ابتلي.

يقول: وقد قصدني هذا الرجل حسدًا لما آتاني الله لا غير، هو يشكو إلى الله الآن، يقول: اللهم إنك تعلم، يقول: حسدني هذا الرجل لما آتاني الله لا غير، ثم قال لهذا الرجل –واسمه أحمد–: يا أحمد، إني خارج غدًا لتتخلصوا من حديثه لأجلي، حتى تستريحوا، سأخرج[1].

الإمام البخاري خرج –رحمه الله– ومات في غربة وفي سفر، ما توفي في مدينة، ولا توفي في مستشفى.

وكان حينما يأتون إليه ويقولون: يقولون كذا، ويقولون كذا يعني من الكيد، كان لا يرد إلا بآيات من القرآن **{وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}** [فاطر: ٤٣]، **{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}** [الطلاق: ٣].

هذا الإمام البخاري بذلك الزمان، القرن الثالث الهجري، فلا تستغرب أن تجد من الاختلاف والتفرّق والشر في زماننا هذا قرب قيام الساعة.

والنبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: **((دب إليكم داء الأمم، الحسد، والبغضاء وهي الحالقة))** [2] رأيتم كيف تحلق الدين، إذا اختلف هؤلاء ماذا يصنع بهم هذا الاختلاف!.

فالنبي –صلى الله عليه وسلم– سماه داء، هذا الاختلاف قد يكون بسبب طلب الرئاسة والتقديم على الناس والشهرة، وهذا قرينٌ للحسد، فإنما يقع الحسد عند من لم تزكُ نفسه وتتطهر، كل إنسان لا يخلو، كما قال شيخ الإسلام –رحمه الله–: "ما خلا جسدٌ من حسد ولكن الكريم يخفيه –يعني لا تظهر آثاره، يمسك لسانه وجوارحه– ، واللئيم يبديه"[3].

لكن هذا الظهور أو هذا الإبداء قد يكون بلبوسٍ آخر، بلبوس الغيرة على الدين، بلبوس الرد والمصارمة للمخالف، والواقع أنه يتفق معه على لزوم الكتاب والسنة واتباع السلف الصالح –رضي الله عنهم– لكن اختلفنا في اجتهادات، فيحملنا أحيانًا الحسد أو طلب الرئاسة والشهرة والأتباع على المصارمة فنعارك، ونُظهر المخالفة على ما لا يوجب المخالفة، وهنا لربما يتحرك الإنسان من منطلق الحمية لنفسه، والدفاع عن جاهه ورياسته.

فهؤلاء كما قال شيخ الإسلام: "لا يقصدون أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين كله لله، بل يغضبون على من خالفهم، وإن كان مجتهدًا معذورًا لا يغضب الله عليه، ويرضون عمن يوافقهم، وإن كان جاهلًا سيئ القصد ليس له علم ولا حسن قصد، فيفضي هذا إلى أن يحمدوا من لم يحمده الله ورسوله، ويذموا من لم يذمه

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤٥٩/١٢).

(٢) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– (٦٦٤/٤)، رقم: (٢٥١٠)، وأحمد (٢٩/٣)، رقم: (١٤١٢).

(٣) أمراض القلوب وشفاؤها (ص: ٢١)، ومجموع الفتاوى (١٢٥/١٠).

الله ورسوله، وتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله -صلى الله عليه وآله وسلم"[1].

وإن كان هذا بلبوس الدين، ولذلك كما ذكر أهل العلم حتى في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أن الرجل قد لا يقوم قيامه لله فيخذل ويُسلَّط عليه من يؤذيه، ويذكر شيخ الإسلام أن بعض هؤلاء لربما أُعطي من الدنيا، فيتحول إلى نصير ومعين لذاك الذي كان ينكر عليه ويذكره بمثالبه ومعايبه، ولربما كان له شيء من الطمع عند هذا أو ذاك ممن يذكره ويعيبه في المجالس، وفي وسائل التواصل وما إلى ذلك، فإذا كانت له الحاجة فإنه لربما يواجهه أو يكاتبه ويخاطبه بأنواع الإطراء والثناء والمدح، وذكر المناقب، وما إلى ذلك، وأين الكلام الذي كنت تقوله؟، أليس هذا من النفاق؟.

إنما يكون قيام الإنسان لله، وفي الله، وينظر ما الذي يوجب الاختلاف، وما الذي لا يوجبه، وما الذي يوجب الرد وما الذي لا يوجبه، ومتى يحسُن الكلام ومتى لا يحسن، متى يحسن السكوت، متى يحسن غض الطرف، متى يحسُن تأليف القلوب؟.

ينظر الإنسان في نيته، ينظر في واقعه، ينظر في حال أمته، انظر إلى أحوال البلاد الإسلامية، انظر إلى كثرة التفرق والاختلاف بين الدعاة إلى الله وغيرهم من أهل العلم وغير أهل العلم.

تفرق وتمزق والعدو يحيط بهم، ومع ذلك لا نعقل، ونمعن بهذا الطريق، تفوهًا وكتابة وتصرفات ومزاولات من شأنها أن تزيد التمزق والفرقة والاختلاف في وقت نحن أحوج ما نكون إلى جمع القلوب بين أهل السنة والجماعة، أن يتناسى الناس الاختلافات التي بينهم وهم جميعًا ممن يتبعون الكتاب والسنة، ويلتزمون الأصول المعتبرة عند السلف الصالح -رضي الله تعالى عنهم- ولكن قد يكون الحامل على ذلك -كما سبق- الأتباع، الرئاسة، سواء كان ذلك في ميدان دعوة أو في ميدان قتال أو غير ذلك.

هذا عنده مجموعة وقائد وأمير، وهذا عنده مجموعة وقائد وأمير، وهذا عنده مجموعة ومئات المجموعات، أهكذا يكون أهل الإسلام والله -عز وجل- يقول: **{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}**؟!، [آل عمران: ١٠٣].

إننا بهذا الواقع لا يمكن أن ننتصر أوننتظر الانتصار، ولو استطعنا أن نغلب عدونا مع حالنا هذه المتعثرة فإننا لن نستطيع أن نجتمع ونحن نفكر بهذه الطريقة والنفوس حاضرة، فسيشتغل بعضنا ببعض.

نحتاج إلى عقلاء، إلى حكماء، إلى من يخافون الله -عز وجل- يفكرون بمصالح الأمة، ويكون الشعار الكبير لهم كما كان شيخ الإسلام -رحمه الله- يقول: "ما مني شيء، ولا لي شيء، أنا المُكدَّي وابن المُكدَّي [2]، ما يقول: أنا، وعندي رصيد من الأتباع، وعندي رصيد من المكتسبات والأعمال.

لا رصيد، ولا مكتسبات، ولا أعمال، هذا تلقاه عند الله -عز وجل-، لكن الذي نعرفه في الدنيا من حال المخلص أنه إن كان في الساقة كان فيها، وإن كان في الميمنة كان فيها، وإن كان في أي موقع فإنه لا يتردد طالما أن المصلحة تتحقق بذلك، مصلحة الأمة وليست مصلحة النفس، ونحن لا نعيب غيرنا، ولا نتكلم عن

---

(١) منهاج السنة النبوية (٥/٢٥٥).

(٢) المستدرك على مجموع الفتاوى (١/١٤٣).

غيرنا، نحن نتكلم عن أنفسنا، نحن جزء من هذه الأمة، حتى الكتابات التي نكتبها، التغريدات التي نغردها، هل نريد بها إعزاز الدين، أو إعزاز النفوس، ورفع هذه النفس، وتحقيق الذات كما يقال، وكثرة المعجبين، والمتابعين، والذين يهتفون بالثناء علينا، وترديد عباراتنا وكلامنا، هذا الكلام الحكيم الذي كأنه قد خرج من مشكاة النبوة بزعمنا.

الثاني عشر من أسباب هذا التفرق والاختلاف وهو: تفاوت العقول والمدارك.

وقد جاء عن مطرف بن الشخير –رحمه الله– أنه كان يقول: "عقول الناس على قدر زمانهم"[1].

وهناك أشياء في المخالفة أو الطوائف التي تظهر، أو الأتباع الذين يتبعون أولئك قد لا يمكن أن تفسر إلا بأن الله قسم العقول كما قسم الأرزاق، الله قسم العقول كما قسم الأرزاق، فهناك من لا عقول لهم، ليس لهم عقول تسعفهم.

ولهذا نُقل عن الإمام أحمد –رحمه الله– أنه لما ناظره بعضهم في فتنة خلق القرآن، قال له: "إن كان هذا عقلك فقد استرحت"[2]، إن كان هذا عقلك فقد استرحت، وهي عبارة بليغة ذات دلالة ومغزى واضح.

انظروا إلى العجائب والغرائب في التاريخ مما لا يمكن أن يفسر إلا بهذا المعنى؛ من أجل أن نحمد الله –عز وجل– على نعمة العقل.

الشاطبي –رحمه الله– ذكر في كتابه الاعتصام، يقول: "كان في الزمان القريب رجل يقال له الفازازي ادعى النبوة واستظهر عليها بأمور موهمة للكرامات –هذا في الأندلس– والإخبار بالمغيبات ومخيِّلة لخوارق العادات، تبعه على ذلك من العوام جملة، ولقد سمعت أن بعض طلبة ذلك البلد –طلبة العلم– الذي احتله هذا البائس – سيطر على البلد وهي بلد مالقة في الأندلس– أخذ ينظر في قوله تعالى: **{وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}** [الأحزاب: ٤٠]، هل يمكن تأويله؟ وجعل يُطرِّق الاحتمالات ليسوِّغ إمكان بعث نبي بعد محمد –صلى الله عليه وسلم–[3].

طبعًا هذا المتنبئ الكذاب كان مقتله على يد الغرناطي –رحمه الله– أعني أبا جعفر بن الزبير صاحب الكتب المعروفة "ملاك التأويل" وغير ذلك، شيخ شيوخ الشاطبي.

هذا الذي ادعى النبوة، وبعض طلبة العلم صار يبحث عن احتمالات لهذه الآية، أنه يمكن بعث نبي، هذا ماذا يمكن أن يقال عنه وعن عقله وعن علمه؟ ولا تذهب بعيدًا في عصرنا يوجد من يتبع القادياني، بعدما عَرف هذا التوحيد الخالص يقفز هذه القفزة، ثم يسقط على رأسه ويتبع القادياني، القادياني مرة وحدة، هل عند القادياني أدنى شيء يمكن أن يجذب الأنظار، أو يمكن أن يُقبل حتى يُتبع من أجله؟!، ولكن ذهاب العقول، وعمى البصائر، نسأل الله العافية.

في بعض البلاد المشرقية في هذه الأيام رأيت مجلات ورأيت صورًا، وأخبرني بعض الدعاة، وأروني ما كتبوا وما ردوا وما نشر في المجلات هناك وبالصور، يوجد هناك من يدعي الربوبية، ويتبعه ملايين، يدعي الربوبية، الإلهية والربوبية يتبعه ملايين، ممن ينتسب إلى الإسلام ثم يَمرُق منه، فيؤمن بهذا البائس الذي يدعي أنه إله!

---

(١) الطبقات الكبرى (١٠٤/٧).

(٢) طبقات الحنابلة (٤٣/١).

(٣) الاعتصام للشاطبي (٥٩٣/٢).

وآخر يدّعي النبوة ويتبعه الملايين، سألت بعض الدعاة، قلت: كم يقدَّر العدد؟ قالوا: ما نعرف ما في إحصائيات، لكن نحن نتوقع من طلاب الجامعات نحو ستة ملايين، ما هذا! شيء هائل! فأين العقول؟! إن لم يوجد علم أين العقول؟ كيف يمكن أن يقبل من مثل هذا؟!.

الذهبي –رحمه الله– ذكر مقالة جميلة للحسن بن أبي الحسن يقول: "كلما نعق بهم ناعق اتبعوه"[1].

وذكر الشاطبي –رحمه الله– أنه وُجد رجل في أعلى صعيد مصر، رجل من القبط ممن يظهر دين النصرانية، ورأْيَ اليعقوبية، يقول: كان يشار إليه بالعلم والفهم، انظر إلى العقول، فبلغ خبره أحمد بن طولون، فأحضره، وأحضر عنده بعض أهل العلم ليوجّهوا إليه السؤالات، فسئل، وجّهوا إليه سؤالًا يطلبون فيه الدليل على صحة دين النصرانية.

هذا رجل الآن يوصف بالفهم والعلم، ماذا قال؟ حتى تحمد الله على نعمة العقل، فقال: دليلي على صحتها وجودي إياها متناقضة متنافية تدفعها العقول، وتنفر منها النفوس، لتباينها وتضادها، لا نظر يقويها، ولا جدل يصححها، ولا برهان يعضدها من العقل والحس عند أهل التأمل فيها، والفحص عنها، هو الآن يصفها بوصف بليغ ودقيق، هذا الدليل على صحتها الآن، من أي وجه؟.

يقول: ورأيت مع ذلك أممًا كثيرة وملوكًا عظيمة ذوي معرفة، وحسن سياسة وعقول راجحة قد انقادوا إليها وتدينوا بها مع ما ذكرت من تناقضها في العقل، فعلمتُ أنهم لم يقبلوها ولا تدينوا بها إلا لدلائل شاهدوها وآيات علموها ومعجزات عرفوها، أوجب انقيادهم إليها والتدين بها[2].

هذا يصلح في سلب نعمة العقل، هذا رجل لا عقل له، ألغى عقله تمامًا، ويستدل على صحتها مع معرفته بفسادها وتناقضها وبطلانها، يقول: رأيت خلقًا من العقلاء ومن الملوك، ومن الكبراء ومن الوجهاء يتبعونها مع تناقضها، ويصلح هذا أن يكون شاهدًا فيما يتصل باتباع الآباء وتقليد الآخرين من غير برهان.

خذ مثالًا آخر على هذا –تهافت العقول–: طائفة ربما لم تسمعوا بها يقال لها: البُرْغُواطية، هذه الطائفة وُجدت في القرن الثاني الهجري في بلاد المغرب، فصار لها شوكة ودولة، هؤلاء كانوا من الأخلاط من البربر وغيرهم اجتمعوا على شخص يهودي الأصل ادعى النبوة اسمه صالح بن طريف بن شمعون البرباطي، نسبة إلى وادي البرباط في جنوب الأندلس، فصارت كلمة برباطي تطلق على كل من اعتنق ديانته، ثم حرفت إلى بُرغواطي، هذا أقام دولة تمتد من الرباط في المغرب، إلى ناحية البحر وأقام أسطولًا وجيشًا ودولة وله أتباع، هذا اليهودي[3].

وهذا ينقلنا إلى السبب الثالث عشر وهو: إزاغة القلوب، عائشة –رضي الله عنها– كانت تروي عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه كان يقول: **((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك))**.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠٧/٧).

(٢) الاعتصام للشاطبي (٢٠٨/١).

(٣) انظر: فقه التمكين عند دولة المرابطين، للصلابي (ص: ٥١).

فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر تدعو بهذا الدعاء، فقال: **((إنه ليس من عبدٍ إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فإذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه))**[1].

وفي قوله -تبارك وتعالى-: **{وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}** [الأنعام: ١١٠] يقول ابن عباس: "أخذُلهم وأدعُهم في ضلالهم يتمادون"[2] -نسأل الله العافية- إذا كان المؤمن يدرك هذا فإنه يخاف.

ولهذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو أهدى الأمة وأثبت الأمة وأعظم الأمة يقينًا يكثر من هذا الدعاء "ثبت قلبي على دينك".

فهنا أيضًا في سورة الأنعام **{وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ}** يعني: وبصائرهم **{كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ}** [الأنعام: ١١٠].

جزاءً وفاقًا، لمّا ردوا الحق أول مرة عاقبهم بتقليب القلوب والأبصار فلا ترى الحق ولا تعرفه -نسأل الله العافية- جزاء وفاقًا.

إذا جاءك الحق فأقبِل عليه وتمسك به ولا تتردد ولا تؤجل فإن الله -عز وجل- يقول: **{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ}** [الأنفال: ٢٤].

يحول بين المرء وقلبه، يريد أن يتوب ما يستطيع، يريد أن يؤمن ما يستطيع، يريد أن يهتدي ما يستطيع، فيبادر ويبحث دائمًا عن الهدى، ويفرح بنصح الناصحين ويخشى على قلبه أن يزيغ.

هذا عالم ذكره الشاطبي -رحمه الله- في الاعتصام ولن أسميّه؛ لأنه يقال: إنه تاب، لكن خبره عجيب في غاية العجب، يقول: كان من ثقاة أهل الحديث ومن كبار العلماء العارفين بالسنة، إلا أن الناس رموه بالبدعة، بسبب قولٍ حُكي عنه من أنه كان يقول: إن كل مجتهد من أهل الأديان مصيب، كل مجتهد من أهل الأديان مصيب، أديان! يهودي، نصراني، بوذي، مصيب.

يقول: حتى كفّره القاضي أبو بكر وغيره، وذكر أن ابن قتيبة حكى عنه أنه كان يقول: "إن القرآن يدل على الاختلاف، فالقول بالقدر صحيح وله أصل من الكتاب، والقول بالإجبار صحيح وله أصل من الكتاب، ومن قال بهذا فهو مصيب، ومن قال بذاك فهو مصيب".

يقولون: سئل يومًا عن أهل القدر وعن أهل الإجبار، فقال: كلٌّ مصيب، هؤلاء قوم عظموا الله، وهؤلاء قوم نزهوا الله.

وكذلك قال في الأسماء، يقول: كل من سمّى الزاني مؤمنًا فقد أصاب، ومن سماه كافرًا فقد أصاب، ومن قال: فاسق وليس بمؤمن ولا كافر فقد أصاب، ومن قال: هو كافر وليس بمشرك فقد أصاب، لأن القرآن يدل على كل هذه المعاني.

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب القدر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (٤٤٨/٤)، رقم: (٢١٤٠)، والنسائي في السنن الكبرى (١٥٦/٧)، رقم: (٧٦٩٠)، وأحمد، رقم: (٢٤٦٠٤).

(٢) ذكره ابن القيم في بدائع التفسير (١٧٣/٢)، والواحدي في الوسيط (١٠٠/١)، والبغوي (١٧٩/٣) من قول عطاء، وأخرج الطبري (٣١٥/٧)، وابن أبي حاتم (١٣٧٠/٤) عن ابن عباس، قال: {يَعْمَهُونَ} يتمادون. وانظر: تفسير ابن كثير (١٨٥/٢).

يقول: وكذلك السنن المختلفة، يعني القول بالقُرعة وخلافه، القول بالسِّعاية وخلافه، قتل المؤمن بالكافر، يقول: كل هذا من قال بهذا أو هذا فهو مصيب.

يقول: ولو قال قائل: إن القاتل في النار كان مصيبًا، ولو قال: في الجنة كان مصيبًا، ولو وقف فيه وأرجأ أمره كان مصيبًا إذا كان إنما يريد بقوله: إن الله تعبده بذلك، وليس عليه علم الغيب[1].

انظر يُصحّح اجتهادات هؤلاء من أهل الأديان في اختيار الدين، والمعبود وهكذا في أقوال أهل الضلال والبدع يصحح القولين المتناقضين، يعقل هذا؟!

هذا لو صدر عن عامي لكان مستشنعًا، فكيف يصدر ذلك عن رجل ينتسب إلى العلم؟!، **{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}** [آل عمران: ٨].

خذ مثالاً آخر: هذا من أقران القاضي عياض، الإمام المالكي المعروف، كلنا نعرف القاضي عياض -رحمه الله- هذا من أقرانه رجل مشهور كان من الأشاعرة، يقال له: ابن تومرت، هذا طلب العلم كما طلبه القاضي عياض، وزامله في الطلب وهما في بلد واحد.

لكن هذا الرجل فُتن وفَتن الناس، كان يحتال على الناس، تولى زعامة، وأقام دولة، بنى ذلك على الحيل والأكاذيب، والبطش والإسراف في سفك الدماء.

وللأسف إذا كنت تستغرب من هذا فاعجب أكثر من ذاك الذي أغواه، طلب من عبد الله الونشريسي، له كتاب مطبوع في القواعد الفقهية، مختصر يدرسه طلاب العلم، فقيه مالكي طلب منه أن يُخفي علمه وفصاحته ويتظاهر بالجهل واللكَن مدة، وأنه لا يحسن ركوب الخيل، ولا يحسن الكلام، وألكَن وأنه عامي قُح، فما الذي حصل؟.

يقول الذهبي: فلما كان عام تسعة وخمسمائة، خرج يومًا فقال: تعلمون أن البشير -يقصد الونشريسي- رجل أمي ولا يثبت على دابة فقد جعله الله مبشرًا لكم مطلعًا على أسراركم، يعني: يعلم ما في قلوبكم وخفاياكم وما تضمرون في غيبتكم، يقول: وهو آية لكم قد حفظ القرآن وتعلم الركوب وقال: اقرأ، فقرأ عليهم ختمة كاملة في أربعة أيام، وركب فرسًا وساقه، فبهتوا، فعدوا ذلك آية.

يقول الذهبي: لغباوتهم، فقام خطيبًا وقرأ: **{لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}** [الأنفال: ٣٧]، وقرأ: **{مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}** [آل عمران: ١١٠].

يقول: "فهذا البشير مطلع على الأنفس، ملهم، ونبيكم -صلى الله عليه وسلم- يقول: **((إن في هذه الأمة محدَّثين وإن عمر منهم))** [2] وقد صحبَنا أقوامٌ أطلعه الله على سرّهم ولابد من النظر في أمرهم وتيمُّم العدل فيهم، ثم نودي في جبال المُصامدة -هذه الجبال التي فيها البربر- من كان مطيعًا للإمام فليأتِ الإمام -يعني

---

(١) انظر: الاعتصام للشاطبي (١/١٩٥-١٩٧)

(٢) أخرجه البخاري، كتاب أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي -رضي الله عنه- (٥/١٢)، رقم: (٣٦٨٩)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل عمر -رضي الله تعالى عنه- (٤/١٨٦٤)، رقم: (٢٣٩٨). عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون، فإن يكُ في أمتي أحد فإنه عمر)).

ابن تومرت- فأقبلوا يُهرعون فكانوا يعرضون على البشير فيُخرج قومًا على يمينه ويعدهم من أهل الجنة -الذي هو الونشريسي- وقومًا على يساره فيقول: هؤلاء شاكون في الأمر، وكان يؤتى بالرجل منهم فيقول: هذا تائب ردوه على اليمين، وتاب البارحة فيعترف بما قال.

يقول الذهبي: "واتفقت له فيهم عجائب حتى كان يطلق أهل اليسار وهم يعلمون أن مآلهم إلى القتل فلا يفر منهم أحد، وإذا تجمع منهم عدّة قتلهم قراباتُهم حتى يقتل الأخُ أخاه".

طاعة عمياء أمام إنسان يعلم الغيب، يعلم ما تُكن الأنفس وما تخفي الصدور، هكذا زعموا.

يقول: وكان في وصيته إلى قومه إذا ظَفر بمرابط أو تلمساني أن يحرقوه، فالذي صح عندي أنه قُتل منهم سبعون ألفًا على هذه الصفة. -إحراق-، ويسمونه التمييز.

يقول: "وقد بلغني أن ابن تومرت أخفى رجالًا في قبورٍ دوارس -يعني قديمة- وجاء في جماعة ليريهم آية، فصاح، أيها الموتى، أجيبوا، فأجابوا أنت المهدي المعصوم، وأنت وأنت، ثم إنه خاف من انتشار الحيلة فخسف فوقهم القبور فماتوا"[1].

يعني: خشي أن يتحدث منهم أحد فيما بعد فيُكتشف ذلك، فخسف عليهم القبور، تصور هذا رجل الآن كان يطلب العلم، ويُنسب إلى العلم، وهذا الذي يعضده كان يُنسب إلى العلم!.

وإذا وقفنا أمام مثل هذه الأمثلة فما يسعنا إلا أن نقول: **{رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا}** [آل عمران: ٨].

هؤلاء الذين يقعون أحيانًا في التفرق والاختلاف أحيانًا لا تجد ما يفسر صنيعهم إلا إزاغة القلب، يركب ضلالة واضحة، لا خفاء فيها، ولا تجد إلا أن تقول: يا مقلب القلوب، يا مقلب القلوب.

يطلعني بعض الإخوان أحيانًا على حساب رجل لا يُعرف عنه إلا الصلاح والخير والاستقامة، فلما تقرأ فيما يكتب تقول: لا يمكن! لعل هذا يُكتب على لسانه.

لكن هذه المدة الطويلة لا يُبين، ولا يذكر هذا، ولا يقول: هذا الحساب مختطف، كلام لا يمكن أن يصدر عن عاقل فضلًا عن إنسان فيه خير ودين وصلاح، أو إنسان ينتسب إلى العلم.

مصادرة تامة للعقل، تقول: هذا سُحر، هذا جُن، لا تدري، لكننا نقول: يا مقلب القلوب ثبّت قلوبنا على طاعتك، فالإنسان يخاف على نفسه.

هذا ما يرجع إلى الناظر في الأدلة، ونحو ذلك وما يظهره من المخالفة.

ثالثًا: من أسباب الاختلاف ما يرجع إلى بعض المزاولات والتصرفات التي نفعلها أحيانًا، فمن ذلك:

أولًا: تنزيل النصوص على غير المراد بها:

وهذا يحصل كثيرًا حينما تقع الفتن والحروب فيشتط كثيرٌ من الناس لتحميل النصوص ما لا تحتمل، وأنه يقصد به كذا.

وربما حُملت مجموعة النصوص الواردة في لزوم الجماعة أو الطائفة المنصورة على طائفة بعينها دون أهل السنة والجماعة بعمومهم ومجموعهم.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/٥٤٥-٥٤٦).

ينسب ذلك إلى طائفته، وهذا غير صحيح، وهو مما يسبب الاختلاف والشر بين الناس، يعني: معنى ذلك أن من لم يدخل معهم فإنه يكون قد خرج عن الجماعة، وأن أحسن أحواله أنه من البغاة، هذا أحسن الأحوال، إذا ما رمي بما هو أعظم من ذلك.

من مزاولاتنا التي تُوقعنا في هذا التمزق والاختلاف للأسف: أن يقوم وجود البعض على أساس تقويض جهود الآخرين.

الأمة بحاجة إلى جهود الجميع من المصلحين الأخيار المتبعين للسنة، تحتاج إلى إصلاح هذا الواقع، تلك المجتمعات، دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، لكن البعض يضيق عطَنه، فيشعر أنه لا يمكن أن يتقدم، ولا يمكن أن يعمل إلا إذا قوض جهود الآخرين، فيستشعر أن هؤلاء هم العقبة في الطريق، وأنه يجب التخلص منهم والقضاء عليهم، بينما نحن في فضاء واسع.

هذا تجده يقع بين الطوائف، فيقع في الصراعات، ويقع ذلك بين الأفراد –الأشخاص–، ليس له ديدن، وليس له شأن إلا زيد وعمرو، لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، لن يأكل أحد شيئًا من رزقك أبدًا، ولن يأخذ شيئًا من أجَلك، فاطمئن.

وإذا نظرت إلى التاريخ الطويل، ونظرت في سير العلماء، وفي تراجمهم في العصر الواحد، وجدت خلقًا لا يحصيهم إلا الله، وإنما الرصيد الحقيقي لكل واحد من هؤلاء بما حصله من العلم والعمل والصدق والإخلاص والبذل.

فلا ينبغي أن يضيق عطَن الإنسان، يشعر أنه لا يمكن أن يدرك ولا يحصل، ولا يكون له القبول عند الله، أو في الأرض إلا إذا هشّم كل ناصية وقمة وأسقطها من أجل أن يصعد هو.

إنما يصعد الإنسان بإخلاصه وصدقه وعمله وعلمه، قدر كل إنسان بما يحسنه وليس بالشتم والسب والوقيعة واللمز والطعن وما إلى ذلك، الفضاء واسع، اقرأ تراجم العلماء في العصر الواحد، وأنا دائمًا تتطلع نفسي إلى جمع الوفيات المتقاربة، يعني: كم مات في السنة الواحدة من العلماء، في التراجم، العلماء الأعلام، أو في خلال خمس سنوات، أو كم تَعاصر في الطبقة الواحدة من العلماء، مختلف الفنون، أئمة رءوس.

والتاريخ لا ينظر إلى أنه وُجد هذا في عصر فلان، أو في عصر فلان، إنما ينظر: ماذا قدم؟ ماذا بذل؟ ماذا حصّل؟

أما إذا كانت بضاعته الشتائم والسباب والوقيعة فهذه بئست البضاعة، وبئس الزاد إلى المعاد الوقيعة في أعراض العباد، هذا لا يصلح أن يكون زادًا نتزود به.

ومن ذلك: الاجتماع على معانٍ خاصة أو فروع اجتهادية وتضخيم ذلك ليتحول إلى أصول كلية مَن قبلها فهو معنا، ومن ردّها نابذناه.

إجتهادات، ليس عندنا غير أصول الإيمان، أركان الإيمان وأصول الإسلام، ليس عندنا أصول خاصة، ليس هناك شيء يخصنا، هذه شريعة الله –عز وجل– ومحفوظة في الكتاب والسنة، وكلام السلف الصالح يشرح ذلك، وشروح أهل العلم وكلام أهل العلم ننهل منه ونتعلمها وكفى، لا يوجد شيء آخر نختص به، فإن اختصت طائفة بشيء دون باقي الأمة فهنا يقع الاختلاف.

وقد ذكر شيخ الإسلام –رحمه الله–: "أن نسيان أهل الكتاب حظًّا مما ذكروا به هو ترك العمل ببعض ما أمروا به".

هذا يأخذ بعض الدين وبعض القضايا ويركز عليها، وهذا يأخذ بعض القضايا ويركز عليها، وقد يُنسب إلى ذلك الذي ركز عليه، يُنسب إلى هذا العمل، فهذا غلط.

يقول شيخ الإسلام: "فكان ذلك سببًا لإغراء العداوة والبغضاء بينهم، وهذا هو الواقع في هذه الأمة فنجده بين طوائفها المتنازعة كالعلماء والعباد ممن يَغلب عليهم الموسوية والعيسوية.

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ} [البقرة: ١١٣].

يقول: "فالمتفقه –يعنى بالأعمال الظاهرة–، وعكسه المتصوف وكل منهما ينفي طريقة الآخر، فظهر أن سبب الاجتماع والألفة جمع الدين والعمل به كله، وهو عبادة الله تعالى ظاهرًا وباطنًا".

نُعنَى بأعمال القلوب، التوحيد، العقيدة، ونُعنَى أيضًا بالعبادات، ونُعنَى بالعلم، ونُعنَى بالدعوة إلى الله، وإغاثة الملهوف، ونُعنَى أيضًا بجانب الأخلاق والسلوك، فالدين شامل، ولا يصح التركيز على جانب وإغفال الجوانب الأخرى، ثم بعد ذلك نقع فيما نهانا الله –تبارك وتعالى– عنه.

يقول: "وسبب الفرقة ترك حظٍّ مما أمر به العبد والبغي بينهم"[١].

ويذكر في موضوع آخر هذا التفرق الذي حصل بين الأمة، بين علمائها ومشايخها وأمرائها وكبرائها، يقول: "هذا هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله.

كما قال تعالى: **{وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ}** [المائدة: ١٤].

لاحظ نسيان هذا القدر مما ذكروا به، ترك العمل ببعض ما جاء في الشرع **{فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ}** [المائدة: ١٤].

الفاء هذه تدل على التعليل، وهي تدل على التعقيب المباشر إذا تركت الأمة بعض ما أمرت به، فإن هذا يكون سببًا **{فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ}** هذا الذي يسميه الأصوليون: دلالة الإيماء والتنبيه، يقرن الحكم بوصف لو لم يكن علة له لكان ذلك مَعيبًا عند العقلاء.

يقول: "وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا، فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب"[٢].

ويقول في موضع آخر: "علينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله، ونقر بالحق كله، ولا يكون لنا هوى، ولا نتكلم بغير علم، بل نسلك سبل العلم والعدل، وذلك هو اتباع الكتاب والسنة، فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض فهذا منشأ الفرقة والاختلاف"[٣].

وتبقى كل طائفة فرحة بما عندها، معجبة بما عندها، ترى أنها على الحق كما يقول الذهبي: "كل فرقة تتعجب من الأخرى، ونرجو لكل من بذل جهده في تطلّب الحق أن يغفر الله له من هذه الأمة المرحومة[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/١٧).

(٢) المصدر السابق (٣/٤٢١).

(٣) المصدر السابق (٤/٤٥٠).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٢/١٧٢).

ويلحق بهذا النوع أن يكون الإنسان معه بعض الحق، لكن ينفي الحق الذي مع غيره، وهذا كثيرًا ما يقع في الاختلاف، وشيخ الإسلام –رحمه الله– ذكر هذا النوع، وأن أكثر الاختلاف بين الأمة الذي يورث الأهواء يقول: "تجده من هذا الضرب، وهو أن يكون كل واحد من المختلفين مصيبًا فيما يثبته أو في بعضه مخطئًا في نفي ما عليه الآخر، كما أن القارئين..."[1] إلى آخره.

يعني في أنواع القراءات الصحيحة، وما إلى ذلك، فهنا يقع الشر بسبب كونه ينفي الحق الذي عند الآخر، وهذا غلط، ينبغي أن يأخذ الدين بكامله بشموله، ولا يأخذ بعضًا، ويترك بعضًا، فيدفع النصوص التي لربما يحتج بها غيره –وقد ذكرت لكم أمثلة في مناسبات سابقة على هذا–، فيكون ممن يؤمن ببعض، ويكفر ببعض.

"فهذه حال أهل الأهواء فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب، قد تركوا كلهم بعض النصوص، وهو ما يجمع تلك الأقوال، فصاروا كما قال الله عن أهل الكتاب: **{وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ}** [المائدة: ١٤] الآية[2].

هذا كلام شيخ الإسلام –رحمه الله– ويذكر كلامًا من هذا القبيل يشبه ما مضى من "أن الناس إذا تركوا بعض ما أنزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء.

يقول: لأنه لا يبقى هناك بعد ذلك جامع يشتركون فيه، بل **{فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}** [المؤمنون: ٥٣].

يقول: وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق إلا ما وافقوا فيه الرسول –صلى الله عليه وسلم– وهو ما تمسكوا به من شرعٍ مما أخبر به وما أمر به، وأما ما ابتدعوه فكله ضلالة، كما جاء عن النبي –صلى الله عليه وسلم–: **((كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة))**[3][4].

ويقول في موضع آخر: "أمرنا بالعدل والقسط، فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني –فضلًا عن الرافضي– قولًا فيه حق أن نتركه وأن نرده"[5].

هذا يُمثّل عليه بعض العلماء ويصوره –يعني الأخذ بالبعض أو تصور الدين بتصور ناقص بأخذ بعض جوانبه وترك الباقي– بمثال: أن مجموعة من العميان سمعوا بالفيل، يقول: فجاءوا إليه، جاء مجموعة منهم ودخلوا هذه البلدة التي حُمل إليها هذا الفيل، وهم ما شاهدوه، ولا عرفوه، ولا يستطيعون مشاهدته إلا باللمس، بمعنى: يتحسسونه فيتصورون حاله، فلما وصلوا إليه لمسوه، فوقعت يد بعض العميان على رجليه، ووقعت يد الآخر على الناب، ووقعت يد الثالث على الأذن، فرجعوا إلى أصحابهم، فسألوهم عن الفيل، فقالوا: قد عرفناه، ثم بعد ذلك بدءوا في وصفه، فقال الذي لمس الرِّجل: الفيل كالأسطوانة –يعني العامود–، لكنه خشن الظاهر، إلا أنه

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/ ١٤٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٢٢٧).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة (٤/٢٠٠)، رقم: (٤٦٠٧)، والنسائي (٣/١٨٨)، رقم: (١٥٧٨).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/٢٢٧).

(٥) منهاج السنة النبوية (٢/٣٤٢).

ألين من الأسطوانة، وقال الذي لمس الناب: ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه، وأملس لا خشونة فيه، وليس فيه غلظ الأسطوانة أصلًا، وقال الذي لمس الأذن: لعمري هو ليّن وفيه خشونة.

فكل واحد ذكر صفة، لكن هذه الصفة هي لجزء، فترك الباقي، فهؤلاء لا يكون أحدهم قد وصفه بصورة صحيحة.

فهكذا من أخذ بجزء من الدين، جهلًا منه أو غير ذلك، فهذا يتحدث عن الدين باعتبار أنه كذا وكذا وكذا، والآخر يتحدث عن الدين باعتبار أنه كذا وكذا وكذا، وكل واحد يصور الدين بحسب الجانب الذي اعتنى به، هذا غلط، والصحيح أن يجمع ذلك جميعًا.

أقول: وهكذا في المسائل التي نختلف فيها؛ فقد يقول الإنسان فيها قولًا يكون معه بعض الحق، ولكنه فاته بعضه، ثم بعد ذلك لا يحتمل المخالفة، ولربما رمى من خالفه بالضلال أو الكفر.

خذ من المسائل التي قد نختلف عليها أحيانًا مسألة: الإكراه على الكفر، هل يختص بالأقوال؟ أو أن ذلك أيضًا يكون بالأفعال؟

فقد يقول بعضنا: إنه لا يعذر بالفعل، وإنما يعذر بالقول فقط، القرطبي -رحمه الله- نقل إجماع أهل العلم على أن من أُكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان.

ثم تكلم على مسألة الفعل، وذكر كلامًا لأهل العلم، ثم قال: والصحيح -يعني مثلًا فيمن أُكره على السجود لصنم- أنه يسجد".

يعني بعض أهل العلم كمحمد بن الحسن من الحنفية قال: يسجد إذا كان الصنم إلى القبلة، وينوي السجود لله، فالقرطبي يقول: "الصحيح أنه يسجد وإن كان لغير القبلة؛ لأنه ثبت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان".

يعني: مسألة الاستقبال إذا كانت في حال اختيار في السفر تسقط في النافلة على الراحلة، فكيف في حال قتل وإكراه؟، يريد أن يقول بأن الإكراه في الفعل كالإكراه في القول إلى آخر ما قال.

ثم قال "وقالت طائفة: الإكراه في الفعل والقول سواء إذا أسر الإيمان، ورُوي ذلك عن عمر بن الخطاب ومكحول، وهو قول مالك، وطائفة من أهل العراق، روى ابن القاسم عن مالك أن من أُكره على شرب الخمر وترك الصلاة، أو الإفطار في رمضان أن الإثم عنه مرفوع"[1].

هذا الذي لربما لا يحتمل المخالفة في القضية ويقول: من عذر هذا الذي قد وقع منه الكفر بالفعل فهو كافر. طيب عمر بن الخطاب، وهؤلاء الأئمة، الإمام مالك، ومكحول الدمشقي، ما تقول فيهم؟ هذا رأيك، وخالفك فيه الآخرون.

وقد يكون هذا القائل من طلاب العلم المبتدئين فيه، ويتمسك برأي في هذه القضية، ويشيعه ويجادل عنه، ويوالي عليه ويعادي.

---

(١) تفسير القرطبي (١٠/١٨٢-١٨٣).

هذا لا يجوز، هذا غلط، هو عرف بعض الحق في المسألة وفاته بعضه، وليس المقصود هنا أن أتحدث عن هذه المسألة ما هو الراجح فيها، لكن أقول: حينما نشتط، ونرمي المخالف بالعظائم نقول: انظر إلى الكلام، هؤلاء من أهل العلم، هذا هو المقصود.

هنا أيضًا من المسائل التي تتعلق بالعذر بالجهل تجد كثيرًا من الكتابات في هذا الموضوع، يأخذ بعض الأدلة، والآخر يأخذ بعض الأدلة، هذا ينقل بعض العبارات لبعض الأئمة لبعض العلماء عبارات واضحة، وذاك ينقل بعض العبارات الواضحة لبعض العلماء، فالذي ليس عنده معرفة وبصر بكلام أهل العلم يقرأ الكلام لذاك يقول: ما بعد هذا، والذي يقرأ كلام الآخر يقول: ما بعد هذا، كلام واضح، ونصوص واضحة على هذا القول.

وفي كثير من الأحيان تجد نفس هذا العالم الذي نُقل عنه له كلام آخر، لو جمع هذا وهذا لاعتدل النظر في القضية، هذا جانب.

الجانب الآخر: أنه يوجد كلام لهؤلاء أحيانًا في مقام التنظير، وأحيانًا يقولون ذلك في مقام الفتيا في واقعة خاصة، يعني: فتوى لها ملابسات معينة، فمن الخطأ أن يعمم الحكم فيها، فتجد للعالم هذا، وهذا.

وكثير من النصوص المنقولة عن أهل العلم التي قد يتشبث بها هذا أو ذاك قد تكون عبارة عن فتاوى قيلت في وقائع معينة، وهو لا يعرف الملابسات التي قيلت فيها.

انظر إلى كلام شيخ الإسلام -رحمه الله- يقول: "كنت دائمًا أذكر الحديث الذي في الصحيحين في الرجل الذي قال: **((إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في اليم، فوالله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا من العالمين، ففعلوا به ذلك، فقال الله له: ما حملك على ما فعلت؟ قال: خشيتك، فغفر له))**[1].

يقول: "فهذا رجل شك في قدرة الله -هذا أمر معلوم من الدين بالضرورة- وفي إعادته إذا ذُري، بل اعتقد أنه لا يعاد، وهذا كفر باتفاق المسلمين، لكن كان جاهلًا لا يعلم ذلك، وكان مؤمنًا يخاف الله أن يعاقبه، فغفر له بذلك[2].

الحديث مخرج في الصحيحين، ما تقول بهذا؟ معلوم من الدين بالضرورة، إذًا في هذه القضايا نستريح، ونترك هذا للعلماء الراسخين يتكلمون فيها، ويعرفون كلام أهل العلم ويجمعونه، وينزلونه بتنزيل صحيح، ويعرفون الأدلة ويجمعون بينها، لكن نحن قد نقف على دليل واحد، أو دليلين أو ثلاثة في جانب، فنبدأ ندور حول هذه الأدلة ونُشيعها ونسينا الأدلة الأخرى.

وفي موضع آخر يعقب شيخ الإسلام على هذه الواقعة -على هذا الحديث-، يقول: "وكثير من المؤمنين قد يجهل مثل ذلك، فلا يكون كافرًا"[3].

معلوم من الدين بالضرورة ولا يكون كافرًا، تجد الجدل الكثير من الذي يُعذر؟ ومن الذي لا يعذر؟ والكتابات كثير منها هذا في هذه الناحية، وهذا في هذه الناحية.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار (١٧٦/٤)، رقم: (٣٤٧٨)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢١١٠/٤)، رقم: (٢٧٥٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٣١/٣).

(٣) المصدر السابق (٤١١/١١).

حديث الجارية، أين كانت الجارية؟، في بيت النبي –صلى الله عليه وسلم–، لم تكن في رأس جبل، أو في غابة، أو بادية بعيدة، بل كانت ببيت الرسول –صلى الله عليه وسلم.

كانت تردد وهي تضرب بالدف: وفينا نبي يعلم ما في غدٍ[1]، ولم يكفرها النبي –صلى الله عليه وسلم–، وأمرها أن ترجع إلى قولها الأول:

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم[2]

جاهلة، فعُذرت بهذا، ولا يعلم ما في الغد إلا الله، وهذا باتفاق المسلمين، ومن المعلوم من الدين بالضرورة.

الاستعجال بالرمي بالكفر، وأن هذا يعذر فيه، أو لا يعذر فيه هذه لا يتكلم بها أرباع المتعلمين، ولا أنصاف المتعلمين، ولا أسداس المتعلمين، ولا أثمان المتعلمين من أمثالي، نتركها للعلماء، للأئمة الراسخين، وإلا فقد يقع بسبب ذلك فساد كبير وعظيم، لكن من الذي يقر أنه لم يرسخ في العلم، وأنه من أنصاف المتعلمين، من؟ هذه هي المشكلة، هو يعتقد أنه منظِّر، ويضلل العلماء ويرميهم بالأوصاف القبيحة.

كذلك في غزوة الطائف، مالك بن عوف النصري، لما راسله النبي –صلى الله عليه وسلم– وخرج من حصن الطائف بعد أن انهزموا، فمدح النبي –صلى الله عليه وسلم– بقصيدة بعدما دخل في الإسلام، وذكر فيها أبياتًا مثل هذا من إضافة علم الغيب للنبي –صلى الله عليه وسلم–، وما كفره[3].

وهنا كذلك أيضًا في هذا الموضع الرجل الذي قال للنبي –صلى الله عليه وسلم–: ما شاء الله وشئت، علمه أن يقول: ما شاء الله ثم شئت[4].

يقول شيخ الإسلام: "ولهذا كان الصواب أن الجهل ببعض أسماء الله وصفاته لا يكون صاحبه كافرًا، ومن أمثلة ذلك عدم تكفير الرسول –صلى الله عليه وسلم– لعائشة بجهلها أن الله يعلم كل ما يكتم الناس[5].

كانت تجهل هذا، فعلّمها، هذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– في الفتاوى في المجلد السابع صفحة خمسمائة وثمان وثلاثين.

في مناظرة شيخ الإسلام للجهمية في زمانه، ينفون علو الله واستواءه، وما إلى ذلك، كان يقول: أنا لو وافقتكم كنت كافرًا؛ لأني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال[6].

وكان يخاطب بهذا مَن؟ يخاطب علماء الجهمية وقضاتهم حينما كانوا يناظرونه، كلمهم في مقام المناظرة، علماء وقضاة، يقول: لو قلت بقولكم كفرت، لكنكم لا تكفرون؛ لأنكم جهال.

يقول: إن أصل جهل هؤلاء شبهات عقلية ظنوا أنها حق، وأنها دين، وأنها علم صحيح.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي (٨٢/٥)، رقم: (٤٠٠١)

(٢) السنن الكبرى للبيهقي (٤٧١/٧)، رقم: (١٤٦٨٩).

(٣) سيرة ابن هشام (٤٩١/٢).

(٤) أخرجه النسائي، كتاب الأيمان والنذور، الحلف بالكعبة (٦/٧)، رقم: (٣٧٧٣)، وابن ماجه، كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت (٦٨٤/١)، رقم: (٢١١٧).

(٥) مجموع الفتاوى (٥٣٨/٧)

(٦) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١٠/١).

وكذلك ما ذكره النبي –صلى الله عليه وسلم– في آخر الزمان عن جهل الناس وما يصيرون إليه، كما جاء عن حذيفة –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: **((يَدرُس الإسلامُ كما يَدرُس وشيُ الثوب، حتى لا يُدرى ما صيام، ولا صلاة ولا نسكٌ ولا صدقة، وليُسرى على كتاب الله –عز وجل– في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس، الشيخ الكبير، والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمات، لا إله إلا الله فنحن نقولها))**، يقول صلة ابن زفر لحذيفة: "ما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؟" ما يعرفونها! يعني ليست القضية أنهم يقرون بها مثلًا ولا يؤدونها، وإنما ما يعرفونها.

قال حذيفة: "يا صلة، تنجيهم من النار، يا صلة، تنجيهم من النار، يا صلة، تنجيهم من النار"[(١)].

وفي حديث عائشة –رضي الله عنها– قالت: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: **((يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم))** قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يخسف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم، ومن ليس منهم؟ قال: **((يخسف بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم))**[(٢)].

يعني معناه أن بعضهم قد ينجو، ذهبوا إلى أين؟ يغزون الكعبة.

فالمشكلة أننا نأخذ بعض كلام أهل العلم، نأخذ بعض الأدلة ونتشبث به، وتُكوَّن طائفة، وتبني مبادئها على هذا، فمن دخل معهم فهو منهم، ومن خالفهم فهو منحرف وضال إلى آخره، هذا لا يجوز.

وهكذا من عجز عن القيام ببعض شرائع الإسلام، شيخ الإسلام –رحمه الله– ضرب أمثلة لذلك: النجاشي، يقول: "وكذلك النجاشي، وهو وإن كان ملك النصارى فلم يطعه قومه في الدخول إلى الإسلام بل إنما دخل معه نفر منهم، ولهذا لما مات لم يكن هناك أحدٌ يصلي عليه، فصلى عليه النبي –صلى الله عليه وسلم– بالمدينة وقال: إن أخًا لكم صالحًا من أهل الحبشة مات[(٣)].

يقول: "وكثير من شرائع الإسلام أو أكثرها لم يكن دخل فيها لعجزه عن ذلك، فلم يهاجر، ولم يجاهد، ولا حج"[(٤)] إلى آخر ما قال.

يقول: "ونحن نعلم قطعًا أنه لم يكن يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن". يعني: ما حكم بينهم بالشرع في الحبشة وهو ملك، هل كفر بهذا؟.

يقول: "فالنجاشي وأمثاله سعداء في الجنة، وإن كانوا لم يلتزموا من شرائع الإسلام ما لا يقدرون على التزامه، كذلك كما كان مؤمن آل فرعون مع قوم فرعون، وكما كانت امرأة فرعون، بل وكما كان يوسف الصديق –عليه

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم (١٣٤٤/٢)، رقم: (٤٠٤٩)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (٥٢٠/٤)، رقم: (٨٤٦٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب ما ذكر في الأسواق (٦٥/٣)، رقم: (٢١١٨).

(٣) حديث نعْي النبي –صلى الله عليه وسلم– النجاشي إلى المسلمين وصلاته عليه بعد أن صف المسلمين صفوفاً في البخاري ومسلم، انظر: صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الجنائز بالمصلى والمسجد (٨٨/٢)، رقم: (١٣٢٧)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب في التكبير على الجنازة (٦٥٦/٢)، رقم (٩٥١).

(٤) انظر: منهاج السنة النبوية (١١٢/٥– ١١٣).

السلام- مع أهل مصر، فإنهم كانوا كفارًا، ولم يمكنه أن يفعل معهم كل ما يعرفه من دين الإسلام، فإنه دعاهم إلى التوحيد والإيمان فلم يجيبوه، وكثيرًا ما يتولى الرجل بين المسلمين والتتار قاضيًا بل وإمامًا وفي نفسه أمور من العدل يريد أن يعمل بها، فلا يمكنه ذلك، بل هناك من يمنعه ذلك، و **{ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}** [البقرة: ٢٨٦]"[1] قاضٍ بين المسلمين والتتار.

ما قال شيخ الإسلام: هذا يمرق من الدين ويكفر، إطلاقًا.

فنحتاج أن نتبصر، نجمع كلام أهل العلم، نترك هذا للراسخين في العلم.

ليس مقصودي الآن أن أتكلم في مسألة العذر بالجهل، وأقرر الكلام فيها، وما هو الحكم إلى آخره، لا أتحدث عن هذا، وما تحدثت عنه قط، ولست معنيًّا بتتبع هذا والقراءة فيه، نترك هذا للراسخين في العلم، لكن أتيت به كمثال على أخذ بعض النصوص، وترك البعض الآخر، أخذ بعض كلام أهل العلم، وترك البعض الآخر، يوجد كلام لشيخ الإسلام قد يوافق هذا، وكلام آخر قد يوافق ذاك، فرق بين ما قيل في مقام الفتوى، وما قيل في مقام التقرير والتنظير، والله المستعان.

---

(١) منهاج السنة النبوية (٥/١١٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

الاختلاف وموقفنا منه

(١٠) مواصلة الحديث عن الممارسات التي تصدر من بعض المسلمين وتؤدي إلى تمزيق الصف وتشتيت الشَّمل وتفريق الأمة وذكر الأسباب الخارجية التي أدت إلى الاختلاف المذموم وماذا نتج عن الاختلاف

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فنواصل الحديث عن هذه الأسباب التي قد يجمع جملةً منها ما ذكره جمع من أهل العلم، كابن قتيبة حينما تدبر ذلك، وأمر بتدبره فيما يتصل بمقالات أهل الكلام.

يقول: "فوجدتهم يقولون ما لا يعلمون، ويفتنون الناس بما يأتون، ويبصرون القذى في عيون الناس، وعيونهم تطرف على الأجذاع، ويتهمون غيرهم في النقل، ولا يتهمون آراءهم في التأويل، ومعاني الكتاب والحديث".

إلى أن يقول: "ولو ردوا المشكل منهما إلى أهل العلم بهما لاتضح لهم المنهج، واتسع لهم المخرج، ولكن يمنع من ذلك طلب الرياسة، وحب الأتباع، واعتقاد الإخوان بالمقالات، والناس أسراب طير يتبع بعضها بعضًا، ولو وُجد لهم من يدعي النبوة أو الربوبية لوَجد على ذلك أتباعًا وأشياعًا ..." [(١)]. إلى آخر ما قال.

من هؤلاء العلماء ابن عبد البر –رحمه الله– تكلم على هذا، وتكلم على من يقع في أهل العلم.

كناطحِ صخرةً يومًا ليوهنها *** فلم يَضِرْها وأوهى قرنَه الوعِلُ

يا ناطحَ الجبلِ العالي ليكْلِمَه *** أشفِقْ على الرأسِ لا تُشفق على الجبلِ

وهكذا قول من قال:

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالمًا *** وللناسِ قالٌ بالظنون وقيلُ

لا يسلم أحد، وكل ذلك بالظنون.

يقول ابن عبد البر: "فقد رأينا الباطلَ والبغي والحسدَ أسرَعَ الناسُ إليه–هذه شكوى ابن عبد البر في زمانه– ألا ترى إلى قول الكوفي في سعد بن أبي وقاص –رضي الله عنه–: إنه لا يعدل في الرعية، ولا يغزو في السرية، ولا يقسم بالسوية، وسعد بدري، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة الذين جعل عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– الشورى فيهم، وقال: توفي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهو عنهم راضٍ.

يقول ابن عبد البر: "والله لقد تجاوز الناس الحد في الغيبة والذم، فلم يقنعوا بذم العامة دون الخاصة، ولا بذم الجهال دون العلماء، وهذا كله يحمل عليه الجهل والحسد"[(٢)].

ما رأى ابن عبد البر –رحمه الله– هذا العصر ووسائل التواصل التي بأيدي الناس، وكيف تفرى الأعراض، أعراض أهل العلم والفضل.

---

(١) تأويل مختلف الحديث (ص: ٦١-٦٢).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١١١٦/٢)، رقم: (٢١٩٠).

يقول ابن عبد البر: "فمن أراد أن يقبل قول العلماء الثقات الأئمة الأثبات بعضهم في بعض -يعني ما كان خارجًا على وجه الذم بسبب الحسد- فليقبل قول من ذكرنا قوله من الصحابة -رضي الله عنهم أجمعين- بعضهم في بعض، فإنْ فعل ذلك ضل ضلالًا بعيدًا، وخسر خسرانًا، وكذلك إن قبل في سعيد بن المسيب قول عكرمة، وفي الشعبي، وأهل الحجاز، وأهل مكة، وأهل الكوفة، وأهل الشام على الجملة، وفي مالك، والشافعي وسائر من ذكرناه في هذا الباب، فإن لم يفعل، ولن يفعل..".

يعني: إن كان سيُسقط هؤلاء جميعًا ويصدق ما قيل فيهم.

يقول: "ولن يفعل إن هداه الله وألهمه رشده فليقف عند ما شرطنا في أن لا يقبل فيمن صحت عدالته، وعُلم بالعلم عنايته، وسلم من الكبائر، ولزم المروءة والتصاون، وكان خيره غالبًا، وشره أقل عمله فهذا لا يُقبل فيه قول قائل لا برهان له به، وهذا هو الحق الذي لا يصح غيره -إن شاء الله"[1].

هذا كلام الحافظ ابن عبد البر، كلام الناس بالظنون، كل من أخطأ رميناه عن قوس واحدة، هذا غير صحيح، ولو أفتى بفتيا تخالف ما عهدنا، وتعودنا أو نحو ذلك من الأخطاء.

يقول ابن عبد البر: "ومن صحبه التوفيق أغناه من الحكمة يسيرها، ومن المواعظ قليلها، إذا فهم واستعمل ما علم"[2].

يعني: ينتفع بما يسمع ولو قلّ، ونحن نورد في هذه المجالس الطويلة كلام أهل العلم لعل ذلك يكون واعظًا لقلوبنا.

وهكذا نجد في مثل كتاب "غاية الأماني" ذكر جملة تشبه ما ذكره المعلمي اليماني -رحمه الله- في كتابه "التنكيل"، الذي أُفرد ذلك الجزء منه في كتاب "القائد إلى تصحيح العقائد".

فمما جاء في غاية الأماني نقلًا عن بعض أهل العلم كالحافظ ابن القيم -رحمه الله-: من الأسباب التي تمنع من قبول الحق ذكر منها: الجهل به.

قال: "وهذا هو السبب الغالب على أكثر النفوس، فإن من جهل شيئًا عاداه وعادى أهله، فإن انضاف إلى هذا السبب بغض من أمره بالحق، والعداوة له والحسد كان المانع من قبول الحق أقوى، فإن انضاف إلى ذلك الإلف والعادة والمربأ ما نشأ عليه آباؤه، ومن كان يحبه ويعظمه قوي المانع، فإذا انضاف إلى ذلك ما يتوهمه من أن الحق الذي دُعي إليه يحول بينه وبين جاهه وشهواته وأغراضه قوي المانع عن القبول، فإن انضاف إلى ذلك الخوف من أصحابه وعشيرته وقومه على نفسه وماله وجاهه، كما وقع لهرقل ملك النصارى بالشام على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وكما نرى كثيرًا ممن ينتسب إلى العلم... ". إلى آخره.

يقول: "مثل هؤلاء قد يتجنبون الحق، واتباع السنة مع علمهم به، ولكن منعهم الخوف على جاههم، أو مالهم، أو أنفسهم، **{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}** [البقرة: ١٦]، فإذا كان

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١١١٧/٢).

(٢) المصدر السابق (١١١٨/٢).

الأمر على ما ذكر ازداد المانع من قبول الحق قوة، فإن هرقل عرف الحق، وهم بالدخول في الإسلام، فلم يطاوعه قومه وخافهم على نفسه، واختار الكفر على الإسلام بعدما تبين له الهدى...". إلى آخره.

يقول: "ومن أعظم هذه الأسباب الحسد"[1]، وذكر جملة مما يورثه الحسد، وقد تكلمنا على ذلك.

وهكذا أيضًا ما ذكره ابن الجوزي –رحمه الله– في كتابه: "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم" لما ذكر الباطنية وعقائد الباطنية، وأفعال الباطنية الشنيعة، وكيف كانوا يدخلون في البلدة ليلًا، ويقتلون ثلاثين ألفًا، في ليلة واحدة من الأطفال والرجال والنساء، وذكر خزعبلات الباطنية، وعقائد لا يمكن أن تقبلها الحيوانات.

يقول: "فإن قال قائل: مثل هذه الاعتقادات الركيكة، والحديث الفارغ، كيف يخفى على من يتبعهم، ونحن نرى أتباعهم خلقًا كثيرًا؟".

يقول: "فالجواب: أن أتباعهم أصناف: فمنهم قوم ضعفت عقولهم، وقلت بصائرهم –السبب الذي ذكرناه– وغلبت عليهم البلادة والبله، ولم يعرفوا شيئًا من العلوم، كأهل السواد، والأكراد، وجفاة الأعاجم، وسفهاء الأحداث".

سفهاء الأحداث يعني: الناشئ الصغير.

"فلا يستبعد ضلال هؤلاء، فقد كان خلق ينحتون الأصنام ويعبدونها، ومِن أتباعهم: طائفة انقطعت دولة أسلافهم بدولة الإسلام كأبناء الأكاسرة والدَّهّاقين وأولاد المجوس، فهؤلاء موتورون قد استكنّ الحقد في صدورهم، فهو كالداء الدفين، فإذا حركتْه تخائيل المبطلين اشتعلت نيرانهم".

يعني بمجرد ما يجد فرصة تحت أي لَبوس فإنه يَثِب يريد الانتقام.

يقول: "ومن أتباعهم: قوم لهم تطلع إلى التسلط والاستيلاء، ولكن الزمان لا يساعدهم، فإذا رأوا طريق الظفر بمقاصدهم سارعوا إليه".

يعني يركب مركبًا ولو كان في غاية البطلان، مادام أنه يوصله أنه يتسلط، ويكون عنده مجموعة يأمر وينهى، له أتباع، يحقق طموحًا عنده بعد أن كان خاملًا لا يصلح لا في عمل دنيا، ولا في عمل آخرة، فيجد بغيته في تحقيق طموحه، فعند ذلك يمكن أن يسارع في مثل هذه الضلالات.

يقول: "ومن أتباعهم: قوم جُبلوا على حب التميز عن العوام، فزعموا أنهم يطلبون الحقائق، وأن أكثر الخلق كالبهائم، وكل ذلك لحب النادر والغريب". الأشياء الشاذة.

يقول: "ومن أتباعهم: ملاحدة الفلاسفة، الذين اعتقدوا الشرائع نواميس مؤلفة، والمعجزات مخاريق مزخرفة، فإذا رأوا من يعطيهم شيئًا من أغراضهم مالوا إليه، ومن أتباعهم: قوم مالوا إلى عاجل اللذات، ولم يكن لهم علم، ولا دين، فإذا صادفوا من يرفع عنهم الحجْر مالوا إليه"[2].

لأن الباطنية يقولون: لا فرق بين الأخت والأجنبية، وإذا كبسوا بلدًا فالكل حلال، يفجرون بالغلمان، ويفجرون بالنساء، وينهبون الأموال، ويقتلون من شاءوا، فالإبادة عندهم عبادة، نسأل الله العافية.

---

(١) غاية الأماني في الرد على النبهاني (٢٩/١)، وهداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (٢٤٤/١).

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٢٩٧/١٢-٢٩٨).

شيخ الإسلام –رحمه الله– يتحدث في كتابه "اقتضاء الصراط المستقيم" عن هذه الاختلافات والشرور التي تقع بين طوائف الأمة، ويتحدث عن قوله تعالى: **{فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ}** [التوبة: ٦٩]، يقول: هذا إشارة إلى اتباع الشهوات وهو داء العصاة.

وقال: **{وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا}** [التوبة: ٦٩] يقول: "هذا إشارة إلى اتباع الشبهات، وهو داء المبتدعة، وأهل الأهواء والخصومات، وكثيرًا ما يجتمعان، فقلّ من تجد في اعتقاده فسادًا إلا وهو يظهر في عمله" .

لاسيما في عصرنا هذا، أصبحت الشهوات تُلبَّس بلبوس الشبهات، فتجد صاحب الشهوة يفجُر ويستحل الحرام و يتبجّح ويجادل ويناضل، ويقول: أنتم ما تعرفون إلا قول مشايخكم، يوجد من يقول بغير هذا، ويوجد من يفتي بهذا، وهذا شيء مشاهد.

يقول شيخ الإسلام: "وقد دلت الآية على أن الذين كانوا من قبل استمتعوا، وخاضوا، وهؤلاء فعلوا مثل أولئك... إلى آخر ما ذكر[1].

فهذه جمل لهؤلاء العلماء –رحمهم الله– يذكرون فيها جملًا من الأسباب التي أدت إلى الاختلاف.

فهذا هو القسم الثالث في المزاولات التي تصدر من بعض المسلمين وتؤدي إلى تمزيق الصف، وتشتيت الشمل وتفريق الأمة.

رابعًا: من الأسباب: أمور خارجية:

هذه الأمور الخارجية منها:

كيد الأعداء من أصحاب الديانات.

انظر كيف أثرت هذه كما ذكرنا في خبر عبدالله بن سبأ اليهودي، وكيف حصل الغلو بعليٍّ –رضي الله تعالى عنه– إلى التأليه، وكيف كان ذلك الرجل سببًا في قتل عثمان –رضي الله عنه– والكلام فيه كثير.

يقولون: هو أول من أظهر القول بالنص بإمامة عليٍّ –رضي الله عنه–، وطائفة هذا الرجل هم أول من قالوا بالرجعة؛ أن عليًّا يرجع، أنه غاب ثم سيأتي في آخر الزمان، وأنه قد نص النبي –صلى الله عليه وسلم– على إمامته، وأنكر هذا الرجل موت عليٍّ –رضي الله عنه– وقال: إنه صعد إلى السماء، كما صعد إليها عيسى، وإنه سينزل وينتقم من أعدائه، واستغل هذا المذهبَ الفرسُ، ورأوا أنه يصلح مطيّة يتوصلون بها إلى مرادهم من إفساد دين الإسلام.

كذلك القدرية، فقد عرفنا أن أول من قال بمقالتهم رجل نصراني، يقال له: سَوْسن، أو سَنسوَيْه، وأن مقالته قد أخذها الجعد بن درهم.

وهكذا القول بنفي الصفات، فهذا كما يقول شيخ الإسلام: "مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركين، وضُلال الصابئين، فإن أول من حُفظ عنه ذلك –يعني: أنه قال: ليس على العرش إله يعبد، وإنما استوى بمعنى استولى– الجعد بن درهم، وأخذ عنه الجهم بن صفوان، فنسبت إليه مقالة الجهمية، وإلا فإن الجعد أخذ ذلك عن بيان بن سمعان، وأخذها هذا من طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/١٢١).

اليهودي الساحر الذي سحر النبي –صلى الله عليه وآله وسلم–، وكان الجعد بن درهم هذا –فيما قيل– من أرض حران، وكان فيهم خلق كبير من الصابئة والفلاسفة[1].

وهكذا هؤلاء قد دخل بعضهم في الإسلام للدس فيه، فظهرت الزندقة والضلالات، وما إلى ذلك.

ومن ذلك: تلاعب شياطين الإنس والجن.

والله –عز وجل– يقول: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}** [الأنعام: ١١٢].

فالله –تبارك وتعالى– ذكر أن هؤلاء يستعينون على مخالفة دين الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول، فيغتر به الأغمار وضعفاء العقول، فهنا تحصل الضلالة، بسبب هذا الإصغاء لهذا القول المزخرف المزوق المزين، فيَضل من شاء الله ضلالته، ثم بعد ذلك يقع الانحراف والافتراق.

وهكذا فإن ذلك يكون أيضًا بما يزينه شياطين الإنس والجن من أنواع الزيغ، فيسمون مثلًا المعاصي والفجور بأسماء يقبلها الناس، كما ذكر ابن القيم –رحمه الله–: يسمون أم الخبائث –يعني الخمر– بأم الأفراح، ويسمون اللقمة الملعونة –يعني الحشيشة– لُقيمة الذِّكر والفكر التي تثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، ويسمون مجالس الفجور والفسوق مجالس الطِّيبة، حتى إن بعضهم لما عُزل عن شيء من ذلك قال لعازله: تَرْك المعاصي والتخوف منها إساءة ظن برحمة الله وجرأة على سعة عفوه ومغفرته". انظر كيف يتلاعب بالألفاظ!

يقول ابن القيم : "فانظر ماذا تفعل هذه الكلمة في قلب ممتلئ بالشهوات ضعيف العلم والبصيرة"[2].

وهكذا أسماء كثيرة اليوم تقال لكثير من المعاصي والجرائم والموبقات.

ذكر شيخ الإسلام أشياء كثيرة من تلاعب الشياطين بالصوفية، وذكر من ذلك أشياء تظهر على أنها كرامات، وهي من فعل الشياطين تضللهم وتتلاعب بهم، يقول شيخ الإسلام لما ذكر الحلّاج،: "ومثل هذا يحدث كثيرًا لغير الحلّاج ممن له حال شيطاني"[3].

وذكر شيخ الإسلام أنه يعرف من هذا أشياء كثيرة، يقول: "مثل شخص هو الآن بدمشق، كان الشيطان يحمله من جبل الصالحية إلى قرية حول دمشق، فيجيء من الهواء إلى طاقة البيت الذي فيه الناس، فيدخل وهم يرونه، ويجيء بالليل إلى باب الصغير –أحد أبواب دمشق– فيعبر منه هو ورفيقه، وهو من أفجر الناس، وآخر كان بالشويك من قرية يقال لها: الشاهدة، يطير في الهواء إلى رأس الجبل والناس يرونه، وكان شيطانه يحمله، وكان يقطع الطريق، وأكثر هؤلاء من شيوخ الشر، وشيخ آخر أخبرني عن نفسه أنه كان يزني بالنساء، ويتلوط بالصبيان الذين يقال لهم الحُوارات، وكان يقول: يأتيني كلب أسود بين عينيه نكتتان بيضاوان فيقول لي: فلان بن فلان نذر لك نذرًا وغدًا نأتيك به، يقول: فلما تاب هذا الشيخ، وصار يصلي ويصوم، ويجتنب المحارم ذهب الكلب الأسود.

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى (ص: ٢٣٢– ٢٣٥).

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٤٣٨/٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١١٢/٣٥)

وشيخ آخر كان له شياطين يرسلهم يصرعون بعض الناس، فيأتي أهل ذلك المصروع إلى الشيخ يطلبون منه إبراءه، فيرسل إلى أتباعه –يعني من الشياطين– فيفارقون ذلك المصروع، ويعطون ذلك الشيخ الدارهم الكثيرة، وأحيانًا تأتيه الجن بدارهم وطعام تسرقه من الناس، وآخر كان مشتغلًا بالعلم والقراءة، فجاءته الشياطين أغوته، وقالوا له: نحن نسقط عنك الصلاة، ونحضر لك ما تريد، فكانوا يأتونه بالحلوى والفاكهة حتى حضر عند بعض الشيوخ العارفين بالسنة فاستتابه"[1].

ويقول عن نفسه –أعني شيخ الإسلام–: إن الشياطين والجن قد تتمثل بشخصه هو، وأغاثوا أقوامًا، فجاء هؤلاء الأقوام يخبرون شيخ الإسلام بما وقع لهم، يقول: "وذكر غير واحد أنه استغاث بي"، وهذا لا يجوز، وشيخ الإسلام ينكر عليهم هذا.

يقول بعضهم: إنه رآني جئته، ومنهم من قال: رأيتك راكبًا بثيابك وصورتك، ومنهم من قال: رأيتك على جبل، ومنهم من قال غير ذلك، فأخبرتهم أني لم أغْشَهم، وإنما ذلك شيطان تصور بصورتي ليضلهم لمّا أشركوا بالله ودعوا غيره، وأعرف من ذلك وقائع كثيرة، قوم استغاثوا بي وبغيري في حال غيبتنا عنهم، فرأوني أو ذلك الآخر الذي استغاثوا به وقد جئنا في الهواء ورفعنا عنهم، فلما حدثوني بذلك بيّنت لهم أن ذلك إنما هو شيطان تصوّر بصورتي، وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم"[2].

خذ مثالًا ذكره ابن كثير –رحمه الله– في "البداية والنهاية" مثال عجيب لتلاعب الشياطين، هذا رجل يقال له: الحارث الكذاب من أهل دمشق، يقول فيما يرويه عن عبدالرحمن بن حسّان: "كان مولى لأبي الجُلاس، وكان له أب بالحُولة، فعرض له إبليس، وكان رجلًا متعبدًا، زاهدًا، لو لبس جبة من ذهب لرُئِيت عليه الزهادة والعبادة، وكان إذا أخذ في التحميد لم يسمع السامعون مثل تحميده، ولا أحسن من كلامه، فكتب إلى أبيه، وكان بالحُولة، يا أبتاه، أعجل عليّ، فإني قد رأيت أشياء أتخوف أن يكون الشيطان قد عرض لي، قال: فزاده أبوه غيًّا على غيه، فكتب إليه أبوه: يا بني، أقبل على ما أُمرت به فإن الله تعالى يقول: **{هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ}** [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢].

ولست بأفاك ولا أثيم، فامض لما أُمرت به، فكان يجيء إلى أهل المسجد رجلًا رجلًا فيذاكرهم أمره، ويأخذ عليهم العهد والميثاق إن هو رأى ما يرضى قَبِل وإلا كتم عليه".

هذا يدعي أنه نبي الآن، صار يدعي أنه يوحى إليه، قال: "وكان يريهم الأعاجيب، كان يأتي رخامة في المسجد، فينقرها بيده فتسبح تسبيحًا بليغًا حتى يضج من ذلك الحاضرون".

يقول ابن كثير: "وقد سمعت شيخنا العلامة أبا العباس ابن تيمية –يعني شيخ الإسلام– يقول: كان ينقر هذه الرخامة الحمراء التي في المقصورة فتسبح، وكان زنديقًا"[3].

وجاء أيضًا في بعض الكلام عنه في بعض الروايات: كان الحارث يطعمهم فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وكان يقول لهم: اخرجوا حتى أريكم الملائكة، فيخرج بهم إلى دير المُرَّان، فيريهم رجالًا

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/١١٢-١١٤).

(٢) المصدر السابق (٣٥/١١٥).

(٣) البداية والنهاية (٩/٣٥).

على خيل فتبعه على ذلك بشر كثير، وفشا أمره في المسجد، وكثر أصحابه وأتباعه، حتى وصل الأمر إلى القاسم بن مُخيمرة، فعرض على القاسم أمره، وأخذ عليه العهد والميثاق إن هو رضي أمرًا قبله، وإن كرهه كتمه، فقال له: إني نبي، فقال القاسم: كذبت يا عدو الله، ما أنت نبي، وفي بعض الروايات: ولكنك أحد الكذابين الدجالين الذين أخبر عنهم النبي -صلى الله عليه وسلم.

إلى أن قال: وأنت أحدهم، ولا عهد لك، يعني: ما تأتمني على كتمان أمرك.

قال: "ثم قام فخرج إلى أبي إدريس، وكان على القضاء بدمشق، فأعلمه بما سمع من الحارث، فقال أبو إدريس: نعرفه، ثم أعلم أبو إدريس عبد الملك بذلك".

وفي رواية: أن مكحولًا، وعبد الله بن أبي زكريا دخلا على الحارث، فدعاهما إلى نبوته فكذباه، وردا عليه ما قال، ودخل هذان على عبد الملك، فأعلماه بأمره -يعني عبد الملك بن مروان- فتطلبه عبد الملك طلبًا حثيثًا، واختفى الحارث وصار إلى بيت المقدس يدعو إلى نفسه سرًّا، واهتم عبد الملك بشأنه حتى ركب إلى الصِّنْبَرة، فنزلها فورد عليه هنالك رجل من المسلمين من أهل البصرة، ممن كان يدخل على الحارث وهو ببيت المقدس، فأعلمه بأمره وأين هو، وسأل عبد الملك أن يبعث معه بطائفة من الجند الأتراك ليحتاط عليه، فأرسل معه طائفة، وكتب إلى نائب القدس ليكون في طاعة هذا الرجل، ويفعل ما يأمره به، فلما وصل الرجل إلى بيت المقدس بمن معه انتدب نائب القدس لخدمته، فأمره أن يجمع ما يقدر عليه من الشموع -هذا في الليل- ويجعل مع كل رجل شمعة، فإذا أمرهم بإشعالها في الليل أشعلوها كلهم في سائر الطرق والأزقة، حتى لا يخفى أمره، وذهب الرجل بنفسه، فدخل الدار التي فيها الحارث، فقال لبوابه: استأذن لي على نبي الله، فقال: في هذه الساعة لا يؤذن عليه حتى يصبح، فصاح البصري: أسرجوا -يقول لأصحابه- فأسرج الناس شموعهم حتى صار الليل كأنه النهار، وهجم البصري على الحارث، فاختفى منه في سرب هناك، فقال أصحابه: هيهات، تريدون أن تصلوا إلى نبي الله، إنه قد رفع إلى السماء.

فأدخل البصري يده في ذلك السرب فإذا بثوبه، فاجتره فأخرجه، ثم قال لمن معه من الأتراك: تسلموا، فأخذوه، فربطوه فقيدوه، فيقال: إن القيود والجامعة -يعني الكَلَبشات- سقطت من عنقه مرارًا، ويعيدونها، وجعل يقرأ: **{قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}** [سبأ: ٥٠].

وقال لأولئك الأتراك: **{أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ}** [غافر: ٢٨] ، فقالوا له بلسانهم ولغتهم: هذا كُرآنُنا فأتِ بكُرآنك، يعني: هذا قرآننا فأتِ بقرآنك.

فلما انتهوا به إلى عبد الملك أمر بصلبه على خشبة، وأمر رجلًا فطعنه بحربة فانثنت في ضلع من أضلاعه، فقال له عبد الملك: ويحك، أذكرت اسم الله حين طعنته؟، فقال: نسيت، فقال: ويحك، سم الله، ثم اطعنه، فذكر اسم الله، ثم طعنه فأنفذه، وكان عبد الملك قد حبسه قبل ذلك، وأمر رجالًا من العلماء أن يعظوه ويعلموه أن هذا من الشيطان، فأبى أن يقبل، فصلب[1].

---

(١) البداية والنهاية (٩/٣٥-٣٦).

انظر كيف تتلاعب الشياطين، وكيف يتبع هذا الرجلَ جماعةٌ من هؤلاء المنحرفين، الشياطين تلعب بهؤلاء الذين يصغون لهم.

غَيلان الدمشقي قال له خالد بن اللَّجلاج: "ويحك يا غيلان، ألم يأخذك في شبيبتك -أيام الشباب يعني- تُرامي النساء في شهر رمضان بالتفاح -يعني أنه كان من المُجّان-، ثم صرت حارثيًّا تحجب امرأة وتزعم أنها أم المؤمنين، ثم تحولت فصرت قدريًّا زنديقًا"[١].

كل يوم على رأي، وكل يوم على مذهب، و كل يوم على دين، وكل يوم على ضلالة.

وقد جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: **((إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل، فيأتي القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب، فيتفرقون فيقول الرجل منهم: سمعت رجلًا أعرف وجهه، ولا أدري ما اسمه يحدِّث))** [٢].

وجاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-: **((إن في البحر شياطين مسجونة، أَوثَقَها سليمان، يُوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنًا))** [٣] تلعب بالناس، تضللهم.

وجاء عن حارثة بن مُضرِّب قال: إن الناس نودي فيهم بعد نومة: إنه من صلى في المسجد الأعظم -يعني في الكوفة- دخل الجنة، فانطلق النساء والرجال حتى امتلأ المسجد قيامًا يصلون.

يقول أبو إسحاق: إن أمي وجدتي فيهم، فأُتي ابن مسعود فقيل له: أدرك الناس، فقال ما لهم؟ قيل: نودي فيهم بعد نومة -يعني ما يُدرى من المنادي- إنه من صلى في المسجد الأعظم دخل الجنة، فخرج ابن مسعود يُشير بثوبه: ويلكم، اخرجوا لا تُعذَّبوا، إنما هي نفخة من الشيطان، إنه لم يُنزَل كتاب بعد نبيكم، ولم يُنزَل بعد نبيكم، ولا يُنزَل بعد نبيكم -أي كتاب- فخرجوا، يقول: وجلسنا إلى عبد الله فقال: إن الشيطان إذا أراد أن يوقع الكذب انطلق، فتمثل رجلًا فيلقى آخر فيقول له: أما بلغك الخبر؟ فيقول الرجل: وما ذاك؟ فيقول: كان من الأمر كذا وكذا، فانطلق فحدث أصحابك، قال: فينطلق الآخر فيقول: لقد لقينا رجلًا، إني لأتوهمه أعرف وجهه زعم أنه كان من الأمر كذا وكذا، وما هو إلا شيطان"[٤].

الآن الشيطان كُفي كثيرًا من هذا عبر هذه الوسائل، تأتيك رسائل ما تدري من الذي كتبها ثم بعد ذلك تُنشر، وفيها من الضلالة ما الله به عليم.

يقول الليث بن سعد: قدم علينا شيخ من الإسكندرية يروي عن نافع وهو حي، فأتيناه فكتبنا عنه عن نافع، فلما خرج أرسلنا بها إلى نافع فما عرف منها شيئًا، فقال أصحابنا: ينبغي أن يكون هذا من الشياطين الذين حُبسوا"[٥].

---

(١) البداية والنهاية (٩/٣٥- ٣٦).

(٢) أخرجه مسلم في المقدمة، باب في الضعفاء والكذابين ومن يرغب عن حديثهم (١/١٢)، رقم: (٧).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) البدع لابن وضاح (١/٣٣)، رقم: (٨).

(٥) ذم الكلام وأهله (٤/٢٥٦)، رقم: (٧١٨).

يعني: مثل هذا يأتي بهذه الجرأة، ويحدث بهذه الأحاديث أو هذا ينادي بالناس فيذهبون إلى الجامع يصلون، الرجال والنساء، كيف يقبلون منه؟.

على كل حال، الكلام في هذا يطول، والخلاف قديم جديد، ولكنه قد يتفجر ويزداد في بعض الأوقات ويتفاقم، وقد يفتر في بعضها، وقد يكثر في ناحية، وقد يكثر في بعض المسائل، وكل زمن تتجدد فيه أشياء، وربما كانت قد اندثرت، فيأتي من ينفخ فيها، ويثيرها ويحييها، وهكذا يحصل التفرق، وتتقلب بالناس الفتن والشرور، والسالم من سلمه الله -تبارك وتعالى.

نحن حينما نذكر مثل هذه الأشياء، وما في التاريخ فهذا نستفيد منه فوائد: أن الإنسان يكون عنده مناعة، وحصانة بإذن الله.

الأمر الثاني: ألا تظلم الدنيا في عينه، ويعتقد أن هذا نهاية المطاف، وأن يبتئس ويأس، فالشر موجود منذ قرون طويلة جدًّا، فلا نيأس، وإنما يطلب الإنسان النجاة، ويبحث عن المخرج، وعما تكون فيه عافيته وسلامته، فبعض الناس إذا رأى الخلافات يئس وترك، وأظلمت الدنيا في عينه، نقول: لا، وليس المقصود هو التهوين لما يجري من خلافات في عصرنا هذا.

نتائج الخلافات المتنوعة:

بعد ذلك ننتقل إلى الأمر السابع:

هذه الأمور التي سمعتموها، وهذه الخلافات الكثيرة بأسبابها المتنوعة، ماذا نتج عنها؟ ماذا أورثت؟.

يعلق الشيخ عبدالرحمن بن سعدي -رحمه الله- على قوله: **{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}** [آل عمران: ١٠٣]، ويذكر أن الله أمر بما يعينهم على التقوى، وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، يقول: "فإن اجتماع المسلمين على دينهم وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم، وتصلح دنياهم، وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عده من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم، وتنقطع روابطهم، ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام"[(١)].

وهكذا ابن القيم يعلق على قوله -تبارك وتعالى-: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}** [الأنفال: ٤٥-٤٦].

فيقول: "إن الله أمر المجاهدين بخمسة أشياء، ما اجتمعت في فئة قط إلا نُصرت، وإن قلّت وكثر عدوها، وذكر الأول: الثبات، الثاني: كثرة ذكر الله -عز وجل-، الثالث: طاعة المعبود -سبحانه وتعالى-، وطاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، الرابع: اتفاق الكلمة، وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن، وهو جند يقوِّي به المتنازعون عدوهم عليهم، فإنهم في اجتماعهم كالحزمة من السهام لا يستطيع أحد كسرها، فإذا فرقها وصار كل واحد منهم على حدة فإنها تكسر ويسهل ذلك، الخامس: ملاك ذلك وأساسه هو الصبر.

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٤٢).

يقول: هذه خمسة أشياء تُبتنى عليها قبة النصر، ومتى زالت أو بعضها زال من النصر بحسب ما نقص منها، وإذا اجتمعت قوّى بعضها بعضًا، وصار لها أثر عظيم في النصر.

يقول: لما اجتمعت الصحابة -رضي الله عنهم- على هذه الأمور لم تقم لهم أمة من الأمم، وفتحوا الدنيا، ودانت لهم العباد والبلاد، ولمّا تفرق مَن بعدهم آل الأمر إلى ما آل إليه"[1]. كما نشاهد.

فهذه عوامل النصر الحقيقية التي ذكرها الله -عز وجل- في هذه الآية، والله يقول: **{وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}** [الأنفال: ٤٦].

التنازع الذي يوجب تشتت القلوب، والتفرق، فيحصل الفشل، والضعف، والوهن، والهزيمة.

كونوا جميعًا يا بَنيّ إذا اعترى *** خطبٌ ولا تتفرقوا أفرادا

تأبى الرماحُ إذا اجتمعنَ تكسُّرًا *** وإذا افترقنَ تكسرتْ آحادا

الطاهر بن عاشور -رحمه الله- يعلق على هذه الآية: **{وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}** يقول: "وأما النهي عن التنازع فهو يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك: بالتفاهم، والتشاور، ومراجعة بعضهم بعضًا، حتى يصدروا عن رأي واحد، فإن تنازعوا في شيء رجعوا إلى أمرائهم، لقوله تعالى: **{وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ}** [النساء: ٨٣].

وهكذا **{فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ}** [النساء: ٥٩]. يقول: "والنهي عن التنازع أعم من الأمر بالطاعة لولاة الأمور؛ لأنهم إذا نُهوا عن التنازع بينهم فالتنازع مع ولي الأمر أولى بالنهي، ولما كان التنازع من شأنه أن ينشأ عن اختلاف الآراء -وهو أمر مرتكز في الفطرة- بسط القرآن القول فيه ببيان سيئ آثاره، فجاء بالتفريع بالفاء في قوله: **{فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}**، فحذرهم أمرين معلومًا سوء مغبتهما، وهما: الفشل، وذهاب الريح".

ثم بعد ذلك يقول: "وإنما كان التنازع مفضيًا إلى الفشل؛ لأنه يثير التغاضب، ويزيل التعاون بين القوم، ويُحدث فيهم أن يتربص بعضهم ببعضٍ الدوائر، ويُحدث في نفوسهم الاشتغال باتقاء بعضهم بعضًا، وتوقُّع عدم إلفاء النصير عند مآزق القتال"[2]. كل هذا -للأسف- شيء مشاهد، واقع نراه اليوم.

وشيخ الإسلام -رحمه الله- يعدد خمسة من أنواع الفساد الذي يترتب على التنازع، يذكر من هذا: جهل كثير من الناس بالأمر المشروع، والمسنون الذي يحبه الله، ويحبه الرسول، يعني: يبقى كثير من الناس في حيرة الحق مع من؟.

وهكذا التظالم، والبغي والتباغض والتقاطع، والبراءة من المخالف وإن كان أحب إلى الله من الموافق، وقد ينهى عن شيء ما نهاه الله عنه، وكذلك اتباع الظن والهوى، كما يقع بين أهل الأهواء الخارجين من السنة والجماعة، وكذلك التفرق والاختلاف، والطعن، والتشهير، والاعتداء، بدلًا من الاجتماع والائتلاف، والموالاة، وكذلك شك

---

(١) الفروسية (ص: ٥٠٥- ٥٠٦).

(٢) التحرير والتنوير (٣١/١٠).

كثير من الناس، ولربما يطعنون بعقائد أهل السنة ومذهبهم، وما هم عليه، ولربما طعنوا بالنصوص بسبب ما يرون من الممارسات والاختلاف الكبير.

كما يحصل أيضًا تسلط الأعداء، وشيخ الاسلام -رحمه الله- يقول: إن بلاد الشرق من أسباب تسليط الله التتر عليها كثرة التفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرها[1].

ونحن ما تسلط الأعداء في هذا العصر علينا إلا بسبب تفرقنا وتشتتنا وانقسامنا على أنفسنا، فنحن لا نحقق نصرًا مؤزرًا، وإنما يبقى المسلمون في حال من الطحن، ولا يكاد هؤلاء يراوحون، أو يتجاوزون ذلك الموضع، بل قد يتحول هذا المخالف، أو هذه الطائفة إلى مِعول هدم.

وابن حزم -رحمه الله- يقول: إن جميع فرق الضلالة لم يُجرِ الله على أيديهم خيرًا، ولا فتح بهم من بلاد الكفر قرية، ولا رفع للإسلام راية، وما زالوا يسعون في قلب نظام المسلمين، ويفرقون كلمة المؤمنين، ويسلُّون السيف على أهل الدين، ويسعون في الأرض مفسدين".

إلى أن يقول: "فالله الله أيها المسلمون، تحفظوا بدينكم، الزموا القرآن، وسنن النبي -صلى الله عليه وسلم- وما مضى عليه الصحابة -رضي الله عنهم- والتابعون وأصحاب الحديث عصرًا بعد عصر، الذين طلبوا الأثر فلزموا الأثر، ودعوا كل محدثة وضلالة"[2].

وانظر إلى معاول الهدم، انظر إلى هؤلاء الخوارج ماذا فعلوا مع عبدالله بن خباب، وما فعلوا مع أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وما فعلوا مع عليٍّ -رضي الله تعالى عنه-، ولما كلمهم عليٌّ -رضي الله عنه- وطلب منهم أن يخرجوا القتلة، قالوا: كلنا قتلة، ولئن ظفرنا بك قتلناك.

وهكذا لما برز حرقوص بن زهير إلى عليٍّ، وقال: يا ابن أبي طالب، والله لا نريد بقتالك إلا وجه الله والدار الآخرة.

انظر كيف تتحول الجهود والشجاعة والعزائم القوية، وبذل النفوس إلى تدمير وإفساد.

مقتل علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-:

في صفة مقتل عليٍّ -رضي الله تعالى عنه- يذكر العلماء أن ثلاثة من الخوارج، وهم: عبدالرحمن بن عمرو المعروف بابن ملجم يصفونه ويقولون: هذا كان من كندة، أو حليف لبني حنيفة من كندة، يقولون: كان أسمر اللون، حسن الوجه، أبلج الشعر، لاحظ ما كان محلوقًا، **((سيماهم التحليق))** [3] يعني: هذه سمة غالبة فيهم، ولا يعني أن من لم يكن محلوقًا لا يكون من الخوارج، قد يكون شعره طويلا وهو من الخوارج.

فهذا عبدالرحمن بن ملجم كان شعره مع شحمة أذنيه، وفي وجهه أثر السجود، والآخر يقال له: البرك بن عبد الله التميمي، والثالث: عمرو بن بكر التميمي، اجتمعوا فتذاكروا قتل عليٍّ لإخوانهم في النهروان، فترحموا عليهم وقالوا: ماذا نصنع بالبقاء بعدهم؟.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٥٤).

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (١٧١/٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق، وأصواتُهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم (١٦٢/٩)، رقم: (٧٥٦٢).

كانوا لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شرينا أنفسنا، فأتينا أئمة الضلال، من هم أئمة الضلال؟ علي ومعاوية وعمرو بن العاص –رضي الله عنهم– هؤلاء أئمة الضلال عندهم.

يقولون: فقتلناهم، فأرحنا منهم البلاد، وأخذنا منهم ثأر إخواننا، قال ابن ملجم: أما أنا فأكفيكم علي بن أبي طالب.

وقال البرك: أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر: وأنا أكفيكم عمرو بن العاص، فتعاهدوا وتواثقوا ألا ينكص رجل منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه، فأخذوا أسيافهم فسمّوها، فسقوها السم بحيث لو كانت جراحة يسيرة يمكن أن تسري حتى يصير ذلك بليغًا فيقتل صاحبه.

يقول ابن كثير: واتعدوا لسبع عشرة من رمضان، أن يبيت كل واحد منهم صاحبه في بلده الذي هو فيه، فأما ابن ملجم فسار إلى الكوفة، فدخلها، وكتم أمره حتى عن أصحابه من الخوارج الذين هم بها، فبينما هو جالس في قوم من بني الرباب يتذاكرون قتلاهم يوم النهروان، إذ أقبلت امرأة منهم يقال لها قطام، قد قتل عليٌّ يوم النهران أباها وأخاها، وكانت فائقة الجمال مشهورة به، وكانت قد انقطعت في المسجد الجامع تتعبد فيه، فلما رآها ابن ملجم سلبت عقله، ونسي حاجته التي جاء لها، وخطبها إلى نفسها، فاشترطت عليه ثلاثة آلاف درهم، وخادمًا، وقينة، وأن يقتل لها علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– قال: فهو لك، ووالله ما جاء بي إلى هذه البلدة إلا قتل عليٍّ.

فتزوجها، ودخل بها، ثم شرعت تحرضه على قتله، وندبت له رجلًا من قومها من تيم الرباب، يقال له: وردان، ليكون معه، واستمال عبدالرحمن بن ملجم رجلًا آخر يقال له: شبيب بن نجدة بن أشجع الحروري، قال له ابن ملجم: هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟.

قال: وما ذاك؟ قال: قتل عليٍّ، فقال: ثكلتك أمك، لقد جئت شيئًا إدًّا، كيف تقدر عليه؟ قال: أكمن له في المسجد، فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه، فقتلناه، فإن نجونا شفينا أنفسنا، وأدركنا ثأرنا، وإن قُتلنا فما عند الله خير من الدنيا.

فقال: ويحك، لو غير عليٍّ كان أهون عليّ، قد عرفت سابقته في الإسلام، وقرابته من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فما أجدني أنشرح صدرًا لقتله.

قال: أما تعلم أنه قتل أهل النهروان؟ قال: بلى، قال: فنقتله بمن قتل من إخواننا، فأجابه هذا الرجل بعد لَأْيٍ، ودخل شهر رمضان، فواعدهم ابن ملجم ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت، وقال: هذه الليلة التي واعدت أصحابي فيها أن يثأروا بمعاوية وعمرو بن العاص، فجاء هؤلاء الثلاثة: ابن ملجم ووردان وشبيب وهم مشتملون على أسيافهم، فجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي –رضي الله عنه–، فلما خرج جعل يُنهض الناس من النوم إلى الصلاة في المسجد؛ لأن الناس هم نيام في المسجد، ويقول: الصلاة، الصلاة، فثار إليه شبيب بالسيف فضربه فوقع في الطاق، فضربه ابن ملجم بالسيف على قرنه فسال دمه على لحيته –رضي الله عنه–، ولما ضربه ابن ملجم قال –يعني ابن ملجم–: لا حكم إلا لله، ليس لك يا عليُّ، ولا لأصحابك.

وجعل يتلو قوله تعالى: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}** [البقرة: ٢٠٧].

فنادى عليٌّ: عليكم به، وهرب وردان، فأدركه رجل فقتله، وذهب شبيب، ونجا بنفسه وفات الناس، فأمسك ابن ملجم، وحُمل عليٌّ –رضي الله عنه– إلى منزله، وحُمل إليه ابن ملجم، فوُضع بين يديه وهو مكتوف –قبحه الله– فقال له: أيْ عدو الله، ألم أحسن إليك؟ قال: بلى، قال: فما حملك على هذا؟ قال: شحذتُه أربعين صباحًا، وسألت الله أن يقتل به شر خلقه، فقال له عليٌّ: لا أراك إلا مقتولًا به، ولا أراك إلا من شر خلق الله، ثم قال: إن مت، فاقتلوه به.

ابن ملجم هذا امتدحه عمران بن حطان، وعمران بن حطان عرفنا أنه أيضًا كان من العُباد، ونسأل الله العافية.

أما صاحب معاوية –وهو البرك– فإنه حمل عليه وهو خارج إلى صلاة الفجر، فضربه بالسيف، وقيل: بخنجر مسموم، فجاءت الضربة في الورك، فجرحت أليته، وأمسك هذا الخارجي فقتل.

وأما عمرو بن العاص فجاءه عمرو بن بكر، وكمن له إذا أراد الخروج من الصلاة، فعمرو بن العاص وافق أنه أصابه مغص، فما خرج إلى الصلاة في ذلك اليوم، وإنما خرج نائبه، وهو خارجة بن أبي حبيبة من بني عامر بن لؤي، وكان على الشرطة، فحمل عليه الخارجي، فقتله يعتقد أنه عمرو بن العاص، وضُربت عنقه[1].

عليٌّ –رضي الله عنه– لما قتل ما الذي حصل؟ دفن سرًّا بالليل، خير أهل زمانه يدفن سرًّا ليلًا! واختلفوا في الموضع، وأُخفي موضع القبر لئلا ينبش، وهو الخليفة.

فقيل: دفن بدار الإمارة بالكوفة؛ خوفًا عليه من هؤلاء الخوارج، وقيل: إنه دفن في ناحية المسجد من جهة جامع الكوفة، وقيل غير ذلك.

الشاهد أنه صُلي عليه بالليل، وعُمّي موضع القبر، لكنهم يقولون: قريب من قصر الإمارة دفنه الحسن والحسين وابن الحنفية، وعبدالله بن جعفر، وغيرهم من أهل بيته، عمُّوا قبره، أخفوا القبر لهؤلاء الأشرار.

خذ من الآثار في حوداث سنة تسع وسبعين للهجرة، يذكر الحافظ ابن كثير –رحمه الله– أنه قُتل فيها قَطري بن الفجاءة.

قَطري هذا ذكرنا لكم أخباره، وذكر ابن كثير طرفًا كبيرًا منها؛ شجاع، شاعر، خطيب، فصيح، بليغ، من كلامه وقصائده:

أقول لها وقد طارتْ شعاعًا *** من الأبطالِ ويحكِ لن تراعي
فإنكِ لو سألتِ بقاء يوم *** على الأجل الذي لك لن تطاعي
فصبرًا في مجال الموت صبرًا *** فما نيلُ الخلود بمستطاعِ

هذا الرجل كم قتل من الناس! وكم هزم من الجيوش! كل ذلك في سبيل الشيطان.

والناس أسرى لأفكارهم ومعتقداتهم، حينما يتفرق الناس يتبنى الإنسان فكرة، يموت دونها، ولو كانت ضلالة واضحة لا خفاء فيها.

---

(١) البداية والنهاية (٧/٣٦١-٣٦٥).

انظر: أبو أيوب الأنصاري -رضي الله عنه- في وقعة النهروان جاء إلى عليٍّ فقال: يا أمير المؤمنين، قتلت زيد بن حسين الطائي -من قادة الخوارج- يقول: طعنته في صدره حتى خرج السنان من ظهره، وقلت له: أبشر يا عدو الله بالنار، فقال: ستعلم غدًا أينا أولى بها صليًّا[1].

الرمح داخل في صدره وخارج من ظهره، والذي طعنه أبو أيوب الأنصاري -رضي الله عنه- ويقول في هذه اللحظات: ستعلم غدًا أينا أولى بها صليًّا، فقال له علي: هو أولى بها صليًّا.

عبدالرحمن بن ملجم هذا الذي قتل عليًّا ذكر بعض المؤرخين أنه شهد فتح مصر، وكان ممن أخذ القرآن، والفقه، وتلقى القرآن عن معاذ -رضي الله تعالى عنه- كان في الشام، وكان من الفرسان بمصر، وكان من العُباد، هذا الرجل كان من شيعة علي -رضي الله تعالى عنه- يقول بعض المؤرخين: "ثم أدركه الكتاب -يعني القدر- وفعل ما فعل، وهو عند الخوارج من أفضل الأمة، وكذلك تعظمه النصيرية" انظر التناقض! "يقولون -يعني النصيرية-: إن ابن ملجم أفضل أهل الأرض خلص روح اللاهوت من ظلمة الجسد وكدَرِه"[2] هم يعتقدون بتأليه علي -رضي الله عنه- يقولون: خلصه من الناسوت يعني من الجسد وظلمته، يقول: فاعجبوا يا مسلمين لهذا الجنون.

ابن ملجم هذا يقال: إن عبدالله بن جعفر قطع يديه ورجليه وكحلت عيناه -يعني جيء بمسمار محمى ففقئت عيناه- وهو مع ذلك يقرأ سورة: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}** [العلق: ١] إلى آخرها، يقولون: ثم جاءوا ليقطعوا لسانه، فجزع، وقال: إني أخشى أن تمر عليّ ساعة لا أذكر الله فيها، ثم قطعوا لسانه ثم قتلوه، يقول بعض المؤرخين: قيل إنه قطعت يداه ورجلاه، ولم يتأوه بل يتلو القرآن، فلما أرادوا قطع لسانه امتنع عن إخراجه فتعبوا في ذلك، فقيل له: قطعت يداك ورجلاك وما تألمت، وما امتنعت، فما هذا الامتناع من قطع لسانك؟ فقال: لئلا تفوتني تلاوة القرآن، لا يفوتني شيء من ذلك وأنا حي، فشقوا شدقه وأخرجوا لسانه بكُلاب وقطعوه[3].

كيف يقف الإنسان مع الباطل، ويموت إلى آخر لحظة، وقد يعتقد أصحابه الضُلال أن هذا من الكرامات، والمبشرات؟

يقال: أول سيف سُل من سيوف الخوارج هو سيف عروة بن حدير، هذا ممن نجا في النهروان، وبقي إلى أيام معاوية، هذا الرجل وقف أمام زياد بن أبيه -وزياد بن أبيه من الأمراء والقادة الذين كانوا من أصحاب البطش والعسف- ومعه مولى له، فسأله زياد عن أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- فقال فيهما خيرًا، سأله عن عثمان فقال: كنت أوالي عثمان على أحواله في خلافته ست سنين، ثم تبرأت منه بعد ذلك للأحداث التي أحدثها، وشهد عليه بالكفر.

وسأله عن أمير المؤمنين عليٍّ -رضي الله عنه- فقال: كنت أتولاه إلى أن حكّم الحكمين، ثم تبرأت منه بعد ذلك، وشهد عليه بالكفر، فسأله عن معاوية -وزياد بن أبيه هذا قريب معاوية- فسبه سبًّا قبيحًا، ثم سأله عن

---

(١) الكامل في التاريخ (٢/٦٩٥).

(٢) الوافي بالوفيات (١٨/١٧٢)، والفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/١٤٣).

(٣) لوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٤٩)

نفسه، قال: ما تقول فيّ؟ فقال: أوَّلُك لَزَنْية وآخرك لدعوة –يعني: أنت دعيّ، حتى النسب غير صحيح، زياد بن أبيه ويقال: زياد بن أبي سفيان–، وأنت فيما بينهما بعدُ عاصٍ ربك.

فأمر زياد بضرب عنقه، ثم دعا مولاه، فقال له: صف لي أمره واصدق، فقال: أَأُطنب أم أختصر؟ قال: بل اختصر، قال: ما أتيته بطعام في نهار قط –ما معنى هذا؟ صيام دائم–، ولا فرشت له فراشًا بليلٍ قط[1]. يعني: قيام طول الليل، هذا الضال الذي يموت على الباطل، انظر كيف يموت الناس على أفكارهم ومعتقداتهم، نسأل الله العافية.

الواحد يسأل ربه أن يعافيه، أن يخلصه، أن ينجيه، اللهم سلم سلم، كأن الإنسان راكب في بحر، اللهم سلم، اللهم سلم، ما يذهب ويقرأ في مواقع يذهب هنا وهناك، ويجلس مع زيد وعمرو ممن يخلطون، ثم بعد ذلك يطلب النجاة، لا تجلس مع صاحب لوثة، ولا تقرأ لصاحب لوثة، وإذا أرسل لك مقطعًا امسح لا تقل: أسمع وأقرأ، ثم بعد ذلك يعلق في قلبك الشر، ولا تستطيع الخروج منه، قد لا يكون عندك من المدارك والعلم، ينقل لك شبهًا، ينقل لك كلامًا لأهل العلم، أو غير ذلك، ولا تعرف الجواب عنه، وهو في غاية الضلال.

انظر كيف هؤلاء يصبرون على باطلهم، أعطيكم مثالًا آخر: هذا بابك الخُرَّمي لما أُدخل مع أخيه على المعتصم قال له أخوه: يا بابك، إنك قد عملت عملًا لم يعمله أحد، فاصبر الآن صبرًا لم يصبره أحد، فقال له: سترى صبري، فلما صار بحضرة المعتصم أمر بقطع أيديهما بحضرته، فبدأ ببابك، فقطعت يمناه، فلما جرى الدم مسح به وجهه كله، انظر هذا الضلال، والجلد.

فقال المعتصم: سلوه لم فعل هذا؟ فسُئل، فقال: قولوا للخليفة: إنك أمرت بقطع أربعتي، وفي نفسك أنك لا تكويها وتمنع دمي حتى ينزف إلى أن تضرب رقبتي، فخفت أن يخرج الدم مني فيبقى في وجهي صفرة يقدَّر لأجلها – يُقدِّر من حضر– أني قد فزعت من الموت، وأنها لذلك لا من خروج الدم، فغطيت وجهي لذلك حتى لا تبين الصفرة[2].

يقول: أنا أنزف إذا قطعت أطرافي الأربعة، فتظهر الصفرة في وجهي، فيُظن أني خائف، وأنا لست بخائف، فغطى وجهه بالدم بعد قطع يمينه، نسأل الله العافية، هذا الجَلَد والاستماتة والصبر إلى آخر لحظة، جلد منقطع النظير، وهل هناك أحد يشك بضلال بابك الخُرَّمي؟!.

هذا رجل يقال له: علي بن أبي الفضل الحلبي رافضي قدم دمشق فأظهر الرفض، وجاهر به حتى دخل الجامع الأموي رافعًا صوته بسبّ أول من ظلم آل محمد.

الجامع الأموي، وهؤلاء أهل سنة، فرفع صوته بسب أول من ظلم آل محمد، وكان الناس حينئذ في صلاة الظهر فأخذوه بين يدي السبكي القاضي، فسأله: من تعني؟ قال: أبا بكر الصديق، ثم رفع صوته فقال: لعن الله فلانًا، وفلانًا، وذكر الخلفاء الثلاثة الراشدين بأسمائهم، انظر الجلد.

---

(١) الملل والنحل (١١٨/١).

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٧٧/١١– ٧٨).

وعطف عليهم معاوية، ويزيد، وكرر ذلك، فأمر به إلى السجن، ثم أحضره بعدُ فعرض عليه التوبة، فامتنع فعُقد له مجلس، وأمر قاضي المالكية بضربه بالسياط، فلم يرجع، وأعيد عليه ذلك مرارًا، وهو يبالغ فيما هو فيه من السب واللعن الصريح، فحكم القاضي المالكي بسفك دمه، هذا في سنة سبعمائة وخمس وخمسين، فقتل، وأخذ العامة رأسه طافوا به في البلد[1].

انظر إلى هذا الجلد!، ما حاجته لذلك؟، نكايةً بأهل السنة وتشفيًّا يقوم في جامع دمشق، ويسب ويصر إلى آخر لحظة، ويعرف أنه سيقتل، وما استعمل التقية، جَلَد أهل الباطل يموت هؤلاء دونه، فالناس أسرى لأفكارهم ومعتقداتهم.

إذا دخل هذا الداء –داء الكلب– فإنه لا يبقى منه عرق، ولا مفصل حتى يصل إليه، بل قد يصير ذلك إلى سوء الخاتمة.

وقد نقل الشاطبي في "الاعتصام" عن عبد الحق الإشبيلي: أن سوء الخاتمة لا يكون لمن استقام ظاهره، وصلح باطنه يقول: ما سمع بهذا قط، ولا علم به، والحمد لله، وإنما يكون لمن كان له فساد في العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، أو لمن كان مستقيمًا ثم تغيرت حاله –انتكس– وخرج عن سننه، وأخذ في غير طريقه، فيكون عمله ذلك سببًا لسوء خاتمته، وسوء عاقبته والعياذ بالله، قال تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}** [الرعد: ١١][2].

من هذه الآثار ظهور أهل الباطل بباطلهم على أهل الحق: كما جاء عن الشعبي: "ما اختلفت أمة بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها"[3].

هذا بالإضافة إلى فساد القلوب، وهذا الفساد يظهر على الجوارح –كما ذكرنا فيما سبق–، وقد ذكر شيخ الإسلام في كتابه "الاستقامة" الحُسن والجمال الذي قد يكون في وجه الإنسان في أيام الصِّبا، ونحو ذلك ويكون صاحبه على فساد وباطل كيف يتحول ذلك، وذكر أشياء من أحوال بعض أهل البدع، وكيف أنه يموت أو يصير في آخر عمره وجهه يشبه الخنزير.

الشاهد أن شيخ الإسلام يقول: "وهذا الحسن والجمال الذي يكون عن الأعمال الصالحة في القلب يسري إلى الوجه، والقبح والشيْن الذي يكون عن الأعمال الفاسدة في القلب يسري إلى الوجه"[4].

يظهر في وجهه، هذا الذي يحمل الغل على إخوانه المسلمين وجهه أسود مظلم، لا تستطيع أن تمعن النظر إليه، بينما هذا الإنسان الذي على سنة، وعلى عمل طيب، ويحب لإخوانه ما يحب لنفسه، وناصح، تجد أنك إذا نظرت إليه ذكرت الله، تحب النظر إليه، لماذا؟.

---

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١١٣/٤).

(٢) الاعتصام للشاطبي (١٧٠/١).

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣١٣/٤)، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٣٧٠/٧)، رقم: (٧٧٥٤)، عن ابن عمر.

(٤) الاستقامة (٣٦٤/١).

هذه القلوب الذي فيها يسري إلى الوجه، هذا بالإضافة إلى ما يؤثره هذا الاختلاف من التراشق والسلق بألسن حداد والوقيعة في الأعراض، بخلاف الرحمة التي كان ينبغي أن تكون بين المؤمنين **{رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}** [الفتح: ٢٩]، هم أشداء على الكفار، لكن تتحول القضية إلى شيء آخر –نسأل الله العافية–، ويشتغل الناس بعضهم ببعض، ولذلك كانت الحالقة تحلق الدين، فيشتغل الناس ببعضهم، ويحصل الفشل، وذهاب الريح، وتتبدد المصالح، وتحصل الهزائم إلى غير ذلك.

هذا رجل جاهلي كان مقربًا لدى ملك الفرس، وهو من العرب، وكان شاعرًا فحلًا، وأرسل بقصيدة طويلة جميلة يُذكّر بها قومه أمرًا، ويخوفهم من مغبة ما هم فيه من الغفلة والإمعان في الشهوات واللذات، وما إلى ذلك، وعدوهم –وهم الفرس– قد تهيئوا لحربهم وقتلهم واستئصالهم، قصيدة طويلة، لكن أختار منها بعض الأبيات يقول:

بل أيها الراكبُ المُزجِي على عجل *** نحو الجزيرة مرتادًا ومُنتجِعا
أبلِغ إيادًا وخلِّلْ في سراتِهمُ *** إني أرى الرأي إن لم أُعصِ قد نصعا

إياد: قومه، هو إياديّ

يا لهف نفسي إن كانت أموركُمُ شتّى *** وأُحكِمَ أمرُ الناس فاجتمعا
ألا تخافون قومًا لا أبا لكُمُ *** أمسَوا إليكم كأمثال الدَّبا سُرُعًا

الدَّبا: صغار الجراد.

أبناء قومٍ تآووكم على حنقٍ *** لا يشعرون أضرَّ اللهُ أم نفعا
أحرار فارس أبناءُ الملوك لهم من *** الجموعِ جموعٌ تزدهي القلعا
فهم سِراعٌ إليكم بين ملتقطٍ شوكًا *** وآخرَ يجني الصَّاب والسَّلعا
لو أن جمعهمُ راموا بهدّته *** شُمَّ الشماريخ من ثهلان لانصدعا
في كل يوم يسنّون الحراب لكم *** لا يهجعون إذا ما غافلٌ هجعا
خزرٌ عيونهم كأن لحظهم *** حريقُ نار ترى منه السَّنا قِطعا
لا الحرث يشغلهم بل لا يرون لهم *** من دون بيضتكم رِيًّا ولا شِبعا
وأنتم تحرثون الأرض عن عرضٍ *** في كل معتملٍ تبغون مزدرعا

مشغولون أنتم بالزرع، والضرع والبقر وما إلى ذلك.

ويقول:

وتلبسون ثياب الأمن ضاحيةً *** لا تفزعون وهذا الليثُ قد جمعا
أنتم فريقان هذا لا يقوم له *** هصرُ الليوثِ وهذا هالكٌ صقعا
وقد أظلكمُ من شطرِ ثغركمُ *** هولٌ له ظُلَمٌ تغشاكمُ قِطعا
ما لي أراكم نيامًا في بُلَهْنِيَةٍ *** وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا
فاشفوا غليلي برأيٍ منكمُ حسنٍ *** يُضحي فؤادي له ريّان قد نقعا

قصيدة جميلة طويلة يحذرهم من قوم يسنون الرماح لهم وهم في لهو وغفلة، وترف، وشهوات، هذه تشبه الحالة التي نعيشها، اختلاف وتفرق، والأعداء أحاطوا بنا إحاطة السوار بالمعصم.

انظر فيما حولك من البلاد، انظر إلى أحوال أهل السنة وما هم فيه من التفرق، وانظر كيف يصنع العدو، ويعدّ العدة ويشتغل الليل والنهار، ونحن في غفلة، نحن في غفلة.

أسأل الله –عز وجل– أن يلطف بنا، وأن يبرم لهذه الأمة أمرًا رشدًا، يعز فيه أهل طاعته، ويكبت فيه أهل الفتنة والشر والفساد والضلال، اللهم ارحم موتانا، واشفِ مرضانا، وعافِ مبتلانا، واجعل آخرتنا خيرًا من دنيانا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الاختلاف وموقفنا منه

(١١) كيف نتعامل مع الخلاف ونبذ الفرقة وشروط مسوغات الخلاف

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته، تحدثنا عن الأسباب التي أودت بالأمة إلى الاختلاف، وذكرنا جملة من الآثار التي نتجت عن ذلك.

بقي الحديث عن أمرين مهمين لابد من الحديث عنهما:

الأول: كيف نتعامل مع الاختلاف؟ من أجل أن لا نقع فيما وقع فيه أولئك.

الثاني: وهو ما يتصل بالطريق إلى الاجتماع، كيف يتحقق الاجتماع، وننبذ الفرقة والاختلاف؟.

نحن بحاجة إلى مثل هذه القضايا والتبصر بها؛ لأننا نعيش في واقع نعرفه جميعًا، أصبحنا نهدم ما نبني ونشتت شملنا، ونفرق جمعنا، ولربما يكون ذلك بنية صالحة، بقصد الغيرة على الدين، أو إنكار الخطأ والانحراف، ولكن ذلك يكون بطريقة تهدم ولا تبني.

كيف نتعامل مع الاختلاف؟

فأول ذلك مما نحتاج أن نتبصره فيما يتصل بالتعامل مع الاختلاف: أن ندرك أولًا أن الاختلاف سنّة كونية، وقضية حتمية، والله -تبارك وتعالى- يقول: **{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}** [هود: ١١٨، ١١٩].

بعض أهل العلم يقولون: "ولذلك" أي: للرحمة، للاجتماع، ولم يخلقهم للاختلاف، ولكن هذا أيضًا ليس محل اتفاق بين أهل العلم.

فمنهم من يقول: "ولذلك خلقهم" يعني للاختلاف؛ لأن سنته الكونية قد اقتضت ذلك، فهما قولان معروفان.

وليس المقام هنا في بيان الراجح من القولين، وإنما الإشارة إلى هذا المعنى على أحد الاحتمالين.

فلا شك أن الاختلاف أمر متحقق الوقوع، لكن هذا يرجع إلى جملة من الأمور، نحن لابد أن ندرك التفاوت الذي قدره الله -عز وجل- وقضاه في هذا الخلق، التفاوت في القُدر، والإمكانات، والعقول، والمدارك، التفاوت في العلم والمعرفة، فالناس يتفاوتون، يتفاوتون في النظر، والاجتهاد في طلب الحق، إلى غير ذلك من الجوانب.

فيبدو لهذا ما لا يبدو للآخر، كما قال شيخ الإسلام -رحمه الله- بأنه ليس كل ما كان معلومًا متيقَّنًا لبعض الناس يجب أن يكون معلومًا متيقَّنًا لغيره، وليس كل ما قاله النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلمه كل الناس

ويفهمونه، بل كثير منهم لم يسمع كثيرًا منه، وكثير منهم قد يشتبه عليه ما أراده، وإن كان كلامه في نفسه محكمًا مقرونًا بما يبين مراده[1].

إذًا الناس يختلفون ولابد؛ نظرًا لاختلاف العقول والمدارك في معرفة الأحكام، المقاصد، المآلات، تقدير المصالح.

كذلك يختلفون حتى في الأمور العادية في الأمزجة، والأذواق، والطبائع، والميول، فهذا يستحسن ما لا يستحسنه الآخر من المطعوم، والآخر لربما يستحسن من الألوان أو يستحسن من المراكب، أو الأثاث أو غير ذلك من أنواع الأموال ما لا يستحسنه غيره.

فتجد هذا لربما يستهجن شيئًا أو يستقبحه، والآخر يكون في حال من السكرة حينما ينظر إليه معجبًا.

وهكذا فاوت الله -عز وجل- بين هؤلاء الخلائق، وهذه سنته الجارية، وهذا أمر مشاهد تجده في اللباس، وفي المساكن، والمراكب وغير ذلك مما يرتفق به الناس، فهذا لا ينكره أحد.

كذلك أيضًا يحصل التفاوت في التجرد في طلب الحق، والقدرة على التخلص من المؤثرات المتنوعة، مؤثرات نفسية، مؤثرات اجتماعية، إلى غير ذلك، والإنسان ابن بيئته كما يقال، يتأثر بها، والطبع لص، والناس كأسراب القَطا، جُبلوا على تشبه بعضهم ببعض.

فقد يصعب عليه الانفكاك من تأثير البيئة التي نشأ فيها، أو تأثير الطبيعة التي جُبل عليها، فهذا يميل إلى الشدة، وهذا يميل إلى اللين، فيؤثِّر في قوله، واختياره، وفتواه، وفي مواقفه ومصارمته، أو ملاينته، ونحو ذلك، إضافة إلى تفاوت المعلومات الشرعية أو الواقعية، يعني في الواقعة المعينة.

قد يخفى عليه بعض الجوانب والملابسات التي لو شرحت له لعذر غيره، أو لربما قال بقوله، لكن لديه بعض المعطيات، سمع من أحد الأطراف، قرأ كلامًا، فجعل ذلك هو الغاية والنهاية والفيصل الذي يتخذ من خلاله الحكم، أو الموقف الذي وقفه.

هذا كله يقع، فتختلف أحكامنا، وآراؤنا، ومواقفنا، والفتاوى التي تصدر عن المفتين، لكن قد يُعذرون في ذلك -كما سيأتي- حينما يستوفي المرء النظر ويكون مؤهلًا مع التجرد والإخلاص.

لكن المذموم -كما قال ابن القيم- بغي بعضهم على بعض وعدوانه، حينما أشار إلى هذه الأسباب التي تؤدي إلى الاختلاف لِمَا ذكرنا، وذكر أن الاختلاف إن كان على وجه لا يؤدي إلى الالتباس، وكان كل واحد من هؤلاء يقصد طاعة الله ورسوله لم يضر ذلك الاختلاف، فإنه أمر لابد منه في النشأة الإنسانية[2].

وحينما نقول: إن هذا أمر حتمي لابد منه، وإن علينا أن ندركه فليس معنى ذلك أن نبقى أمام الاختلاف في حال من الاستسلام والتسليم، ثم بعد ذلك تُمزق الأواصر، وتشتت الأمة.

فإذا كان هذا بقدر الله -عز وجل- فإنه أيضًا من قدر الله -عز وجل- ما يمكن أو يُطلَب مدافعته أيضًا بأمور

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٢٧٧/١).

(٢) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٥١٩/٢).

شرّعها الله –تبارك وتعالى.

فيقاوم ذلك بالقدر أيضًا، ويمكن أن نتوصل إلى رفع بعضه، أو نتوصل إلى التخفيف منه، أو التخفيف من آثاره ومضاره ومفاسده، من السعي بتقريب وجهات النظر، تأليف القلوب، جمع الكلمة، أن نضع الاختلافات في إطارها الصحيح دون غلو منا أو مبالغة، أو تضييع أو تفريط، فيكون الموقف يجمع ويسدد، ويبني في الإطار الشرعي من غير تضييع لحدود الله –عز وجل–، وإنما يكون على الوجه المشروع الذي يحبه الله –تبارك وتعالى– ويرضاه، فالجماعة رحمة، والفرقة عذاب كما ذكر أهل العلم كشيخ الاسلام[1] وغيره.

فنحن في البداية نحتاج أن ندرك هذا من أجل أن تتسع الصدور قليلًا، ولا يضيق العَطَن بكل من خالفنا، فتحمر الوجوه، ثم بعد ذلك نتخذ مواقف غير لائقة من المخالفين.

إذًا لابد أن نختلف، لكن كيف نتعامل مع هذا الاختلاف؟ فهذه هي المقدمة الأولى.

وأنت حينما تجمع من أهل الاختصاص من أهل العلم ممن يبحثون مسألة في اختصاصهم بحتة، وتجمع هؤلاء تحت سقف واحد، ويدرسونها دراسة مستفيضة وقد تهيئوا لها، وقرءوا ما أُعد وكتب فيها من قِبل الملقين.

ثم بعد ذلك يجتمعون ويناقشون، قد تجد أن بعض هؤلاء يذهب في الفهم شرقًا، والآخر يذهب في الفهم إلى الناحية المقابلة.

كل ذلك يرجع إلى ما ذكرنا أن الله –عز وجل– فاوت بين العقول، فهذا ينظر إلى هذه المسألة من زاوية، وهذا ينظر إليها من زاوية، فهذا يصدر حكمًا، وهذا يصدر حكمًا، مسألة بحتة لا تعلق لها بالأهواء، مسألة علمية، ويتناقشون فيها، ويتحاورون، وقد شهدت هذا بنفسي في بعض الملتقيات العلمية البحتة، ولا يحضر إلا أهل الاختصاص فقط، وهؤلاء يخرجون بهذا الرأي، والآخرون يخرجون بالرأي الآخر، وكلهم قد قرأ الأبحاث نفسها والأوراق التي قدمت، قرءوها من قبل، واطلعوا عليها، وهم من المختصين، ومع ذلك هذا يذهب هنا، وهذا يذهب هناك، فكيف إذا كانت المعلومات أصلًا متفاوتة، وهؤلاء في ناحية وأولئك في ناحية أخرى، ولا يحصل بينهم لقاء، ولا يسمع هذا من هذا؟، فهذا أدعى للاختلاف، والله المستعان.

التمييز بين أنواع الاختلاف:

بعد ذلك إذا عرفنا هذه المقدمة –وهي الأمر الأول– نحتاج أن نعرف أيضًا مقدمة أخرى وهي الأمر الثاني: أن نميز بين أنواع الاختلاف.

الاختلاف ليس على سَنن واحد، ولا نوع متحد، بل يتفاوت، يختلف، يتنوع، لكن المشكلة حينما لا نحسن التعامل معه، إما للخلط بين أنواعه، وإما للبغي –كما سبق– الذي يجعلنا نختلف اختلافًا مذمومًا فيما لا يُذم شرعًا من الاختلاف في أصله.

اختلاف التنوع:

فالاختلاف مثلًا منه ما يكون من قبيل التنوع، سواء كان اختلاف عبارة، أو اختلافًا في الأمر المشروع،

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/٤٢١).

كاختلاف القراءات الصحيحة المتواترة، أو اختلاف في أنواع التعبدات، أو اختلاف في الأبواب التي يُفتح على الإنسان من خلالها العمل الصالح.

فهذا يُفتح له في الدعوة إلى الله، وهذا يُفتح له في الذكر والقراءة وسائر العبادات البدنية مثلًا، ونحو ذلك، فهذا من قبيل اختلاف التنوع، لا إشكال فيه، وهو مطلوب، ويحصل به التكامل، وتنهض الأمة بفروض الكفايات، ولكن حينما يتحول هذا إلى نوع من الاختلاف المذموم فهذا لا يمكن أن يُقبل.

يعني إذا كان كما تعلمون أن السبب الرئيس في جمع عثمان -رضي الله عنه- الناس على مصحف واحد هو الاختلاف في وجوه القراءة، لما اجتمع الأجناد من أهل الشام والحجاز، والعراق في فتوح أرمينيا، وأذربيجان، فصار يقول هذا: قراءتي خير من قراءتك، وهذا يقول: قراءتي خير من قراءتك، وصار الاختلاف في مثل هذه القضايا، مع أن القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فهنا يفترض أن لا يكون هذا مجالا للأخذ والرد، ولا الإنكار ولا التفرق، ولكن الجهل أحيانًا، أو البغي يورث مثل هذه الأحوال والمواقف.

وشيخ الإسلام -رحمه الله- يذكر أن الاصول الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع هي بمنزلة الدين المشترك بين الأنبياء، ليس لأحد خروج عنها، ومن دخل فيها كان من أهل الاسلام المحض، وهم أهل السنة والجماعة، وما تنوعوا فيه من الأعمال والأقوال المشروعة فهو بمنزلة ما تنوعت فيه الأنبياء[1].

هذا عنده اهتمامات علمية، العلم وتعليم الناس، لا يعاب عليه، يقوم بفرض كفاية، وهذا يقوم بتلقين الصبيان، وذاك يقوم بدعوة غير المسلمين إلى الإسلام، هذا كله حق وعمل صالح، فلا يصح لأحد أن يحتقر عمل أحد، أو أن يجفو أخاه بسبب هذه الأمور، فهذا يرجع إلى نقص العقل قبل كل شيء، ثم أيضًا نقص العلم، واتباع الهوى.

للأسف هذا قد يؤدي بالأمة إلى شيء من التنافر والقتال أحيانًا، كما حصل مما يذكره شيخ الإسلام، على سبيل المثال: مسائل فقهية: شفع الإقامة وإيتارها، قوم من الجهال، أو من أهل التعصب هؤلاء يرون أن الإقامة تشفع، وهذه قضية ثابتة لا إشكال فيها، وهذا من باب التنوع في العبادات، وهؤلاء يرون الإيتار، فإذا جاء من يشفع وهم لا يعهدون هذا ولا يعرفونه قاموا عليه قومة رجل واحد[2].

وكما ذكرنا لكم في مسائل تتعلق بالتكبير، ونحو هذا، فهؤلاء لا يحتملون وجود المخالفة، ولو كان ذلك من قبيل العمل المشروع، فهذا تارة يفعلونه من باب الجهل، وتارة يفعلون ذلك من باب البغي واتباع الهوى.

وانظروا إلى ما يجري في بلاد قد توجد فيها أقليات إسلامية، فإذا جاء دخول شهر رمضان، أو جاء العيد، أو نحو ذلك تجد مسألة المطالع، واعتبار المطالع، أو إذا رآه بعض الأمة، هل يلزم ذلك الجميع؟ هذه مسائل خلافية، ولا يُطلب أن تتوحد الأمة جميعًا فيما يتعلق بدخول شهر رمضان، أو العيد.

لكن ما الذي يحصل؟ الذي يحصل بسبب الجهل والبغي أن هذا العيد قد يتحول إلى خلاف مرير، ولربما يصل

---

(١) المصدر السابق (١١٧/١٩).

(٢) المصدر السابق (٢٥٤/٢٢).

ذلك إلى الاقتتال.

هؤلاء يقولون: ما تصلون العيد اليوم، وهؤلاء يقولون: سنصلي اليوم، رُئي الهلال، ثم بعد ذلك يحصل ما لا يليق في بيوت الله -عز وجل- وأمام هؤلاء من الكفار يشاهدون وينظرون حال هؤلاء المسلمين في مثل هذه المناسبة.

يصل أحيانًا إلى عراك بالأيدي بين أهل المسجد، هؤلاء يقولون: نصلي، وهؤلاء يقولون: غدًا العيد، وهكذا، فمثل هذا لا يجوز بحال من الأحوال.

وكذلك قد يكون القول هو في معنى القول الآخر، وهذا من قبيل اختلاف التنوع، لكن اختلفت العبارة، فعند ذلك من الظلم أن يحصل التفرق بناء على هذا.

هذا عبر بهذه العبارة، وهذا عبر بهذه العبارة، أو نحو ذلك، المؤدى واحد، فهذا ليس باختلاف، إنما يكون اختلافًا عند الجهال.

وكذلك قد يتغاير المعنيان، ولكنهما غير متنافيين، ليس بينهما تنافٍ، فهذا قول صحيح، وهذا قول صحيح لا باعتبار أن كل مجتهد مصيب، ليس كذلك، لكن أحيانًا كما يقول شيخ الإسلام -رحمه الله-: قد يقع ذلك من جهة أن هذا الحكم صحيح باعتبار، وهذا الحكم صحيح باعتبار آخر[1]، فمن الخطأ أن يكون مثل هذا الاختلاف سببًا أيضًا للتفرق.

كذلك قد تكون كل طريقة من هذه الطرق، أو كل عمل من هذه الأعمال مشروعًا، ولكن البغي يجعل ذلك في لَبوس آخر، هذا كله من قبيل اختلاف التنوع الذي لا يوجب شرًّا، وليس باختلاف في حقيقته.

اختلاف التضاد:

أما اختلاف التضاد، أو حينما يكون القولان متنافيين، إما في الأصول وإما في الفروع، باعتبار أن المصيب واحد، وأن الحق عند الله واحد، ولا يقال: إن كل مجتهد مصيب.

فهذا يكون أحد القولين مرجوحًا، والآخر راجحًا، ومن ثَمّ ينبغي أن نعرف كيف نتعامل مع مثل هذا النوع الذي يحصل فيه مثل هذا التنافي.

فهو ليس على وزان واحد، إذ إن منه ما يكون سائغًا مبررًا مقبولًا، ومنه ما لا يكون كذلك، هذا النوع من الاختلاف -اختلاف التضاد- منه ما يُقبل، وله مسوغاته، والعلماء -رحمهم الله- ألفوا في هذا كثيرًا، وأشرت من قبل إلى كتاب: "رفع الملام عن الأئمة الأعلام" لشيخ الإسلام ابن تيمية وفيه يذكر أسباب اختلاف العلماء، سواء كان ذلك مما يرجع إلى النقل أو مما يرجع إلى المستدِل المجتهد في معطيات وأمور وأسباب معلومة.

فهذا الاختلاف -اختلاف التضاد- السائغ يكون من قبيل تنوع الاجتهادات في المسألة الواحدة، مما يحتمله النص الشرعي، وقد لا يمكن معه القطع بتخطئة أحد هذه الاجتهادات، لكن المسألة من باب غلبة الظن بأن هذا هو الراجح والآخر مرجوح.

---

(١) المصدر السابق (٣٢/٢٤٣).

فهنا لا يصح بحال من الأحوال إطلاق الأحكام بناء على ذلك بالتضليل والتفسيق، أو الرمي بالكفر، أو اتخاذ المواقف مما يتصل بالولاء والبراء بناء على الاختلاف في مسائل اجتهد فيها المجتهدون، فحصل الخطأ من بعضهم ووافق بعضهم الصواب؛ لأن ذلك مما يسوغ الخلاف فيه، ومن ثَمّ فإنه لا يمكن أن تقبل الشناعة في مثل هذه القضايا، سواء كان ذلك في مسائل الأحكام في العبادات، أو المعاملات، أو كان في غير ذلك من السياسات الشرعية، أو كان ذلك مما يتصل بالدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، أو غير هذا من الأمور، هذا يكون فيه التحاور والتناصح بين أهل العلم، بين النَّصَحة، بين الصادقين، بين المخلصين.

وشيخ الإسلام -رحمه الله- يذكر أن الصحابة -رضي الله عنهم- اختلفوا في مسائل علمية وعملية، ولكن بقيت المودة والألفة بينهم(١).

هل رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- ربه؟ هذه مسألة علمية، تتصل بالعقيدة، لكن لا يترتب عليها افتراق وتنازع مذموم يحصل معه التدابر والتقاطع واستحلال الأعراض، وما أشبه ذلك.

هل يعذب الميت ببكاء أهله عليه؟ هذه أيضًا من المسائل العلمية، فضلًا عن المسائل الفقهية في قضايا الأحكام.

فهنا حتى لو كنت تقطع بخطأ قول مخالفك، لكن يبقى أن هذا فيه مساغ، وأنه يمكن لهؤلاء من أهل العلم أن يجتهدوا، ومن ثَمّ فإنهم إذا اجتهدوا ستختلف اجتهاداتهم وآراؤهم، وهذا في المسائل التي لا يوجد فيها إجماع أو نص صحيح صريح، لا معارض له من جنسه، مع استفراغ الوسع -يعني: من غير تفريط-، والتجرد من الهوى والتعصب، فبهذه الحال إذا اختلفت الأقوال فإن أصحابها معذورون، من أصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد، وهكذا من يقلدهم؛ ولذلك نقول للعامة: لا تقلق إذا كنت قد سألت العالم، فقد فعلت ما أمرك الله به، فالله -تبارك وتعالى- يقول: **{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}** [النحل: ٤٣].

فحينما يسأل غير متخير لأقوالهم مما يوافق هواه -أعني العامي- وإنما يسأل من يثق بدينه وعلمه، فهذا هو الواجب عليه ولو كان ذاك الذي قد أفتاه وأجابه قد أخطأ في اجتهاده، فكما أن المجتهد معذور، فهكذا من قلده فهو معذور.

فإن أخطأ العالم الذي أفتاه فلا يلحق هذا العامي حرج، إلا إذا كان إنما قلده طلبًا لما يوافق هواه، يعني: هو يعرف أن هذا القول أسهل له، فيسأل هذا، أو يسأل هذا؛ لأنه يعرف أنه مرن -كما يقال- ويسهل، وفتاواه -كما يقال- سهله وسمحة، فهنا لا تبرأ ذمة العامي، أو أن يسأل اثنين أو أكثر، ثم بعد ذلك يتخير من أقوالهم ما يوافق الهوى، فإنه لا يكون معذورًا بهذه الحال.

لكن إذا سأل من يعتقد أنه تبرأ الذمة بفتياه لعلمه وورعه أو أنه الأعلم أو نحو ذلك والأورع فإنه يكون معذورًا بهذا الاعتبار.

وهؤلاء العلماء قد استفرغوا الوسع، وفعلوا ما أُمروا به ومن ثَمّ فإنهم معذورون، ويستوي في هذا المسائل العلمية

---

(١) المصدر السابق (١٧٢/٢٤).

والمسائل العملية لا فرق.

وحينما نقول: إن الشريعة تنقسم إلى أصول وفروع، أو إلى مسائل علمية وعملية، فإن هذا التقسيم لا أصل له شرعًا، ولم يُعهَد لدى أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- لكن غاية ما هنالك أننا نقول بأن هذا اصطلاح، ولا مشاحّة في الاصطلاح، مع أن العلماء -رحمهم الله- لم يتفقوا على ما يرجع إلى الأصول، وما يرجع إلى الفروع، لكن نقول: هذا لا بأس به في مقام التعليم، والتقريب والشرح والبيان.

فيقال: هذه مسائل كذا، وهذه مسائل كذا، لكن القاعدة أن الاصطلاح لا مشاحة فيه، بشرط ألا يُرتَّب عليه حكم، فإذا رُتب عليه حكم فإنه لا عبرة به.

كأن نقول مثلًا بأنه يعذر إذا أخطأ في مسائل الفروع، ولا يعذر إذا أخطأ في مسائل الأصول، أو يعذر إذا أخطأ في المسائل العملية ولا يعذر في المسائل العلمية.

نقول: هناك مقدمة قبل ذلك، وهي أن تقسيم الدين إلى أصول وفروع لا أصل له، والصحابة -رضي الله عنهم- اجتهدوا في هذا وهذا، ووقع منهم الخلاف، ومع ذلك لم يحصل تأثيم، ولا افتراق، ولا مشاحنة، ولا تدابر، أو استحلال للأعراض، والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، لا يكلف نفساً إلا ما آتاها.

بل إن شيخ الإسلام -رحمه الله- يرى أن المذاهب والطرائق والسياسات للعلماء والمشايخ والأمراء إذا قصدوا بها وجه الله تعالى دون الأهواء ليكونوا مستمسكين بالملّة والدين الجامع الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له واتبعوا ما أُنزل إليهم من ربهم من الكتاب والسنة بحسب الإمكان بعد اجتهادهم التام، هي لهم من بعض الوجوه بمنزلة الشرع، والمناهج للأنبياء وهم مثابون على ابتغائهم وجه الله وعبادته وحده لا شريك له[1].

هذا له طريقته في الدعوة، وهذا له طريقته في الدعوة، هذا له طريقته في التربية، وهذا له طريقته في التربية، إذا كان ذلك في الإطار الصحيح بما لا يخالف الشرع فهذا لا إشكال فيه، ولا يجوز غمز الناس، ولمز الناس، والتشاحن والتقاطع بسبب مثل هذه الأمور، فشيخ الإسلام يرى أن ذلك بمنزلة تنوع شرائع الأنبياء، فهل نحن تتسع صدورنا كما وقع لشيخ الإسلام من سعة الصدر، وحسن النظر والتعامل مع مثل هذه الأمور؟.

وله كلام في هذا يحسن مراجعته، والله -تبارك وتعالى- أيضًا لو شاء لجعل النصوص بحيث لا تحتمل غير وجه واحد، ولكن جعلها محتملة؛ لتتطرق إليها هذه الوجوه من الاحتمالات، سواء كان ذلك في نصوص القرآن أو السنة، ومن ثَمّ فإن العالم يفهم من هذه الآية معنى، والآخر يفهم منها معنى آخر.

وانظروا إلى كلام السلف -رضي الله عنهم- في التفسير، وفي غيره في استنباط الأحكام، وما إلى ذلك، فإن بعض ذلك يرجع لكون النص يحتمل، والمثال المشهور الذي يذكره العلماء في الاختلاف من جهة رجوعه إلى النص لكونه يحتمل: **((لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة))**[2]، فهذا يحتمل أن يكون المراد به الجد في السير لكن تصلى في الوقت، ويحتمل أن يكون على ظاهره بحيث إنه لا يصلي حتى يصل إلى بني قريظة،

---

(١) المصدر السابق (١٢٦/١٩).

(٢) أخرجه البخاري، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبًا وإيماء (١٥/٢)، رقم: (٩٤٦).

اختلفوا، ثم ماذا؟ لم يكن هذا الاختلاف سببًا للتباعد، والاشتغال ببعضهم، هذا يقول: أضعتم الصلاة حتى خرج الوقت، لو كان مثل أولئك الذين وصفنا حالهم من الخوارج لربما قالوا لهم: أخرتم الصلاة حتى خرج الوقت وإذا تركها حتى خرج الوقت من غير نسيان فإنه يكون كافرًا؛ لأنه قد تركها، والله جعل الصلاة على المؤمنين كتابًا موقوتًا، فلا يصح إيقاعها في غير وقتها، يمكن لجاهل من هؤلاء أن ينظر بمثل هذه الطريقة، لكن أصحاب النبي -صلى الله عليه سلم- لم يقع منهم شيء من ذلك.

ومن هنا فإن هذا المعنى ينبغي أن يعتبر، وعندها نقول: يجب أن يكون في مثل هذا النوع من الاختلاف إحسان الظن بالمخالف، ولا يجوز أن يتحول ذلك إلى نوع من المصارمة والمهاجرة والمقاطعة، وانتهاك الحقوق أو الرمي بالعظائم، بل تُحفظ له حقوقه ويُدعى له، ويحب لما فيه من الإيمان.

كذلك في مثل هذه القضايا فإن اللائق بأهل العلم هو المذاكرة والمدارسة مع بقاء الألفة والمودة، لا أن تكون القاعدة: من لم يكن معنا فهو علينا، هذا غير صحيح.

كذلك أيضًا ليس لأحد من الناظرين في الشريعة أن يطالب الآخرين ممن هم مؤهلون للاجتهاد أن يلغوا اجتهاداتهم، وأن يفكروا بعقله هو في مثل هذه الأمور التي يسوغ فيها الاجتهاد.

فلا يمكن أن يُطالَب الناس بمثل هذا ويقال لهم: ألغوا عقولكم، ولو فعلوا ذلك لكانوا آثمين، ولم تبرأ الذمة بفعلهم هذا وتقليدهم، وهم أهل للاجتهاد.

بل إن شيخ الاسلام -رحمه الله- تكلم على مثل هذا بكلام في غاية الشدة، يعني: فيمن ترك نظره واجتهاده فيما يسوغ فيه الاجتهاد وما توصل إليه؛ ليتبع غيره فيما يقوله أو يحكم به، يقول: حتى لو أوذي، حتى لو حبس، عليه أن يصبر، فهذه سنة الله في الأنبياء وأتباعهم[1].

ثم يذكر ما يجب على ولاة الأمور من منع التظالم، يقول: "فإذا تعدى بعضهم على بعض -يعني هؤلاء الذين يختلفون- فإنهم يمنعونهم من العدوان، فكيف يسوغ لولاة الأمور أن يمكِّنوا طوائف المسلمين من اعتداء بعضهم على بعض، وحكم بعضهم على بعض بقوله ومذهبه؟.

يقول: هذا مما يوجب تغير الدول وانتقاضها، فإنه لا صلاح للعباد على مثل هذا... [2] إلى آخر ما ذكر.

ويقول: "وأما من تجرّد من الهوى وطلب الحق واستفرغ وسعه في ذلك لعدم بلوغ الدليل أو غير ذلك مما يعذر به مثله فإنه لا يلحقه إثم ولا مؤاخذة؛ لكونه فعل ما يقدر عليه والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

وذكر من اختلاف أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، والله علمنا أن نقول: **{رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}** [البقرة: ٢٨٦]، قال الله: قد فعلت[3]، كما في الصحيح.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/٢٧).

(٢) المصدر السابق (٣٥/٣٨٠).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ} [البقرة: ٢٨٤] (١/١١٦)، رقم: (١٢٦).

يقول: "والمقصود أن أهل الصلاح والتقوى إذا وقعوا في بدعة متأولة، وليست غليظة، فهؤلاء تجب موالاتهم ومحبتهم؛ لأن ما وقع منهم من قبيل الهفوة والزلة التي لا تنسخ ما لهم من صلاح وتقوى، فهؤلاء وأمثالهم معذورون؛ لأنهم مجتهدون لم يقصدوا فعل الحرام، ولا مخالفة السنة، ومن جعل كل مجتهد في طاعة أخطأ في بعض الأمور مذمومًا معيبًا ممقوتًا فهو مخطئ، ضال، مبتدع"[1].

هذا الذي يريد من الآخرين أنهم يفكرون كما يفكر ويمشون خلفه، وإلا بدّعهم وضللهم واستحل أعراضهم وأقام الشناعة عليهم ورماهم بالألقاب القبيحة.

شيخ الإسلام يقول: من جعل هؤلاء في هذه المثابة -جعل المخالف مذمومًا ممقوتًا معيبًا- فهو مخطئ، ضال، مبتدع.

يعني هو أولى بالبدعة من ذاك الذي رماه بها، فهذا في الاختلاف السائغ.

الاختلاف غير السائغ:

لكن الاختلاف الآخر غير السائغ هذا حينما يكون وجه الحق مما يُقطع به، والآخر مما يقطع بخطئه، ومن الذي يزن مثل هذه الأمور؟ إنما هم العلماء من الراسخين، وليس أولئك الذين بين العامة وبين أهل العلم، فإن هؤلاء -كما سبق- هم منشأ هذه الفتن والمشكلات.

فشيخ الإسلام -رحمه الله- يذكر مثل هذا المعنى أن مثل هذه القضايا التي تخالف أصول الايمان، أو من أنكر معلومًا من الدين بالضرورة، أو ما خالف الإجماع، أو ما خالف النص الذي هو ظاهر الدلالة والحُجية، ولا يعارضه إلا أقوال الرجال، يقول: مثل هذا النوع يُبيَّن خطؤه، ويُعلَّم الجاهل، وتزال الشبهة، ويُنكَر على من وقع في شيء من ذلك.

ونحن نجد إذا نظرنا في نصوص القرآن من جهة الحكم على المختلفين أن الله -تبارك وتعالى- تارة يذم الطائفتين جميعًا، كما قال الله -عز وجل-: **{وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}** [هود: ١١٨]، فهذا الاختلاف المذموم، **{إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ}** [هود: ١١٩].

فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف، وقال: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}** [البقرة: ١٧٦]، فهؤلاء كل طائفة منهم يلحقها الذم.

وكما في قوله: **{وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ}** [آل عمران: ١٩].

فهذه الطوائف مذمومة.

وكذلك لما وصف اختلاف النصارى، قال: **{فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}** [المائدة: ١٤].

واختلاف اليهود: **{وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ}** [المائدة: ٦٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/١٥).

{فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} [المؤمنون: ٥٣].

فهذا الاختلاف يُذم به المختلفون من الطائفتين، أو الطوائف المختلفة، هذا يرجع تارة إلى فساد القصد، يقول شيخ الإسلام: "لِمَا في النفوس من البغي والحسد وإرادة العلو في الأرض، ونحو ذلك، فيحب لذلك ذم قول غيره أو فعله أو غلبته؛ ليتميز عليه، أو يحب قول من يوافقه في نسب، أو مذهب، أو بلد، أو صداقة، ونحو ذلك؛ لما في قيام قوله من حصول الشرف والرئاسة، وما أكثر هذا"[١]. هذه أشياء دقيقة.

الشيخ المعلمي –الذي أشرت إلى شيء من كلامه من قبل– كان يذكر أشياء دقيقة جدًّا، يقول: تجد المرأة أحيانًا تميل إلى قول عائشة –رضي الله عنها– إذا اختلفت مع أبي هريرة، أو مع عمر أو مع ابن عباس –رضي الله عنهم أجمعين– يقول: تميل إلى قولها، لماذا؟ لأنها تشعر أن رجحان قول عائشة هو انتصار للنساء، هكذا تفكر، فيكون ذلك من مداخل الهوى الدقيقة في النفوس، ويذكر أمثلة على هذا.

يقول: اختبر نفسك، حينما يُعرض عليك قولان، ويقال: اختلف فيهما عالمان، ثم بعد ذلك حينما تنظر في القولين، قد يترجح عندك أحدهما، لكن لو قيل لك: إن المختلفيْن أحدهما تجله، وهو شيخك، والآخر لربما تنقبض منه.

يقول: فإلى أيهما تحب أن يكون قول الشيخ الذي تحبه؟، يقول: هذه من مداخل الهوى[٢].

وهذا شيء مشاهد وجربناه في التدريس والتعليم، إذا كنت تدرِّس في مكان يجمع مذاهب شتى، وتجد هؤلاء من طلاب العلم من المتخصصين في العلوم الشرعية، فتذكر لهم القاعدة أحيانًا، قاعدة واضحة، فيطرب لها الطلاب ويعجبون بها، ثم يطالبونك بالأمثلة والتطبيقات، فإذا ذكرت قولاً مما استهجنه هؤلاء الطلاب مما يخالف هذه القاعدة مثلًا، إذا نسبته إلى الإمام الذي يقلدونه غيروا الجلوس، تغيرت الوجوه، وتغيرت هيئة الجلوس، أعادوا، تحركوا من أماكنهم، ثم قالوا: أعد القاعدة من جديد، هذا وقع معي مرارًا.

ولذلك لا أحب أن أذكر أمثلة، والآن لو ذكرت لكم أمثلة واقعية فيما نحن فيه من الاختلافات هنا أو هناك مما يقع بين الدعاة إلى الله، أو غير الدعاة إلى الله على أمور: هؤلاء أخطئوا، لا، هؤلاء الذين أخطئوا، هؤلاء هم الذين كانت المشكلة منهم، وهؤلاء يقولون: لا، هؤلاء المشكلة منهم، ثم بعد ذلك تذهب ريح الجميع، بعد هذا العراك.

لو تكلمنا على هذا والموقف والطريقة الصحيحة، وما ينبغي، وهل هذا خلاف مذموم أو لا لغير بعضكم جلسته وبدأتم تنظرون إلى الأمثلة بمنظار آخر، وإلى القواعد والأصول، وكلام شيخ الإسلام، وغير شيخ الإسلام بطريقة أخرى.

القضايا الساخنة التي لربما يحتدم النقاش فيها في المنتديات، والمواقع على الشبكة، فهذا له رأي، وهذا له رأي، ومن المخطئ؟ ومن المصيب؟ وهؤلاء يتهمون هؤلاء، وهؤلاء يتهمون هؤلاء، وهؤلاء يقولون: أنتم السبب، وهؤلاء

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/١٤٨)

(٢) القائد إلى تصحيح العقائد (ص: ٣١).

يقولون: أنتم السبب.

فلو أردنا أن ننزل هذه الأمثلة، أو آتيكم بمثال مما يُحتمل فيه الخلاف مثلاً من أقوال أهل العلم في المسائل الفقهية مما لم تعهدوا سماعه، مما يُفتَح لصاحبه أحيانًا -كما يقال- هاشتاج، مسألة فقهية، أفتى فيها باجتهاد، لكن ما عهدنا هذا الاجتهاد، ونقيم عليه شناعة، ونبدأ نتهم هذا الإنسان، أو في مشكلة تقع أو نحو ذلك، فيبدي بها رأيه.

قد يكون هذا الرأي غير حكيم، قد يكون ليس هذا وقت إبداء هذا الرأي، لكن أبدى رأيه، ولا يُعرف عنه سوء، هذا اجتهاده، رجل له حسنات، رجل لا يعرف عنه إلا الخير، واتباع الكتاب والسنة، أخطأ.

لو مثلنا لكم الآن ببعض الأمثلة في مسائل فقهية بحتة، أو في مسائل مما يتجاذبه الناس الآن مما يجري في بلاد المسلمين في شرقها وغربها، لربما يبدأ الإنسان يعيد البرمجة من جديد في سماع كلام هؤلاء العلماء، وفهم النصوص، وما إلى ذلك.

ويبدأ يحسب حسابات كل كلمة، هذا لا يكون المقصود به أيضًا كذا، وهذا لا يكون المقصود به كذا، فتبدأ النفس الأمارة بالسوء والهوى يعملان عملهما، وهكذا.

فهذا يقع بين المختلفين كثيرًا، الجهل والظلم هما أصل كل شر -كما يقول شيخ الإسلام-، قال الله تعالى: **{وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}** [الأحزاب: ٧٢] هو ما يعرف المدى الذي ينبغي أن يقف عنده، ولا يعرف مدى الخلاف الذي يمكن أن يحتمل أو لا يحتمل.

وكذلك البغي والظلم لهؤلاء في أمور لا تحتمل ذلك.

هذا الاختلاف في هذه المسائل الفقهية، وغير الفقهية منه ما هو خلاف شاذ، يعني: لو جاء إنسان وقال: إنه يستحل نكاح المتعة، وأخذ بقول قاله أحد السلف، نقول: ليس لك ذلك، فهذا خلاف شاذ لا عبرة به.

هناك أيضًا عندنا اختلاف ضعيف، نعم، اختلاف ضعيف، فهنا لو جاء من يقول به، قول ضعيف ظاهر الضعف، فهنا لا ينبغي أن يتبنى الإنسان مثل هذه الأقوال الضعيفة.

هناك اختلاف قوي، فهذا لا إشكال فيه، يعني: هل الطلاق ثلاثًا مثلاً يقع واحدة، أو يكون ثلاثًا؟ هل يقع الطلاق في حال الحيض، أو لا يقع؟

هذا يتبنى هذا القول، وهذا يتبنى هذا القول، هذا يقول: يجب قراءة الفاتحة خلف الإمام، وهذا يقول: لا يجوز قراءة الفاتحة خلف الإمام -يعني: في الجهرية-، فمثل هذا لا ينبغي أن يكون محلا للتفرق، ونحو ذلك.

وأيضًا مما يذكر في هذا المقام: ما قاله شيخ الإسلام -رحمه الله-: إن من عمل في مسائل الاجتهاد بقول بعض العلماء، لم يُنكر عليه ولم يهجر، ومن عمل بأحد القولين لم ينكر عليه، فإن كان الإنسان يظهر له رجحان أحد القولين عمل به، وإلا قلد بعض العلماء[1].

وكما ترون أيضًا هؤلاء العلماء من باب أولى سيتحفظون ويتحرزون من إطلاق لفظ التبديع أو التكفير على هذا

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/٤٣).

المخالف إذا كان خلافه محتملًا، إذا كان اختلافه سائغًا، وإن كان غير سائغ فإنهم أيضًا يحترزون في تنزيل ذلك على المعين، وقد يحكمون بأن القول هذا، أو بأن المذهب الفلاني كفر، ولكنهم يتحرزون عند تنزيل ذلك على الأعيان.

يعني: مثلًا مسألة خلق القرآن، أفتى بكفر من قال بخلق القرآن خمسمائة من العلماء، لكن حينما يأتي التنزيل على الأعيان الأمر هنا يختلف، كما يقول شيخ الإسلام -رحمه الله-: إن الإمام أحمد -رحمه الله- ترحم على هؤلاء، واستغفر لهم[1].

لعلمه بأنهم لم يُبيَّن لهم، ولم يكشف أن قولهم هذا هو تكذيب لما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- أو جحد له، ولكن تأولوا وأخطئوا، فقلدوا غيرهم.

يعني مثل المعتصم، فما كفّر المأمون، ولا كفر المعتصم وقد حُبس في زمان المعتصم، وجلد وضرب، وهو صائم في رمضان، ثم لاحظوا أنه ما حمله هنا ردود أفعال هذا الظلم الذي وقع عليه إلى القول بأنهم كفار.

بل لما اجتمع بعض أهل العلم وأرادوا أن يخرجوا على هؤلاء؛ لأنهم أرادوا أن يحملوا الناس على القول بخلق القرآن حتى الكتاتيب، يعني: الأطفال الذين يتعلمون مبادئ التلاوة والقراءة، والقاعدة البغدادية، كما يقال أو نحو ذلك، يتعلمون القرآن والمبادئ، أرادوا -يعني هؤلاء المعتزلة- بقوة السلطان أن يحملوا هؤلاء الأطفال على القول بخلق القرآن.

وإذا جاءوا عند فكاك الأسير الذي عند الكفار امتحنوه، قالوا: ما تقول في القرآن؟ فإن قال: كلام الله غير مخلوق تركوه عندهم، فإذا أقر بأنه مخلوق دفعوا الفداء وأطلقوه، إلى هذا الحد!.

فلما اجتمع بعض من يريد أن يخلع هؤلاء ويخرج عليهم نهاهم الإمام أحمد عن ذلك، مع أنه يقول: من قال: القرآن مخلوق فهو كافر، لكنه ما كفر هؤلاء، وجعل المعتصم في حلٍّ لما فتح عمورية.

شروط تسويغ الخلاف:

حينما نقول: الخلاف منه ما هو سائغ فهناك شروط لابد من مراعاتها لتسويغه:

الشرط الأول: أن يكون صادرًا عن مؤهل للاجتهاد في الموضوع الذي تكلم فيه.

لحديث القضاة الثلاثة[2]، الذي عرف الحق قضى به، عرف الحق لم يقضِ به، والثالث: لم يعرف الحق فقضى للناس بجهل.

ابن القيم لما ذكر هذا في إعلام الموقعين قال كذلك -ما هو فقط القضاة- بأن المفتين أيضًا ثلاثة، إذ لا فرق بينهما، إلا أن القاضي يُلزِم بخلاف المفتي[3].

---

(١) المصدر السابق (٤٨٩/١٢).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأقضية، باب في القاضي يخطئ (٢٩٩/٣)، رقم: (٣٥٧٣)، والترمذي، أبواب الأحكام عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في القاضي (٦٠٥/٣)، رقم: (١٣٢٢).

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١٦٢/٤).

فهذا الاختلاف الآن لابد أن يكون صادرًا عن مؤهل، والمشكلة أننا الآن في تفاقم هذا الاختلاف بيننا يتكلم كل أحد، كل أحد، حتى من لا يحسن الكتابة، من لا يحسن الإملاء، من لا يحسن الفهم، ليس عنده مقومات للفهم.

يعني: التعليق يدل على أنه ما هو بفاهم أصلًا الموضوع الذي يُناقَش، التعليق مضحك، التعليق يتكلم عن شأن آخر، يتكلم عن شيء آخر غير ما هم بصدده، هو سمع كلمة، قرأ كلمة في التعليق، تهجاها وظن أنهم يتحدثون عن القضية الفلانية التي سبقت إلى ذهنه، وهم يتكلمون عن شيء آخر، فعلق هذا التعليق الذي ينادي به على نفسه بالجهالة، وأنه موغل فيها، ولو كان يدري لما علق وما كتب، ولكن الإنسان لا يرى عيبه، وخطأه وجهله، والموفق من وفقه الله -تبارك وتعالى.

إذًا لابد أن يصدر عن مؤهل، ومن ثَمّ فإن أرباع، أنصاف، أثمان، أعشار المتعلمين، هؤلاء ينبغي أن يكفوا، وأن يشتغلوا بذكر الله وقراءة القرآن والتسبيح، ويتركوا القضايا الكبار لأهل العلم الراسخين.

لابد أن يوجد في كل عصر من العلماء الراسخين، لا يمكن إلا أن يقوم قائم لله بحجة في كل زمان، ولا يمكن أن يخلو العصر من هؤلاء، وكما قال الإمام أحمد -رحمه الله-: "إنما الناس بشيوخهم، فإذا ذهب الشيوخ فمع من العيش؟"[1].

ولو أنه كف كل واحد ممن لا يحسن لانتفى كثير من الشر، لكن الآن أكثر من يتكلم هم الذين لا يحسنون، وللأسف قد يتصدر، وتجد هذا الحساب أو الموقع الذي قد أعده لهذا الغرض لربما يتابعه عليه أعداد هائلة من الناس؛ لأنه الأطول لسانًا والأعلى صوتًا، والحق ما يُعرف بهذا، ليست القضية مبادرة، ولا جرأة، فإن العالم قد يتأنى، ويتوقف، ويخاف، ويحسب حسابات في موقفه بين يدي الله -تبارك وتعالى- حينما يسأله عن كل كلمة قالها في أمور قد تتعارض عند العالم فيها أشياء.

ولذلك تجد أن الجاهل أحيانًا يسبق إلى ذهنه معنى، فيبادر بالجواب في مسائل يتوقف فيها العلماء؛ لأنه أصلًا هو لا يرى إلا من ثقب الإبرة، بينما العالم يرى أشياء كثيرة، ومعطيات مختلفة، وقواعد متنوعة تتجاذب المسألة، وأدلة، فيجلس يتأنى فيها.

كان الإمام مالك -رحمه الله- يتردد عليه الواحد الذي يأتي من الأندلس أيامًا حتى يأتي في نهاية المطاف ومعه راحلته، ويقول: يا إمام، عزمت على السفر -يعني أعطني الجواب- يقول: لم يتبين لي شيء، يقول: كيف أرجع للناس؟، قد أتيت من قوم يقولون: مالك أعلم أهل الأرض، فقال: ارجع إليهم، وقل: مالك لا يدري[2].

مسائل لو سئل عنها بعضنا لبادر في الإجابة، إذًا هنا مشكلة، عدم الأهلية يزيد من هذا الاختلاف، يزيد من الشقاق، يزيد من التنازع، يزيد من الشر بيننا ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت)) [3].

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (١٤٦/٢).

(٢) أدب المفتي والمستفتي (ص: ٧٩).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان (١٠٠/٨)، رقم: (٦٤٧٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان (٦٨/١)، رقم: (٤٧).

يتكلم الإنسان فيما يُحسن، ويترك ما لا يحسن.

تصور لو كان هذا الأمر في جوانب أخرى مثلًا في أمور في الطب والعلاج، ونحو ذلك، فصار كل واحد يتكلم برأيه، وصارت هناك شناعة على الأطباء، وتسفيه لوصفاتهم، وأقوالهم، وقراراتهم وما يشيرون به إلى المريض، ما الذي يحصل؟، وهذا قد يفعله بعض الناس.

ومن الطرائف: حدثني أحد الفضلاء أنه أعياه طلب العلاج لعلة عارضة، لكنها بقيت أشهرًا، يقول: فذُكر له أحد المستشفيات المتميزة، فذهب إليها وانتظر حتى جاءه الدور فدخل على الطبيب –وقد سافر إليه– فذكر له وصفه، فلما خرج كان يحادث أحد العامة في وقت الانتظار، فأراد أن يسلم عليه، هو ما يعرفه لكن تعرف عليه في مجلس الانتظار، فجلس، قال: ماذا أعطاك؟ قال: أعطاني كذا، وكذا، فقال له: لا، هذه لا خير فيها، ولا فائدة ولا جدوى، يقول: فما وجدت نفسي إلا ألقيها في سلة المهملات، وقال: خذ كذا، وكذا من الأشياء، رَشَاد وأشياء من الأعشاب وكذا، هو يتعجب من نفسه، كيف وقع منه مثل هذا؟ سافر إليه، وجلس يحجز موعدًا مدة، ثم لما أعطاه الدواء بهذه الطريقة وبهذه السهولة يلقيه، هذا لما تكلم تكلم فيما لا يُحسن، ولو كان كلامه صحيحًا فما الذي جاء به إلى الطبيب؟ كيف أفسد على هذا، هذا المجيء، وهذه الاستشارة، وهذا العلاج، وهو جالس ينتظر الدور، فيكتفي بما عنده، ولكن حينما يتحدث الإنسان عما لا يُحسن يُفسد كثيرًا.

وكما يقول ابن الصلاح: "الاجتهاد الواقع على خلاف الدليل القاطع كاجتهاد من ليس من أهل الاجتهاد"، لاحظوا: هذه القضية يراعونها، يقول: "في إنزالهما منزلة ما لا يعتد به، ويُنقض الحكم به"[1]. يعني حتى لو كان قاضيًا.

وكذلك ابن حزم يذكر أنه لا آفة أضر على العلوم وأهلها من الدخلاء فيها، وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون، ويفسدون ويقدّرون أنهم يصلحون[2].

ويقول في موطن آخر: "وإن قومًا قوي جهلهم وضعفت عقولهم، وفسدت طبائعهم يظنون أنهم من أهل العلم وليسوا من أهله، ولا شيء أعظم آفة على العلوم وأهلها الذين هم أهلها بالحقيقة من هذه الطبقة؛ لأنهم تناولوا طرفًا من بعض العلوم يسيرًا، وكان الذي فاتهم من ذلك أكثر مما أدركوا"[3].

وهذا لا شك فيه، هؤلاء أضر شيء على العلوم، وهذا شيء مشاهد للأسف وذائع، ولربما قال الواحد منهم: ليس عندنا كهنوت، ومن حق كل أحد أن يتكلم، وليس الكلام في مثل هذه القضايا الشرعية حكرًا على زيد أو عمرو، أو هؤلاء الذين درسوا الدراسة الشرعية وتخصصوا فيها.

يا أخي، تخصص مثل هؤلاء، فإذا انقضى العمر وحصّلت من العلم فعلًا وتأهلت تكلم، هي ليست حكرًا، لكنها حكر على الراسخين، هي حكر على الراسخين وليس للجاهلين.

---

(١) فتاوى ابن الصلاح (٢٠٧/١).

(٢) مداواة النفوس، ص: ٦٧

(٣) رسائل ابن حزم (٨٦/٤).

الشرط الثاني: ألا يخالف الإجماع.

وهذا أمر واضح؛ لأنه لا يجوز مخالفة الإجماع الصحيح.

الشرط الثالث: ألا يخرج عن أقوالهم.

وهذا عائد إلى ما سبق من مخالفة الإجماع، بمعنى أن السلف مثلًا إذا اختلفوا على قولين في مسألة، فجاء من بعدهم بقول ثالث، فإن كان هذا القول يجمع بين القولين بوجه من الوجوه، فهذا لا إشكال فيه، لكن إن كان يعود إليهما بالإبطال، فهذا لا يصح؛ لأنه يقتضي أن أهل العصر أجمعوا على الخطأ، ولا يمكن أن تجتمع الأمة على ضلالة، اختلفوا على قولين، ثلاثة، أربعة، خمسة، عشرة، كلها خطأ، هذا لا يمكن، وهذا ينبغي أن يراعى، وبعض ما يذكر فيما يسمى بالإعجاز العلمي هو من هذا القبيل، يعود إلى أقوال السلف بالإبطال، كلهم ما فهموا الآية، نحن فهمناها في هذا العصر، هذا غير صحيح.

والإمام أحمد -رحمه الله- يقول: إذا اختلف أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يُختار من أقاويلهم، ولا يُخرج عن قولهم إلى مَن بعدهم"[١].

وقال أيضًا: "يلزم من قال: يُخرج من أقاويلهم إذا اختلفوا أن يُخرج من أقاويلهم إذا أجمعوا"[٢].

تعود إلى مسألة الإجماع، وشيخ الإسلام -رحمه الله- يذكر أن كل قول ينفرد به المتأخر، ولم يسبقه إليه أحد منهم فإنه يكون خطأً[٣].

كما قال الإمام أحمد -رحمه الله-: إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام[٤].

لا يمكن أن تجتمع الأمة على خطأ، لكن هناك فهم يؤتيه الله رجلًا في كتابه كما في البخاري عن أبي جحيفة لمّا سأل عليًّا -رضي الله عنه-: هل خصكم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بشيء؟ قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمًا يؤتيه الله في كتابه أو ما في هذه الصحيفة[٥].

الفهم يمكن للإنسان أن يأتي بمعانٍ، باستنباطات جديدة، فالقرآن لا تنقضي عجائبه، لكن يأتي بقول في مسألة مختلف فيها، هذا القول يعود على الأقوال السابقة بالبطلان، هذا لا يمكن، ما يمكن أن الأمة تجتمع على ضلالة ثم يأتي من بعدهم، ويقول: أنا الذي فهمت، وكل هؤلاء ما فهموا، اختلفوا على أقوال كلها غلط، هذا إزراء بالسلف.

بل حتى أبو الحسن الأشعري -رحمه الله- يقول: "وأجمعوا على أنه لا يجوز لأحد أن يخرج عن أقاويل السلف فيما أجمعوا عليه، وعما اختلفوا فيه أو في تأويله؛ لأن الحق لا يجوز أن يخرج عن أقاويلهم"[٦]. هذا كلام

---

(١) العدة في أصول الفقه (١١١٣/٤).

(٢) المصدر السابق (١١١٣/٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٩١/٢١).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٩٦/١١)، والمسودة في أصول الفقه، ص (٤٥٠).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب كتابة العلم (٣٣/١)، رقم: (١١١).

(٦) رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب (ص: ١٧٤).

صحيح.

إذًا أهل الكلام يقتدون بأبي الحسن الأشعري، فكان اللائق أن لا يجهّلوا السلف –رضي الله تعالى عنهم– ولا أن يخالفوهم.

والحافظ ابن القيم –رحمه الله– يذكر أن القول الذي ليس للإنسان به سلف يجب إنكاره، إذا كانت هذه المسألة وقعت في زمن السلف فأفتوا فيها بقول أو أكثر من قول، فجاء بعض الخلف فأفتى فيها بما لم يقله أحد من السلف، يقول: هذا هو المنكر(١).

وإلا فلا شك أنه قد تقع نوازل في هذا العصر ما وقعت في العصور السابقة، فيجتهد فيها العلماء، فهنا لا يقال: لا تقل في مسألة ليس لك فيها سلف، الإمام أحمد لا يعني هذا، لكن إذا كان ذلك مما يخالف أقوال أهل العلم قبله، الجرأة غير محمودة في هذا الباب، ولو كان عالمًا.

الشرط الرابع: ألا يكون القول مبنيًّا على أصل غير معتبر.

لو نظرتم مثلًا الأصول غير المعتبرة، وكلام ابن القيم الطويل على بعضها في إعلام الموقعين، مثل: اعتبار الحيل المذمومة التي يخلع بها ربقة التكليف.

الشريعة جاءت لضبط أفعال المكلفين، وإخراج المكلف من داعية الهوى؛ ليكون عبدًا لله –عز وجل.

فتأتي هذه الحيل فتخرجه من ضبط الشريعة بمخارج ومسارب هنا وهناك ليتخلص من الحكم الشرعي، أو التبعة، فهذا لا يجوز.

وكذلك أولئك الذين يردون مثلاً خبر الآحاد بزعمهم أنه يخالف القياس مطلقًا، وقد نقل الشافعي –رحمه الله– الإجماع على تقديم خبر الآحاد على القياس(٢).

وكذلك أولئك الذين يردون خبر الآحاد فيما تعم به البلوى، أو بزعم بعضهم إذا كان الراوي غير فقيه، هذا كله لا يصح، يكون قد بَنى على أصل غير صحيح.

كذلك رد السنة المخصصة لظاهر القرآن مطلقًا، يقول لك: السنة ما تخصص القرآن، هذا غير صحيح.

كذلك أيضًا من يعتبر مجرد وجود القول أنه مسوغ للأخذ به، فهذا غير صحيح، وهذا كثير في مثل هذه الأيام، الاحتجاج بالخلاف، وإذا أجبت الواحد من هؤلاء السائلين لربما يسأل يقول: ما فيها قول آخر؟ هل هذا محل اتفاق؟ ما في عالم أفتى بغير هذا؟.

وإذا سمع الفتاوى هنا وهناك في القنوات أو نحو ذلك يقول: أنا لست ملزمًا بأن آخذ قول فلان، فلان يقول بخلاف هذا، فإن لم يجد في بلده مع أن العامة تبع لعلماء بلدهم الذين يفتونهم؛ فإن لم يجد يقول: ما بين نجد والأندلس أطياف –كما يدرسون في البرمجة العصبية–، ففي نجد يحرمون المعازف والموسيقى، وفي الأندلس تباح.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٢٦٧).

(٢) الرسالة: ص: (٤٥٦).

إذًا لك أن تتخير، لا، ويقولون: وكلهم على حق. كلهم على حق، نحن نقول: المصيب عند الله واحد، لكن قد يعذر المخطئ من المجتهدين أو المقلدين بالشروط التي ذكرنا، أمّا أن يبقى الإنسان يتخير لمجرد وجود الاختلاف فلا.

يقول حافظ المغرب أبو عمر ابن عبد البر المتوفى سنة أربعمائة وثلاث وستين، يقول: "الاختلاف ليس بحجة عند أحد علمتُه من فقهاء الأمة إلا من لا بصر له، ولا معرفة عنده، ولا حجة في قوله"[١]. هذا كلام ابن عبد البر.

وكذلك من العلماء –علماء المغاربة، أو الأندلس– أبو الوليد الباجي المتوفى سنة أربعمائة وأربع وسبعين، يقول: "وكثيرًا ما يسألني من تقع لهم مسألة من الأيمان ونحوها لعل فيها رواية –المشكلة قديمة–، أم لعل فيها رخصة وهم يرون أن هذا من الأمور الشائعة الجائزة، ولو كان تكرر عليهم إنكار الفقهاء لمثل هذا لَمَا طالبوا به، ولا طلبوه مني، ولا من سواي، وهذا مما لا خلاف بين المسلمين ممن يعتد به في الإجماع أنه لا يجوز، ولا يسوغ، ولا يحل لأحد أن يفتي في دين الله تعالى إلا بالحق الذي يعتقد أنه حق رضي بذلك من رضيه وسخطه من سخطه"[٢].

هذا عالم أندلسي، توفى سنة أربعمائة وأربع وسبعين، ليس بأحادي النظرة والتفكير، ولا بعالم يعيش في صحراء، أو نحو ذلك، فقه صحراوي كما يقولون لهم! ليس كذلك، فهذا الأمر العلماء متفقون عليه.

الباجي مالكي، وابن عبد البر مالكي، وابن الصلاح شافعي متوفى سنة ستمائة وثلاث وأربعين، يقول ابن الصلاح –رحمه الله–: "واعلم أن من يكتفي في فتياه أو عمله موافقًا لقولٍ أو وجه في مسألة، ويعمل بما يشاء من الأقوال أو الوجوه من غير نظر في الترجيح، ولا تقيدٍ به فقد جهل، وخرق الإجماع"[٣].

وهكذا القرافي المالكي المتوفى سنة ستمائة وأربع وثمانين، يقول: "إن الحاكم إذا كان مجتهدًا فلا يجوز أن يحكم ولا أن يفتي إلا بالراجح عنده، وإن كان مقلدًا جاز له أن يفتي بالمشهور في مذهبه، وأن يحكم به وإن لم يكن راجحًا عنده، مقلدًا في رجحان القول المحكوم به الذي يقلده في الفتيا، وأما اتباع الهوى في الحكم والفتيا فحرام إجماعًا"[٤].

ابن مفلح الحنبلي المتوفى سنة سبعمائة وثلاث وستين يقول: "ويحرم الحكم والفتيا بالهوى إجماعًا وبقولٍ أو وجهٍ من غير نظرٍ في الترجيح إجماعاً، ويجب عليه أن يعمل بموجب اعتقاده فيما له وما عليه إجماعًا، يقول: "قاله شيخنا"[٥]. يعني: شيخ الإسلام. وغير هؤلاء كثير.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/٩٢٢).

(٢) الموافقات (٥/٩٠- ٩١).

(٣) أدب المفتي والمستفتي لابن الصلاح (ص: ١٢٥).

(٤) تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام (١/٢٦).

(٥) الفروع وتصحيح الفروع (١١/١٠٧).

الشاطبي المالكي المتوفى سنة سبعمائة وتسعين له كلام كثير في مثل هذه القضية، يقول: "وقد زاد هذا الأمر على قدر الكفاية حتى صار الخلاف في المسائل معدودًا في حجج الإباحة".

يعني: يكفي من أجل أن يستحل هذا الأمر أن يقول: المسألة خلافية، فيه خلاف، هناك من أجاز.

يقول: "ووقع فيما تقدم وتأخر من الزمان الاعتمادُ في جواز الفعل على كونه مختلفًا فيه بين أهل العلم، لا بمعنى مراعاة الخلاف، فإن له نظرًا آخر –هذا سيأتي إيضاحه إن شاء الله–، فربما وقع الإفتاء في المسألة بالمنع، فيقال: لمَ تمنع والمسألة مختلف فيها؟ فيجعل الخلاف حجة في الجواز لمجرد كونها مختلفًا فيها لا لدليل يدل على صحة مذهب الجواز، ولا لتقليد من هو أولى بالتقليد من القائل بالمنع، وهو عين الخطأ على الشريعة؛ حيث جعل ما ليس بمعتمد معتمدًا، وما ليس بحجة حجة"[1].

يعني هذا يُنكَر عليه؛ لمجرد الاختلاف يأخذ بما يوافقه.

بل إن الشاطبي –رحمه الله– ذكر ضابطًا في مسألة الاستفتاء والتقليد، يقول: إن العامي يجب عليه أن يسأل من يثق بدينه وعلمه، فإذا بلغه فتوى لعالميْن فإنه ينظر في الأعلم والأورع، فإن استويا عنده –انظروا انتبهوا– نظر إلى الهوى، فيأخذ بما يخالف هواه؛ لأن الشريعة قد ركبت تركيبًا خاصًّا على خلاف داعية الهوى في النفوس.

يقول: إذا استوى عندك هذا وهذا ولم يترجح أحد العالميْن في العلم والورع، انظر إلى هواك وخذ بالعكس. الآن ما الذي يحصل عند كثيرين؟ ينظر إلى هواه، ويأخذ ما يوافق الهوى.

خامسا: ألا يكون مخالفًا لنص صحيح صريح.

وقد مضى كلام الشافعي –رحمه الله– في هذا، وما عدا ذلك تبقى مسائل اجتهادية، فمسائل الاجتهاد هذه مما لم يكن للعلماء فيه دليل واضح في المسألة يجب العمل به وجوبًا ظاهرًا، كما يقول شيخ الإسلام: حديث صحيح لا معارض له من جنسه، فهنا قد تخفى الأدلة، قد يخفى مأخذها فيحصل الاختلاف.

البيهقي –رحمه الله– جعل الأحاديث المروية على ثلاثة أنواع من حيث الوضوح والصحة أيضًا، يقول: "منها ما قد اتفق أهل العلم بالحديث على صحته، فذلك الذي ليس لأحد أن يتوسع في خلافه ما لم يكن منسوخًا". ما في أحد يقول: أعرض على عقلي، طبعًا الكلام في الاجتهاد اجتهاد العلماء.

"ومنها ما قد اتفقوا على ضعفه، فذاك الذي ليس لأحد أن يعتمد عليه، ومنها ما قد اختلفوا في ثبوته"[2] منهم من يضعف، ومنهم من يصحح لأمور، هذا يرى أنه يعتضد، وهذا يرى أنه لا يعتضد بالطريق الآخر، وهذا يرى أن هذا الراوي مما يُحتمل الضعف في مثله، أو لا يُحتمل، أو نحو ذلك من الأمور التي تتعلق بالسند أو المتن، كأن يقول بعض العلماء مثلاً: هذا الجزء مدرج من قول الصحابي، والآخر يقول: هذا غير مدرج بل هو من نفس الحديث، ويكون ذلك محل احتمال فيختلفون، فهذا يكون محل نظر واجتهاد يجتهد فيه أهل الاختصاص

---

(١) الموافقات (٥/٩٢-٩٣).

(٢) معرفة السنن والآثار (١/١٨٢).

من أهل العلم.

ومن ثَمّ يمكن أن نقول: إن الاختلاف الذي يكون مرجعه إلى الاجتهاد يعني المسائل الاجتهادية، ما هي؟ ما ضابطها؟ نقول: يمكن أن نلخص هذا، نقول:

- المسائل التي لم يَرِد فيها دليل أصلًا، فبقي العلماء يجتهدون.
- مسائل ورد فيها أدلة لكنها متقابلة في نظر العالم، يعني: النصوص الواردة مثلاً في مسألة استقبال القبلة والاستدبار حال قضاء الحاجة، وردت أحاديث هنا وهنا، وهي أحاديث متقابلة، فهذه مسألة اجتهادية.
- وقد يرد فيها دليل لكن خفي مأخذه، مثل ما مثلنا: ((لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة))، فهذه ثلاث صور فيما يمكن أن يقال عنه بأنه من مسائل الاجتهاد التي لا يحصل الإنكار فيها، ولا توجب التفرق، ولا يقال ولا يحكم بالبطلان بالنسبة للقول الآخر، وغاية ما هنالك أن يقال: هذا راجح، وهذا مرجوح.

بسم الله الرحمن الرحيم

الاختلاف وموقفنا منه

(١٢) مواصلة الحديث عن كيف نتعامل مع الاختلاف وعلامات الاختلاف المحمود وكيف نتعامل مع الاختلاف السائغ

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فإذا كان هذا الاختلاف ينقسم إلى ما يُحمد، وما يذم، **فما هو الضابط في ذلك؟**.

الشافعي –رحمه الله– يقول: "كل ما أقام الله تعالى به الحجة في كتابه، أو على لسان نبيه –صلى الله عليه وسلم– منصوصًا بينًا لم يحلّ الاختلاف فيه لمن علمه، وما كان من ذلك يحتمل التأويل، ويدرك قياسًا فذهب المتأوّل، أو القايس إلى معنى يحتمله الخبر، أو القياس وإن خالفه فيه غيره لم أقل: إنه يُضيَّق عليه ضيق الخلاف في المنصوص"(١).

ويقول أيضًا في موضع آخر في كتاب "جماع العلم": "الاختلاف وجهان: فما كان لله تعالى فيه نصُّ حكمٍ، أو لرسوله –صلى الله عليه وسلم– سنة، أو للمسلمين فيه إجماع، لم يسع أحدًا علم من هذا واحدًا أن يخالفه، وما لم يكن فيه من هذا واحد كان لأهل العلم الاجتهاد فيه بطلب الشبهة بأحد هذه الوجوه الثلاثة، فإذا اجتهد من له أن يجتهد وسعه أن يقول بما وجد الدلالة عليه، بأن يكون في معنى كتاب أو سنة أو إجماع، فإن ورد أمر مشتبه يحتمل حكمين مختلفين فاجتهد فخالف اجتهاده اجتهاد غيره وسعه أن يقول بشيء وغيرُه بخلافه"(٢).

وكذلك أيضًا الشاطبي –رحمه الله– فقد ذكر أن الاجتهاد المعتبر شرعًا هو الصادر عن أهله الذين اضطلعوا بمعرفة ما يفتقر إليه الاجتهاد، والثاني: غير المعتبر، وهو الصادر عمن ليس بعارف بما يفتقر الاجتهاد إليه؛ لأن حقيقته أنه رأيٌ بمجرد التشهي والأغراض، وخبطٌ في عماية، واتباع للهوى، فكل رأي صدر على هذا الوجه فلا مرية في عدم اعتباره؛ لأنه ضد الحق الذي أنزله الله تعالى"(٣).

هنا نظر إلى المجتهدين، والشافعي –رحمه الله– نظر إلى ما يحتمله الدليل وما لا يحتمله من الخلاف، وهذا كله صحيح.

ومن هنا نعلم أن من خالف القرآن والسنة المستفيضة أو ما أُجمع عليه –يعني خالف النص الواضح أو ما أجمع عليه السلف خلافًا لا يعذر فيه– فإنه يعامل بما يليق بحاله.

يعني: مثل هذا خلافه مذموم، وكل من خالف لهوى في نفسه لا عن تحري قصد الشارع، وكذلك من ينتقل من قول إلى قول لمجرد عادة، أو اتباع الهوى لا طلبًا للصواب، واتباع الدليل، كذلك الذي يتتبع رخص الفقهاء، يبحث دائمًا عن الأسهل، وما يوافقه، أو يأخذ بأخف القولين من غير نظر صحيح، فإن مثل هذا يكون مذمومًا.

---

(١) الرسالة للشافعي (١/٥٦٠).

(٢) جماع العلم (ص: ٤٤).

(٣) الموافقات (٥/١٣١).

وكذلك ذاك الذي يدعي أنه يلتزم مذهبًا معينًا، ثم نجد أنه يأخذ من مذهب آخر، يعني: كون هذا الإنسان يقلد مذهب مالك، أو الشافعي، أو أحمد، أو نحو ذلك، ثم نجده أخذ هذه المسألة من مذهب أبي حنيفة، من غير مبرر شرعي.

يعني: من غير دليل يدل على الرجحان، وإنما لأنه وجد مايوافق هواه، فإنه يكون مذمومًا.

وكذلك أيضًا أصحاب الخوض الباطل في المسائل التي لا ينبغي الخوض فيها أصلًا كما ذكرنا من قبل في المسائل التي أخفى الله علمها، أو نحو ذلك.

كذلك أيضًا من تتبع صعاب المسائل، واشتغل بالأغاليط، والمسائل النادرة التي يثيرها في المجالس، نادرة الوقوع لا تكاد تقع، ثم بعد ذلك يورث ذلك تفرقًا واختلافًا، فهؤلاء جميعًا يوصفون بالذم وإن تعددت أسباب اختلافهم، فإن ذلك يرجع إلى شيء واحد؛ لأنه ليس هناك إلا اتباع الحق أو اتباع الهوى كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى}** [ص: ٢٦].

فإن الذي يقابل اتباع الحق والحكم به هو اتباع الهوى، **{فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ}** [القصص: ٥٠].

ثم هؤلاء الذين يختلفون من أهل الأهواء يتفاوتون أيضًا بحسب قدر المخالفة، ففرقٌ بين من خالف في الأصول الثابتة في الكتاب والسنة ثبوتًا لا مطعن فيه، أو الكليات المجمع عليها، مع التمكن من معرفة الحق فيها، فهذا ليس كالمخالف فيما دونها من المسائل الجزئية المتفرعة عنها، أو نحو ذلك، فهذا ينبغي أن نراعيه.

كذلك أيضًا يمكن أن يقال: إن كثيرًا من المسائل الواقعة بيننا مما نختلف فيه، الواقع أن الذم يلحق المختلفين الذين أورث هذا الاختلافُ التباينَ بينهم والعداوة، وما إلى ذلك؛ لعدم الأهلية في النظر، أو لوجود البغي والظلم في مثل هذا الاختلاف؛ لأنها مسائل قد لا تحتمل ذلك، هي مسائل اجتهادية، فهذا ينظر إلى هذه القضية باعتبارات معينة، وهذا ينظر إليها باعتبارات أخرى، فلا يصح أن يؤدي ذلك إلى قطع الصلات، وإسقاط حقوق الأخوة الإيمانية، فإن حصل ذلك فهذا مما يلقيه الشيطان بين أهل الإيمان من التحريش بينهم، ولذلك يقول أهل العلم -كما نقل الشاطبي عن بعضهم- بأن كل مسألة حدثت في الإسلام، فخاض فيها الناس، فتفرقوا، واختلفوا فلم يورث ذلك الاختلاف بينهم عداوة ولا بغضًا، ولا تفرقًا فبقيت الألفة، والنصيحة والمودة والرحمة والشفقة، علمنا أن ذلك من مسائل الإسلام، يحل النظر فيها، والأخذ بقول من تلك الأقوال لا يوجب تبديعًا، ولا تكفيرًا، كما ظهر مثل هذا الاختلاف بين الصحابة والتابعين مع بقاء الألفة والمودة، وكل مسألة حدثت فاختلفوا فيها فأورث اختلافهم في ذلك التولي، والإعراض، والتدابر، والتقاطع، وربما ارتقى إلى التكفير علمنا أن ذلك ليس من أمر الدين في شيء، بل يجب على كل ذي عقل أن يجتنبها، ويعرض عن الخوض فيها؛ لأن الله شَرَط تمسكنا بالإسلام أن نصبح في ذلك إخوانًا، فقال: **{وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}** [آل عمران: ١٠٣] (٤). فهذا هو اللائق.

---

(٤) موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية (٦/٣٨٢).

إذاً هذا يُميّز لنا هذه المعالم في الاختلاف الذي يكون مذمومًا.

مؤشرات وعلامات ومعالم بارزة نميز معها الاختلاف المحمود:

أولا: التجرد في طلب الحق.

وهذا أصل عظيم، وهو من أسباب التوفيق والهداية، وقد ذكر الحافظ ابن القيم –رحمه الله–: "أن من هداه الله إلى الأخذ بالحق حيث كان، ومع من كان ولو مع من يبغضه ويعاديه، ورد الباطل مع من كان، ولو مع من يحبه ويواليه، فهو ممن هُدي لما اختُلف فيه من الحق بإذنه[٥].

أصبحنا هؤلاء لهم قولهم، وهؤلاء لهم قولهم، هذا نستوحش من كلامه، ومن قوله، ومن فتياه، ومن كل ما يصدر عنه مما يكتبه، أو يؤلفه، أو يلقيه، أو نحو ذلك، هذا غير صحيح.

ويقول: "فهذا أعلم الناس وأهداهم سبيلًا وأقومُهم قيلًا". يعني: الذي ينظر بهذا المعيار، لاحظ: أعلم الناس وأهداهم سبيلًا وأقومهم قيلًا.

يقول: "وأهل هذا المسلك إذا اختلفوا فاختلافهم رحمة وهدى، يقر بعضهم بعضًا عليه ويواليه ويناصره، وهو داخل في باب التعاون الذي لا يستغني عنه الناس في أمور دينهم ودنياهم، بالتشاور، وإعمال الرأي والفكر فيما يوصل إلى إدراك الصواب، فإذا قوبل بين الآراء، وعرضت على الحاكم الذي لا يجور بالكتاب والسنة، وتجرد الناظر عن التعصب والحمية، واستفرغ وسعه، وقصد طاعة الله ورسوله، فقل أن يخفى عليه الصواب، وما هو أقرب إليه.

هذا النوع من الاختلاف لا يوجب معاداة، ولا افتراقًا في الكلمة، ولا تبديدًا للشمل، فإن الصحابة اختلفوا في مسائل كثيرةً، فلم يوجب ذلك بينهم عداوة، ولا قطيعة، بل كانوا يرجعون بالألفة والمصافاة، من غير أن يضمر بعضهم لبعض ضغينة ولا ذمًّا، بل يدل المُستفتَى على أخيه، ويشهد بأنه خيرٌ منه وأعلم، فهذا الاختلاف أصحابه بين الأجر والأجرين وكل منهم مطيع لله بحسب نيته واجتهاده وتحريه للحق"[٦].

وقارن بين حالنا، وما صرنا إليه، اختلفنا مع هذا أو ذاك، انتهى، القطيعة التامة، والاستيحاش من كل ما يقوله، أو يفعله، والأصل فيه العيب، والذم، والخطأ، والبطلان، والبدعة، والهوى، هذا يجوز؟!، هذا يسوغ؟!.

ثانياً: أن يستفرغ الجهد والوسع.

فنحن كما قال الذهبي: "نرجو لكل من بذل جهده في تطلب الحق أن يُغفر له من هذه الأمة المرحومة[٧].

ومن ثَمّ فإن مثل ذلك إذا وقع على وجه لا يؤدي إلى التباين –كما يقول ابن القيم– والتحزب، بحيث يكون كل من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله فإن ذلك الاختلاف لا يضر، وإنما للأسف إذا كان مع هؤلاء بعض الحق ومع هؤلاء بعض الحق، فهؤلاء لا يقرون بالحق الذي مع هؤلاء، والعكس أيضًا، فيحصل بسبب ذلك البغي والمنافسة.

---

(٥) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٥١٦/٢).

(٦) المصدر السابق (٥١٧/٢-٥١٨).

(٧) سير أعلام النبلاء (١٧٢/٢٢).

يقول ابن القيم: "وهذا شأن جميع المختلفين، بخلاف أهل الحق، فإنهم يعلمون الحق من كل من جاء به، فيأخذون حق جميع الطوائف، ويردون باطلهم، فهؤلاء الذين قال الله فيهم: **{فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }** [البقرة: ٢١٣] [٨]. هذا هو اللائق بالمؤمن.

وكذلك الحافظ ابن رجب يذكر أنه لما كثر اختلاف الناس وتفرقهم، كثر بسببه تباغضهم، وكل منهم يظن أنه يبغض لله، وذكر أن ذلك يقع كثيرًا لمجرد مخالفة متبوع، خالف شيخنا، أو نحو ذلك.

يقول: "لمخالفة متبوع يظن أنه لا يقول إلا الحق، وقد يكون الحامل على الميل إليه مجرد الهوى والعادة، وما إلى ذلك، وكل هذا يقدح في أن يكون هذا البغض لله".

ويذكر أيضًا أن بعض العلماء قد يكون مجتهدًا مأجورًا، حيث اجتهد فقال بقول مرجوح، لكن قد لا يكون المنتصر لمقالته تلك بمنزلةٍ في هذه الدرجة[٩].

يعني: أنه انتصر له على سبيل الحميّة، فيكون مذمومًا، الشيخ معذور، ولكن هؤلاء الذين تعصبوا لقوله وصار ذلك عندهم نوعًا من الحمية يكون الواحد منهم مذمومًا.

كيف نتعامل مع الاختلاف السائغ؟

أولًا: إن ظهر لنا رجحان قول لدليل أخذنا به.

يقول الحافظ ابن القيم: إذا اختلف عليه مفتيان فأكثر، فهل يأخذ بأغلظ الأقوال، أو بأخفها، أو يتخير، أو يأخذ بقول الأعلم، أو الأورع، أو يلجأ إلى مفتٍ آخر فينظر من يوافق القولين السابقين، فيعمل بالفتوى التي يوقِّع عليها، أو يجب عليه أن يتحرى ويبحث عن الراجح بحسبه؟

يقول: فيه سبعة مذاهب، أرجحها: السابع، فيعمل كما يعمل عند اختلاف الطريقين، أو الطبيبين، أو المشيرين"[١٠].

بمعنى أنه اختلف طبيبان يأخذ بقول الأرجح منهما في نظره، اختلف عليه الواصفون، اشتبه عليه طريقان، التبس عليه فهذا يقول له: هذا الطريق يؤدي إلى كذا، وهذا يقول: هذا الطريق يؤدي إلى كذا، فيأخذ بقول الأرجح منهما، كذلك أشار عليه رجل بشيء، وأشار عليه الآخر بشيء آخر في قضية معينة، فيأخذ بقول من؟، الأرجح منهما.

ثانياً: أنه حينما يستفتي إذا كان مقلدًا فإنه يأخذ بقول من يثق بدينه وعلمه، إذا اختلفوا، فهو يأخذ بقول الأعلم والأورع .

ثالثًا: يأخذ بالأحوط فيما يسوغ فيه ذلك، يعني: مثلًا إذا تقابل الوجوب والاستحباب، هذا يقول: واجب، وهذا يقول: مستحب، يأخذ بالحزم.

كذلك التحريم والإباحة، هل هذا محرم أو مباح؟، فإنه يأخذ بالأحوط، فيترك هذا الشيء، ويكون بذلك قد خرج من خلافهم.

---

(٨) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٥١٥/٢).

(٩) جامع العلوم والحكم (٩٧٩/٣).

(١٠) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢٠٣/٤).

للأسف يوجد هناك من يقول: هؤلاء فقهاء الأحوطيات، ويسخر ممن يقول بالأخذ بالأحوط.

وهذا كلام غير صحيح، وهو مغالطة، ومما يدل على أن الأخذ بالأحوط مشروع فيما يسوغ فيه ذلك: حديث عائشة –رضي الله تعالى عنها– قالت: كان عتبة بن أبي وقاص عهد إلى أخيه سعد بن أبي وقاص أن ابن وليدة زمعة منِّي.

يعني قال: هو من مائه، يعني: حملت منه، قال: فاقبضه إليك، قالت: فلما كان عام الفتح أخذه سعد، وقال – يعني سعد بن أبي وقاص–: ابن أخي، قد كان عهد إليّ فيه.

فقام إليه عبد بن زمعة، فقال: أخي وابن وليدة أبي، وُلد على فراشه، فتساوقا إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال سعد: يا رسول الله، ابن أخي وقد كان عهد إليّ فيه، وقال عبد بن زمعة: أخي، وابن وليدة أبي، وُلد على فراشه.

فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: **((هو لك يا عبد بن زمعة))**.

النبي –صلى الله عليه وسلم– نظر إلى الأصل، وهو أن الولد للفراش.

ثم قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: **((الولد للفراش وللعاهر الحَجْر، أو الحَجَر))**.

ثم قال لسودة –وهذا هو الشاهد– أم المؤمنين –رضي الله عنها–: **((احتجبي منه يا سودة))**. لاحظ حكم به لمن؟، لعبد بن زمعة فمعنى ذلك أنه أخٌ لسودة، سودة بنت زمعة، ومع ذلك قال: احتجبي منه لِمَا رأى من شبهه بعتبة بن أبي وقاص، قالت عائشة: فما رآها حتى لقي الله[١١].

الآن حُكم بأنه ولد لزمعة، ومع ذلك قال: **((احتجبي منه يا سودة))** احتياطًا للشَّبه، فهذا عمل بالأحوط .

حديث عائشة –رضي الله عنها–: **((أيما امرأة نكحت بغير إذن مواليها فنكاحها باطل –قاله ثلاث مرات– فإن دخل بها فالمهر لها بما أصاب منها))** [١٢].

المهر لها، النكاح باطل " فالمهر لها بما أصاب منها"، يقول النووي –رحمه الله–: "فإن العلماء متفقون على الحث على الخروج من الخلاف، إذا لم يلزم منه إخلال بسنة، أو وقوع في خلافٍ آخر"[١٣] .

كذلك الليث بن سعد يقول: "إذا جاء الاختلاف أخذنا بالأحوط"[١٤].

ويقول ابن جرير الطبري: "فكذلك حق الله تعالى على العبد فيما اشتبه عليه، مما هو في سعة من تركه، والعمل به، أو مما هو غير واجب عليه أن يدع ما يريبه إلى ما لا يريبه؛ إذ يزول بذلك عن نفسه الشك، كمن يريد خطبة امرأة فتخبره امرأة أنها قد أرضعته وإياها، ولا يعلم صدقها من كذبها، فإنْ تركها أزال عن نفسه الريبة اللاحقة له بسبب إخبار المرأة، وليس تزوجه إياها بواجب، بخلاف ما لو أقدم فإن النفس لا تطمئن إلى حلِّية تلك الزوجة".

---

(١١) أخرجه البخاري، كتاب الفرائض، باب: الولد للفراش، حرة كانت أو أمة (١٥٣/٨)، رقم: (٦٧٤٩).

(١٢) أخرجه أبو داود، كتاب النكاح، باب في الولي (٢٢٩/٢)، رقم: (٢٠٨٣).

(١٣) شرح النووي على مسلم (٢٣/٢).

(١٤) انظر: جامع بيان العلم وفضله (٩٠٦/٢)، رقم: (١٦٩٦).

ويقول –رحمه الله–: "إذا قال الرجل لامرأته: أنت عليّ حرام، فسأل العلماء، فاختلفوا عليه، فقال بعضهم: قد بانت منك بالثلاث، وقال بعضهم: إنها حلال، غير أن عليك كفارة يمين.

وقال بعضهم: ذلك إلى نيته، إن أراد الطلاق فهو طلاق، أو الظهار فهو ظهار، أو يمينًا فهو يمين، وإن لم ينوِ شيئًا فليس بشيء، أيكون هذا اختلافًا في الحكم كإخبار المرأة بالرضاع، فيؤمر هنا بالفراق، كما يؤمر هناك ألا يتزوجها خوفًا من الوقوع في المحظور أو لا؟ قيل: حكمه في مسألة العلماء أن يبحث عن أحوالهم، وأمانتهم، ونصيحتهم، ثم يقلد الأرجح، فهذا ممكن والحزازة مرتفعة بهذا البحث، بخلاف ما إذا بحث مثلًا عن أحوال المرأة فإن الحزازة لا تزول، وإن أظهر البحث أن أحوالها حميدة، فهما على هذا مختلفان"[١٥] إلى آخر ما قال.

المهم أنه يؤيد العمل بالأحوط في بعض الصور.

العز بن عبدالسلام سئل عن الرجل يقف على اختلاف العلماء هل يجوز أن يعمل بقول من أراد منهم؟

قال: "الأولى الاحتياط، بالخروج من الخلاف، بأخذ الأشد الأحوط لديه، فإن من عز عليه دينه تورع".

ويقول: من الورع أن يسأل الأورع، ولا يسأل عن دينه إلا من يثق بسعة علمه وتورعه من التهجم على الفتيا، كما أن تقديم الأحوط، والأخذ بالحزم مما عليه عموم الناس في الأمر المهم له من أمور الدنيا، وما زالوا يمدحون المحتاط لكل أمر ذي بال، ويذمون المتهور الذي لا يأخذ للشيء ذي الشأن أُهْبته، ولا يعد له عدته، وإلى هذا أومأت الحكمة القائلة: من التمس الرخصة من الإخوان عند المشاورة –يعني: هو يستشير ويقول: أعطني ما يوافق هواي–، ومن الأطباء عند المرض –يقول للطبيب: أعطني التقرير الذي يكون أخف، ويناسب ما أرغب به–، ومن الفقهاء عند الشبهة أخطأ الرأي وازداد مرضًا وحمل الوزر". وذكر أمثالا في هذا الباب.

والزركشي –رحمه الله– يقول: "يستحب الخروج منه –أي: الخلاف– باجتناب ما اختُلف في تحريمه، وفعل ما اختلف في وجوبه"[١٦].

ومن ذلك ماذكره ابن قدامة من أن الأولى ألا تصلى الجمعة إلا بعد الزوال، خروجًا من الخلاف، مع أن المذهب أنه يجوز أن تصلى قبل الزوال، باعتبار أن وقتها كوقت العيد[١٧].

وهذا كله بناءً على أن الحق واحد لا يتعدد، وهذا قال به ابن عبد البر، والخطيب البغدادي، وابن حزم، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وغير هؤلاء كثير ويدل عليه: **((إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر))** [١٨].

فدل على أن الصواب واحد، وما زال العلماء يرد بعضهم على بعض، وشيخ الإسلام يقول: "ولهذا تجد المسائل التي تنازعت فيها الأمة على أقوال، وإنما القول الذي بعث به النبي –صلى الله عليه وسلم– واحد منها"[١٩].

---

(١٥) الاعتصام للشاطبي (٦٦٤/٢).

(١٦) المنثور في القواعد الفقهية للزركشي (١٢٧/٢).

(١٧) المغني لابن قدامة (٢٦٥/٢).

(١٨) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (١٠٨/٩)، رقم: (٧٣٥٢)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب، أو أخطأ (١٣٤٢/٣)، رقم: (١٧١٦).

(١٩) مجموع الفتاوى (٤٢/٣٣).

وابن القيم يقول: "الآيات الناهية عن الاختلاف في الدين، والمتضمنة لذمه كلها شهادة صريحة بأن الحق عند الله واحد، وما عداه فخطأ"[٢٠]. إلى آخر كلامه.

والشاطبي –رحمه الله– له كلام على هذا.

بناء على ذلك ليس لك أن تتخير من الأقوال، ليس لك أن تتخير ما تشاء، أو ما يوافق رغبة الإنسان وهواه، وإنما يأخذ بما تبرأ به ذمته، باعتبار ما سبق.

وهكذا المفتي ليس له أن يتعامل مع المستفتين بهذه الطريقة، وإنما يراعي ما سبق من استفراغ الوسع، والنظر في الأدلة.

ومن هنا نقول: لا يصح الاحتجاج بالخلاف، كون المسألة فيها خلاف إذًا لا حرج عليّ، لا بأس إذا عملتُ بهذا الأمر، هذا لا يجوز.

وابن عبد البر يقول: "قد أجمع المسلمون على أن الخلاف ليس بحجة"[٢١]، أجمع المسلمون، يقول: يلزم طلب الدليل والحجة ليتبيّن الحق معه عند الاختلاف، هنا يجب طلب الدليل.

إذاً لا نُنيط الأحكام بالخلاف، وشيخ الإسلام –رحمه الله– يذكر أن تعليل الأحكام بالخلاف علة باطلة في نفس الأمر، فإن الخلاف ليس من الصفات التي يعلّق الشارع بها الأحكام في نفس الأمر، فإن ذلك وصف حادث بعد النبي –صلى الله عليه وسلم[٢٢].

يعني: ليس لك أن تقول: يجوز؛ لأنهم اختلفوا فيه، وفرق بين الخروج من الخلاف، ومراعاة الخلاف، فرق بين هذا وهذا.

مراعاة الخلاف ما المراد به؟ أن نعتبر خلاف الغير بالخروج منه عند قوة مأخذه، ما هو دائمًا، عند قوة مأخذه، وإن كنا نعتقد خلاف هذا القول، فنراعي ذلك.

وقيل للإمام أحمد: رجل لا يرى من مس الذكر وضوء، أصلي خلفه وقد علمت أنه مس؟.

لاحظ: يعني: إذا كنت ترى أن مس الذكر ينقض الوضوء، وتعرف أن هذا الذي تصلي خلفه لا يرى بذلك بأسًا، أو مثلًا أنت ترى أنه يجب الوضوء من أكل لحوم الإبل، وآخر لا يرى الوجوب، وتعلم أنه أكل وتقدم يصلي، تُصلي خلفه أو لا تصلي خلفه؟.

الإمام أحمد قال: نعم تصلي خلفه[٢٣].

يعني إذا كان مثلًا الشافعي لا يرى أن أكل لحم الإبل ينقض، وكذلك مالك، وأبو حنيفة، تصلي خلف هؤلاء، أو لا تصلي؟ تصلي.

---

(٢٠) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ٥٩٤).

(٢١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١/١٦٥).

(٢٢) مجموع الفتاوى (٢٣/٢٨١).

(٢٣) مسائل الإمام أحمد رواية أبي داود السجستاني (ص: ٢٠).

الإمام أحمد –رحمه الله– كان يرى الوضوء من الرعاف والحجامة، فقيل له: "فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ، هل تصلي خلفه؟ فقال: كيف لا أصلي خلف الإمام مالك، وسعيد بن المسيب؟[٢٤] . يعني هم لا يرون أن ذلك يفسد الوضوء.

وجاء في كشّاف القناع: "وإن عجز ربُّ دين عن استيفائه أو مجنيٌّ عليه عن أرش جناية فسرق قدر دَيْنه".

يعني: ممن لم يردّ عليه الدين، وجد شيئًا من ماله فأخذه.

يقول: "فلا قطع؛ لأن بعض العلماء أباح له الأخذ، فيكون الاختلاف في إباحة الأخذ شبهة تدرأ الحد، كالوطء في نكاح المختلف في صحته[٢٥].

لو أن أحدًا تزوج امرأة من غير ولي النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: **((فنكاحها باطل))**.

هل نقيم عليه حد الزنا؟

الجواب: لا، مراعاة للخلاف.

لكن، هل كل خلاف يراعى؟

الجواب: أنه ليس بهذا الإطلاق، وإنما الخلاف الذي يكون من محال الاجتهاد، وموارد الظنون مما يتصور حصول التردد بين أطرافه، إما من جهة ثبوت الأدلة، وإما من جهة ما تفيده تلك الأدلة من المعاني، والمقتضيات، وإما من جهة التقابل –كما ذكرنا– فهنا يمكن مراعاة هذا الخلاف والخروج منه بفعل الأحوط.

نحن نبحث عن الأدلة، وننظر فيها، هذا ممن كان متأهلًا، وشيخ الإسلام –رحمه الله– يذكر أن مثل هذا الاختلاف يورث شبهة إذا لم تتبين سنة الرسول –صلى الله عليه وسلم–، أما إذا تبين الدليل البين فقد وجب المصير إليه.

والشافعي –رحمه الله– يذكر إجماع العلماء على أن من استبانت له سنة النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يكن له أن يدعها لقول أحد[٢٦].

فالخلاف الذي قوي مأخذه، ومستنده إما لدليله، وإما لاستفاضته وجريان العمل به دون معارضته لمقتضى الشرع، هذا يستحق بأن يراعى بالخروج منه، أما الخلاف المهجور فإن ذلك لا يعتبر، ولا يطلب الخروج منه.

وهل يكون الاعتبار بكثرة القائلين أو بما قوي دليله؟ الإمام مالك والعز بن عبد السلام وطائفة يقولون: العبرة بقوة الدليل لا بكثرة القائلين.

وبعض أهل العلم يرى أن كثرة القائلين أيضًا تجعل ذلك معتبرًا.

شروط مراعاة الخلاف:

مراعاة الخلاف تكون بشروط:

الأول: أن يكون الخلاف قوي المأخذ، ومن هنا أُسقط كثير من الخلاف الذي قد فاته هذا الشرط.

الثاني: ألا تؤدي هذه المراعاة إلى صورة تخالف الإجماع.

---

(٢٤) حجة الله البالغة (١/ ٢٧٠).

(٢٥) كشاف القناع عن متن الإقناع (٦/ ١٤٣).

(٢٦) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/٢٠١).

أعطيكم مثالا يوضح هذا في مراعاة الخلاف: لو جاء إنسان تزوج بدون ولي، ولا شهود، بمهر أقل من ربع دينار، لاحظ: هذه ثلاثة أشياء.

بلا ولي قلد أبا حنيفة، عدم الشهود –أنه ليس بشرط– قلد الإمام مالك، أقل من ربع دينار قلد الإمام الشافعي.

هذا النكاح لو عرض على أبي حنيفة، أو على أصحاب مذهب أبي حنيفة لقالوا: لا يصح لفقده الشروط الأخرى.

لو عرض على المالكية قالوا: لا يصح، لو عرض على الشافعية قالوا: لا يصح، هذا لُفق فيه ثلاثة أشياء من ثلاثة مذاهب، أُسقط شرط من كل مذهب، فجمعها هذا، فهذه الصورة المركبة بهذه الطريقة لا يقول أحد بحلها، فهنا لا نقول: نراعي الاختلاف، ونصحح هذا النكاح الذي بهذه الطريقة، فما أحد منهم يصححه، عند المالكية باطل، عند الأحناف باطل، عند الشافعية باطل.

هناك أمور لا تجري فيها مراعاة الخلاف، أصول الدين عقائد مبناها على التسليم والانقياد والنص، لا مجال للخوض فيها بالآراء، فإذا جاءنا من يخوض برأيه، أو نحو ذلك من العلوم الكلامية فلا عبرة بقوله.

الأمر الثاني: المعلوم من الدين بالضرورة، وجوب الصلاة، والزكاة، والصيام، ونحو ذلك، هذه لا مجال للخلاف فيها.

الثالث: ما هو بمنزلة الضروري من الأحكام الجلية، مثل: وجوب غسل القدمين في الوضوء، وأنه لا يجزئ المسح.

الرابع: ما استند إلى الحس، يعني: الاجتهاد مثلًا في القبلة، ناس في مكان، في برية، أو نحو ذلك، في سفر، اجتهدوا في القبلة، هذا قال: القبلة من هنا، وهذا قال: القبلة من هنا، هما اثنان مثلًا، هل يقلد أحدهما الآخر في الاستقبال؟ كل واحد له اجتهاد يخالف الآخر في أمر حسي؟

الجواب: أنه لا يجوز له أن يقلده، طيب يصلون جماعة أو فرادى؟ يصلون جماعة، هذا يصلي من هنا، وهذا يصلي من هنا، والصلاة صحيحة؛ لأن هذا يجب عليه أن يعمل بمقتضى الاجتهاد، وهذا عليه كذلك، ما نقول: والله عليه أن يراعي اجتهاد الآخر، ثم بعد ذلك يقلد صاحبه، ولا يصير إلى اجتهاده.

وعلى كل حال هذا له أمثلة أخرى لا أطوِّل بها، المقصود التوضيح.

الخامس: وهو ما كان من قبيل اختلاف التنوع، وهذا واضح، وتكلمنا عليه، فهذا لا يراعى فيه الاختلاف؛ لأن كل هذا حق أصلًا.

لكن هناك حالات يتعذر فيها الخروج من الاختلاف، أقوال أحيانًا تكون متناقضة، إن قلت بهذا عند الآخر أنت مسيء وآثم، وإن قلت بما يقابله فأنت عند الأول كذلك، مثل قراءة سورة الفاتحة خلف الإمام في الجهرية، الذين يقولون: لا تقرأ، يقولون: لا تجوز له القراءة؛ لأن الله قال: **{فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا}** [الأعراف: ٢٠٤]، فإن قرأ فهو مسيء، ومذنب، ومخالف لهذه الآية، والذين يقولون: يجب أن يقرأ ويستدلون بالأدلة الأخرى، يقولون: إن لم يقرأ فصلاته باطلة، فماذا تصنع في مسألة الاحتياط في هذا الموضوع؟ كيف تخرج من الخلاف في مثل هذا؟ فعل الأحوط؟ ما في أحوط هنا وإن كان بعض أهل العلم ذكر شيئًا يقول: إنه الأحوط في مثل هذا المثال، وليس المقصود مناقشة المثال بعينه، لكن توجد مسائل هي بهذه الطريقة.

كذلك إذا كان الاختلاف يتعلق بحقوق الآخرين، مثل مال اليتيم، هذا الحق مختلف فيه، فهل يمكن هنا أن نقول: والله نقوم بما يكون فيه المسامحة، والمساهلة بمال أحدهما، والحاكم يتوسط -القاضي يعني- في الخلاف في هذه المسألة -مسألة مختلف فيها- فهل المال يستحقه هذا اليتيم، أو يستحقه غريمه مثلًا؟.

فهنا لابد من الفصل في هذه القضية، والأخذ بأحد القولين، ما نقول: لا والله، نحن نجمع بين هذا وهذا، ونلفق من ذلك حكمًا يضيع به لربما حق اليتيم، أو بعض حق اليتيم مثلًا، وهؤلاء الخصوم في هذه الحقوق أحيانًا يقولون: نريد الحق لا نريد الصلح، نريد مفاصل الحقوق.

من الذي يراعي الخلاف؟

لكن يبقى سؤال هنا من الذي يراعي الخلاف؟ مراعاة الخلاف كما قال الشاطبي: هذا شأن المجتهدين من الفقهاء؛ لأن ذلك يعني مراعاة دليل المخالف، وهذا النظر إنما يختص بأهل الاجتهاد، وليس بالمقلدين، أو العوام، أو أشباه العوام.

مراعاة حال أهل البلد:

من الأشياء التي ينبغي أن تراعى: حال أهل البلد، ولذلك يقولون: من آداب القاضي إذا جاء إلى بلد أنه يعرف العادات، ومصطلحات هؤلاء الناس في العبارات، والألفاظ، ماذا يقصدون بها، وكيف يعبرون عنها، وأعراف أهل ذلك البلد.

وعليٌّ -رضي الله تعالى عنه- مضى كلامه حينما قال لقضاته: "اقضوا كما كنتم تقضون، فإني أكره الاختلاف حتى يكون للناس جماعة، أو أموت كما مات أصحابي"(٢٧).

عمر بن عبدالعزيز قال لقضاته في الأمصار: "ليقضِ كل قوم بما اجتمع عليه فقهاؤهم"(٢٨)، ولذلك لا يصح أن يُبتدر الناس بأمور هي على خلاف الفتوى الجارية في ذلك البلد.

يقول إسماعيل ابن بنت السُّدي: "كنت في مجلس مالك بن أنس، فسئل عن فريضة -يعني عن حكم يتعلق بالفرائض- فأجاب بقول زيد، فقلت فيها ما قال علي وابن مسعود، فقال مالك: إن عليًّا وعبدالله لا ينكر فضلهما، وأهل بلدنا على قول زيد بن ثابت -يعني أهل المدينة-، وإذا كنت بين قوم فلا تبدأْهم بما لا يعرفون، فيبدأَك منهم ما تكره"(٢٩).

ناس هنا مشوا على فتوى، فيأتي إنسان ويأتيهم بفتوى ليس عليها العمل في بلدهم.

ولذلك يراعى القول الذائع عند هؤلاء العلماء، والفتوى الشائعة، ولا يصح لآحاد طلاب العلم أن يأتوا بفتاوى غريبة تسبب عند الناس خللًا وبلبلة، واضطرابًا، ولربما أدى ذلك إلى الشك في ثوابت الشريعة أحيانًا؛ لأن هذا الأمر اعتادوا عليه، ونشئوا على قول المفتين عندهم أن هذا يجوز، أو أن هذا لا يجوز، فيأتيهم بفتوى غريبة تنقض هذا من أصله.

---

(٢٧) أخرجه البخاري، كتاب أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن -رضي الله عنه- (١٩/٥)، رقم: (٣٧٠٧).

(٢٨) أخرجه الدارمي في سننه، باب اختلاف الفقهاء (٤٨٩/١)، رقم: (٦٥٢).

(٢٩) سير أعلام النبلاء (١٧٧/١١).

تبقى مسألة الإنكار في مسائل الاختلاف: أن ذلك إنما يكون لمن خالف القرآن والسنة المستفيضة، أو ما أجمع عليه السلف خلافًا لا يعذر فيه مثله، إلى آخر ما ذكرنا من الحالات، وذكرنا أيضًا ضابط المسائل الاجتهادية، هذا كله ينبغي مراعاته.

وحينما نتحدث عن الاختلاف والتعامل معه لاحظوا أن مثل هذه القضايا هي قضايا دقيقة، وذات معايير، وتحتاج إلى نظر في أدلة، وتنزيل على قضايا واقعة، فهل هذا يمكن لكل أحد؟ هل هذا يمكن للمبتدئين، أو المتوسطين في الطلب؟، ومن ثمّ فإن ما نحن فيه من المبادرة والمسارعة بالكلام في كل شيء هذا غير صواب، وهو مما وسع الاختلاف، وزاد في هذه المشكلة، وفاقم الفتن، وأوقع الناس في مثل هذه البلبلة التي أدت إلى زعزعة ثوابت كانت مستقرة عند هؤلاء الناس.

استحضار أن الأصول والغايات والطرق والمقاصد واحدة:

لكن من الأشياء التي ينبغي أن نلاحظها في تعاملنا مع الخلاف عمومًا لاسيما حينما نختلف مع إخواننا في اختلاف التضاد السائغ، أن نستحضر أن الأصول والغايات والطرق والمقاصد واحدة، كما يقرر الحافظ ابن القيم بعد أن قال بأن الاختلاف أمر ضروري حينما يقع بين الناس للأسباب التي ذكرناها، يقول: "ولكن إذا كان الأصل واحدًا، والغاية المطلوبة واحدة، والطريق المسلوكة واحدة لم يكد يقع اختلاف، وإن وقع كان اختلافًا لا يضر كما تقدم من اختلاف الصحابة، فإن الأصل الذي بنوا عليه واحد وهو كتاب الله وسنة رسوله، والقصد واحد وهو طاعة الله ورسوله، والطريق واحد وهو النظر في أدلة القرآن والسنة وتقديمها على كل قول، ورأي، وقياس، وذوق، وسياسة"(٣٠).

نحن متفقون على هذا، لكن حينما تختلف اجتهاداتنا فلماذا نتفرق وننقسم؟، نحن متفقون على الأصل هو اتباع الرسول –صلى الله عليه وسلم– والسلف الصالح، فإذًا نحن حينما نجتهد، ونختلف في وجهات نظر فإننا يجب أن توجد بيننا الألفة، فأنا أدْرس نفس الكتب التي تدْرسها، وأنا أدرِّس نفس الكتب التي تدرِّسها، وأنا أتفق معك في نفس الأصول والمنطلقات، والأمور المعتبرة فيما يرجع الناس إليه من مصادر التلقي والنظر والاستدلال، العقيدة واحدة.

لماذا هذا في شق، وهذا في شق، وهذا في طرف، وهذا في طرف، وهذا يرشق، وهذا يرشق، وهذا ينبز بالألقاب والثاني يقابله بلقب أقبح منه؟، هذا يجوز؟! هذا لا يجوز بحال من الأحوال.

وقد يكون كثير من هذا الاختلاف هو في أمور مستجدة، وقضايا من النوازل، فيما يكون بين الناس من فتن ومشكلات.

فهذا كله لا يوجب هذا التباين والتفرق، فيتكلم من يُحسن، ومن لا يُحسن فإنه يمسك لسانه ويده، فينكف كثير من الشر، ونستريح.

منع إثارة الفتاوى الشاذة والأقوال الضعيفة:

---

(٣٠) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٥١٩/٢).

كذلك أيضًا يُمنع من إثارة الفتاوى الشاذة، والأقوال الضعيفة؛ لأن هذه تسبب -كما سبق- البلبلة، وتسبب الفتن بين الناس، وشيخ الإسلام يقول: "مثل هذا ليس لأحد أن يحكيه عن إمام من أئمة المسلمين، لا على وجه القدح فيه، ولا على وجه المتابعة".

يقول: يعني ينبغي أن يُطوى، ولا يُروى، الأقوال الشاذة لماذا تثار سواء كانت قديمة، أو كانت جديدة؟، يقول: "بمثل هذا صار وزير التتر يلقي الفتنة بين مذاهب أهل السنة، حتى يدعوهم إلى الخروج عن السنة والجماعة، ويوقعهم في مذاهب الرافضة وأهل الإلحاد"(٣١).

يلعب فيهم بهذه الطريقة، واليوم شياطين الإنس والجن من أعداء الدين من المنافقين وأصحاب المذاهب الفاسدة الباطلة لربما يغرون بعض من ينتسب إلى العلم ظاهرًا، أو نحو ذلك بإثارة فتوى يشتغل بها الناس، في وقت تنقض فيه عرى الإسلام عروة عروة.

يعني: يأتيك من يشغل الناس بمسألة -مثلًا- رَضاع الكبير، ثم بعد ذلك هؤلاء أصلًا قد لا يفهمون المراد برضاع الكبير، يظنون أن هذه المرأة تخرج ثديها، وترضع هذا الرجل خمسًا مشبعات حتى يصير محرمًا لها، تحرُم عليه، بينما من قال بهذا هو لا يقصد ذلك، وإنما تعطيه هذا الحليب بواسطة إناء، أو نحو ذلك، بقدر خمسٍ مشبعات عند الحاجة، يعني: إذا كان هناك حاجة لمثل هذا، هذا قول غير صحيح، هذا قول قال به بعض أهل العلم، ولكن عامة أهل العلم، السواد الأعظم من أهل العلم أن ذلك لا يصح.

ولكن وُجد من قال به، نحن نعتقد أن هذا القول شاذ، أو قول ضعيف، فإذا جاء من يثيره مع المعطيات المعاصرة بوسائل الإعلام، وكثرة الشامتين، وكثرة المفسدين، فإن ذلك يتحول إلى شناعة.

ما أخذوه من مأخذ صحيح، وما فهموا قصد القائل به، وإنما أخذوه بصورة مشوهة، ثم بعد ذلك صاروا يشمتون بالدين وأهله، وصار ذلك ضُحكة يتلاعب به هؤلاء من المفسدين، هذا لا يليق بحال من الأحوال.

ثم يبدأ يُشغل الناس، وتعتلج المنتديات، والمواقع، والحسابات، وما إلى ذلك، كل أحد يريد أن يدلي بدلوه الآن في هذه القضية.

هذه القضية تُطوى، ولا تُروى، ولا تحكى، لا على سبيل المدح، ولا على سبيل الذم، لا هذا يأتي يقول: أنا أتبنى هذا القول، قال به فلان، وقال به فلان، ولا يكون ذلك أيضًا على سبيل الشناعة، وإنما ينبغي أن يقطع الطريق على المتربصين، والذين يريدون أن يصطادوا بمثل هذه الفتاوى والأقوال في زمن صار فيه الإعلام يلعب في عقول الناس.

العدل الذي يجب على أهل الإيمان أن يتحلوا به:

والله -تبارك وتعالى- يقول: **{وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا}** [الأنعام: ١٥٢]، وذلك كما يقول الشيخ عبدالرحمن بن سعدي عند هذه الآية: "بمراعاة الصدق فيمن تحبون، ومن تكرهون، والإنصاف، وعدم كتمان ما يلزم بيانه، فإن الميل على

---

(٣١) مجموع الفتاوى (١٣٧/٣٢).

من تكره بالكلام فيه، أو في مقالته من الظلم المحرم، بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع، فالواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه، وأن يبين ما فيها من الحق والباطل، ويعتبر قربها من الحق وبعدها عنه"[٣٢].

حينما نكره فلانًا، ولو كان يوافقنا نبحث عن تخطئة قوله، بل لربما نبحث في كلامه الطويل، وفي مؤلفاته، وفيما له من دروس صوتية، ونحو ذلك نبحث عن خطأ، نسمع مئات الأشرطة حتى نبحث عن خطأ، هل هذا يجوز؟ هذا خلاف العدل، وهو من البغي والظلم والعدوان، إذا كنا نتعامل مع الاختلاف بهذه الطريقة لا يمكن أن نجتمع، والضحية هي مصالح الأمة، وتضييع حدود الله -تبارك وتعالى-، والله -عز وجل- يقول: **{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}** [المائدة: ٨].

شيخ الإسلام يقول: "هذه الآية نزلت بسبب بغضهم للكفار، وهو بغض مأمور به، فإذا كان البغض الذي أمر الله به قد نُهي صاحبه أن يظلم من أبغضه، فكيف في بغض مسلم بتأويل وشبهة، أو بهوى نفس؟، فهو أحق ألا يظلم، بل يعدل معه"[٣٣].

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- يذكر وجوب الإنصاف، بل يقول: "هو أفضل حلية تحلى بها الرجل، خصوصًا من نصّب نفسه حكمًا بين الأقوال والمذاهب، والله يقول: **{وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ}** [الشورى: ١٥].

فورثة الرسول منصبهم العدل بين الطوائف، وألا يميل أحدهم مع قريبه، وذوي مذهبه، وطائفته ومتبوعه، بل يكون الحق مطلوبه يسير بسيره، وينزل بنزوله، ويدين بدين العدل والإنصاف"[٣٤].

هل نحن كذلك؟ نحن كما قلنا منذ البداية: هذا الكلام يوجهه كل واحد منا إلى نفسه، لسنا نتحدث عن الآخرين، نحن نعالج ما عندنا من علل، ومشكلات، والله المستعان.

فهذا كله يجب مراعاته، وألا نضيعه، وقد قال عمار -رضي الله عنه- كما في الصحيح: "ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالَم، والإنفاق من الإقتار"[٣٥].

أن نعتقد أن ما ثبت بيقين لا يزول إلا بيقين:

وعلى كل حال مما يدخل في هذا: أن نعتقد أن ما ثبت بيقين لا يزول إلا بيقين، من ثبت له أصل الإسلام، فلا يُخرج من الإسلام، ويحكم بكفره إلا بيقين، من ثبت له اتباع السنة لا يُخرج منها إلا بيقين، وهكذا الخطأ في الحكم بالإيمان أسهل من الخطأ في الحكم بالكفر، حينما نُخرج هذا من الإسلام، ونحكم عليه فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: **((من دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدو الله، وليس كذلك إلا حارَ عليه))** [٣٦]، أي رجع عليه.

فكوننا نعلم أنه دخل الإسلام بيقين لا يُخرج منه إلا بيقين، وحينما نخطئ في الحكم عليه بهذا -أنه باقٍ على أصل الإسلام- أسهل من أن نخرجه من الدين.

---

(٣٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٨٠).

(٣٣) منهاج السنة النبوية (١٢٧/٥).

(٣٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين ت مشهور (٥٤/١).

(٣٥) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: إفشاء السلام من الإسلام (١٥/١).

(٣٦) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم (٧٩/١)، رقم: (٦١).

ومن ثَمّ نعلم أن مسائل الاجتهاد لا تأثيم فيها، ولا هجران، فهذا مذهب أهل السنة، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: أنهم لا يرون تأثيمًا لكل من اجتهد في المسائل كلها، من غير تفريق بين الأصول والفروع[٣٧].

كذلك حينما نقول بأن هذا القول كفر فكما أشرت سابقًا لا يعني ذلك أن يسوغ القول، أو أن نسوغ تنزيل ذلك على المعين، فإن الحكم العام سواءً كان بالكفر، من فعل ذلك فقد كفر، أو اللعن العام **((لعن الله الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة))** [٣٨].

لا يجوز أن نرى إنسانًا، أو نرى امرأة قد فعلت الوشم، أو النمص، أو نحو ذلك، ثم نلعنها بعينها، ونقول: هذه ملعونة بعينها؛ لأن هناك موانع تمنع من نزول هذا اللعن عليها، كما ذكر شيخ الإسلام أشياء كثيرة من هذا القبيل من هذه الأمور المانعة، كأن يكون هذا الإنسان معذورًا لجهله، أو يكون هذا الإنسان عنده حسنات ماحية، أو يكون عنده مصائب مكفرة، أو قد لا يتنزّل عليه اللعن مثلًا لوجود شفاعة، أو نحو ذلك، فهذا اللعن العام شيء، أو الحكم بأن هذا بدعة، أو نحو ذلك يختلف عن تنزيله على المعيّن.

كذلك علينا أن نأخذ بالظواهر، والله يتولى السرائر، ما نقول: هذا ما يقصد إلا الشر، هذا لا يريد الخير، ولذلك قال الله –عز وجل–: **{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [النحل: ١٢٥]، ثلاثة أشياء، ثم ماذا قال بعدها: **{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}** [النحل: ١٢٥].

إذًا لا تقل: فلان لا يريد الخير، فلان لا يقصد الخير، فلان يتظاهر بكذا **{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ}**، قدم الدعوة بقالب من ذهب تقبلها النفوس، وتقبل عليها، ودع ما في القلوب لله –تبارك وتعالى.

الله يتولى السرائر، إذا كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: **((إني لم أؤمر أن أنقِّب قلوب الناس، ولا أشق بطونهم))** [٣٩]، فكيف بنا نحن؟.

كذلك أيضًا حينما يُقدِم ويجترئ الجهال على الحكم على العلماء، وأئمة الدين، ونحو ذلك، فلا شك أن هذا من أعظم الجرائم.

يقول ابن رجب: "أكثر الأئمة غلطوا في مسائل يسيرة مما لا يقدح في إمامتهم وعلمهم، فكان ماذا؟ لقد انغمر ذلك في بحر علمهم، وحسن مقصدهم، ونصرهم للدين، والانتصاب للتنقيب عن زلاتهم ليس محمودًا، ولا مشكورًا، لاسيما في فضول المسائل التي لا يضر فيها الخطأ، ولا ينفع فيها كشفه وبيانه"[٤٠].

---

(٣٧) مجموع الفتاوى (١٢٥/١٣).

(٣٨) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب الوصل في الشعر (١٦٥/٧)، رقم: (٥٩٣٣)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة والمتفلجات والمغيرات خلق الله (١٦٧٧/٣)، رقم: (٢١٢٤).

(٣٩) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (٧٤٢/٢)، رقم: (١٠٦٤).

(٤٠) الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة، لابن رجب (٥٦– ٥٧).

كذلك يقول ابن المسيب –رحمه الله–: "ليس من شريف، ولا عالم، ولا ذي سلطان إلا وفيه عيب ولابد، ولكن من الناس من لا تُذكر عيوبه، من كان فضله أكثر من نقصه وُهب نقصه لفضله"(٤١).

العبرة بما غلب، وإلا فلا يخلو أحد، هذا الذي يتكلم لا يوجد فيه عيوب؟ هذا الذي يكتب كتابات عنيفة وشديدة وقاسية لا يوجد فيه عيوب؟

حينما يتكلم على هذه القمة، هذا العالِم، لو نظرنا وقارنا لوجدنا هذا الكاتب لربما ينغمس في العيوب، والجهالات والذنوب، والمخالفات، أعظم بكثير مما قد عابه على غيره، ولكنه يرى القذاة في عين أخيه، ولا يرى الجذع في عينه، وكما قال شيخ الإسلام: "قد يكون صدِّيقًا عظيمًا، فليس من شرط الصدِّيق أن يكون قوله كله صحيحًا، وعمله كله سنة"(٤٢).

قد يخطئ، قد يخالف السنة لعذر، جهل ذلك، ما فهمه، وتجد الكثيرين لربما يتورع من أكل الحرام، أو أكل الربا، أو شرب الخمر، أو نحو ذلك، لكن تجد اللسان فاجرًا، يفري أعراض الأحياء والأموات.

الدين ينتظم أعمال القلوب، وأعمال الجوارح، وأقوال اللسان، فلا يصح أن يكون اللسان طليقًا، يرتع في أودية الفجور والغي، ثم يقال عن صاحبه: إنه متدين، وصالح، وتقي، أو إنه طالب علم، أو إنه داعية، أو إنه غير ذلك من الأوصاف، أبدًا، بل هذا من الفسوق.

والله –عز وجل– لما نهى مثلا عن الغيبة قال: **{أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ}** [الحجرات: ١٢]، وكذلك أيضًا قال: **{وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}** [الحجرات: ١١].

وقال: **{وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ}** [الحجرات: ١١]، فهذا الذي يرمي الناس بالألقاب القبيحة، ويلمزهم بذلك **{وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ}** [الهمزة: ١]، **{هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ}** [القلم: ١١].

فمثل هذا لا يكون صالحًا، ولا يكون عمله على جادة صحيحة، ومن الذي يسلم من ألسن الناس؟، لكن الموفق هو الذي يضبط لسانه وجوارحه، ويكون على حال مرضية.

الإمام أحمد سأل بعض طلبة العلم: من أين أقبلتم؟ قالوا: جئنا من عند أبي كريب، أبو كريب هذا كان ينال من الإمام أحمد ويقع فيه، فقال الإمام أحمد: نعم الرجل الصالح، خذوا عنه، وتلقوا عنه العلم، قالوا: إنه ينال منك ويتكلم فيك، فقال: أي شيء حيلتي فيه، إنه رجل قد ابتُلي بي(٤٣).

ما قال: ماذا يقول؟!، ثم تغير عليه، وحكم عليه بخلاف ذلك، أبدًا.

هذا زر بن حبيش، وأبو وائل، زر بن حبيش كان يميل إلى عليٍّ –رضي الله عنه–، وأبو وائل كان يميل إلى عثمان –رضي الله عنه–، يقول الأعمش –وهو تلميذ لهما–: "كانوا أشد شيءٍ تحابًّا وتوادًّا في ذات الله –عز وجل–، ما تكلم أحدهما في الآخر قط حتى ماتا".

---

(٤١) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (ص: ٧٩).

(٤٢) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١٠٦/٢).

(٤٣) سير أعلام النبلاء (٣١٧/١١).

هذا يميل إلى عثمان، وهذا يميل إلى عليٍّ، ما أورث هذا نوعًا من التعصب والانقسام والانحياز، كما نفعل نحن الآن، أنت تحب الشيخ الفلاني؟ تحب الطائفة الفلانية، تميل إليها؟ وأنت تحب الطائفة الفلانية؟ إذاً لا مساس، هذا يجوز؟ هذا يجوز؟

يقول: ما تكلم أحدهما في الآخر قط حتى ماتا، ولم يحدِّث أبو وائل بحضرة زر؛ لأنه كان أكبر منه سنًّا[٤٤].

الذهبي يقول في ابن حزم: "ولِي ميلٌ لأبي محمد بن حزم لمحبته للحديث الصحيح، ومعرفته به، وإن كنت لا أوافقه في كثير مما يقول في الرجال والعلل، وفي المسائل البشعة في الفروع والأصول، وأقطع بخطئه في غير ما مسألة، ولكني لا أكفره، ولا أضلله، وأرجو له العفو، والمسامحة، وللمسلمين، وأخضع لفرط ذكائه وسعة علومه"[٤٥].

كذلك أيضًا من الأشياء التي تنبغي في التعامل من جهة العدل أنه إذا قال من نخالفه، أو من نكرهه، أو نحو ذلك قولًا هو حق وصواب أن نقبل ذلك منه، وذكرنا كلامًا لأهل العلم في هذا المعنى، كلام شيخ الإسلام وما إلى ذلك.

وأمر سادس مما يتعلق بالتعامل مع الاختلاف: الصبر وسعة الصدر، والاحتمال، والرفق، والمداراة، ومقابلة السيئة بالحسنة، كما يقول العامة: "ما نتبارى بالرَّدى".

يعني: إذا جاء الرَّدى من طرف لا ينبغي أن نباريه، وأن نقول: نحن أشطر في هذا منك، بعضهم يقول عن نفسه: إنه أستاذ في السب والشتم، وموغل في هذا -نسأل الله العافية- يقول: إذا كان عندك كلمة أقابلك بعشر، أستاذية في الإقذاع، فهذا لا يجوز، والله يقول: **{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}** [فصلت: ٣٤].

ويقول: **{وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}** [فصلت: ٣٥]، هذه النصوص لمن؟ هذه في حال المحبة؟ هذه في حال المجافاة، هذه في حال الكراهية، هذه في حال الإساءة، كيف يكون إعمال هذه النصوص؟

انظروا أثَرَ الإحسان، يقول مساور الورّاق -وهو رجل يوصف بالزهد ويقول الشعر-:

كنا من الدين قبلَ اليوم في سعةٍ *** حتى بُلينا بأصحابِ المقاييسِ

قومٌ إذا اجتمعوا صاحوا كأنهُمُ*** ثعالب ضَبحتْ بين النواويسِ

يهجو أصحاب الرأي أبا حنيفة، ومن على مذهبه، أبو حنيفة بلغه ذلك، فأرسل إليه هدية، ما قابله بالمثل، أرسل إليه هدية، فماذا قال الرجل؟، قال:

إذا ما النّاس يومًا قايسونا *** بآبِدةٍ من الفُتيا طريفة

أتيناهم بمقياس صحيحٍ*** بديعٍ من طراز أبي حنيفة

إذا سمع الفقيه بها وعاها***وأودعها بحِبر في صحيفة[٤٦]

---

(٤٤) المصدر السابق (١٦٩/٤).

(٤٥) المصدر السابق (٢٠١/١٨- ٢٠٢).

(٤٦) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لابن حبان (ص: ٢٤٣).

لاحظ مثل هذه الهدية كيف أثرت، انتهت المشكلة، لكن لو قابله بمثله، وهذا قام معه آخرون، وهذا قام معه آخرون تحوّلت إلى معركة داحس والغبراء كمعاركنا اليوم.

أسأل الله –عز وجل– أن ينفعنا وإيّاكم بما سمعنا، إنه سميع مجيب، والسلام عليكم ورحمة الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الاختلاف وموقفنا منه

(١٣) تتمة كيف نتعامل مع الاختلاف والطريق إلى الاجتماع والسبيل إلى جمع الكلمة وما الذي نحذره لحراسة الاجتماع والكلمة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

مرحبًا بكم جميعًا، وأسأل الله -تبارك وتعالى- أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

أواصل الحديث عن الطريقة التي ينبغي أن نتعامل بها مع الاختلاف:

سابعاً: أن نتعامل مع الاختلاف بعيدًا عن التعصّب:

التعصب لقولنا، أو التعصب لشيخنا، أو التعصب لمذهبنا، أو التعصب لطائفة من الطوائف، فيكون بذلك التعصب قد انسدت عليه منافذ الفهم والقبول، فإن حب الشيء يُعمي ويُصم.

وقد جاء في الحديث الذي روي مرفوعًا وموقوفًا: **((أحبب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما))**[١].

فلا داعي للجنوح مع قول، أو الغلو في منابذة من نخالفه الخلاف الذي يكون سائغًا، بل لو كان الخلاف من غير السائغ فإنه ينبغي أن نقوم على ذلك كما أمرنا الله -عز وجل- بالعدل، من غير زيادة، وهذا قد مضى الكلام عليه.

وقد ذكرت شيئًا من الشواهد في التاريخ عند ذكر الأسباب مما قد يتصل بهذا المعنى: الغلو، والتعصب والمبالغة إذا كان الذي نطريه، أو نذكره ممن نحبه، أو نؤيده، وكذلك أيضًا العكس.

لما توفي الإمام أحمد قال واحد من العلماء المعاصرين له المحبين، -ولا حاجة لذكر اسمه -رحم الله الجميع- قال: "حق على أهل كل بيت في بغداد أن يقيموا مناحة على موت الإمام أحمد"[٢].

أن يقيموا مناحة، هذا أمر منكر شرعًا، وهذا إمام وعالم، ومع ذلك يقول مثل هذا الكلام، فهذا كما يقول الذهبي: "تكلم بمقتضى الحزن، لا بمقتضى الشرع"[٣].

فإن النياحة منهي عنها في الشريعة، ولو كان الذي توفي من أئمة المسلمين الكبار كالإمام أحمد -رحمه الله.

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب البر والصلة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض (٤/٣٦٠)، رقم: (١٩٩٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (١١/٢٠٣)

(٣) المصدر السابق (١١/٢٠٤).

وهكذا قول الآخر: "لَسوطٌ ضُربه أحمد أكرم من أيام بشر الحافي كلها".

بشر الحافي من العباد الزهاد، ولا تكون الأمور بهذه النظرة، وإنما كما قال الذهبي –رحمه الله–: "بشر عظيم القدر كأحمد، ولا ندري وزن الأعمال، إنما هو عند الله، والله أعلم بذلك[1].

ما نستطيع أن نقول: سوط يعدل أيام بشر من أولها إلى آخرها، فهذا لا شك أنه مبالغة، إلى غير ذلك من الأمثلة التي ذكرناها سابقًا، وكذلك أيضًا في المجافاة، والمخالفة والبغض.

كما قال أحدهم عن ابن الجوزي –رحمه الله– يذكر أخطاءه وعيوبه، وقال: "ما رأيت أحدًا يوثق بعلمه، ودينه، وعقله راضيًا عنه". إلى هذا الحد، ما رأيت أحدًا يوثق بعلمه، ودينه، وعقله، الثلاث، راضيًا عنه.

الذهبي يقول: "إذا رضي الله عنه فلا اعتبار بهؤلاء"[2].

أحد العلماء من المتقدمين –ولا حاجة لذكر الأسماء– كان قد بلغه عن رجل أنه يدرس الحديث، وكان ممن يختلف معه، فقال: "ما له وللحديث؟ هو بالتوراة أعلم"[3].

تصور أثر هذه الكلمة حينما يتلقفها التلاميذ الذين يعجبون بشيخهم، ويعظمونه، ويحترمونه، ويطيرون بها، وهذا أمر مشاهد، لربما يقول الشيخ كلامًا من الموعظة، ومما يذكر بالله والدار الآخرة، ولا يكون له ذلك الموقع، لكن يقول كلمة في لحظة غضب، أو انفعال، أو ردود أفعال، ثم بعد ذلك يطيرونها كل مطير.

هذه لا شك أنها تفعل فعلها في النفوس، ثم بعد ذلك نلوم هؤلاء الأتباع والتلاميذ حينما يقعون في شيء من هذه المبالغات، والتعصبات، والخوض الباطل.

ثامناً: البعد عن التفتيش عن الأخطاء والعيوب:

فإننا حينما نفعل ذلك فإننا نبحث عما يمزق، ويزيد الفرقة والاختلاف، فتحصل المجافاة والمباعدة، نحن ينبغي أن نعالج ما ظهر وبدا، لا أن نبحث عن أشياء، ونفتش عن عيوب خفية، أو كلمات قيلت في سياقات معينة، ثم بعد ذلك نحورها ونحولها إلى جرائم نحاسبه عليها ونذيعها، وننشرها، فإن هذا لا يسوغ بحال من الأحوال، وقد قال بعض أهل العلم يصف مثل هؤلاء وكأنه يصف حالنا في هذا العصر –إلا من رحم الله– يقول: "فهو طول الليل والنهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب، والتفقد لعيوب الأقران، والتلقف لأنواع التسبيبات المؤذية، وهؤلاء هم سباع الإنس، طبعهم الإيذاء، وهمهم السفه، ولا يقصدون العلم إلا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الأقران[4].

ابتعد عن هذا، هذا خلق مرذول، لا يمكن لإنسان نزيه متجرد أن يفعل هذا الفعل، ويقوم بمثل هذه الممارسات.

تاسعاً: نحتاج في التعامل مع الخلاف إلى شيء من التعقل والحكمة:

والحكمة إنما تكون بمجموع أمرين:

الأول: هو العلم الصحيح، والثاني: هو العقل الراجح، والعلم غير العقل.

---

(١) المصدر السابق (٢٠١/١١).

(٢) المصدر السابق (٣٨٣/٢١).

(٣)المصدر السابق (٤٤٤/١٠).

(٤) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٩٤).

قد يكون الإنسان من أوعية العلم، ولكنه لا عقل له، يطيش، سريع الانفعال، ترد على لسانه الكلمات في حال الغضب كالسهام، فمثل هذا لا يصلح أن يلج في مثل هذه القضايا، وإنما ينأى بنفسه ليسلم، ويسلم الناس منه.

وقد يكون الإنسان عنده عقل، لكن ليس عنده علم، وإنما تكون الحكمة لمن جمع بين هذين الأمرين، نحتاج إلى عقلاء بمثل هذه الأوقات يحسنون التعامل مع مثل هذه الأمور؛ لئلا يزيد الشر.

لئلا نكون ممن يصب الزيت على النار، وهو بزعمه أنه يريد أن يطفئ الفتن والشرور، ويكون من أعظم معاول الفتنة من حيث لا يشعر.

نحتاج إلى شيء من البصر فيما نأتي وما نذر، ومن كان يفتقد مثل هذه الحكمة فليبتعد عن هذه المضايق، وإن كان ولابد فاعلًا فليشاور العقلاء، يشاور أهل النظر الصحيح في الأمور.

خذ مثالًا على ذلك مما نعانيه ونكابده بمثل هذه الأوقات مع وسائل الإعلام الجديدة التي صارت بيد كل أحد.

على سبيل المثال قضية التشهير، هذه مخالفة وقعت، هذا خطأ، هذه زلة، هذا إنسان صدر منه موقف غير صحيح، غير سليم، قال كلمة، سمعها واحد في مجلس، سمعها اثنان، سمعها خمسة، كتبها في موقع يتابعه عليه عشرة، يتابعه عليه ثلاثون، خمسون، مائة، كيف التعامل مع مثل هذه القضية؟

التشهير في أصله حرام، وإذا كان الله -عز وجل- يقول: **{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}** [النور: ١٩].

بمجرد المحبة لإشاعة الفاحشة توعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فكيف بالذي يشيعها بأمور لا تخفى بقوله وعمله؟

والفاحشة في هذا السياق هي الزنا، وما في معناه، وإن كان يدخل في الفاحشة بمفهومها العام ما عظم وفحش، ما كان عظيم القبح من الجرائم من الأقوال والأفعال.

فمثل هؤلاء الذين يحبون إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا متوعدون بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فكيف بمن يقوم بذلك من الناحية العملية وهو أعظم من مجرد المحبة القلبية؟، فما شأن الإنسان وهذا؟

وهذا التشهير الذي توعد الله -عز وجل- أصحابه في مثل هذه الآية، وكذلك في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا}** [الأحزاب: ٥٨].

يقول ابن كثير -رحمه الله-: "أي: ينسبون إليهم ما هم برآء منه لم يعملوه، ولم يفعلوه، يحكون على المؤمنين والمؤمنات ذلك على سبيل العيب والتنقص منهم"[(١)].

وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق))**[(٢)].

وقد قيل في معنى قوله -صلى الله عليه وسلم-: **((من سمّع سمّع الله به))**[(٣)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/٤٨٠).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الغيبة (٤/٢٦٩)، رقم: (٤٨٧٦) وأحمد، رقم: (١٦٥١).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة (٨/١٠٤)، رقم: (٦٤٩٩)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (٤/٢٢٨٩)، رقم: (٢٩٨٦).

أي من سمع بعيوب الناس وأذاعها أظهر الله عيوبه، هذا تفسير فسر به الحديث، وإن كان المشهور على خلافه، فيدخل في هذا ما يقال من قبيل المنثور، أو المنظوم –الشعر– مما يتناقله الناس، ويتداولونه من الهجاء المحرم، ونحو ذلك.

هذا التشهير حينما يكون بالبريء فهذا جرم عظيم، وهو من البهتان وزيادة، وأما إذا كان بمن وقع منه إساءة فإن ذلك ينبغي أن يتعامل معه بشيء من الحكمة.

أن ينظر في المصلحة، وأن ينظر في هذا الفعل، هل يستحق هذا أو لا يستحق؟ وماذا يترتب عليه؟ وهل فعله سرًّا أو فعله علانية؟

فالله –تبارك وتعالى– يقول: **{وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا}** [الحجرات: ١٢]، فهذا التشهير غيبة وزيادة، والنبي –صلى الله عليه وسلم– قال: **((أتدرون ما الغيبة؟))** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **((ذكرك أخاك بما يكره))** .

إذا كان يذكره في المجلس عند واحد يعد ذلك من الغيبة، فكيف إذا كان يقرأ ذلك الملايين؟ فإن لم يكن فيه، قال: **((فقد بهته))** [(١)].

ثم أيضًا النصوص التي جاءت بالستر: **((من ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة))** [(٢)]، وإذا رأى عيبًا ستره، لكن التشهير هذا قد يكون مباحًا، وقد يكون واجبًا بحسب الحال، وما يقتضيه المقام.

وكثيرًا ما يختلط أيضًا النصح للمسلمين بحظوظ النفس، وتصفية الحسابات وكراهية هذا المُشهَّر به، وكثيرًا ما يحصل التزيُّد في مثل هذه الأمور والتجني، وتحميل الأمور ما لا تحتمل.

لكن، إذا كان ذلك من الأمور الواضحة أنها خطأ، أو انحراف، أو بدعة، أو كفر، فإن ذلك لا يقتضي دائمًا التشهير، قد يكون صاحب هذا القول مغمورًا، فإذا شهرنا به أذعناه.

نحن نعاني من مشكلة، نجد أحدهم كتب في تغريدة لم يقرأها إلا أفراد، ولم يحولها إلى غيره لربما إلا الواحد، أو نحو ذلك، ثم ماذا نفعل؟ نأخذ هذه التغريدة نفتح لها "هاشتاج"، ونذيعها، ونرسلها لمن يتابعهم الملايين، ونقول: انشر تؤجر.

بل نحاسب الآخرين هل شاركوا ووقعوا في هذا الهاشتاج الذي فتحناه، أو أنهم ممن خذلوا الإسلام وأهله حينما أعرضوا عن ذلك.

هذه الكلمات التي كتبت، أو قيلت لم يطلع عليها أحد، أو اطلع عليها واحد أو اثنان، أصبح يسمعها الجميع ويتداولها الجميع حتى العجائز اللاتي لا يعرفن هذه الوسائل والوسائط، طرقت كل سمع، فيكون أثر ذلك بليغًا.

أصبحنا جسورًا نروج الباطل، ويصل إلى الآفاق على ظهورنا ونحن لا نشعر، قمنا بدعاية مجانية لا يحلم بها.

قد لا يكون عنده من الإمكانات ما يستطيع أن يوصل صوته إلى هذه الأعداد الهائلة، فقمنا نحن بذلك بالنيابة عنه.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة (٤/٢٠٠١)، رقم: (٢٥٨٩)

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الحدود، باب الستر على المؤمن ودفع الحدود بالشبهات (٢/٨٥٠)، رقم (٢٥٤٤)، وأحمد، رقم: (١٦٩٥٩).

وقد يكون أملس الجلد، صفيق الوجه، لا يبالي بما قيل فيه، المهم أن تصل هذه الكلمات، أو إن كان يريد الشهرة فنكون قد بلغنا به الثريّا بحسب تصوره هو ومطلوبه إن كان يريد الشهرة والذيوع، ويتحدث عنه الناس ويشغل الرأي العام كما يقال.

ثم بعد ذلك يجد الخطباء أنهم لربما مدفوعون للحديث عن قضية يتحدث بها المجتمع.

فالخطيب في نفسه يقول: أنا لا أريد أن أكون بعيدًا عن اهتمامات المجتمع، أريد أن أساير المجتمع في همومه، وما يدور في مجالس الناس، وعلى ألسنتهم، وأوضح لهم الحقائق، وأضع النقاط على الحروف، فيبدأ الخطباء يتكلمون في هذه القضية، ثم بعد ذلك يأتي أصحاب الأقلام، وتشتغل الأمة، وكانت القضية مدفونة.

كان مثل هذا يمكن أن يترافع معه إلى القضاء، وقد كتب باسمه الصريح، ثم بعد ذلك يحاسب على ما كتب، ولا يعلم بذلك أحد.

لكن نحن ماذا فعلنا؟ أشغلنا الناس، وذهبت تلك الشفافية التي في القلوب تجاه الباطل والكفر، وسب رب العالمين، والطعن في ثوابت الدين، وأصبحنا قد اعتادت قلوبنا على ذلك، وما عادت تتأثر؛ لكثرة وقع النبال والسهام.

تتابعت السهام على القلب، فما عاد يشعر بكثرة الجراح، فتذهب تلك الصفة المهمة التي ينبغي أن يحفظ العبد قلبه، وأن يحافظ عليها؛ لتكون تلك الصفة سمة فيه: الشفافية تجاه المنكر، بعض السلف كان إذا رأى منكرًا بال الدم، ونحن أصبحت قلوبنا صلبة قاسية؛ لكثرة ما يَرِدُها.

ولذلك من الخطأ أن نفسد على أنفسنا، وأن ننشر الباطل، ونحن لا نشعر، القضية ليست انشر، القضية ليست سجل حضورًا، فلان شارك، وفلان ما شارك، فلان خذلنا، يقول: قال الحسن البصري، قال شيخ الإسلام، وقال كذا، والناس يتكلمون عن موضوع آخر، نريد أن تكون جزءًا من هذه الرواحل التي تحمل.

بعض من هؤلاء ربما يفزع لما يرى القضية أصبحت ذات أبعاد كبيرة، وأنها خرجت عن السيطرة، فيبدأ يتساءل يقول: هل ما فعلته صحيحاً حينما أذعتها، وفتحت لها كذا، وحينما نشرتها؟، هل هذا صحيح؟

القضية وصلت إلى حد كبير، ما كنت أتوقع، كنت أريد أنْ يُنكَر على هذا الإنسان، ما شاء الله، ما شاء الله، يُنكَر عليه بهذه الطريقة؟! ليس هذا بصحيح.

نحتاج أن يكون عندنا حكمة، ما الذي ننشره؟ ما الذي نذيعه؟ ما الذي يدفن؟ ما الذي يُطوى ولا يُروى؟ والغاية لا تبرر الوسيلة أيضًا، لكن للأسف انشر، هذه الرسائل التي تأتي في الواتس أب، كثير منها مدمية.

ما هو الغرض من إرسال هذه الرسالة؟ ما هي الفائدة المرجوة من هذه الرسالة؟ إدماء القلوب؟ إلف المنكر؟ امتلاء القلوب بالغل؟ ثم ماذا؟ ما هي الفائدة الآن؟ ماذا تريد بإرسال هذه الرسالة؟ ما هو المطلوب؟ أرسل فقط، هل هذا صحيح؟ ونصبح على أوجاع، ونمسي على أوجاع، حتى إنه يخيل إليك حينما ترى بعض الأسماء أرسل تعرف أنه أرسل غمًّا.

ولذلك أنا ما رأيت الراحة حتى تركت هذه الوسائل، تويتر، والواتس أب واسترحت، فإن النظر في مثل هذه الأشياء لا شك أنه يؤثر على القلب، ولا يمكن للإنسان أن يحفظ قلبه مع أنه لا يشارك في نشر هذه الأشياء أصلًا، فكيف بهؤلاء الذين يرتعون، ويذيعون ذلك، وقد يكون الواحد منهم ممن يشيع الفاحشة في الذين آمنوا؟

نحتاج إلى تبصر، لكن للأسف، أصبح كل واحد أمير نفسه، ويظن أنه يغار، وأنه ينصر الدين بهذا الفعل، والله المستعان.

هذا بالإضافة إلى النيات، ماذا يريد الإنسان من نشر هذا؟ ماذا يريد من كتابة التعليق؟ ماذا يريد من كتابة الرد؟ قد يكون ذلك جميعًا لنية صحيحة، يبقى الفعل هل هو صحيح أو لا؟

وقد يكون لنية فاسدة، تعزيز الذات، إثبات الحضور، أنا موجود، في كل قضية حاضر أعلق، لي فيها رأي، كل يوم لابد من التواصل مع المعجبين والمتابعين.

والنهاية على خرقة يلف بها، ويوضع في قبر، ثم بعد ذلك يبقى أسيرًا لعمله، ويعرف بعد ذلك هذه الأعمال هل هي مما يقربه ويرفعه، أو أن ذلك مما يباعده من الله والدار الآخرة.

عاشراً: أرح نفسك:

نصيحتي لنفسي ولكم: أرح نفسك، كن في راحة وعافية، العافية لا يعدلها شيء؛ إذ إن الكثيرين يعيشون في قلق دائم وهم، في كل قضية تقع، في كل جزئية، في أي مكان في الدنيا تصل إليه عبر هذه الوسائل والمواقع والأخبار، وإلى آخره، ما الموقف؟ ما موقفي تجاه كذا؟ ما موقفي تجاه ما يحصل في البلد الفلاني؟ ما موقفي تجاه فلان، وما قال؟، ما موقفي تجاه موقف فلان؟، أنا ما خُلقت لهذا.

وإذا وضعت في قبري سأسأل ثلاثة أسئلة فقط، ما لها رابع، من ربك؟ وما دينك؟ ومن هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ ومهما أوتي الإنسان من الإمكانات والقُدر والعلم والفهم والاطلاع لن يستطيع أن يحيط بما يجري في الدنيا.

فكل قضية يحيط بمبادئها، ونهاياتها، ومقدماتها، وما يحتف بها من جهة النظر في الأدلة ليستخرج الحكم، ومن جهة تحقيق المناط، لينزل هذا الحكم عليها، فقد يخطئ في طلب الحكم من الدليل، وقد يخطئ في تنزيله على هذه الواقعة.

ثم انظر ماذا يحتاج من الزمان حتى يتصور هذه الوقائع الموجودة في الدنيا، يأتي شاب صغير لا تحتمل قدراته العقلية، ولا العلمية، ولا إمكاناته، وقد حمّل نفسه شططًا، وهو يعيش في قلق دائم، معه أسئلة، هذه الأسئلة كبار لو جمع عليها أهل بدر لربما توقفوا، أو توقف بعضهم.

ويريد جوابًا لكل واحدة، ويذهب إلى هذا وهذا وهذا، أرح نفسك، الله -عز وجل- لا يسألك عن هذا، ما لك ولهذه الأشياء؟ أرح قلبك.

اعبد الله -عز وجل- وأبواب الجنة كثير، هذا يدخل من باب الصيام، وهذا يدخل من باب الصدقة، وهذا يدخل من باب الصلاة.

فلا تدخل في مثل هذه القضايا والمضائق، وكلما اصطرع الناس في قضية تريد أن يكون لك فيها موقف، ورأي وتصور، ثم بعد ذلك لربما تضيق إمكانات الإنسان نحو هذه الأشياء، فيقع في شيء من الحيرة، أو التشتت، أو الضغوط النفسية، فيتولد عن هذا علل وأوصاب، وقد رأيت شيئًا من ذلك.

رأيت أناسًا ما تحتمل عقولهم، فأصيبوا بأشياء أشبه ما تكون بالأمراض العقلية، وأصبح يخلط، تعب، أضنى نفسه.

وبعضهم يشكو، ويطلب المخرج، يقول: إنه يأكل أدوية نفسية، وما عادت تجدي معه، السبب أنه يتابع كل شيء، ويريد أن يكوِّن لكل حادث تصورًا وموقفًا، من طالبك بهذا؟ من أمرك بهذا؟ الله لا يكلفك بهذا، ولن تُسأل عنه، فاسترح، واطلب النجاة لنفسك والعافية.

أعجبني مقال للشيخ محمد بن إبراهيم الحمد، أنا اعتبر الشيخ -حفظه الله- نموذجًا لجمع القلوب، والتعامل بالحكمة مع الناس، وتقريب الناس للخير، ودفع أسباب الشر، الرجل عجيب، من أعجب من رأيت في هذه الجوانب، مع الصغير والكبير، مع الشيخ الهرم، ومع الأطفال في أفراحهم وآلامهم، يشاركهم، ويقضي الأوقات في هذا، والسعي في مصالحهم وحاجاتهم، لا نزكي على الله أحدًا، ونسأل الله الثبات له ولنا، لكن هذا المقال مقال جميل بعنوان: "ليس بالضرورة"، مقال جميل، إن كان بعضكم ما قرأه فيحسن قراءته.

أنقل بعض الجمل منه مما يتصل بموضوعنا، يقول: "ليس بالضرورة أن يكون لك رأي في كل نازلة، أو مسألة، أو مشكلة، وإذا كان لك رأي في شيء من ذلك فليس بالضرورة أن تبديه، وإذا أردت إبداءه فليس بالضرورة أن تبديه لكل أحد، أو في كل مناسبة، وإذا أبديته فليس بالضرورة أن تتشنج في إبدائه، أو تتعصب له، أو تظن أنه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإذا خالفك الرأي أحدٌ من الناس فليس بالضرورة أن يكون ذلك المخالف عدوًّا، أو متربصًا، أو حاسدًا، وليس بالضرورة إذا انتقدت أحدًا من الناس أن تسعى إلى تجريحه، أو إسقاطه، والإساءة إليه، وتجريده من كل حسنة، وليس بالضرورة إذا اختلفت مع أحد أن تعاديه وتدعو إلى عداوته، وتشهر به قدر ما تستطيع، وليس بالضرورة إذا كان بينك وبين أحد من الناس خصومة أن تنتقل هذه الخصومة إلى كل من يتصل به أمرك حاملاً شعار: معي أو ضدي".

تريد الآخرين أن يتخذوا نفس هذا الموقف.

يقول: "بل يكفي أن تنحصر الخصومة بين أصحابها قدر المستطاع". إلى آخر المقال.

هذا صحيح، لكن نحن للأسف في كثير من الأحيان نقول: بل من الضرورة.

أخيرًا أقول: ينبغي علينا أن نحذر من كل ما يسبب الشر والفرقة، ومن كل ما يحصل به التدنيس والتلويث لهذه القلوب، فتتغير وتتحول، وهذا أمر قد يحصل بالمطالعة، وقد يحصل بالسماع، وقد يحصل بالمخالطة -أعني هذا الأثر السلبي-، فاحفظ قلبك وسمعك وجوارحك.

والله -عز وجل- يقول: **{وَلَا تَقْفُ}** القَفْو يعني: الاتباع، لا تتبع، وبعض أهل العلم قال: المراد به الغيبة، أو النميمة؛ لأنها تقال في القفا؛ لأن القفو من القفا، وهذا معنى صحيح، لكنه بعض ما يدخل في معنى الآية. فالقفو: هو الاتباع، اتباع الأفكار، الآراء، المواقف، سماع الغيبة، كل هذه الأمور من القَفْو، **{وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}** "ما" هذه تفيد العموم، كل ما ليس لك به علم، لماذا؟ "إنّ" هنا تفيد التعليل والتوكيد، **{إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}** [الإسراء: ٣٦] ، على المعنيين، وكلاهما صحيح إن شاء الله.

{كَانَ عَنْهُ} الضمير يرجع إلى الإنسان، أن هذه الأشياء ستُسأل عنك، ماذا عملتَ بها؟ كيف سخرتها؟ كيف استعملتها؟ السمع والبصر والفؤاد.

{كَانَ عَنْهُ} يمكن أن يرجع إلى هذه الأشياء الثلاثة، الإنسان يُسأل عنها، هي تُسأل عنه كيف سخرك؟ كيف استعملك؟، وهو أيضًا سيُسأل عنها، ويحاسب عليها.

فذكر السمع والبصر والفؤاد، هذه آلات العلم، فالسمع والبصر هما الوسائط، والقلب هو المستقر.

فيتأثر الإنسان بما يشاهد، وما يسمع، قد يتأثر الإنسان بمجلس مع صاحب لوثة، فيغير قلبه، ويورث ذلك القلب شبهة يستعصي عليه إخراجها.

يذكر صاحب كتاب: "الفتنة ووقعة الجمل" -وهو من الكتب المفيدة في هذا الموضوع- أن عثمان -رضي الله عنه- أيام الفتنة حينما صار ابن السوداء -أعني عبد الله ابن سبأ- يجول في الأمصار، يتكلم، ويغري الناس بعثمان -رضي الله عنه- ويغير قلوبهم نحوه، فوجد في بعض الأمصار قبولًا، فقيل لعثمان -رضي الله عنه-، قال بعض أهل الأمصار من الصالحين، من الأخيار، ذكروا له أنه توجد هناك مشكلة، هناك قالة سوء، فأرسلَ إلى هذه الأمصار ليرى ويطلع على ما يجري، ويسمع من هؤلاء، ويعرف مرادهم، فذهب هؤلاء ورجع بعضهم من أمصار نظيفة، قالوا: لم نر شيئًا.

أحد هؤلاء الذين أرسلهم أرسله إلى مصر وهو من الأخيار، وبقي من الأخيار، ومات على ذلك -نحسبه والله حسيبه-؛ لأن عندنا ما يشهد لذلك من كلام رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، إن صح الخبر فالشاهد هو فقط فيما قد يقع مِن تأثر، ولو كان محدودًا.

أمير مصر كتب إلى عثمان لما أبطأ الرسول، ولم يرجع إلى المدينة، يقول: إنه قد استماله قوم بمصر، وقد انقطعوا إليه، منهم: عبد الله بن السوداء، وخالد بن ملجم، وسودان بن حمران، وكنانة بن بشر، هؤلاء من رءوس الفتنة[1].

هو لم ينحُ نحوهم إطلاقًا، ولم يقع في شيء، أو يتلطخ بشيء من هذه الفتنة، ولكنه -إن صحت القصة- سمع منهم، ولربما كان لذلك السماع شيء من الأثر الوقتي.

لكن الله -عز وجل- قد ينجي العبد بصدق نيته وصلاح قلبه وعمله وحاله، فلا ينبغي للإنسان أن يثق بنفسه فيقول: أجالس هؤلاء من أجل أن أستخرج ذلك منهم وهو غير مؤهل.

أو أن يقول: فلان صديقي، ويكون هذا الإنسان قد انحرف، ثم يقول: أجلس معه، فيوقع في قلبه من الشبه أيًّا كان نوع هذه الشبه، بعض هؤلاء وقعوا في الإلحاد، بعض هؤلاء تشككوا في ثوابت الدين، بعض هؤلاء انحرفوا في أبواب أخرى.

فالصاحب ساحب، والطبع لص، والناس كأسراب القطا جُبلوا على تشبه بعضهم ببعض.

فينأى الإنسان بنفسه ويبتعد ويطلب العافية، لا تدخل مواقع وتقرأ، وإنما تسمع من أهل العلم الراسخين الناصحين.

ثم إن هذه القضايا لا يصلح أن يكون الكلام فيها بشيء من التشفي، أو أن يتكلم فيها من يريد أن يصفي حسابات كما يقال.

نحن في هذا الوقت بحاجة إلى نَصَحة، بحاجة إلى صادقين، نحن بحاجة إلى أهل علم عندهم حكمة، وعقل وروية، يأخذون بأيدي الناس إلى شاطئ النجاة وينقذون الغريق.

---

(١) الفتنة ووقعة الجمل (ص: ٤٩-٥٠).

لكن إذا جاء إنسان عنده تشفٍّ، فهذا قد يزيده غرقًا، يضربه بمقارع على رأسه، حتى يغرق، هو لا ينقذه.

تصور أن الطبيب الذي يريد أن يعالج الداء حاقد على هذا المريض، أو حاقد على المرضى، ويأخذ المشرط ويتشفى، هذا أحد يعالج عنده؟ ما أحد يعالج عنده.

هذا يمارس نوعًا من الإجرام في حق هؤلاء الناس، باسم التطبب، فلا يمكن لمن كان حانقًا، يمتلئ قلبه بالغل على إخوانه المسلمين أن يكون سبيلًا إلى إصلاح هذا الواقع.

نحتاج إلى قلوب نظيفة، وألسن نظيفة، وأيدٍ نظيفة، مع قلوب كبيرة تحتمل، وعلم، وبصر في الأمور الواقعة، فيتعامل مع هذه القضايا بشيء من الروية والحكمة، ويكون ذلك سبيلًا إلى العلاج والتصحيح، والله المستعان.

بعد ذلك ننتقل إلى التاسع من هذه الموضوعات، أو الجوانب أو الفروع التي أردنا أن نتحدث عنها وهو الأخير وهو ما يتعلق بالمخرج، أو الطريق إلى الاجتماع.

ما السبيل إلى جمع الكلمة؟

أولا: الاعتصام بالكتاب والسنة.

فهذا الأصل الذي ينبغي أن نجتمع عليه، لا يمكن أن نجتمع على عواطف، ولا يمكن أن نجتمع على شعارات بدعية، ولا يمكن أن نجتمع على أصول قد وضعها بعضنا، وليست مما جاء في كتاب الله، ولا سنة رسوله – عليه الصلاة والسلام.

والله –عز وجل– ذكر لنا هذا المخرج **{فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}** [النساء: ٥٩].

هذا أحسن عاقبة، عاقبته تكون إلى خير، إلى صلاح وإصلاح، فهذا هو الأصل، هذا هو الطود، هذا هو المُعتصَم الذي ينبغي أن نتمسك به، هذه هي التي يمكن أن يعتصم بها المؤمن، فينجو من الضلالة، نجتمع على هذا الأصل الكبير، نرجع إليه، ونتحاكم إليه، بفهم سلفنا الصالح –رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

يقول ابن مسعود –رضي الله عنه–: "إن هذا الصراط محتضر، تحضره الشياطين –والشياطين يضلون الناس– يقولون: هلمّ يا عباد الله، ليصدوا عن سبيل الله، فعليكم بكتاب الله فإنه حبل الله"[(١)].

والله –عز وجل– يقول: **{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}** [آل عمران: ١٠٣]، فما هو حبله؟ هو كتابه، وسنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– هي شارحة لهذا الكتاب.

فالواجب على كل مسلم –كما قال شيخ الإسلام– أن يلزم سنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وسنة خلفائه الراشدين، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وما تنازعت فيه الأمة وتفرقت فيه إن أمكنه أن يفصل النزاع بالعلم والعدل، وإلا استمسك بالجمل الثابتة، بالنص والاجماع، وأعرض عن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا[(٢)].

---

(١) الشريعة للآجري (٢٩٧/١) رقم: (١٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٣٧/١٢).

كما قلنا: ليست كل قضية يمكن أن يكون لك فيها رأي، يبقى على الأصل الكبير، الجمل الثابتة في الكتاب والسنة، ويترك التفاصيل التي اختلف فيها المختلفون، واعترك فيها المعتركون، فلا يلج فيها.

إذا ما اتضح له وجه ذلك، فيرجع إلى الطود العظيم، إلى الأصل الكبير، إلى الجبل، ويسند ظهره إليه، ويعتصم به، فإنه لا يضل -بإذن الله.

فهذه طريقة في التعامل مع المشكلات والشبهات، إذا كان الإنسان لا يعرف الحكم في المسألة الجزئية فإنه يرجع إلى الأصل الكلي، ويتمسك به وينجو بإذن الله -تبارك وتعالى-؛ لأن الله لن يطالبه بمثل هذه القضايا أن يكون له موقف ورأي في كل قضية منها.

وبهذا يبقى الإنسان على جادة واحدة، لا يكون كل يوم على طريقة، وكل يوم على مذهب، والمشكلة أن النفس أيضًا قد تذهب في بعض هذه البُنيّات، بُنيّات الطريق، ومعارجه ومضايقه، تذهب نفسه، ثم بعد ذلك لا يمكن أن يستدرك، وإذا سلم، وطال به العمر قد يتغير بعد ذلك رأيه، وينبت له عقل، ثم بعد ذلك يدرك أنه قد ضيع العمر وهو يتقلب ويتنقل بين أمور تضره ولا تنفعه، هذا إذا أدرك.

ورأيتم التاريخ كم ولج في هذه الضلالات من أقوام!، منهم من أدركته رحمة الله -عز وجل- بعد هذا العلم الكثير من العلوم الكلامية، يقول: أموت على دين العجائز.

عمر كامل يضيع، وجهود، وسهر في علوم صعبة، وعبارات صعبة، ثم بعد ذلك تكون البضاعة خاسرة، والنتيجة صفر أقل من الصفر، ثم يقول: أموت على دين عجائز نيسابور، ويوصي الناس بهذا، هكذا تضيع الأعمار؟ هذا من أدركه الله فاستدرك وعرف، فكيف بمن مات على مثل هذا؟

هذا الذي طعنه أبو أيوب -رضي الله عنه- فدخل الرمح من صدره، وخرج من ظهره، ويقول له أبو أيوب: إلى جهنم وبئس المصير، يقول: ستعلم من هو أولى بها صِليًّا[1]. في هذه اللحظات!، يموت على هذا الضلال!، نسأل الله العافية.

فلذلك أقول: انظروا ماذا قيل في جنازة عبد الرحمن بن أبي حاتم -رحمه الله- إمام من أئمة السنة، ماذا قالوا؟، قال بعضهم: قلنسوة عبد الرحمن من السماء.

هذا في وقت الجنازة، يعني أن الرجل نظيف، ما تلوث بشيء من الأوضار والأهواء.

يقول: وما هو بعجب، رجل منذ ثمانين سنة على وتيرة واحدة، لم ينحرف عن الطريق[2].

رجل منذ ثمانين سنة على وتيرة واحدة، لم ينحرف عن الطريق، لا نزوة شهوات، ولا تخبط في شبهات وأهواء وضلالات، منذ ثمانين سنة على وتيرة واحدة.

هكذا ينبغي أن يكون الراسخ، لا يكون كل يوم في هوى، ولا تكون الأحداث التي تقع -وإن كانت من الأحداث الكبار- دافعًا له أن يسارع، ثم بعد ذلك يترك مقررات سابقة كان يقررها، ويقولها ويدعو إليها، ثم ينساها في غمرة، ويهرول مع المهرولين، ثم يتبين له أنه كان يتبع سرابًا.

---

(١) الكامل في التاريخ (٦٩٥/٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٦٥/١٣).

ولذلك انظر إلى العلماء الراسخين في عصرنا هذا، كيف كان الواحد منهم على سنن واحد من البداية إلى النهاية، وبهذا صاروا أئمة أعلامًا، جعل الله لهم القبول في الأرض.

بينما تجد الذين يكثرون التحول والتقلب في الفتن، تجد أن هؤلاء يصيرون في النهاية، لا لون، ولا طعم، ولا رائحة، حتى القبول -نسأل الله العافية- يُرفع.

ولربما لا تحتمل أن تسمع قليلًا، ولا كثيرًا، حتى لو كان يتكلم بأشياء عادية، ليس فيها انحراف، لا من باب التعصب، ولا من أجل مجافاة زيد أو عمرو، لكن لم يعد القبول في القلوب، كلام لا طعم، ولا لون، ولا رائحة.

فالمؤمن ينبغي أن يلاحظ هذا في نفسه، وأن يكون سيره مستقيمًا.

منذ ثمانين سنة على وتيرة واحدة لم ينحرف عن الطريق.

ولهذا قال بعضهم أيضًا: ما رأيت أحدًا ممن عرف عبد الرحمن ذكر عنه جهالة قط[1].

ويقول آخر: مَن يقوى على عبادة عبد الرحمن، لا أعرف لعبد الرحمن ذنبًا[2].

ونحن ننغمس في أنواع الذنوب، أنتم تظنون الذنوب لابد أن يأكل ربا، أو غير ذلك، لا، الاستطالة في عرض المسلم هذا من أربى الربا، الغيبة هذه، التنابز بالألقاب، **{بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ}** [الحجرات: ١١].

فاسق ويقول: أنا ملتزم، أنا شاب ملتزم، أين أنت وأين الالتزام؟ أهكذا الدين؟ ولذلك أقول: الاعتصام بالكتاب والسنة هو الطريق.

ثانيًا: لا يمكن للناس أن يجتمعوا على كل الجزئيات والتفصيلات، ولكن ينبغي الاتفاق على الأصول والمحكمات، فهذه لا يُقبل الخلاف فيها.

أما الأمور الجزئية فلطالما الناس اختلفوا، وقد اختلف أصحاب النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، فهذه الكليات التي أجمع عليها السلف نتفق عليها، ونتحمل الاختلاف فيما كان دون ذلك من الأمور التي اختلف فيها السلف الصالح -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-؛ لأن الخلاف أمر لابد منه، لكن كما قلنا: الذي يتكلم في هذه القضايا في العلم، ونحو ذلك يكون مؤهلًا، ويريد بذلك ما عند الله -عز وجل-، والشروط المذكورة التي أسلفنا الكلام عليها فيمن تسوغ مخالفته.

هذه المحكمات هي المسائل الواضحة، البينة، الأصلية، التي جاءت بها النصوص، مما أجمع عليه الصحابة والسلف الصالح.

كوجوب عبادة الله -عز وجل- وتحريم الكفر، والشرك والنفاق، تحريم الظلم، والربا، والفواحش، كذلك أركان الإسلام الخمسة، أركان الإيمان الستة، قواعد الأخلاق، وكذلك ما يتصل بوجوب الصدق، وتحريم الكذب، وجوب العدل، وتحريم الظلم، وجوب البر، وتحريم العقوق.

وهكذا ما يتصل أيضًا بالمنهيات كالموبقات السبع، ونحو ذلك، ويُحفظ بذلك الإيمان والإسلام، ونؤمن بأصول الدين، وكذلك أيضًا محكماته، وتتحقق لنا النجاة.

---

(١) تذكرة الحفاظ (٣/٣٤).

(٢) المصدر السابق (٣/٣٤).

وهكذا تُحفظ لنا الدنيا بحفظ الضرورات الخمس التي أجمع عليها الرسل -عليهم الصلاة والسلام-: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال، هذه الضرورات الخمس يجب حفظها من الجانبين، من جهة الوجود، ومن جهة العدم.

عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- يقول: "من سره أن ينظر إلى الصحيفة التي عليها خاتم محمد -صلى الله عليه وسلم- فليقرأ هذه الآيات [1]، هذا مثال للمحكمات في سورة الأنعام: **{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}** [الأنعام: ١٥١، ١٥٣] ، فهذه الآيات الثلاث تضمنت هذه الوصايا في الأمور المحكمات العشر، كما هو معلوم.

ولاحظ أنه ذكر منها ما يتعلق بالعدل، وقال: **{وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}** [الرحمن: ٩] كما في سورة الرحمن.

وقال: **{وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ}** [المطففين: ١ - ٣].

وهنا الله -تبارك وتعالى- يقول: **{وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا}** [الأنعام: ١٥٢].

هذا من الأمور المحكمات، ومع ذلك نضيع هذا الأصل كثيرًا، وهكذا قَفْوُ الانسان ما ليس به علم، عدم استشعار المسئولية تجاه الكلمة، تجاه ما يقول، ويكتب، أو يسمع، أو يقرأ.

يقول شيخ الإسلام -رحمه الله-: إن الرسل جميعًا متفقون في الدين الجامع في الأمور الاعتقادية، والأمور العلمية كالإيمان بالله تعالى والملائكة والكتاب والنبيين، إلى غير ذلك، وكذلك الأصول العملية، كالأعمال المذكورة في سورة الأنعام، فهذا من الدين الجامع، الذي اتفق عليه الرسل -عليهم الصلاة والسلام[2].

فمن هنا، إذا أردنا أن نجمع الكلمة، فينبغي أن نؤسس لها، وأن نؤصل على هذه الأصول والكليات، فلا نختلف في شيء منها، لكن لا يكون ذلك على اجتهاداتنا وآرائنا، وما ننتحله من استنباطات، وما إلى ذلك تخصنا تصيب وتخطئ، فمن وافقنا عليها فهو معنا، ومن خالفنا فهو ضدنا، فهذا الكلام غير صحيح، ولا يمكن أن يتحقق الاجتماع بذلك.

ومن ثَمّ لا يمكن أن يُبنى ذلك وأن يتحقق الاجتماع بأن نطالب الآخرين بأن يكونوا نسخة منا، أن يفكروا بعقولنا، أن ينظروا بنظرنا، أن يتعرفوا على الأشياء من خلالنا، نحن نطالبهم بشطط لا يمكن أن يتقبله الناس، ولا أن يتحقق.

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنعام (٥/٢٦٤)، رقم: (٣٠٧٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/١٥٩).

ثالثاً: التواصي بالحق والتعاون على البر والتقوى.

ولا نتعاون على الإثم والعدوان، نتواصى بالحق والصبر كما أمر الله –عز وجل–: **{وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)}** [سورة العصر]. يبقى بيننا تواصٍ.

رابعاً: التناصر والتناصح.

فالمؤمنون نَصَحَة، فنحيي هذا المبدأ، والنبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: **((انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا))**[1] وبين كيف يكون نصره في حال ظلمه، أو وقوع الظلم عليه، ولو فعلنا ذلك لانكفّ كثير من الشر وارتفع.

خامساً: أن يوجد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فهذا من سمات المؤمنين كما وصفهم الله –عز وجل–: **{بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}** [التوبة: ٧١].

مع مراعاة ما ينبغي مراعاته في هذا الباب من النظر في المصالح والمفاسد .

سادساً: التشاور.

لا يمكن لأحد من الأمة أن يبتدرها بقول أو فعل، ثم بعد ذلك الأمة تتحمل التبعة، جرائر هذا العمل تدفع فاتورته سائر الأمة، هذا لا يجوز، فمثل هذه القضايا التي يكون لها أثر في أوساط الأمة ينبغي أن يتراجع فيها المؤهلون من أهل العلم، فضلا عن غيرهم.

لكن للأسف أصبحنا في واقع يفعل من شاء ما شاء، فهذا يقوم بمبادرة، أو يصدر تصريحًا، أو نحو ذلك، ثم بعد ذلك يقع بسببه من المفاسد ما الله به عليم، وتتحمل التبعة أمة كاملة.

ولربما يتحمل التبعة أهل بلد قد جنى عليهم هذا بسوء تصرفه، سوء صنعه، وهم في أحوال لا تحتمل الزيادة من الضعف والهوان، فيأتي بزعمه أنه ينصرهم، أو أنه ينصر دين الله –عز وجل– فيتصرف تصرفات، يفعل فعلًا تزينه له نفسه الأمارة، ثم بعد ذلك يقع من الفساد والضر والشر ما الله به عليم.

وانظر ما يجري في مشارق الأرض ومغاربها من الذي يتحمل تبعة ذلك!، فهذا أمرٌ يحتاج أن يتشاور فيه أهل العلم والرأي السديد، ولا يجترئ أحد على بقية المسلمين.

سابعاً: أن يكون هناك تحاور.

إذا اختلفنا مع إنسان نسمع منه مباشرة، إذا كان له رأي، فتوى معينة، أو نحو ذلك، نسمع منه لا داعي للنَقَلة الذين ينقلون الكلام أحيانًا على غير وجهه، ينقلونه مع زوائد، ينقلونه مع أمور مؤثرة، تورث الوحشة في القلوب، فنجد أننا نتراشق من بعيد، ولا نريد أن نلتقي، ولا نريد أن يسمع بعضنا من بعض.

وقد نتصور أن جلوسنا مع هذا الذي لربما خالفناه أن ذلك يكون من قبيل التعزيز له، أو الرفع من شأنه، هذه قضايا قد تقدر بهذا، ويكون التقدير صحيحًا، وقد لا يكون التقدير صحيحًا، فيكون هذا من الأوهام.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب: أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا (١٢٨/٣)، رقم: (٢٤٤٣).

فالمقصود أن أهل العلم –وليس كل أحد– من الراسخين العقلاء من يملكون الحكمة يسمعون مباشرة من هذا وذاك، هذا إنسان أخطأ، تعال، ما وجه هذا القول؟ ما وجه هذه الفتوى؟ ما وجه هذا الكلام الذي نشر؟ بدلاً من أن يكون هناك تباعد، وتصور، كل يوم يزداد السوء، ولربما كان بالإمكان حل ذلك جميعًا منذ البداية لأول شرارة في مجلس يسمع فيه كل طرف من الآخر، لكن مع الأيام والليالي والسنوات أصبحت الوحشة، وتحول هذا الإنسان الذي كان موافقًا في يوم من الأيام إلى خصم ومخالف، فأبعد وأبعدنا عنه، كان يمكن أن تعالج هذه القضايا منذ بداياتها، اسمعوا مباشرة، لا داعي للوسطاء والتشويه والتضخيم، فالأمة لا تحتمل أكثر مما هي عليه.

والله –عز وجل– قال: **{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}** [العنكبوت: ٤٦].

وقال: **{وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [النحل: ١٢٥]، أحيانًا نتحدث عن إنسان، ونحن ما قرأنا له شيئًا، ولا سمعنا منه شيئًا، إنما هي وحشة يلقيها الشيطان، ثم بعد ذلك لا مساس، هذا ما يجوز، لو جلست معه، لو سمعت منه لربما تدرك أن ما يقال، أو ينقل أنه غير صحيح، وأنه كذب.

ثامناً: أن نبتعد عن التحزب، والتعصب.

كما ذكرنا في الكلام على التعامل مع هذه القضايا، لا يمكن أن يحصل الاجتماع ووحدة الأمة لا على الكليات، ولا على غيرها إذا كان كل طائفة تتحزب لنفسها، وتتعصب لما عندها، وتريد من الآخرين أن يجتمعوا تحت لوائها وظلها، هذا أمر لا يكون سواء كان ذلك في ميدان الدعوة، أو كان ذلك في ميدان القتال، فإن هذا لن يتحقق، ولكن يكون الإنسان في حال من التجرد والنظر في مصالح الأمة.

وكما ذكرنا من كلام شيخ الإسلام –رحمه الله– أن الواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله ورسوله، وأن يبغض ما أبغضه الله ورسوله، مما دل عليه في كتابه، فلا يجوز لأحد أن يجعل الأصل في الدين لشخص إلا لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–، ولا يقول إلا لكتاب الله –عز وجل–، ومن نصب شخصًا كائنًا من كان، فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو: **{مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا}** [الروم: ٣٢] "[(١)]. إلى آخر ما ذكر، مما أشرنا إليه سابقًا.

وهكذا في كلامه الآخر أن موالاة طائفة ومعاداة طائفة أخرى بالظن والهوى إنما هو من فعل أهل البدع، وأدنى درجات هذه الموالاة الباطلة حصول الميل القلبي نحو الموافق على الهوى وإن كان طالحًا، والنفور القلبي من المخالف وإن كان صالحًا.

فهنا يقول شيخ الإسلام: أقل ما في ذلك أن يفضل الرجل من يوافقه على هواه، وإن كان غيره أتقى لله منه، وإنما الواجب أن يقدم ما قدمه الله ورسوله، ويؤخر من أخره الله ورسوله، ويحب ما أحب الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/٢٠).

(٢) المصدر السابق (٤٢٠/٣).

ويقول أيضًا: وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعته، ويعادي على ذلك، بل عليه أن يوالي كل من كان من أهل الإيمان، ومن عُرف منه التقوى من جميع الشيوخ وغيرهم، ولا يخص أحدًا بمزيد موالاة إلا إذا ظهر له مزيد إيمان وتقوى، فيقدم من قدمه الله تعالى ورسوله عليه، ويفضل من فضله الله ورسوله –صلى الله عليه وسلم[1].

وهكذا يذكر: إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام، والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا، كاللص الفقير تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته[2].

كلام طويل جميل على هذا الطراز، وللأسف نحن أحيانًا نتصرف تصرفات، الولاء عندنا ينعدم تمامًا مع من نختلف معه.

يا إخوان، هذه طريقة الخوارج والمعتزلة –أعني: الوعيدية– الذين يقولون: إن الولاء والبراء لا يتجزأ إما أسود، وإما أبيض.

أهل السنة يقولون: يتجزأ يُوالَى الإنسان بقدر ما فيه من الدين والإيمان والاستقامة على الصراط المستقيم، ويكون البراء منه بقدر ما عنده من الانحراف والإساءة، بصرف النظر عن أي اعتبارات أخرى.

هل نحن كذلك؟ أم أننا نقبل الناس تحت فقط الدعاوى والأسماء، نجفوهم أو نقربهم؟ هذا كله لا يجوز، والله المستعان.

أيضًا من هذه العبارات التي لشيخ الإسلام يقول: "ليس للمعلمين أن يحزِّبوا الناس، ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة"[3].

ليس للمعلمين أن يحزبوا الناس، معلم في مسجد، معلم في جامعة، معلم في مدرسة، وإنما يعلمونهم دينهم –هذا كلامي أنا– يعلمونهم دينهم، ويعلمونهم ما ينفعهم، ويعلمونهم ما يحصل به جمع الكلمة، وتأليف القلوب، لا تشتيت الشمل، فلا يصح أن يكون بعضنا معاول للهدم والتفريق من غير موجب.

يقول شيخ الإسلام: "المؤمن عليه أن يوالي في الله ويعادي في الله، فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه وإن ظلمه، فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية، وذكر الآية **{وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا}** [الحجرات: ٩][4].

ثم ذكر كلامًا طويلًا يمكن مراجعته في مجموع الفتاوى في المجلد الثامن والعشرين صفحة مائتين وتسعة، وله كلام في مواضع أخرى، فهنا نعرف هذا الأصل في الطريق إلى الاجتماع .

تاسعاً: أن التصحيح مطلب.

---

(١) المصدر السابق (٥١٢/١١).

(٢) المصدر السابق (٢٠٩/٢٨).

(٣) المصدر السابق (١٥/٢٨).

(٤) المصدر السابق (٢٠٨/٢٨).

لابد من التصحيح والمراجعة، ولكن بالرحمة والشفقة، بقلب ناصح محب، يتحرى الخير، ويحسن الظن، ويلتمس المعاذير، ويحفظ حقوق المسلمين، ولا يصلح لهذا من كان وغِر الصدر يصفي الحسابات، أو يرجِّي تحصيل مكاسب لنفسه هو، هذه قضايا مصالح إستراتيجية، ما يصلح أن يكون الذي يدخل فيها أو يريد أن يتصدر أو يتصدى لها أن يبغي تحصيل مكاسب لنفسه هو، أو أن ينتقم من زيد أو عمرو، أو الطائفة الفلانية، أو نحو ذلك، هذا لا يصلح، هذا سيكون طرفًا في هذا الشقاق والصراع والعراك.

هذا يحتاج إلى غيره؛ من أجل أن ينتشله؛ لأنه أحد الأطراف، الذي يريد أن يصلح لا يمكن أن يكون طرفًا في هذا الصراع، وإنما يكون مثل الطبيب الذي يعالج العلل والأمراض، أما أن يكون قد اعتل من رأسه إلى أخمص قدميه، ثم بعد ذلك يقول: المخرج عندي، هو لم يعالج نفسه، فهو جزء من هذا العراك الدائر، يقع في هذا، ويذم هذا، وتزيد الفرقة على يده.

عاشراً: سلامة القلب والصدر للمسلمين من الغل والحقد والضغائن.

قال تعالى: **{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}** [الفتح: ٢٩] ولاحظ لما ذكر الله الطوائف الثلاث **{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ}** [الحشر: ٨] ، ثم قال: **{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ}** [الحشر: ٩]، هؤلاء لا يمكن إدراك هذه المراتب التي أدركوها؛ لأنها قد مضت، بقيت المرتبة الثالثة **{وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ}** [الحشر: ١٠]، ليس للذين سبقونا بالإيمان فقط، **{غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا}**، فمن أراد أن يكون مُحصِّلا لهذه المرتبة الثالثة فعليه أن يسلم قلبه من الغل لإخوانه المسلمين.

وهذا الغِل في القلب كالغُل في العنق، رباط يربط العنق –نسأل الله العافية– تشد إليه اليدان، ثم بعد ذلك لا يستطيع الإنسان أن يتصرف في شيء مما يصلحه، أو ينفعه، أو يرفعه، يكون القلب مشوشًا مشغولًا بهذه الأمور التي امتلأ بها.

فأين هذا من هذه الصفة التي ذكرها الله –عز وجل– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه: **{أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}**؟ [الفتح: ٢٩]، ثم إن قوله –تبارك وتعالى– في الآية الأخرى: **{رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ}** [الحشر: ١٠]، هذا الدعاء لهم يدل على أنهم يصافونهم، وعلى سَنَنهم، وأنهم لا يحملون لهم إلا المشاعر الطيبة.

الحادي عشر: حفظ حقوق المسلمين.

كما عرفنا في أول هذه المجالس هناك حقوق يجب أن تحفظ ولا تضيّع، فجمع الكلمة ينبغي أن يراعى معه مثل هذه الأمور، وإلا فإن إهدار الحقوق يكون سببًا لمزيد من الفرقة والشر والتشاحن، هذه الحقوق بجميع أنواعها منها الحقوق القلبية: كالمحبة، وسلامة الصدر لإخوانه المسلمين، الفرح لما يحصل لهم من الخير، الحزن لحزنهم وآلامهم، هؤلاء لما تقع لهم مصيبة خاصة، أو تقع مصيبة عامة لهم في بلدهم، أو نحو ذلك، لا يصح أن أشمت بهم، وإن اختلفت معهم، أو مع بعضهم، ولا أن أظهر الفرح والاستبشار بذلك، أو أن أعين عدوهم عليهم.

هذا لا يجوز بحال من الأحوال، فأين الموالاة بين المؤمنين؟ **{بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}** [التوبة: ٧١] وإنما يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، سواء عرفهم أو لم يعرفهم.

وهناك حقوق تتعلق باللسان: إلقاء السلام، رد السلام، تشميت العاطس، وكذلك تعليم الجاهل، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الدعاء لهم، كل هذا مما يتصل باللسان.

كذلك هناك أشياء تتعلق بالجوارح: كإعانة وإغاثة الملهوف، ونحو ذلك.

وهناك أمور تتعلق بالمال: كالصدقة، والزكاة، والمواساة، وإطعام الجائع، ونحو ذلك.

هذا كله من حقوق المسلمين، وللأسف إذا كثر الشر لربما تُنسى مثل هذه الأمور التي هي من الأسس والمبادئ التي عرفناها في أول ما عرفنا من مبادئ العلم.

الثاني عشر: التواصل مع الآخرين والسماع منهم مباشرة.

كما ذكرنا في التعامل مع الاختلاف، فقضايا الاتصال هذه لربما تسبب عثرة، ولقد تحدثت عن ذلك قريبًا، فلا حاجة للإعادة.

الثالث عشر: قضية التثريب أو التشنيع على من أخطأ باجتهاد سائغ هذا أمر لا يصح.

فمثل هذا اجتهد، وهو مؤهل للاجتهاد، وكذلك نحسن الظن به أنه أراد بذلك ما عند الله –تبارك وتعالى– فهنا كما قال يحيى بن سعيد: "ما برح المستفتون يستفتون، فيُحل هذا، ويحرِّم هذا، فلا يرى المُحرِّم أن المُحلِّل هلك لتحليله، ولا يرى المُحلِّل أن المُحرِّم هلك لتحريمه"[١].

الإمام أحمد يقول عن إسحاق بن راهويه: "ما عبر الجسر إلينا أفضل من إسحاق، وإن كنا نختلف معه في أشياء، فإنه لم يزل الناس يخالف بعضهم بعضًا"[٢].

ومن ثَمّ فإن هذا الاختلاف في أمور سائغة، أو اجتهادات لا يؤثر في جمع الكلمة، واتحاد الأمة، بل إن شيخ الإسلام –رحمه الله– لما ذكر الثنتين والسبعين فرقة –فرق الضلال–، يقول: "فأما من كان في قلبه الإيمان بالرسول، وما جاء به، وقد غلط في بعض ما تأوله من البدع، فهذا ليس بكافرٍ أصلًا، ومن قال بأن الثنتين والسبعين فرقة كل واحد منهم يكفر كفرًا ينقل عن الملة –يعني بعينه– فقد خالف الكتاب والسنة، وإجماع الصحابة –رضوان الله عليهم–. لاحظ يتكلم عن الثنتين والسبعين فرقة!

يقول: "..وإجماع الأئمة الأربعة، وغير الأربعة، فليس فيهم من كفر كل واحد من الثنتين والسبعين فرقة[٣].

ويقول: فإن تسليط الجهال على تكفير علماء المسلمين من أعظم المنكرات، وإنما أصل هذا من الخوارج والروافض الذين يكفرون أئمة المسلمين لما يعتقدون أنهم أخطئوا فيه من الدين، وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض"[٤]. وذكر كلامًا نحو هذا أيضًا في مواقع أخرى.

الرابع عشر: النظر في جوانب الاتفاق.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٠٣)، رقم: (١٦٩١)

(٢) سير أعلام النبلاء (٣٧١/١١).

(٣) مجموع الفتاوى (٢١٨/٧).

(٤) المصدر السابق (١٠٠/٣٥).

يعني: لا نبحث دائمًا عن جوانب الاختلاف، هناك جوانب نتفق فيها قد تكون هي الأكثر، وقد تكون هي الأصول، ومن ثَمّ فإن إبراز مثل هذه الأمور أدعى إلى الاجتماع.

الخامس عشر: الاجتماع على الأسماء الشرعية وترك ما عداها.

وقد سبقت الإشارة إلى هذا، وشيخ الإسلام يقول: "فلا نعدل عن الأسماء التي سمانا الله بها –المسلمين، المؤمنين، عباد الله– إلى أسماء أحدثها قوم وسموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان، بل الأسماء التي يسوغ التسمي بها مثل انتساب الناس إلى إمام أو شيخ.... إلى أن قال: فلا يجوز لأحد أن يمتحن الناس بها"[1].

وقد مضى الكلام على هذا، ومن ثَمّ فإن أهل السنة والجماعة ليس لهم اسم من هذه الأسماء المحدثة التي عرف بها أهل البدع والضلال.

السادس عشر: التكامل.

كما ذكرنا في اختلاف التنوع، هذا له اهتمامات وهذا له اهتمامات، كل هذا من العمل المشروع، فهذا يكمل هذا، وهذا يكمل هذا، ولا داعي للتشاحن والتباعد والتحاسد والتقاطع والتفرق، هذا إذا كان المراد بذلك ما عند الله – تبارك وتعالى.

السابع عشر: قد يتعذر الكمال، فإن الإنسان مجبول على النقص.

وكذلك أيضًا قد يتعذر الكمال في هؤلاء الذين يقومون بهذه الوظائف، فإذا تعذر إقامة الواجبات –كما يقول شيخ الإسلام– من العلم والجهاد، وغير ذلك إلا بمن فيه بدعة مضرتها دون مضرة ترك ذلك الواجب، كان تحصيل مصلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة معه خيرًا من العكس، وكثير من أجوبة الإمام أحمد وغيره من الأئمة خرج على سؤال سائل قد علم المسئول حاله، أو خرج خطابًا لمعين قد علم حاله"[2].

انتبهوا: هذه ضع تحتها ثلاثة خطوط، كما قلت لكم في المسائل التي فيها يأخذ هذا من الكتاب الفلاني والفتاوى الفلانية، وهذا يأخذ منه ثم يقول: انظر.

هذه فتاوى قيلت في وقائع معينة، لمعين بمناسبة معينة، هذه فتوى في واقعة عين، فلا يصح أن نجعلها أصلًا نحاكم إليه كل ما يقع إلى يوم القيامة، ونحتج بها ونضرب بها في وجه كل من خالفنا، ونقول: هذا العالم الفلاني قال كذا، وجدنا في الكتاب الفلاني كذا، هذا كلام غير صحيح.

يقول شيخ الإسلام: "فيكون بمنزلة قضايا الأعيان الصادرة عن الرسول –صلى الله عليه وسلم– إنما يثبت حكمها في نظيرها، فإن أقوامًا جعلوا ذلك عامًّا، فاستعملوا من الهجر والإنكار ما لم يؤمروا به، فلا يجب، ولا يستحب، وربما تركوا به واجبات ومستحبات، وفعلوا به محرمات"[3].

يأخذ عبارة للإمام أحمد قيلت في مناسبة معينة، ثم يجعل ذلك منهجًا يتعامل فيه مع الأولين والآخرين، فيرمي هذا بكذا، وهذا أشد من اليهود والنصارى، وهذا كذا، وهذا كذا، وهذا كذا، عبارة قيلت في مناسبة معينة، في

---

(١) المصدر السابق (٣/٤١٥-٤١٦).

(٢) المصدر السابق (٢٨/٢١٢-٢١٣).

(٣) المصدر السابق (٢٨/٢١٣).

شخص معين في ملابسات معينة، ثم يجعل هذا من الأصول، هذا خطأ في الحكم على الناس، أو التعامل معهم.

يقول شيخ الإسلام أيضًا: "فإن الإمام أحمد مثلًا قد باشر الجهمية الذين دعوه إلى خلق القرآن، ونفي الصفات وامتحنوه وسائر علماء وقته، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات الذين لم يوافقوهم على التجهم بالضرب، والحبس، والقتل، والعزل عن الولايات، وقطع الأرزاق، ورد الشهادة، وترك تخليصهم من أيدي العدو، بحيث كان كثير من أولي الأمر إذ ذاك من الجهمية من الولاة والقضاة وغيرهم يكفرون كل من لم يكن جهميًّا موافقًا لهم على نفي الصفات، مثل القول بخلق القرآن، ويحكمون فيه بحكمهم في الكافر، ومعلوم أن هذا من أغلظ التجهم"[١].

إلى أن قال: "ثم إن الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره ممن ضربه وحبسه، واستغفر لهم وحللهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر، ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لم يجز الاستغفار لهم، فإن الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع"[٢].

فنحن نأتي نأخذ عبارة، نأخذ موقفًا ثم بعد ذلك نعمم هذا الموقف.

الثامن عشر: العمل والجد والاجتهاد على تأليف القلوب.

وقد أشرت إلى هذا في الكلام على طريقة التعامل مع الاختلاف، وشيخ الإسلام له كلام جيد في هذا الموضوع، ومن كلامه يقول: "تعلمون أن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين: تأليف القلوب، واجتماع الكلمة وصلاح ذات البين، وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة"[٣].

التاسع عشر: ليكن الحق هو الرائد لنا.

أن يكون مطلوبنا هو الحق، كما قال بعض أهل العلم: "أن يكون الواحد منا في طلب الحق كناشد ضالة، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده، أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه معينًا لا خصمًا، ويشكره إذا عرّفه الخطأ وأظهر له الحق"[٤].

القضية ليست أن يظهر الحق على يدي، أو أنا الذي أقوم بالشيء الفلاني، المهم هو نصر الدين، وإعزاز كلمة الله –تبارك وتعالى.

ويقول: "فالواجب على كل مؤمن موالاة المؤمنين وعلماء المؤمنين، وأن يقصد الحق، ويتبعه حيث وجده، ويعلم أنه من اجتهد منهم فأصاب فله أجران، ومن اجتهد منهم فأخطأ فله أجر لاجتهاده، وخطؤه مغفور"[٥].

وكذلك أيضًا الكلام الذي أشرنا إليه سابقًا من كلامه في وجوب العدل والقسط، يقول: "لا يجوز لنا إذا قال يهودي، أو نصراني –فضلًا عن الرافضي– قولًا فيه حق أن نتركه، أو أن نرده كله"[٦]. إلى آخر ما قال.

---

(١) المصدر السابق (٤٨٨/١٢).

(٢) المصدر السابق (٤٨٩/١٢).

(٣) المصدر السابق (٥١/٢٨).

(٤) إحياء علوم الدين (٤٤/١).

(٥) مجموع الفتاوى (٢٥٣/٢٢).

(٦) منهاج السنة النبوية (٣٤٢/٢).

وهكذا الحَبر الذي قال: يا محمد، نعم القوم أنتم، لولا أنكم تشركون، قال: **((سبحان الله!، وما ذاك؟))**، قال: تقولون إذا حلفتم: والكعبة، فأَمهل رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– شيئًا ثم قال: **((إنه قد قال، فمن حلف فليحلف برب الكعبة))**، ثم قال: يا محمد، نعم القوم أنتم، لولا أنكم تجعلون لله ندًّا، قال: **((سبحان الله، وما ذاك؟))**، قال: تقولون ما شاء الله وشئت، فأَمهل رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– شيئًا ثم قال: **((إنه قد قال، فمن قال: ما شاء الله فليفصل بينهما ثم شئت))** [1].

الحافظ ابن القيم –رحمه الله– يذكر هذا المعنى أيضًا، وأن على المؤمن أن يتبع هدي النبي –صلى الله عليه وسلم– في قبول الحق ممن جاء به من ولي وعدو وحبيب وبغيض وبر وفاجر، ويرد الباطل على من قال كائنًا من كان[2].

وله كلام آخر أيضًا يشبه هذا.

الواجب الحذر من جملة من الأمور:

أولاً: نحذر من الاشتغال برمي الناس بالألقاب والتنابز بها.

فهذا أمر محرم، وكما أشرنا فهو من الفسوق، وانظر إلى كلام لهذا العالم ابن بطة –رحمه الله– يشكو فيه من مثل هذه الحال، وهي حال قديمة، يقول: "عجبت من حالي في سفري، وحضري مع الأقربين مني والأبعدين، العارفين والمنكرين، فإني وجدت بمكة وخراسان، وغيرها من الأماكن، أكثر من لقيت بها موافقًا، أو مخالفًا دعاني إلى متابعته على ما يقوله، وتصديق قوله، والشهادة له، فإن كنت صدقته فيما يقول وأجزت له ذلك كما يفعله أهل هذا الزمان سماني موافقًا، وإن وقفت في حرف من قوله، أو في شيء من فعله سماني مخالفًا، وإن ذكرت في واحد منها أن الكتاب والسنة بخلاف ذلك وارد سماني خارجيًّا، وإن قرأت عليه حديثًا في التوحيد سماني مُشبهًا، وإن كان في الرؤيا سماني سالميًّا –فرقة يقال لها السالمية–، وإن كان في الإيمان سماني مرجئيًّا، وإن كان في الأعمال سماني قدريًّا، وإن كان في المعرفة سماني كرّاميًّا، وإن كان في فضائل أبي بكر وعمر سماني ناصبيًّا، وإن كان في فضائل أهل البيت سماني رافضيًّا، وإن سكت عن تفسير آية أو حديث فلم أجب فيهما إلا بهما سماني ظاهريًّا، وإن أجبت بغيرهما سماني باطنيًّا، وإن أجبت بتأويل سماني أشعريًّا، وإن جحدتهما سماني معتزليًّا، وإن كان في السُّنن مثل القراءة سماني شافعيًّا، وإن كان في القنوت سماني حنفيًّا، وإن كان في القرآن سماني حنبليًّا، وإذا ذكرت رجحان ما ذهب كل واحد إليه من الأخبار؛ إذ ليس في الحكم والحديث محاباة، قالوا: طعن في تزكيتهم، ومهما وافقت بعضَهم عاداني غيره، وإن داهنت جماعتهم أسخطت الله –تبارك وتعالى"[3].

السلامة متعذرة، لن تسلم، ولكن لا تقع في مثل هذا العمل المشين.

ثانيًا: إياك أن يضيق عطَنُك، وتتعامل مع الناس على أساس إن لم تكن معي فأنت ضدي، إما مائة وإما صفر، فهذا غير صحيح.

---

(١) أخرجه أحمد: (٢٧٠٩٣).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٨٢/١).

(٣) الاعتصام للشاطبي (٣٧/١– ٣٨).

ثالثًا: لا نخلط بين الموضوع والشخص.

قد يجتهد بعض طلبة العلم، قد يجتهد بعض الأخيار، قد يجتهد بعض العلماء، يخطئ، قد يكون هذا الخطأ من قبيل المستهجن في نظرنا، ثم بعد ذلك لا يكون رد الفعل هو معالجة هذا الخطأ، وبيان الصواب، وبيان الحكم الصحيح في هذه القضية، وذكر الأدلة وما إلى ذلك، بل يتحول إلى الكلام على شخصه، فنبدأ نطعن فيه، ونظلمه، ونسيء إليه، ونرميه بالأوصاف القبيحة، ونجهّله، ونشكك في قصده ونيته، فهذا لا يجوز.

نحن عندنا خطأ نعتقد أنه خطأ نعالج هذا الخطأ، نقول: الموقف الصحيح كذا، الحكم الصحيح كذا، الحكم الراجح كذا، نعالج هذه القضية بمعالجة علمية، لكن إذا تحول هذا إلى كلام على هذا الإنسان الذي خالف في هذه القضية الشرعية، أو في موقف من المواقف، أو في حدث من الأحداث، أبدى رأيه، ثم بعد ذلك نتحول إلى هجوم على هذا الإنسان، ونرميه بكل وصف قبيح، هذا لا يجوز بحال من الأحوال، والله -عز وجل- علمنا أن نقول: **{رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}** [البقرة: ٢٨٦] قال الله: قد فعلت(١).

شيخ الإسلام يقول: "كثير من مجتهدي السلف والخلف قد قالوا، وفعلوا ما هو بدعة ولم يعلموا أنه بدعة، إما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة، وإما لآيات فهموا منها ما لم يرد منها، وإما لرأي رأوه، وفي المسألة نصوص لم تبلغهم، وإذا اتقى الرجل ربه ما استطاع دخل في قوله: **{رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}**(٢).

رابعًا: لغة الحوار.

سواء كان هذا في حوار مباشر عبر قناة فضائية، أو كان في كتابات، في منتديات، في غير ذلك، أولًا: حدد الهدف ماذا تريد أنت من هذا الحوار؟ هل تريد أن تبرز نفسك؟ هل تريد أن تسيء إلى هذا الإنسان، أن تكسره؟ هل تريد أن تشنع عليه؟، أو أنك تريد هداية هذا الإنسان؟، أو بيان الخطأ للناس؟ فلابد من تحديد الهدف، ومن ثَمّ تُحدد اللغة، لكننا للأسف في كثير من الأحيان نصُكّ المخالف صكَّ الجَنْدَل، ونُنشِّفه الخردل، ونريد منه أن يقبل.

حتى لو كان هذا من أصحاب البدع الغليظة، ونحن نريد دعوته، فينبغي أن تكون اللغة لغة مقبولة، حجج وأدلة، كلام مقنع، أما أن تتحول القضية إلى سباب، وتشبيه بالحيوانات، أو وصف هذا الإنسان بأنه خنزير وأنه كذا وكذا ثم نريد منه أن يقبل منا! هذا الكلام غير صحيح، وإنما يكون بعبارة مقبولة، بيِّن الحق ووجه الصواب، واجتنب العبارات الموحشة، والله -عز وجل- يقول: **{وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [النحل: ١٢٥].

شعيب -عليه الصلاة والسلام- لما قال له قومه: **{إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ}** [الأعراف: ٦٦]، لم يزد على أن نفاها عن نفسه، ما رد عليهم بالمثل، وإنما قال لهم: **{يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [الأعراف: ٦٧].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، بَابُ بَيَانِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ} [البقرة: ٢٨٤] (١/١١٦)، رقم: (١٢٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/١٩١-١٩٢).

فهو أجل وأشرف وأنزه وأعظم من أن يقع في شيء من السفاهة، السفه لا يليق بمثل هؤلاء، ولا بأتباعهم من الدعاة إلى الله وأهل العلم، ولهذا لما قال قوم موسى عندما أمرهم أن يذبحوا بقرة، قالوا: **{أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}** [البقرة: ٦٧].

يقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدي ما حاصله أن ذلك يدل على أن الذي يستهزئ بالناس، ويسخر منهم أنه من الجاهلين(١).

فينبغي أن تكون اللغة في الردود مقبولة، أحيانًا عنوان الكتاب في غاية الإيجاع والإيحاش، ولا حاجة لذكر بعض العناوين، لكن لو ذكرت طرفًا من العنوان لبعض الكتب المتقدمة، وإلا فالكتب في عصرنا الحاضر فيها ما فيها، بعض الكتب المتقدمة، بعض العنوان لن أذكر العنوان كله، فإن النطق بمثل هذا يثقل على اللسان، "الكاوي لدماغ فلان"، هذا عنوان كتاب، رد على عالم "العروج بالفروج" هذا عالم يرد على عالم! ولا حاجة لتسمية هذا ولا هذا، هذا عنوان كتاب يرد فيه على عالم؟

فمثل هذا لا يحقق المطلوب، وإنما يضر القائل به نفسه، والله -عز وجل- يقول: **{الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ}** [النور: ٢٦].

ابن جرير يحمل ذلك على الكلمات، كلمات الخبيثات للخبيثين، تصدر مِمن هو أهل لها، مِن موضعها ومعدنها(٢).

فيبتعد الإنسان وينأى عن هذا وإن كانت الآية أعم من ذلك، فهي -والله أعلم- تشمل الكلمات والأوصاف والذوات، يعني: النساء، والرجال كذلك.

ومن هنا فلا داعي للهبوط بالعبارات، وإنما يتلطف الإنسان علّ ذلك أن يقبل، النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول لأحد أقطاب المشركين، يخاطبه بكنيته: **((أَفَرَغت يا أبا الوليد؟))**(٣)، حينما حاوره عتبة بن ربيعة، وهو من عتاة المشركين وكبرائهم.

كذلك حينما دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- مكة، قال: **((من دخل دار أبي سفيان فهو آمن))** كلمة تحقق مصلحة، الرجل يحب الفخر، وهو سيد من سادات هؤلاء، وقال في الوقت نفسه: **((ومن دخل داره فهو آمن))**(٤).

إذًا دخول دار أبي سفيان لا قيمة له، "من دخل داره فهو آمن" يعني: دخل في بيته هو، بيت الإنسان، كل واحد يدخل في بيته فهو آمن إذًا ما الحاجة للذهاب إلى دار أبي سفيان؟ لكن لها وقع في نفس أبي سفيان فقالها -عليه الصلاة والسلام.

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٥).

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان (١٤١/١٩).

(٣) الاعتقاد للبيهقي (ص: ٢٦٧)، وسيرة ابن هشام (٢٦١/١).

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، جماع أبواب السير، باب فتح مكة حرسها الله تعالى (١٩٩/٩)، رقم: (١٨٢٧٤).

وهكذا حينما كتب لملك الروم وصفه بأنه عظيم الروم[1].

فما توجد حاجة أن يوصف هذا المخالف بأنه خنزير الروم، أو أنه كلب الروم، أو نحو ذلك، إذا كنا نريد استمالة هذا الإنسان، أو دعوة هذا الإنسان، أو إصلاح حال هذا الإنسان، فهذه تحتاج إلى حكمة، وتحتاج إلى قلب كبير، وتحتاج إلى تربية، نفوس مهذبة، تحتاج إلى حسن نظر في الأمور، وتحتاج إلى مجاهدة لهذه النفس التي قد يثقل عليها استخدام العبارات اللطيفة واللائقة.

أحيانًا بعض الناس قد يثقل عليه أن يكني صديقه، أو أن يكني ولده، بعض الناس يثقل عليه أن يقبل رأس والده، أو والدته، عنده كبر داخلي، ويقول: لو فعلت سيستغربون، هو متعود على الجفاء، يستغربون منه البر واللطف والإحسان، فما تطيعه نفسه، إذا أراد أن يكني صاحبه، أن يكني جليسه، أن يكني كذا نفسه ما تقبل، يناديه باسمه، هذا جفاء، أخلاق صحراوية، والله المستعان.

خامساً: أن نبتعد عن حال ذاك الذي قال لقومه: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى} [غافر: ٢٩].

هناك متسع فلا داعي للتعامل مع الناس بهذه الطريقة، الناس يفكرون ويجتهدون، فيهم علماء، فيهم عقلاء، أمّا أن أحمل الناس على رأيي، ويجب أن ينقادوا له، وإلا فهم مخالفون وأرميهم بالقبائح، فهذا لا يليق، والله المستعان.

تجد الإنسان أحيانًا ينتقد غيره، ينتقد عسف فلان، أو تضييق فلان، وحجر فلان على غيره، وتجد حاله مع الناس أسوأ من ذلك، والله المستعان.

سادسًا: في هذه المسائل التي فيها مساغ لا داعي لاستعمال العبارات القوية.

نحو: هذا الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، هذا الحق الذي لا مرية فيه، هي مسألة اجتهادية، رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأيك خطأ يحتمل الصواب، عبارات علماء كبار أمثال ابن الجزري في مسائل دقيقة في تخصصهم تجد عبارات: الذي أظنه -يعبر هكذا، يعبر بالظن- أن هذا هو الأرجح، فنجد أننا أحيانًا نستعمل عبارات خاصة حينما نقرأ كلام أهل العلم أحيانًا، ونريد أن نلبس ثوبًا ليس لنا، ثم بعد ذلك تأتي هذه العبارات في ثنايا الكلام، في ثنايا الكتابة، ويلاحظ أن هذه الكلمة كبيرة ما تركب على قائلها، مثل الطفل إن لبس ثوب أبيه، فالثوب حسن على أبيه، ولكنه قبيح على هذا الولد، يثير الضحك والتندر، ولربما يتعثر به فيسقط وينكسر، فهكذا الذي يلبس ثوبًا ليس له، ويستخدم عبارات لا تُحتمل منه، خَفف خفف، لطّف.

سابعًا: مما ينبغي أن نحاذره: أن نبتعد عن بعض العبارات المنفوخة.

نجد أننا نتكلم أحيانًا عن شخص نحبه: من فطاحل العلماء، وقد يكون طالب علم، لكن ما وصل إلى مرتبة الرسوخ كما قالوا، ونعطيه ألقابًا، لربما قلنا عنه: إنه فقيه العصر، أو إنه محدث، أو حافظ، كم يحفظ؟ ستمائة ألف حديث؟

---

(١) وجاء عند مسلم بلفظ: ((من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن)) انظر صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة (١٤٠٧/٣)، رقم: (١٧٨٠).

الإمام أحمد –رحمه الله– سئل: إذا حفظ الرجل مائة ألف حديث يكون فقيها؟ قال: لا، قال: فمائتي ألف؟ قال: لا، قال: فثلاثمائة ألف؟ قال: لا، قال: فأربعمائة ألف، قال بيده هكذا، وحرك يده[1].

أحيانًا لربما نصف كتابًا، أو مقالًا: مقال محرر، كتاب في الصميم، وتقرأ الكتاب تجد عليه ملاحظات كثيرة، فيه إشكالات، يحتاج إلى تحرير، فيه عبارات ليست محررة، واضح أن الكتاب ما نضج، كان ينبغي ألا يخرج الآن، فيه ملاحظات لغوية، فيه ملاحظات علمية، لكن هؤلاء بعين الرضا، أو لربما أنهم لم يتأهلوا للتمييز، وما رأوا شيئًا فظنوا أن هذا الكتاب ما بعده، أو بُهروا بطالب العلم هذا، فظنوا أن هذا البحر الحبر العلامة الفهامة الفقيه المحدث الحافظ، هذا لا داعي له.

بعض العلماء كان يقول عن نفسه: أنا طويلب علم مقصر، في مقدمة لمحاضرة: معنا فضيلة الشيخ الـ...، قاطع المقدم وقال: أنا طويلب علم مقصر، لا داعي للتزيد.

فمثل هذا نبتعد عنه، ولربما تتغير أراؤنا حينما ننمو من الناحية العلمية، والفكرية، والعقلية، الإنسان يمر بمراحل إذا استمر في العلم، الكتاب الذي كنت تعجب به، وتقول: هذا الكتاب جيد، وتنصح دائمًا به، والناس يبحثون عنه، ولا يجدون له طبعة أحيانًا، ويكون نادرًا، وكذا، تقرؤه بعد عشرين سنة، أو كذا، تقول: عجيب! أنا كيف كنت معجبًا به، هذا كله نقولات من كلام الحافظ ابن حجر في الفتح، ومن شروح المتأخرين، وما فيه جديد، كيف كنتُ معجبًا بهذا الكتاب؟ لا جديد فيه، ومن قبل تُطريه في كل مجلس، كتاب هذا أفضل –لاحظ كلمة أفضل– شروح الكتاب الفلاني، وبعد مدة تقرأ الكتاب مرة ثانية، تقول: غريب! كيف كنت معجبًا به؟

أحيانًا تظن الكلام الجيد الجميل هذا كلام هذا المؤلف، بعد مدة تنمو المدارك، وكذا يتبين لك أن هذه الأشياء الجميلة هي من الكتاب الفلاني الذي سبقه في التفسير، أو في شرح الحديث، أو في الفقه، أو في غير ذلك، فتزهد في الكتاب، طيب كنتَ أوصلته إلى القمة، فعلى الأقل الآن لا توصل هذا الكتاب إلى الحضيض.

فمدارك الإنسان تنمو، ثم يغير بعد ذلك رأيه، إذًا لا تكن ضحية لمثل هذا، فعليك بالتوسط في الأمور، عليك بالتوسط.

ثامنًا: الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة، الخطأ في الإحسان مقدم على الإساءة، ومن ثَمّ فإن الخطأ في المدح أيضًا أهون من الخطأ في القدح.

تاسعًا: لا تتتبع العيوب والزلات والعورات والأخطاء.

كما يقول ابن فرحون المالكي: فاتق الله، وليردنّك عيب نفسك عن عيوب الناس، ولا تكن كمثل الذباب الذي لا يقع على المواضع السليمة من الجسد، ويقع على الجروح فينكيها[2]. لا تكن بهذه المثابة.

عاشرًا: الزم الحذر، وأمسك عليك لسانك.

أمسك عليك لسانك، انظر ماذا يقولون عن هؤلاء الكبار، الربيع بن خثيم –رحمه الله– قال عنه بعضهم: "ما أرى الربيع بن خثيم تكلم بكلام منذ عشرين سنة إلا بكلمة تصعد"[3].

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣٦/١).

(٢) ذكر نحو هذه العبارة ابن الجوزي في بحر الدموع (ص: ١٢٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٥٩/٤).

تصعد يعني: هو يحسب الحرف، يزن الحرف، لا يطلق لسانه.

وقال آخر: "صحبت الربيع عشرين عامًا ما سمعت منه كلمة تعاب"[١]، ما فيه كلمة عوجاء.

هذا يقول: "جالست الربيع بن خثيم سنين فما سألني عن شيء مما فيه الناس -يعني ما عنده فضول- إلا أنه قال لي مرة: أمك حية؟"[٢].

يعني: ما ينشغل بفلان من أين له الفيلا؟، فلان هذه سيارته؟، فلان أين يشتغل؟.

كان يقول: "كل ما لا يراد به وجه الله يضمحل"[٣].

انظر إلى مثل هؤلاء القمم، لو أراد الإنسان أن يحسب ما يجري على لسانه وقلبه وجوارحه، أين هو من هؤلاء؟ بون شاسع كبير.

ابن مسعود -رضي الله عنه- قال لبعض الأشخاص: إنه سيأتي عليك زمان -يعني إن مُد في العمر- كثير خطباؤه، قليل علماؤه، كثير سُؤّاله، قليل معطوه، الهوى فيه قائد للعمل.

الشاهد: قال: متى ذلك؟ قال: "إذا أميتت الصلاة، وقبلت الرُّشى، وبيع الدين بعرض يسير من الدنيا، فالنجا ويحك، ثم النجا"[٤].

يقول بعض أهل العلم: إن ما ذكر في هذا الخبر وغيره شاهد وحاضر، يعني: في عصرهم، يقول: "هؤلاء أجمعوا -يعني السلف- على التحذير من زمانهم وأهله، وأمروا بالعزلة، وتواصوا بها، ولا شك أنهم أبصر وأنصح، وإن الزمان لم يكن بعدهم إلا أشد وأمر"[٥].

وذَكر عن يوسف بن أسباط قال: سمعت الثوري يقول: "والله الذي لا إله إلا هو لقد حلت العزلة في هذا الزمان". ويقول بعض من جاء بعدُ من أهل العلم، يقول: "قلت أنا: ولئن حلت في زمانه ففي زماننا هذا وجبت وافتُرضت"[٦].

يقول سفيان الثوري أيضًا: إنه كتب إلى عبّاد الخواص: "أما بعد، فإنك في زمان كان أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم- يتعوذون بالله من أن يدركوه فيما بلغنا، ولهم من العلم ما ليس لنا، فكيف بنا حين أدركناه على قلة علم، وقلة صبر وقلة أعوان على الخير، وكدر من الدنيا، وفساد من الناس؟"[٧].

يعلق على هذا السنوسي في حاشيته على مسلم يقول: "قلت أنا: فكيف لو رأى هؤلاء الأئمة -رضي الله عنهم- زماننا هذا الذي أدركناه -والله المستعان، وإليه المشتكى، ولا حول ولا قوة إلا بالله- وهو آخر القرن التاسع الذي آن فيه خروج الدجال، وطلوع الشمس من مغربها، ونحو ذلك من الأشراط الكبرى، فإن زمانهم، وإن كان على ما

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الطبقات الكبرى (٢٢٢/٦)، وسير أعلام النبلاء (٢٥٩/٤).

(٤) مكمل إكمال الإكمال للسنوسي (٢٨٨/١).

(٥) مكمل إكمال الإكمال للإمام أبي عبد الله محمد بن يوسف (٢٨٨/١)، وشرح صحيح البخاري، للسنوسي ص: (٢٣٣/١).

(٦) المصدران السابقان.

(٧) أخبار الشيوخ وأخلاقهم، للمروذي (ص: ١٨٥).

كان عليه فلم يخل من ظهور علماء عاملين، ولا من وجود أولياء في معاملتهم صادقين، بحيث يجد المسكين الطالب للآخرة من يصح الاقتداء به في أقواله وأفعاله، ويجد من يعينه على عزمه، والزيادة في أحواله[1]. إلى آخر ما ذكر.

ومن ثم أقول ما ذكره شيخ الإسلام –رحمه الله–: إن الحق كالذهب الخالص، كلما امتُحن ازداد جودة، والباطل كالمغشوش، إذا امتحن ظهر فساده، فالدين الحق كلما نظر فيه الناظِر، ونَاظَر عنه المُناظِر ظهرت له البراهين، وقوي به اليقين، وازداد به إيمان المؤمنين، وأشرق نوره في صدور العالمين، والدين الباطل إذا جادل عنه المجادل، ورام أن يقيم عوده المائل، أقام الله –تبارك وتعالى– من يقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق....[2] إلى آخر ما قال.

فأبشروا وأملوا، الدين محفوظ، والله –تبارك وتعالى– تكفل بذلك، وسيبقى حتى يظهره الله –تبارك وتعالى– على الدين كله، ولكن هذه مثل العواصف العارضة التي تعبر، وتمضي، كما مضت في القرون الماضية.

تلك الصور التي ذكرناها من حال أولئك المنحرفين، كان في المقابل سواد كبير من أهل الحق والدين والعلم، وأئمة المسلمين ونَصَحَة لله –تبارك وتعالى– ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم.

فنحن حينما ننظر إلى مثل هذه الوقائع والقضايا، فنحن لا نضخمها، ولا نعطيها أكثر مما تستحق، وإنما ننظر إليها من أعلى بنظر صحيح، فيكون لكل شيء القدر الذي يليق به، يوجد خير كثير، يوجد فضاء واسع، يوجد مجال رحب للدعوة إلى الله، والبر والمعروف، يوجد أخيار صلحاء من أهل العلم، ومن الدعاة، ومن المصلحين، ومن الباذلين والقائمين بأعمال البر المتنوعة، يوجد من العبّاد وغيرهم، وهذا أمر مشاهد لا يخفى، ولله الحمد.

ولكن في الوقت نفسه حينما ننظر نستعرض التاريخ فإنما نقصد بذلك ألا نقع، ألا نشتط، ألا نجرب على أنفسنا، أن نعتبر بما مضى، وإلا لو قدر أن نتحدث عن قضايا أخرى، ونذكر الجوانب المشرقة في تاريخ الأمة لكان أوسع من هذا بكثير، إنما هذه مثل الندوب السوداء فقط في صفحة بيضاء.

ولكننا استعرضناها، وتكلمنا عن هذه القضايا من أجل أن هذا مقام تحذير من الفرقة والاختلاف، فيُذكر من التاريخ ما تحصل به العظة والعبرة، فترتدع النفوس، وكل مقام له مقال، وإلا فالجوانب الطيبة، جوانب البر والمعروف في سالف الأمة وسابقتها عظيمة وكبيرة وواسعة، ويوجد في عصرنا هذا، وسيأتي رجال هم في أصلاب آبائهم ينصرون أيضًا هذا الدين، ويحملونه، ويدعون إليه، ويذبون عنه.

هكذا سنة الله –عز وجل– صراع بين الحق والباطل، لكن يخاف المؤمن على نفسه، فهذا الكلام الذي أذكره هو كلام محب مشفق ناصح، ما أتيت يومًا من الأيام هنا إلا وعرضت كلامي على نفسي، أين أنا من هذا الكلام الذي أقوله؟ وماذا أعني به؟ وماذا أقصد؟ فليس عندي في هذا إلا النصيحة لنفسي ولإخواني.

---

(١) مكمل إكمال الإكمال للسنوسي (٢٨٨/١)، وشرح صحيح البخاري، للسنوسي ص: (٢٣٤/١).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٨٨/١).

اسمع هذا الكلام، وانظر فيه، وليس هذا من تحليلاتي ولا استنتاجاتي، حرصت أن أورد كلام هؤلاء الأئمة الأعلام مع النصوص، وهذا هو التأصيل، أن نورد الأدلة من الكتاب والسنة، ولا نتكلم بأشياء ننشئها من عند أنفسنا، ومن استنتاجاتنا، وآرائنا، واجتهاداتنا، ونطالب الناس بها.

أتيت بكلام الأئمة الفحول الذين نجُمع عليهم، وأعرضت قصدًا عن كلام المعاصرين، مع كثرة العلم والخير والفضل، ولكني أعلم أن بعض القلوب تغيرت، فما أردت أن أنقل كلامًا لأحد من أهل العلم لربما يكون سببًا لانصراف بعض من يبلغه هذا الكلام، أو بعض من يسمع هذا، فإن المقصود أن نعتبر، وأن ننظر، فإن وجدنا حقا قبلناه، وإن وجدنا غير ذلك تركناه.

ولن تعدم في هذا الكلام الطويل المفصل في كلام على مسألة كهذه، تُطرح عادة في درس، أو مجلس واحد أو محاضرة، لن تعدم شيئًا تنتفع به، والحكمة ضالة المؤمن.

فينبغي أن يظهر أثر ذلك علينا، أن يظهر أثر هذا علينا بضبط اللسان، بضبط الجوارح، الأشياء التي ننشرها، الأشياء التي نقرؤها، المجالس التي نحضرها، مواقفنا من الآخرين، حتى يلقى العبد ربه -تبارك وتعالى- وهو نظيف.

ونصيحتي لكم التي أنصح بها نفسي: كن نظيفاً، خرجتَ إلى هذه الدنيا وأنت على الفطرة، ليس هناك أدناس، وليس هناك ذنوب، اخرج من هذه الدنيا نظيفًا، لا تحمل مظالم للمسلمين، لا تحمل غلا في قلبك، لا تتلوث ببدع وضلالات وانحرافات، واعلم أن التوبة من الذنوب والمعاصي إن كان ذلك فيما يتعلق بحقوق الناس ومظالمهم، فإن ذلك لا يكفي إلا مع استحلالهم، ولابد من دفع الثمن، الثمن هناك هو الحسنات والسيئات.

فإن الإنسان يكون قليل البضاعة، ضعيفًا يكسل عن قيام الليل، وعن صيام النهار، وعن تلاوة القرآن، ثم بعد ذلك أيضًا يقع في عرض هذا، ويظلم هذا، ونحو ذلك، وقلبه مليء من الغل على إخوانه المسلمين، ثم يأتي إلى الآخرة، ويأخذ هذا من الحسنات على قلتها، وهذا من الحسنات، وهذا من الحسنات، ويعيش في عذاب ونكد، هذا القلب المظلم بالغل.

انظروا إلى أهل الجنة لما قال الله -عز وجل-: **{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ}** [الأعراف: ٤٣]، فدل على أن الجنة لا يصلح فيها إلا النعيم، فالغل يعذَّب به صاحبه، فمن نعيم أهل الجنة أنه لا يوجد فيها غل، فلماذا يعذب الإنسان نفسه؟!.

ولذلك فإن من أقرب الطرق لإزالة ذلك ما قاله النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئٍ مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم))**[1].

فلو كان هناك تواصل، وتناصح مباشر فإن ذلك يُذهب ما في القلوب، لكن إذا بقي الكلام بين الجدران فإن ذلك يورث الغل، لا يتغير واقع هذا الإنسان المنحرف، أو المخطئ سواء كان طائفة، أو شخصًا، أو غير ذلك، هو بعيد بمنأى عنا، لكن نحن نوقد نارًا، وقلوبنا هي التي تصطلي، هل هذا من العقل؟

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب العلم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع (٤/٣٣١)، رقم: (٢٦٥٨)، وابن ماجه، باب من بلغ علمًا (١/٨٤)، رقم: (٢٣٠).

فأسأل الله –عز وجل– أن يلطف بنا، وأن يحفظنا وإياكم من مضلات الفتن، وأن يرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، ولا يجعله ملتبسًا علينا فنضل.

اللهم ارحم موتانا، واشفِ مرضانا، وعافِ مبتلانا، واجعل آخرتنا خيرًا من دنيانا، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه.